تاريخ مصر
من الفتح العثماني

(الى قبيل الوقت الحاضر)

مع نبذ فى أخبار بعض الأمم التى ارتبطت بمصر فى ذلك العهد

تأليف

عمر الاسكندرى و سليم حسن

الموظفين بوزارة المعارف العمومية

وراجعه

الكبتن ا . ج . سفدج

الموظف بالوزارة المذكورة

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م



محمد على باشا

رأس الاسرة المحمدية العلوية

(عن صورة بدار الكتب السلطانية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يَقصُّ الحق ، من أنباء ما قد سبق ، والصلاة والسلام على محمد أفضل مَن صدق فيما نطق ، وعلى آله ضياء الغَسَق ، ونظام النَسَق . وبعد فهذا الكتاب يُعتَبر كجزء ثان لأول — هو « تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » — غير أن السابق ، لتطاول عصوره وتعدد أجياله ، كان مجمل العبارة ، لطيف الإشارة ، وهذا اللاحق ، لتقارب العهد بحوادثه ، وتعاظم العبرة بوقائعه ، صار مسهب القول فى جملة أغراضه عامة ، وفى حوادث مصر الهامة خاصة

وهو باتّباعه هذه الخطـة يطابق منهاج دراسة التاريخ لتلاميذ السنة الثانية من المدارس الثانوية المصرية ، مُلمًّا بوقائع يحتّمها المقام ويوجب سردها المنهاج اجمالاً وإن لم يُصرِّح بها تفصيلاً ، كما أنهُ بمزاياه المعهودة النظير فى صِنْوِه يُفسح الرجاء لأن يقبل عليهِ غير التلاميذ من القراء

وقد استقى هذا الكتاب من أوثق كتب التاريخ المعتبرة عربية وفرنجية أهمها :

تاريخ ابن اياس ، تاريخ القرمانى ، تاريخ الاسحاقى ، دولة المماليك للاستاذ السير وليم ميور ، تاريخ تركيا للاستاذ استانلى لينبول ، تاريخ أوربا (مجموعة — رِڤنْجِتُون) ، الترك العثمانيون تأليف كريسى ، اضمحلال الدولة الإغريقية واستيلاء الترك على القسطنطينية تأليف إذْوِن پيرْز ، دائرة المعارف البرطانية ، القاهرة وبيت المقدس ودمشق للاستاذ مَرْجوليوث ، دليل دار الآثار العربية ، تحفة الناظرين للشيخ الشرقاوى ، حقائق الأخبار عن دول البحار لصاحب السعادة اسماعيل باشا سِرْهَنْك ، قصة القاهرة للاستاذ استانلى لينبول ، مصر فى القرن التاسع عشر تأليف كَمِرون ، نابليون

فى مصر تأليف الحاج براون ، الانقلاب المصرى تأليف پيتُن، تاريخ الجبرتى ، البحر الزاخر لمحمود باشا فهمى ، مذكرات عن محمد على تأليف مَرِى ، محمد على ومصر تأليف سنت چون ، خطط على باشا مبارك ، بعض كتابات ألِسُن فِلِب ، « الخديوية » تأليف دَيْسى ، « مصر » تأليف البارون دى مَلْرْتى ، مصر والخديوى تأليف إدْوِن ديليون ، تكوين التاريخ الأوربى تأليف هُلَنْد رُوز ، دليل دار الآثار المصرية ، مصر الحديثة للورد كرومر ، الاقتصاد السياسى للطلبة المصريين تأليف الاستاذ طُد ، تاريخ القناطر الخيرية تأليف الماجور براوُن ، تكوين مصر الحديثة للسير أوكلَنْد كُلْـفِن ، انجلترة فى مصر تأليف مِلْنَر ، تقارير معتمدى برطانيا العظمى فى مصر

هذا وان عظيم الشكران وجزيل الثناء لمن كان لهم آثار مساعدة فى تجميل رونق هذا الكتاب بالصور البديعة ، وأجدرهم بالذكر حضرة البارع الدقيق على افندى يوسف الموظف بتنظيم القاهرة

وفى نية المؤلفين اعداد كتاب فى جزءين فى تاريخ أوربا الحديثة وآثار حضارتها وفى الرجاء أن ينتهى الجزء الأول منهما قريباً ان شاء الله تعالى ؟

وحرر بالقاهرة فى ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦

عمر الاسكندرى

الباب الأول
عهد الدولة العثمانية

الفصل الأول
الفتح العثمانى لمصر

العداوة القديمة بين مصر وتركية

كانت الدولة العثمانية منذ استتبّ سلطانُها بآسيا الصغرى على تصادُق ومصافاة لدولة المماليك الجراكسة المصرية ، تدور بين سلاطينهما رسائلُ الوداد وعقودُ المهادنة . وابتدأ ذلك من عصر السلطان الظـاهر برقوق المصرى ومُعاصِره السلطانِ يَلْدِرِمَ « بايزيدَ » العثمانى

الحرب بين بايزيد الثانى وقايتباى

وبقيت هذه الحالُ مَرْعيَّة الى زمن السلطان « بايزيد الثانى » ابن محمد الفاتح ، إذ نازعه أخوه الأميرُ « جَمّ » فى الملك ، فقاتله بايزيد وهزم جيوشه ، وفرّ جم الى الأشرف قايتباى سلطان مصر ملتجئاً فأجاره ، وطلب بايزيد تسليمه اليه فلم يجبه قايتباى ، فحقد عليه . وانضم ذلك الى النزاع القائم بينهما على إمارة أبناء ذى الغادر* (التى كانت فى حماية مصر ثم تدخّلت الدولةُ العثمانيةُ فى شؤونها وادعت حمايتها) ؛

* وهى احدى الدول التركمانية التى أسست على انقاض دول التتار ورأسها قراجا بن ذى الغادر وقد استولت على اكثر أرمينية وكردستان وديار بكر وخضعت أخيراً للمصريين فكان لا يتولى أمير منها الا باذن صاحب مصر

ثم ان أحد أمرائها التجأ الى العثمانيين مستنصراً فنصروه وولوه الامارة افتياتا على المصريين ، بل أمدوه بما انتصر به على ولاة مصر فكان ذلك سبباً للنزاع بين الدولتين المصرية والعثمانية

والى ما بلغ بايزيد من أن قايتباى أخذ من رسول ملك الهند هدايا كان أرسلها الى السلطان بايزيد . فاتخذ بايزيد من كل ذلك ذريعة الى اعلان الحرب على الدولة المصرية ، فجهز جيشاً عظيماً توغّل فى البلاد الشامية الى قرب حَلَب حيث التقى بِهِ جيشٌ للمصريين ، فكانت الهزيمةُ على العثمانيين . فأتبعه بجيش آخر كانت عاقبته كسابقه. وزحف الجيش المصرى على البلاد العثمانية فالتقى بجيش جرّار عثمانى ، فكانت الحرب بينهما سِجالاً مدة انتهت بالصلح والمصافاة ، إلاَّ أنها صارت سبباً لتجسيم التنافس والتزاحم بين الدولتين على الاستئثار بالعظمة و بسط النفوذ والزعامة على الممالك الاسلامية

صلح غير دائم

اسباب جديدة للعداوة

من أجل ذلك لم يدم هذا الصلح طويلاً ، اذ أخذ العثمانيون من جهة يحرضون القبائل والامارات التابعة لمصر على التخلص من سيادتها ، ويضعون العراقيل فى سبيل تجارتها مع غربي آسيا وأواسطها ، مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفِرَاء الفاخرة والمماليك الجراكسة الى البلاد المصرية نادراً جداً بل ممتنعاً فى أواخر أيام الغورى . وكان أشدَّها على المصريين امتناعُ ورودِ الرقيق من المماليك ، اذ هم مادّةُ الجيش ورجالُ الحكومة . ومن جهة أخرى أخذ سلاطينُ مصر يُجيرون كلَّ من التجأ اليهم من أبناء السلاطين العثمانيين والأمراء الفارّين من وجه الدولة العثمانية ، ثم استرسلوا فى الأمر وهبُّوا يُوادّون مَنْ عادى العثمانيين من سلاطين الدول المجاورة لهم ، مثل (أُوزون حَسَن) سلطان العراق ثم بعده الشاه اسماعيل الصَّفَوِيّ (المؤسس الثاني لدولة ايران الحالية) وغيرهما . ولم تزد هذه المُوادّة على اكثرَ من تبادُل المراسلات مع أن الشاه حاول جعلَها محالفة دِفاعٍ وهجومٍ فلم يُفْلح لبُعد ما بين الأمتين فى المذهب ، وذلك من اغلاط الغورى . واستطار شرر هذه الإحن والأحقاد بسماح الغورى بأن يمر بطريق الشام الوفدُ الذى أرسله الشاهُ اسماعيلُ الى مملكة البُنْدُقية ليعرِضَ عليها أن يتحدا معاً على محاربة العثمانيين ، و بإجارة السلطان الغورى للأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم الأول العثمانى ، واجارة الشاه اسماعيل للأمير

حقد سليم على فارس ومصر

مراد أخى قاسم ، وكان السلطان سليم أراد قتلهما ، فطلبهما منهما فلم يجيباه . فكان ذلك (الى خوفه من استفحال دولة الفرس الجديدة أو تحول المودة القليلة بين مصر وفارس الى حِلفٍ سياسى وتناصُرٍ حربيٍّ) سبباً لاعلان سليمٍ الحرب على الفرس أولاً ثم على مصر ثانياً

محاربة فارس

ولما زحف السلطان سليم على بلاد الشاه اسماعيل وهزمه هزيمة منكرة أراد أن يكتسح جميعَ بلاده ويقضى على البقية من دولته . فوجد الشاهَ أتلف كلَّ ما خلفه فى مدنه وقلاعه من المؤونة والذخائر ، وانتظر سليم ورود غيرها من بلاده ، فعلم أن قبائل التركمان وامارة الغادرية التابعة لمصر قد أغارت على قوافله ومنعت وصولها اليهِ ، فقلّت الأقوات فى معسكره واضطرب الجيش ، فحرَمه ذلك ثمرة انتصاره

مساعدة مصر لفارس

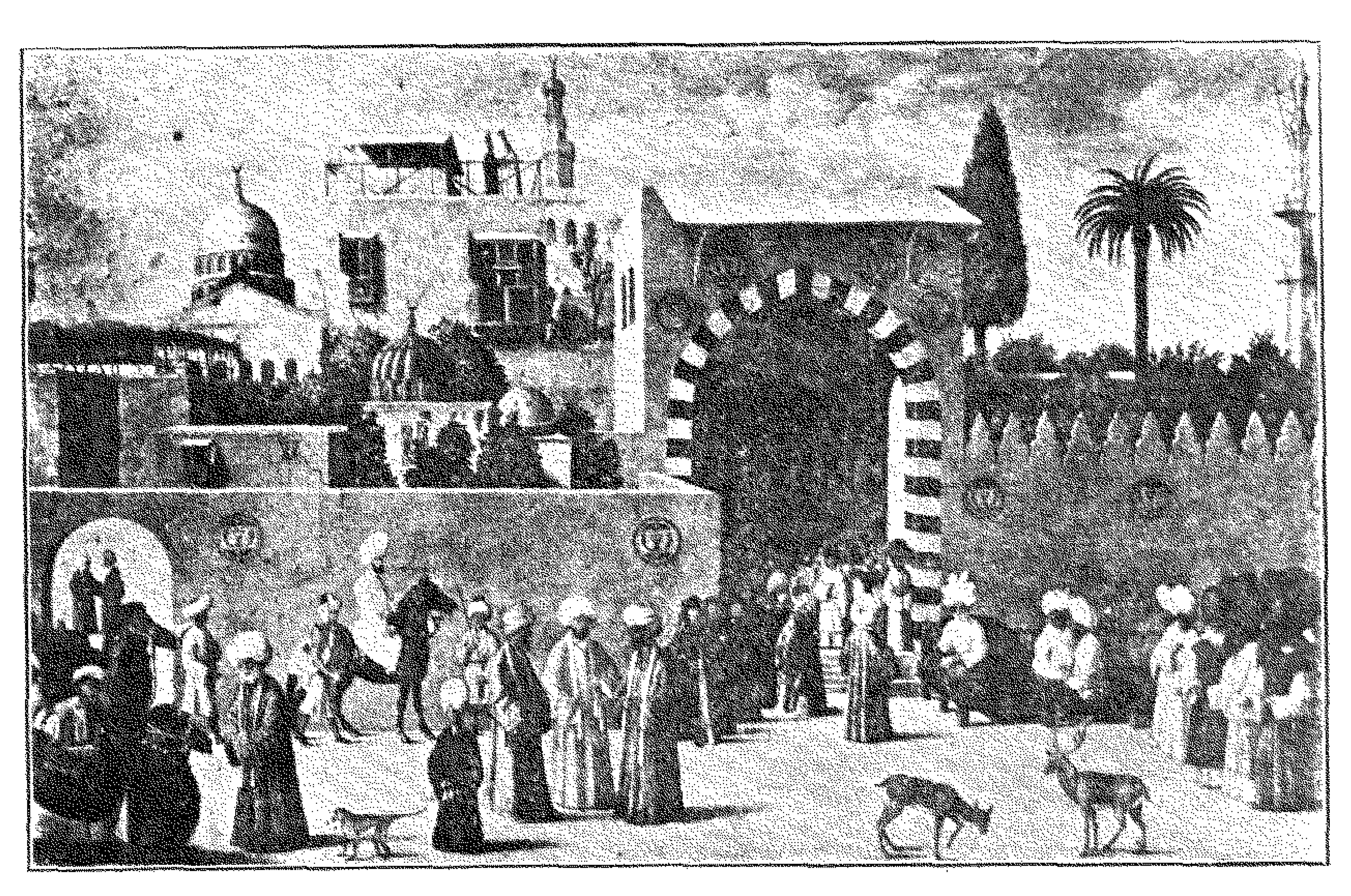
هذه كل المساعدة التى قامت بها مصر للشاه ، مع أنها لو سيّرت جيشاً يقطع خط الرَّجعة على العثمانيين لكان التاريخُ على غيرِ ما هو عليهِ . فاضطرَّ سليمٌ الى الرجوع الى بلاده منتقِماً فى طريقه من امارة الغادرية ، فقتَل أميرَها علاء الدين وضمَّ بلادَه الى ملكه ، وولى غيرَه من أبناء اسرته الغادرية . واحتجَّ الغورى على ذلك ، فقابل سليم احتجاجهُ بارسال رأس علاء الدين اليه . وحينئذٍ علم الغورى أن الحرب واقعة لا محالة ، فاستعد لملاقاته بتجهيز جيش عزم على أن يقوده بنفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : فان الشاه اسماعيل لم يعد فى القوة التى كانت له قبل : فقد هلكت أبطاله ، وتشتّت شملُ رجاله ، وخرَبت بلادُه ، فأمن السلطان سليم غائلته وتفرغ لحرب مصر . ومع كل هذا كان من الممكن انتفاع الغورى بما بقى للشاه من القوة ، ولكنهُ لم يفعل أو لم يُقنع الشاه بضرورة ذلك

استعداد الغورى للقتال

أراد الغورى أن يستجمع كل ما عنده من قوة العَددَ والعُدّة . وكانت موارد الثروة قد نضَبتْ بمصر لقطع البُرتقالِ طريقَ التجارة الهندية عليها ، فلم يَكَدْ يَهُمُّ بجمع المماليك حتى تخاذلوا وتعللوا عليهِ بقلة النفقة المصروفة لهم وما هم فيهِ من العُسر . وكان الفسادُ قد دب فى أخلاقهم ، وقلّتْ وطنيّتُهم ، وجرّأهم على ذلك مَيْلُ الغورى

الى مماليكه الخاصة الذين جلبهم لنفسه واتخذهم عُدَّةً له يتقوى بهم على المماليك القدماء اذا هموا. بهِ وبعد تساهلٍ من الطرفين أمكن الغورىَّ أثناءَ شتاء سنة ١٥١٥م (٩٢٢هـ) إعدادُ جيش يخرج بهِ الى حدود آسيا الصغرى ، فجمع فى هذا الجيش على قلته اكثر مَن فى مصر من رجال القوة الحربية والأدبية : فخرج فيهِ الخليفة العباسى ، وقضاة المذاهب الأربعة ، ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء والأعيان ، ورؤساء المغنين والموسيقيين والمضحكين وأرباب الصناعات وغيرهم. وترك بمصر حامية من المماليك تقدر بنحو الفين ، وأناب عنهُ الدَّوادارَ الكبيرَ « طومان باى » ابن أخيه . وبلغه أن الأسطولَ العثماني يقصِدُ الاسكندرية ، فعزّز حاميتها ، وحصَّن قلاعهـا بنحو مائتى مدفع . وخرج من القاهرة بموكب عظيم تتقدّمهُ الطبولُ والزُّمور وتُدَق أمامَه الكؤوس . خرج بهذا الجيش فى شدَّة حمارَّة الصيف على غير عادة الملوك فى خروجهم ، فقاسى

خروج الجيش المصرى الى الشام



السلطان الغورى فى حاشيته — [وهو الجالس عن يمين الباب]
(رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الآثار العربية)

الجنودُ الأهوالَ والشدائدَ فى اجتياز صحراء طورسيناء وأوْدِية فِلَسْطِين ، ودخل كلَّ مدينة فى الشام بموكب عظيم وخاصَّةً مدينةَ دِمَشْقَ وحَلَب وحَماة

خروج الجيش العثمانى

وخرج السلطانُ سليم من القسطنطينية بجيش عظيم مُدرَّبٍ على الحرب ذكر بعضُهم أنهُ يبلغ ١٥٠ الف مقاتل مسلّحين بكثير من المَكاحِل والمدافع والبُنْدُقيات . فلما صار على حدود الشام أراد أن يَكيد للمصريين بمكيدتين ، نجح فى احداهما وأخفق فى الأخرى :

خدع سليم للغورى

ففى الأولى تمكن من أن يستميل اليهِ « خيْر بك » نائب حلب من قِبلِ مصر و « جان بَرْدِي الغزَالى » نائب حماة ، ووعد الأول بولاية مصر والآخر بولاية الشام ومع أن نائب الشام وغيرَه أخبروا السلطان الغورى بخيانة خير بك لم يعبأ بكلامهم لِما يرى من شدة تواضعه واخلاصه

رسل سليم للغورى

وفى الثانية أراد أن يخدع الغورى بصَرْفه عن القتال وأخذِه على غِرة ، فأرسل اليهِ أولاً أثناءَ برُوزه من القاهرة بتوسُّط الخائن نائب حلب رسالةً يعتذر فيها عما فرط منه فى شأن البلاد التابعة لمصر ويعدُه بأن يُعيدها اليهِ ويفتح طريقَ تجارة الرقيق والصوف والفِراء ، وبالجملة يفعل كل ما يطلبه الغورى . وكاد الغورى وأمراء عسكره يُخدعون بذلك لولا مراعاتهم جانب الحيطة بالخروج الى الشام . وأرسل اليهِ ثانية وهو بحلب رسلاً عليهم أحد قواده وقاضى « عسكر الروم ايلى » يصرفون الغورى عن قصده ، ويؤكدون إخلاص سلطانهم له وشدة رغبته فى المهادنة والصلح بشرط أن لا يتدخل الغورى بينــه وبين الشاه اسماعيل الذى لم يقصد سليم بخروجه غيرَه والذى أفتى علماء القسطنطينية بجواز حربه وقتله لرَفْضِه وخروجه عن شعائر أهل المِلّة . فأكرمهم الغورى وسيّرهم معزَّزين الى معسكر سليم ، وأرسل اليهِ رسله صحبة أمير كبير من المصريين يعرض عليهِ توسُّطَه فى الصلح بينهُ وبين الشاه . فغضب سليم وهمَّ بقتل الرسول ، فَشُفِع فيهِ فأطلقه مُهاناً مُشَعثاً ، وقال له قل لأستاذك : ان اسماعيل الصفوى خارجيٌ وأنت مثلُه ، وسأبدأ بك قبله ، وموعدنا « مرجُ دابق » (على بعد يوم شمالى حلب) . فخرج الغورى فى نحو ثلاثين الف مقاتل ، وخلّف أمواله وذخائره فى قلعة حلب الحصينة فى حامية لها . فلما كان صبيحة يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢

واقعة مرج دابق

(وهو اليوم الذى سقطت فيه الدولةُ المصريةُ من عالم الدول المستقلة العظيمة) دهمَه العثمانيون بجيش يربو على الجيش المصرى بأضعاف، فعبأ الغورى كتائبه. وكان من غلطاته الكبرى فى خَرْجَته هذه أنهُ آثر مماليكه الخواصَّ (الذين اشتراهم بماله) بكل كرامــة ورعاية وإنعام، وقصَّر فى استجلاب مودة المماليك القدماء من عتَقِ السلاطين والأمراء، حتى شاع بينهم أن السلطان يريد أن يجعلهم أمام مماليكه الخواص ليكونوا دَرِيئةً لهم من مدافع العثمانيين التى تفوق مدافع المصريين عظماً وسرعةَ قَذْفٍ وبُعْدَ مرمًى. ففسدت نيَّاتُ بعضهم، وانضمَّ ذلك الى خيانة «خير بك» و«جان بَرْدى الغزالى»

فلما التقى الجمعان حملت الميمنةُ والقلبُ حملة أزالوا بها العثمانيين من مواقفهم، وقتلوا منهم بضعةَ آلاف، واستولوا على كثير من أعلامهم ومدافعهم، وكادت الغلبةُ تكون للمصريين، وهمَّ السلطان سليم بالهرب، لولا أن خير بك انهزم بكتيبته (وكان على الميسرة)، وتبعهُ جان بردى الغزالى، فاختل نظام الجيش المصرى. واتفق أن وصل للعثمانيين فى ذلك الوقت مدد من المدفعيــة، وظهر كمين لهم أحاط بالجيش المصرى. ورأى المماليكُ القدماء من المصريين أن المماليكَ الخواصَّ لا يقاتِلون، ففترت هممُهم وَوَهَنَتْ عزائمهم، وتخاذلوا، ولم يصبروا على نيران المدافع العثمانية، فركنوا الى الفرار، وبقىَ السلطان الغورى فى جماعة قليلة يناديهم ليعودوا فلم يلتفتوا اليه، ففُلِج لساعتهِ، وسقط عن جواده. ولما شاع موتهُ فى العسكر تفرَّقوا، واستولى العثمانيون على مُعَسكرهم، وغنِموا منهُ ما لا يُحصى، ولم يوقف للغورى على أثر، واستمرت الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر. ولما رجع المنهزمون الى حلب انقلب عليهم أهلها، واستولوا على ودائعهم عندهم، وفتكوا بهم، فلاقوا منهم شرًّا مما لاقوا من العثمانيين. وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلَّموه المدينة، واستولى على قلعتها بدون قتال، وغنم منها ألوف الألوف من الأموال والذخائر، وخُطِب باسمه فى مسجدها، وانضم اليهِ خير بك وغيره من المماليك الخوَنة، وحلقوا لحاهم أو قصروها، وتزيوا بزى

موت الغورى

العثمانيين . ثم ذهب السلطان سليم الى دمشق ، فاستولى عليها ، ودانت له جميع مدن الشام بلا مُنازع . ومكث بها مدةَ ثلاثة أشهر يُرتِّبُ نظامها ، ويُحكِمُ أمورها

عودة الجيش الى مصر

أما بقية المنهزمين من المصريين فرجعوا الى مصر في حالة يرثى لها ، ورجع معهم جان بردى الغزالى وكأنَّهُ قصد برجوعه الى مصر أن يَفُتَّ في عَضُدِ المصريين ، ويكون عوناً وجاسوساً للعثمانيين ، وكانت أفعاله كلها فى مصر ترمى الى ذلك ، لأنهُ خرج عَقِبَ دخولهِ مصر بحملة الى الشام ليُنقِذ غزةَ من العثمانيين ، ففرق عساكره فى البلاد ، ولم يلاق العثمانيين الاَّ بفئة قليلة لم تلبث ان انهزمت ، وكانت هزيمتهم سبباً فى فشل طومان باى (الذى خلَّفه الغورى سلطاناً على مصر) فى تأليف جيش عظيم آخر يدافع عن القاهرة .

طومان باى يحاول المقاومة

فقد كابد فى جمعه مشقات عظيمة ، وتخاذل المماليك واشترطوا عليهِ شروطاً أشدَّ مما اشترطوا على الغورى ، وبَقُوا فى خلاف : هل يحاربون العثمانيين على حدود جزيرة الطور وهم منهوكو القوى من قطع الصحراء أو فى شمالى القاهرة ، حتى دهمتهم جيوش العثمانيين وصارت على مقربة من القاهرة . فخرج طومان باى فى جيش مختلط من جميع أجناس المحاربين ، وأسرع فى حفر الخنادق ونصب المدافع فى ظاهر الرَّيدانيَّة (صحراء العباسية وعين شمس الى بركة الحجِ) .

واقعة الريدانية

وكان يظن أن الجيش العثماني يقابله وجهاً لوجه فيها ، فكان غيرُ ما ظنَّ ، إذ لم يَكَدْ الجيشان يتلاقيان يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ حتى افترق الجيش العثمانى لكثرته الى ثلاث فِرَق : فرقة كانت وِجهتها المصريين بالريدانية ، وفرقة سارت تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بهم من اليمين الى الخلف ، وفرقة سارت الى جهة بولاق وأحاطت بهم من الشمال . وصبر المماليك ساعةً قُتل فيها عدد عظيم من العثمانيين وقوادهم ، منهم سِنان باشا اكبر القواد والوزراء للسلطان سليم ، ولم يدم ذلك إلاَّ رَيْثَما تمت حركة الالتفاف ، وعندها وُجهت المدافع والبنادق على المصريين من كل صوب ، ولم يكن لهم نظيرها ، فلم يسعهم إلاَّ الفرارُ .

دخول العثمانيين القاهرة

وصبرَ طومان وجماعة صبرَ الأبطال ، ولكنهم اضطروا أخيراً الى الفرار الى الجيزة . وسار العثمانيون الى القاهرة فدخلوها فِرَقاً ونزل السلطان سليم بمعسكره

الخاص على ساحل بولاق والجزيرة الوسطى* ولم يدخل المدينة . وبقى كذلك الى يوم الثلثاء رابع المحرم سنة ٩٢٣ هـ . فلما كانت ليلةُ الأربعاء خامس الشهر لم يشعر السلطان سليم بعد صلاة العشاء إلاّ وقد هجم عليهِ فى معسكره السلطان طومان باى بمن التف حوله من المماليك . فاختل نظام المعسكر واختلط الحابلُ بالنابل ، وساعد المماليكَ كثيرٌ من العامة والغوغاء ونُوتيةُ بولاق . فما بزغ الفجر حتى قُتل من العثمانيين خلق كثير . ثم جاءت فرقة أخرى مدداً للمماليك بقيادة الدوادار الأمير علاّن من جهة الناصرية ، وحَمِي وَطيسُ القتال بين الفريقين من بولاق الى الناصرية ، وملك المماليك اكثر المدينة بعد أن قتلوا الألوف فى شوارعها وحاراتها من العثمانيين المتفرقين ثم جمع العثمانيون شملهم وطردوا المماليك من حى بولاق الى قناطر السباع (السيدة زينب) حتى تحصنوا (المماليك) بحى الصليبة وحفروا الخنادق حولهم من جميع الجهـات . وخطب يوم الجمعة للسلطان طومان باى على منبر جامع شَيْخون وغيره ، واستمر القتال كذلك أربعة أيام بلياليها من ليلة الأربعاء الى صبيحة يوم السبت ٨ المحرم . فحاصر العثمانيون حى الصليبة من كل جهاته ، واشتد الأمر على المماليك فتخاذلوا وتسللوا عن السلطان طومان باى . فبقى يقاتل فى نفر من المقدَّمين الأمراء وبعض العبيد ، حتى اذا لم يبقَ للدفاع فائدة فرَّ الى بركة الحبش . (بين الساحل القبلى بمصر القديمة وبين معادى الخبيرى) وعدى من ساحل طره الى ضفة النيل الغربية بالجيزة . واستولى العثمانيون على المدينة مرة أخرى . وطلع السلطان سليم الى القلعة بعد ذلك بعشرة أيام ، واستحوذ على ما فيها من الأموال والذخائر . وبقى بالقلعة نحو شهر شاع فى خلاله ان طومان باى صار فى عسكر عظيم ممن تراجع اليه من المماليك والتف حوله من عرب الصعيد ، وانه قادم الى القاهرة

مجهودات طومان باى الاخيرة

القتال فى شوارع القاهرة

عرض الصلح

وبعد أيام جاءت رسل من عند طومان باى الى السلطان يعرضون عليه الصلح بأن تكون مصر تحت سيادة العثمانيين فى الخطبة والسكة والخراج ، وأن يكون

* هى الجزيرة التى أمام قصر النيل

طومان باى نائباً عن سلطان العثمانيين فى مصر، فقبل ذلك السلطان سليم، وأرسل اليه وفداً من قضاة مصر وأعيانها وبعض المقدمين. فلما وصلوا الى السلطان طومان باى بجهة البهنسا ثار المماليك بطومان باى، ولم يرضوا بالصلح وقتلوا بعض رجال الوفد، فلم يسع طومان باى الآ مجاراتهم مكرهاً، وتقدم الى بلاد الجيزة لينازل العثمانيين فى موقعة فاصلة، فاجتاز السلطان سليم اليه النيل بجيوشه. والتقى الجيشان بقرب «وردان» يوم الخميس ١٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فدارت الدائرة أولاً على العثمانيين وقتل منهم مقتلة عظيمة. الآ أن نيران المدافع والبندقيات العثمانية مزقت جيش المصريين المختاط (الخالى يومئذٍ من اكثر المعدات الحربية) كل مُمزَّق، فكانت هذه الموقعةُ الخامسةُ هى ختام الوقائع الحربية التى دافع بها المماليكُ المصريون عن بلادهم، ولم يقم لهم بعدها قائمة إلاّ ما كان من استبداد بعض سلائلهم بشأن مصر كما سيأتى

واقعة وردان

أما السلطان طومان باى فإنهُ لما فرَّ من وجه السلطان سليم ذهب الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة المدعو «حسن بن مرعى» وكان له عليهِ أيادٍ عظيمة، فاختفى عنده واستحلفه أن لا يخونه، ولكنهُ نقض الحلف وكاشف السلطانَ سليماً بأمره، فأرسل اليهِ عسكراً قبضوا عليهِ متنكراً فى زى الأعراب، وجاءوا بهِ الى السلطان سليم فحين رآه قام له وعاتبه ببعض الكلام وبقىَ معهُ فى معسكره سبعةَ عشر يوماً يحضُر مجلِسَهُ ويسائلهُ السلطان سليم عن شؤون مصر وادارتها وسياسة أهلها وكيفية ريّها وجباية خراجها وبقية أمورها، مما جعل طومان باى يطمئن اليهِ ويظن من إقباله عليهِ أنهُ سيكون نائباً عنهُ فى ملك مصر

القبض على طومان باى

غير أن ذلك كان استدراجاً من السلطان سليم، إذ بعد ما وقف منهُ على كل ما أراد أمر فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) بأن يعودوا بطُومان باى الى القاهرة فدخلوا به وهو بزىّ الأعراب من جهة شارع أمير الجيوش الى البرقوقية، حتى اذا صار تحت باب زَوِيلة أنزلوه عن فرسه. وكان لايدرى ماذا

قتل طومان باى

يُصنع بهِ ، فلما رأى الحبال مُدلاّة من حَلْقة الباب علم أنهُ مشنوق ، فتشهد وقرأ الفاتحة وسأل الناس أن يقرءوا له الفاتحة ، وشُنق بين ضجيج الناس عليهِ بالبكاء . وبقى مصلوباً ثلاثة أيام ، ثم أُنزل ودُفن خلف مدرسة الغورى (جامع الغورى) ، وكان له من العمر نحو ٤٤ سنة . ولم يُشنق ممن حكم مصر من الخلفاء والسلاطين سلطان غيره

السلطان سليم في مصر بعد الفتح

أما السلطان (سليم) فانهُ أقام بمصر نحو ثمانية أشهر فكان معسكره أول الفتح ببولاق والجزيرة الوسطى . ثم أقام بالقلعة نحو شهر ثم بمدينة الجيزة وامبابه قريباً من شهر ثم أقام بجزيرة الروضة والمقياس مدة . ثم توجه بجنده الى مدينة الاسكندرية ، فكانت

السلطان سليم — فاتح مصر

(رسم على افندى يوسف)

مدة غيابه وايابه ١٥ يوماً . ثم رجع وأقام بجزيرة الروضة وبُنِيَ له بها بجانب المقياس في طرف الجزيرة الجنوبي جَوْسَق من الخشب أقام به بقية المدة الا زمناً يسيراً أقامهُ ببيت الأشرف قايتباى المطل على بركة الفيل

وفى أثناء اقامته بمصر سنَّ لها بعض أنظمة ادارية ، ونقل الى القسطنطينية اكثرَ ما فى القلعة ومنازلِ الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومُركَّباته

ونفى من مصر الى القسطنطينية كل أبناء السلاطين واكثر المقدمين والأمراء والخليفة العباسى بعد ما تنازل له عن الخلافة واكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمرة بمصر

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمعوا منهم نحو الف صانع ونقلوهم الى الأستانة ليذيعوا الصناعات الدقيقة فيها ، فرجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقى آخرون . قيل انهُ بطل فى مصر بذلك نحو ٥٠ صناعة ، فكان كل ذلك سبباً فى تأخر مصر فى الصناعات

أما ولاية مصر فاختار لها السلطان سليم أثناء اقامته اكبر وزرائه « يونس باشا » والياً عليها ، ثم رجع عن ذلك قبيل سفره من مصر وولى عليها ملك الأمراء « خير بك» وولى على الشام (جان بردى الغزالى)

وباستيلاء السلطان سليم على مصر صارت البلاد جزءاً من الدولة العثمانية

ويجدر بنا قبل الكلام على حكم العثمانيين فى مصر أن نذكر شيئاً عن منشئهم ونهوضهم ، وأهم الحوادث فى تاريخهم أيام حكمهم فى مصر ، حتى نكون على علم بأهم الأحوال التى أحاطت بمصر فى ذلك العهد

الفصل الثانى

نبذة فى تاريخ الدولة العثمانية

١ — ﴿ منشأ العثمانيين ونهوضهم ﴾

الجنس التركى — العثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولى المعتبر من أعظم الأجناس البشرية عدداً . وأصل منشئه « بلاد منغولية » ، ومنها انتشر غرباً وشمالاً وتشعبت منه فى آسيا امم وقبائل استقلت بنفسها وصار لبعضها ملك كبير : مثل أمة « الهون » المفتتحة شرقى أوربا يقودها زعيمها « أتيلاً » ، ومثل دولة الأتراك السلاجقة[1] المستبدة بملك العباسيين ، ومنهم الدولة المعروفة بسلطنة الروم السلجوقية ، وقد سبق ذكرها فى الكلام على الحروب الصليبية[2]

وفى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر المسيحى) قامت المغول دولة وثنية قوية بقيادة زعيمهم العظيم « جنكيزخان » ثم حفيده « هولاكو » ، فاكتسحت ممالك آسيا الوسطى والغربية ، وقوضت عرش الخلافة العباسية ، وأتت من فظائع التقتيل والتخريب ما لا ينساه التاريخ . وكانت القبائل التركية الاسلامية تفر من وجوههم مؤثرين الهجرة على الخضوع لجورهم . ومن هذه القبائل قبيلة صغيرة تدعى « الاغوز » ، خرجت من ديارها فى أواسط آسيا وغربت حتى وصلت الى آسيا الصغرى التى بقى جزء منها وقتئذٍ فى حوزة السلاجقة : تلك هى القبيلة التى نشأت منها الدولة العثمانية

ارطغرل — وبينما تتجول هذه القبيلة فى آسيا الصغرى برأسها كبيرها «أرطغرل» إذ وجدت

---

(١) سموا السلاجقة نسبة الى « سلجوق » رئيس القبيلة التى نشئوا منها

(٢) كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثمانى (صحيفة ٢٢١)

جيشين يقتتلان أحدهما من المُغول ، والآخر من السلجوقيين . فانضمت الى الجيش الذى كاد ينهزم ، وهو السلجوقى ، فانتصر بها على المغول وطردهم من بلاده . فرأى السلطان السلجوقى « عَلاء الدين » وجوبَ مكافأة « أرطغرل » على معونته له ، فأقطعه قطعة من الأرض قرب مدينة « بُرُوسة » على تخوم أملاك الدولة الرومانية الشرقية تسمى « إِسكى شَهِر » (سُلْطانونى) . فكانت مهد الدولة العثمانية ، وفيها وُلد « عثمان » بن « أرطغرل » الذى تُنسب الدولة اليه

عثمان

ولد عثمان سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فنشأ مولعاً بالحرب مُظَفّراً فيها ، فانتزع فى صباه من دولة الروم الشرقية مدينة « قَرَهْ حِصار » وغيرها . فمنحه سلطان « قونية » لقبَ « بك » ورقّاه الى مرتبة الأمراء

وفى سنة ٦٩٩ هـ . (١٣٠٠ م) قضى المغول على البقية الباقية من الدولة السلجوقية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحكموا تلك البلاد بأنفسهم ، فاستقلت فيها عشرُ إمارات تركية ، إحداها إمارة « عثمان » الذى اعتبر من ذلك الحين المؤسس للدولة العثمانية وأول حاكم مستقل فيها . أمّا باقى الإمارات التركية فاندمجت فى هذه الإمارة على توالى الأيام ، وسمّوا أنفسهم عثمانيين أيضاً

فتح بروسة

وأخذ عثمان ينظّم أملاكه ويوسع نطاقها فى الجهة الغربية ، فاستولى على كثير من أملاك الدولة الرومانية الشرقية . وقبل وفاته فتح ابنه « أُرْخان » مدينة « بروسة » بعد حصار طويل ، فصارت بعدُ حاضرةً للدولة

أرخان

وفى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) خلف عثمان ابنُهُ « أرخان » (٧٢٦ — ٧٦١ هـ : ١٣٢٦ — ١٣٥٩ م) ، فواصل الحرب على الدولة الرومانية الشرقية ، فافتتح منها « نيقوميدِيَة » و « نِيقِيَة » (أزْنيق) وكثيرًا من البلاد الأسيوية التى كانت لم تزل فى حوزتها . ثم جنح « أرخان » الى السلْم ، فقضى نحو ٢٠ عاماً بلا طَعْن ولا نِزال ، عُنى فيها بتثبيت دعائم ملكه فى البلاد التى فتحها ، وإصلاح الحكومة وتنظيم الجيش . وقد كان لعمله الأخير أكبر أثر فى اتساع رُقعة المملكة وتأييد مجدها ،

وذلك بفضل إنشاء طائفة « الإِنكِشارِيَّة » (العسكر الجديد) ، التى كوَّنها وعُنى بتدريبها حتى صارت أهم فرقة فى الجيش

الانكشارية ومنشأ هذه الطائفة ان الدولة كانت تأخذ كل عام نحو ألف صبى من أبناء النصارى الذين قُتل آباؤهم فى الحرب ، وتلقنهم الدين الإسلامى ، وتُرَبّيهم تربية عسكرية منظمة ، منطبقة على أدقّ القواعد الحربية التى امتاز بها الترك فى ذلك الزمان ، حتى صارت هذه الطائفة لا مثيل لها فى القوة والإقدام والمرانة على الحرب. وكان يُفتح أمامهم طريق الرقىّ الى أكبر المناصب فى الدولة ، فعُدّ ذلك أكبر مشجع لهم على الطاعة وخوض غمار الحروب ، وبقى هذا النظام متبعاً نحو ثلاثة قرون . غير أنه تسوهل فيه أُخرَيات هذه المدة ، فكانت الجنود الجدد تجمع من الاسرات التركية ، ومن أبناء الانكشارية أنفسهم . ولما طال عليهم الأمد استأثروا بالسلطة ، وأساءوا استعمالها ، وأصبحوا منبع الشغب والقلاقل فى الدولة ، فقضى عليهم السلطان محمود الثانى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٦ م (١٢٤١ هـ)



بعض ضباط الانكشارية

(رسم على أفندى يوسف)

ولما أتمّ « أرخان » تنظيم الجيش وإصلاح الشؤون الداخلية عاد الى العمل على توسيع نطاق أملاكه ، فأغار على الشاطىء الأوربى ، واستولى فيه على مدينة «غَلِيبولى» وغيرها من المدن شمالى مضيق الدردنيل (٧٥٨ هـ : ١٣٥٧ م) ، فكان ذلك مبدأ الفتوح العثمانية فى أوربا ، التى أخذت من وقتئذٍ تزداد وتعظم ويقفو بعضها بعضاً

مبدأ الفتوح العثمانية باوربا

ولما تولى الملك « مراد الأول » ابن أرخان (٧٦١ — ٧٩٢ هـ : ١٣٥٩ — ١٣٨٩ م) همَّ بمواصلة تلك الفتوح ، فأخضع معظم بلاد « الرُّومَلىّ » (الروم ايلى) واستولى فيها على « أدِرْنَة » (التى أصبحت عاصمة جديدة للدولة) و « فِلِبُّو بُولِيس» (فِلِبَة) ، وغيرهما من المدن العظيمة ، فضاق بذلك نطاق أملاك الدولة الشرقية

مراد الأول

اخضاع الروملى

وهال هذا الفوزُ الكبيرُ أمراءَ أوربا . فعزموا على ردّ الترك الى بلادهم فى آسيا ، فخرج لذلك الوجه ملوك « البوسنة » (البُشْناق) و « المجَر » و « الصّرب » بجيش عظيم ساروا به الى « أدِرْنة » . فهزمهم الترك شر هزيمة سنة ٧٦٥ هـ ، (١٣٦٣ م) ثم قفوا على أثر ذلك بإخضاع « بُلْغاريا » ، وضمها إلى أملاكهم سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٨ م) . فعاوَد الفزَعُ إمارات أوربا الشرقية ، وتحالفوا على قهر مراد . فسار الى الصرب ليردّهم ، فالتقى بهم فى واقعة « قُوصُوَة » الشهيرة سنة ٧٩٢ هـ (١٣٨٩م) ، فاصطلم جيوشهم اصطلاماً . إلاّ أنه قُتِل على أثر الموقعة : طعنه صِربى ثار به من بين القتلى . وكانت نتيجة تلك الواقعة أن دخلت « الصرب » أيضاً فى حوزة الدولة العثمانية

اخضاع بلغاريا

والصرب

ولم تكن غزوات مراد قاصرة على أوربا ، بل كان سيل جيوشه يتدفق على آسيا : فاستولى فى أوائل حكمه على مدينة « أنْقِرَة » ، وواصل بعدُ فتوحه فيها ، فاندرجت أربع من الإمارات العشر التى قامت على أنقاض دولة السلاجقة فى سلك الأملاك العثمانية

ثم خلفه ابنه « بايَزيد الأول » (٧٩٢ — ٨٠٥ هـ : ١٣٨٩ — ١٤٠٢ م) ، فلم يقلّ عن أبيــهِ مهارة وإقداماً . فأخضع باقى الإمارات التركية فى آسيا ، ووطّد

بايزيد الأول

أركان دولته فى أوربا ، وزاد عليها كثيرًا من مدن الرومَلّى ، التى كانت لم تزل بعد فى يد المسيحيين

حرب صليبية أخرى تثار على العثمانيين

من أجل ذلك عمَّ الهول والفزع معظمَ الأوربيين ، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم فى أوربا ، وقامت بها ضجّة دينيّة للحضّ على غزاتهم . فقام البابا يدعو الناس باسم الدين الى مقابلتهم ، وخرج لذلك جيش أوربى عظيم بقيادة « سِجِسْمُنْد » ملك المجر ، ضم بين كتائبه كثيراً من فرسان فرنسا وألمانيا . وكان بايزيد إذ ذاك غائباً فى آسيا ، ففاز الأوربيون فى بادئ الأمر ، واستردوا من الترك كثيراً من المدن ، ثم شرعوا فى حصار مدينة « نيقوبوليس » ، وهى من أمنع المدن على نهر « الطونة »

واقعة نيقوبوليس

فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم ، فهزمهم هزيمة تُعَدّ من أنكر الهزائم التى دوَّنها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوشهم الا النزر اليسير ، سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م)

وشرع بايزيد بعد واقعة نيقوبوليس هذه فى غزو بلاد اليونان ، فأخضع منها « تِساليا » و « أبيروس » ، وكان على وشك التأهب لفتح القسطنطينية ، التى طالما تاقت نفسه ونفسُ الفاتحين من المسلمين لغزوها ، لولا أن داهمتْه غارة التّتار على أملاكه الأسيوية بقيادة الجبَّار الشهير « تيمُورْلَنْك » . فخرج بايزيد لصدّه ، وتقابل الجيشان فى « أنْقِرَة » سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، فكانت الهزيمة على العثمانيين ، وأُخذ بايزيد أسيرًا* ، فبقى فى أَسره حتى مات كمداً بعد ذلك بثمانية أشهر

واقعة أنقرة

وقد كادت هذه الهزيمة تكون قاضيةً على العثمانيين ، لولا أن هلَك « تيمورلنك » وتشتت شمل دولته إثر وفاته . وكان لبايزيد أربعة أولاد ، بقوا عشر سنين يقتتلون من أجل العرش

محمد الأول

ثم انتهى الأمر بتغلب أحدهم « محمد الأول » (٨١٦ — ٨٢٤ هـ : ١٤١٣ — ١٤٢١ م) ، فكان من خيرة سلاطين آل عثمان : لمَّ شعث الدولة بعد أن مزّقها « تيمورلنك » ، وكبح جماح الإمارات التى كانت أخذت تتمرد على

---

* من الأقاصيص المتداولة أنه وضع فى قفص من حديد

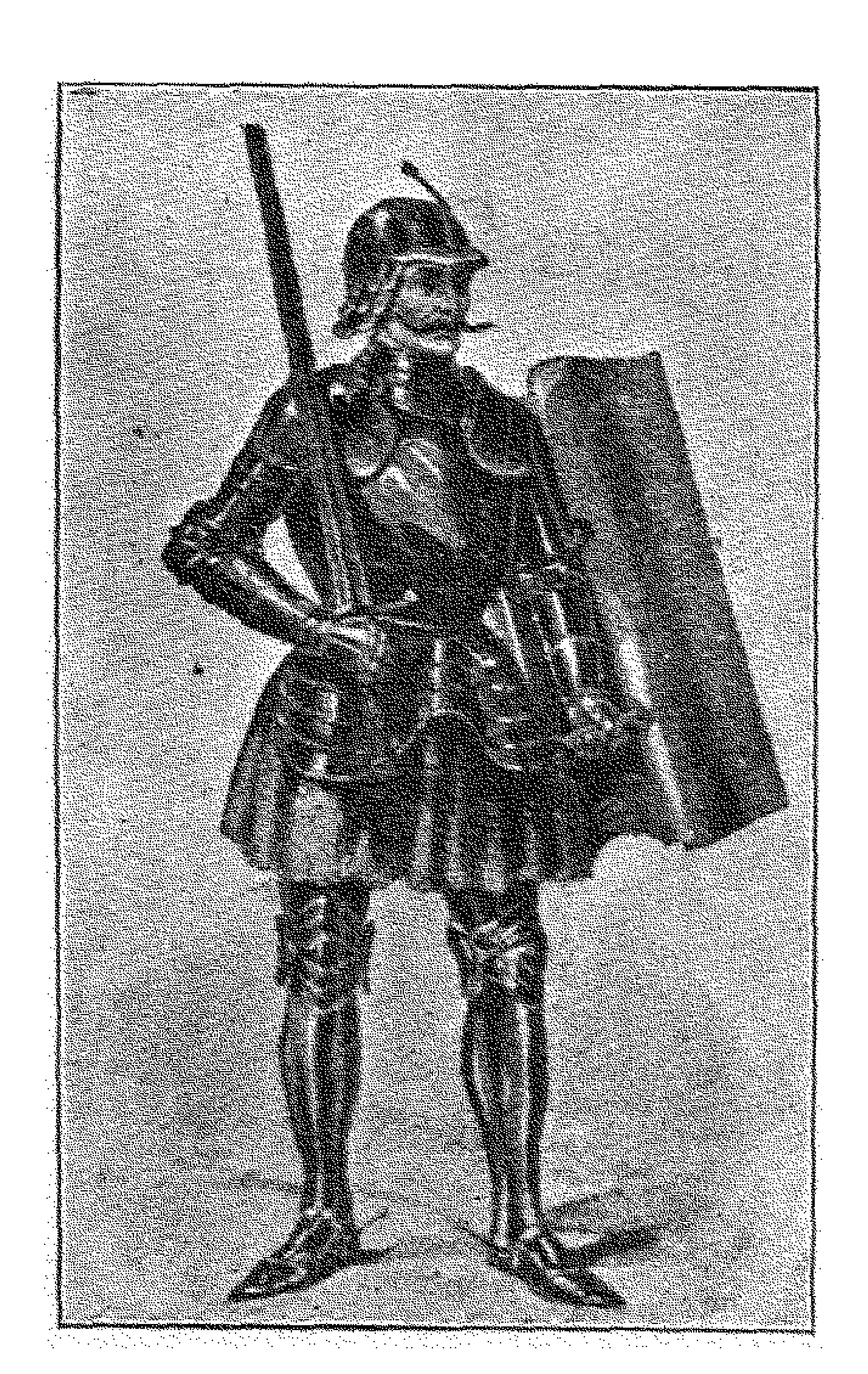
الدولة لِمَا رأتهُ من انهزامها الشنيع ، وأصلح ما أفسدتهُ الفتن التى حدثت بينهُ وبين إخوته قبل خلوص الملْك له . ولم يمض عليهِ ثمانية أعوام حتى استرجع الدولة كل ما كان لها قبل واقعة أنقرة . فكان ذلك من أمجد ما وعاه التاريخ للدولة العثمانية

مراد الثانى

ومات السلطان « محمد الأول » سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) فى الثالثة والثلاثين من عمره ، فخلفه « مراد الثانى » (٨٢٤ — ٨٥٥ هـ : ١٤٢١ — ١٤٥١ م) ، فعمل على مواصلة الفتوح التى وقَّفتهـا غارة تيمور لمك . وكان إمبراطور دولة الروم الشرقية قد مالأ أحد المطالبين بالملْك من أبناء مراد ، فقابل ذلك مراد بمحاصرة القسطنطينية ، وقد كاد يفتحها لولا انه اضطر الى فض الحصار عنها لإخماد ثورة أثارها عليه فى آسيا أحد اخوته

غارة هونياد

ثم قامت بأوربا نهضة جديدة لإخراج العثمانيين من هذه القارة . فخرج لذلك جيش جرار : جُمعت كتائبه من ممالك أوربية عديدة ، يقوده « هُونْياد » القائد المجرى العظيم ، الذى لم يرَ الترك قبل ذلك أحداً من المسيحيين فى بأسه وبطشه . فاكتسح الجيش كل شيء أمامه حتى اجتاز جبال البلقان ، فاضطر السلطان مراد الى عقـد مهادنة مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، على أن يتنازل عن الصرب ويعطى « بلاد الأفلاق » للمجر (معاهدة إزِّجِدِن سنة ٨٤٨ هـ : ١٤٤٤ م)



هونياد المجرى

(عدو الترك العنيد)

ثم رأى مراد أن يستريح من عناء الملْك ، فتنازل عن العرش لابنه « محمد الثانى »

واقعة ورنة (وكان حديث السن)، وأقام بآسيا يطلب الراحة . فلما رأى المسيحيون ذلك طمعوا في الدولة، فنقضوا عهدهم، وزحفت جيوشهم بقيـادة « هونياد » على الأراضي العثمانية، واستولت على كثير من حصون بلغاريا . فلما علم مراد بذلك رجع الى الملك وسار بجيش اليهم . وكانوا قد استولوا على « وَرْنَة »، فالتقى بهم خارج المدينة في معركة فاصلة، انتهت بانهزام المسيحيين هزيمة شنيعة، وقُتل فيها بعض ملوكهم وأمرائهم سنة ٨٤٨ هـ (نوفمبر سنة ١٤٤٤ م) . وكان العثمانيون أثناء الموقعة يحملون في جملة أعلامهم لواءً معلقاً عليه صورة من المعاهدة، تَذْكِرَةً للأعداء بغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق . ثم أتم مراد إخضاع البوسنـة والصرب، ومات عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م)، فترك لابنه محمد الثاني ملكاً واسعاً ثابت الأركان

تولى « محمد الثاني » الشهير بمحمد الفاتح (٨٥٥—٨٨٦هـ : ١٤٥١—١٤٨١م) وهو في الحادية والعشرين من عمره، فبادر بالتأهب لفتح القسطنطينية، وأعدّ لذلك المعدّات العظيمة . وفي سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) تمَّ له فتحها بعد أن أعيا كثيراً من ملوك المسلمين قبله، فقضى بذلك على دولة الروم الشرقية القضاء الأخير . ويُعدُّ فتح القسطنطينية من أهم الحوادث التاريخية . كما يعتبر عام فتحها (٨٥٧هـ : ١٤٥٣م) مبدأ التاريخ الحديث

٢ — ﴿ اضمحلال الدولة البوزنطية * ﴾

وسقوط القسطنطينية في يد العثمانيين

ذكرنا في كتاب « تاريخ مصر الى الفتح العثماني » أن قسطنطين الأكبر نقل عاصمة الدولة الرومانية الى مدينة « بوزنطة » على شواطئ البوسفور سنة ٣٣٠ م،

* أي الدولة الرومانية الشرقية . سميت البوزنطية نسبة الى بوزنطة الاسم القديم لمدينة القسطنطينية . وتعرف أيضاً بالدولة « الاغريقية » لانطباع المسحة الاغريقية فيها قبل نقل العاصمة اليها بمدة طويلة

وأنها سُمّيت من ذلك الحين بالقسطنطينية منسوبة اليهِ . وفى سنة ٣٩٥ م تم تقسيم الدولة الى قسمين : الدولة الغربية ، وعاصمتها رومية ، والدولة الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية

فلم تعمّر الدولة الغربية طويلاً لكثرة غارات الأمم المتبربرة عليها ، اذ استولى عليها القوط سنة ٤٧٦ م

أما الدولة الشرقية فلبثت نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسّلاف وغيرهم ، كما صدت غارات الفرس والعرب عن حاضرتها نفسها ، وعن معظم أوربا . ولكنها لم تستطع الدفاع عن اكثر أملاكها خارج أوربا : فقد رأينا كيف نزع العرب من يدها شرقى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر و برقة وافريقية وجزائر البحر الأبيض الشرقية

أنهكت كل هذه المكافحات قوى الدولة وفتّت فى عضدها ، إلى أن دخلت عليها عوامل فناء أخرى شديدة كان فيها القضاء على البقية الباقية منها . وهذه العوامل الجديدة ترجع الى ثلاثة حوادث عظيمة وهى : —

(١) غارة الصليبيين على القسطنطينية فى احدى حروبهم الصليبية التى شنوها على المسلمين ، وتأسيسهم دولة لاتينية بها استمرت نحو ٦٠ عاماً (٦٠٠ — ٦٦٠ هـ : ١٢٠٤ — ١٢٦١ م)

(٢) مهاجمة الترك لأملاكها من كل جانب

(٣) انتشار الوباء العظيم المعروف بالموت الأسود

أما غارة الصليبيين على القسطنطينية فبيانها أن حملة صليبية كبيرة خرجت من غربى أوربا سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) للاغارة على مصر (قلب الدولة الاسلامية فى ذلك الحين) ومرت الحملة فى طريقها على القسطنطينية ، فطمعت فى ثروتها العظيمة وأملاكها الشاسعة ، ورأى رجالها من ضعف الدولة الرومانية ما شجّعهم على ذلك . فنسوا غرضهم الأصلى ، واستولوا على القسطنطينية ، وأسسوا بها دولة تُعرف بالدولة ١ . غارة اللاتين

اللاتينية نسبةً الى لغتهم . وبقُوا بها نحو ستين عاماً خرّبوا فيها كثيراً من البلاد، ونهبوا معظم نفائسها القديمة، ونقلوها الى بلادهم . ولم يُحدثوا فى البلاد أى إصلاح أثناء اقامتهم بها، لجهلهم نظام الملك وادارة شؤون حكومة منتظمة مشيَّدة على أساس مكين مثل حكومة الدولة الرومانية . وكانت البلاد فى أيامهم (لاختلافهم فى الرأى وتنافسهم فيما بينهم) ميداناً للفتن والقلاقل الدائمة . أما إمبراطور الروم فانهُ انحاز الى آسيا الصغرى، وجعل مقر ملكه فى « نيقية » التى ما زالت حاضرة للروم حتى انتهزوا فرصة ضعف الصليبيين فى سنة ٦٦٠ ﻫ (١٢٦١م) واستردوا القسطنطينية، وأعادوا اليها مقر ملكهم

(ا) نقص ينابيع الثروة

على أن الدولة لم تتخلص من كل ما لحقها من أذى هذه الحادثة، فإن تشتّت شملها أثناء حكم اللاتين كان قد ذهب برجالها الملمّين بالقوانين وأنظمة الحكومة، فلاقت صعوبة كبيرة فى تشييد ما هدمه الصليبيون من جديد . وإن انتشار الفتن فى البلاد هذه المدة حمل الكثيرين على المهاجرة من الأرض فباتت خراباً بلاقع بعد أن كانت من أخصب بقاع الدنيا، واضطر أيضاً أصحاب المتاجر التى كانت تمر بين الشرق والغرب عن طريق البسفور الى تحويل متاجرهم الى جهات أخرى أكثر أمناً وأقلّ اضطراباً

(ب) الفتن الدينية

ثم لما رجع مقر الدولة الى القسطنطينية، وحاول قياصرتها إصلاح ما فسد منها، وجدوا من المنازعات الدينية والاضطرابات الداخلية بين أهل الدولة أكبر عقبة فى تحقيق أمنيتهم . فإنهم لما علموا أن الصليبيين عازمون على إعادة الكرة عليهم لجئوا الى التودد الى « البابا » ليدفعهم عنهم . فوعدهم هذا بمدّ يد المساعدة فى ذلك، وفى رد غارات الترك عن دولتهم، اذا عملوا هم على توحيد الكنيستين : الشرقيــة بالقسطنطينية، والغربية برومية، واعتراف الأولى للبابا بالسيادة . فجدَّ القياصرة فى ذلك ما استطاعوا وعزلوا من خالفهم فيه من البطارقة، فكان ذلك سبباً فى ظهور أحزاب متضادة : بعضها يؤيد البطريق، وبعضها يعاضد الأمبراطور . وما زال الأمر كذلك

حتى تم توحيد الكنيستين فى سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) عقب انعقاد مجلس ملى بايطاليا دعا البابا اليه القيصر وممثلى بطريقية الاستانة. فثار غضب أهل القسطنطينية لذلك، ولما رآه بعضهم بنفسه عند انعقاد المجلس من قلة نفوذ البابا بين دول أوربا الغربية وعدم مقدرته على مساعدة دولتهم بشىء، وازداد حنقهم عند اعلان توحيد الكنيستين. ومن ذلك العهد استفحل خطب الفتن الدينية

(هـ) التنازع على الملك

على أن الفتن الداخلية فى الدولة لم تكن قاصرة على الأمور الدينية، بل كان عرش الملك نفسه منشأ فتن مستمرة منذ عاد مقر الدولة الى القسطنطينية. فانّ أول أمبراطور انتزع هذه العاصمة من اللاتين (وهو ميخائيل الثامن) كان نفسه مغتصباً للمُلْك: اغتصبه من طفل كان وصياً عليه، فأشعل الشرارة الأولى من نار المنازعة فى شأن العرش، وبقيت هذه النار مستعرة حتى آخر أيام الدولة

(و) غارات شعوب البلقان

وقد كان لغارة اللاتين على القسطنطينية ضرر آخر لا يقل عن جميع ما تقدم، وذلك أن الشعوب القاطنة فى البلقان بعد أن كانت خاضعة للدولة، وملتئماً بعضها ببعض، لعظم سلطانها وشدة بأسها، وجدتْ من ضعف الدولة اللاتينية باعثاً على استقلال كل منها بنفسها دون مراعاةٍ لما يعود عليها من النفع من اتحادها. ثم استطار الشرّ بينها وصار بعضها يستعين بالأتراك وغيرهم على اقتناص ما تصل اليه يده من أملاك الدولة. وبذلك كثرت غارات البلغار والصرب والمجر والتتار على أملاكها، حتى صارت من أكبر العوامل على فنائها

٢ ـ هجوم الترك

وأما ثانى الأمور الأساسية التى أدّت الى سقوط الدولة الرومانية الشرقيـة فهو مهاجمة الترك لها من كل جانب بلا انقطاع: مُقتّلين الكثير من سكان تلك الجهات، ومشرّدين الباقين أمامهم الى الفلوات والأطراف القاصية: مما خرب البلاد وذهب بغالب أهليها

وزاد هذا النقص وباءٌ عظيم انتشر فى أوربا نحو قرن من الزمان حتى أفنى ألوف الألوف من أهلها: ذلك هو الوباء الهائل المعروف فى التاريخ «بالموت الأسود». ظهر

٣ . الموت الاسود

في شرقي أوربا عام ٧٤٧ هـ (١٣٤٧ م) ، ثم اطَّرد الى باقي أنحاء القارة ، فكان أنّى انتقل يفتك بالناس فتكاً ذريعاً ، حتى زادت نسبة من ماتوا به في بعض الممالك على النصف[1] وقد وجد هذا الوباء منبتاً خصباً له في مدن الدولة الرومانية الغاصة بالسكان ، والتي لم تلقَ من حكومتها المشتغلة بالفتن الدينية والقلاقل السياسية العناية اللازمة لاتخاذ التدابير الصحية التي تكفي لمقاومته أو لنقص فتكه ، حتى أصبح عدد سكان البلاد لا يكفي لجمع الجيوش التي تقوم بالدفاع عن الدولة[2]

٣ — ﴿ الدولة العثمانية في أوج عظمتها ﴾

(٨٥٧ — ٩٧٤ هـ : ١٤٥٣ — ١٥٦٦ م)

الاستعداد لفتح القسطنطينية

هكذا كانت حال الدولة الرومانية عند ما جلس محمد الثاني على عرش آل عثمان ، فعمل في الحال على تحقيق أمنيّة بيته ، وهي فتح القسطنطينية وجعلها مقرًّا له . فأعد لذلك جيشاً عظيماً سار به لفتح المدينة في ربيع عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)

شكل المدينة

أما شكل المدينة فسهل التصوُّر : إذ هي أشبه بمثلث متساوي الساقين محاط بالأسوار من كل جانب ، رأسه بارز شرقاً في مياه البسفور ، والضلع الشمالية يحدها الميناء المسمى « القرن الذهبي » ، والضلع الجنوبية يحدها بحر مرمرة . أما قاعدة هذا المثلث فهي الأسوار الغربية التي تفصل المدينة عن باقي القارة الأوربية

فبدأ السلطان بمهاجمة الأسوار الغربية ، وكانت تمتد من القرن الذهبي الى بحر مرمرة . ثم رأى على ضخامة مدافعه[3] أنه لا يستطيع التغلّب عليها لمناعتها وعظم سَمكها . فعوّل على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهي الجهة المشرفة على القرن

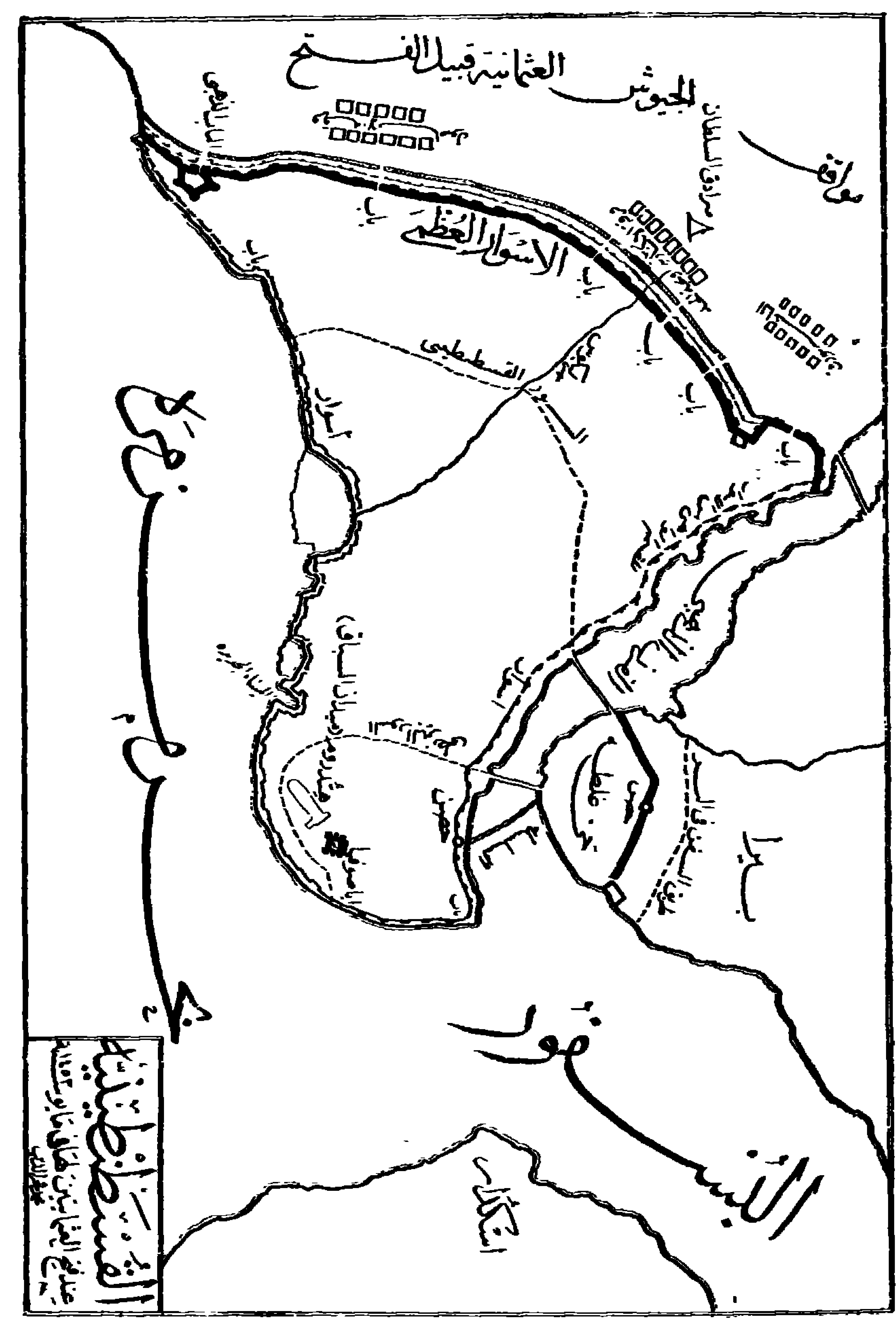
مهاجمة المدينة

---

(١) كان عدد سكان انجلترا في ذلك الحين بين ٣,٠٠٠,٠٠٠ و ٤,٠٠٠,٠٠٠ ، فمات به أكثر من نصفهم

(٢) لم يفتك الوباء بالترك فتكا ذريعاً ، ولعل السبب الأول في ذلك راجع الى اقامتهم في الخلوات

(٣) قيل انها كانت أضخم مدافع عرفت الى ذلك العهد ، وكانت تقذف نحو ١٢ قنطاراً من الحجر على مسافة ميل



الذهبي. وكان الروم قد احتاطوا لذلك، ومدُّوا سلسلة عظيمة على مدخل القرن الذهبي، حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار من تلك الجهة. فلم يثنِ ذلك من عزم العثمانيين، واحتالوا على نقل سفنهم الى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال

من أعجب ما حدث فى التاريخ : وذلك انهم مهّدوا طريقاً برياً بين البسفور والقرن الذهبى يبلغ طوله نحو الفرسخين ، ووضعوا عليهِ عوارض ضخمة من الخشب تتدحرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب ايضاً (بَكَر) ، وسيَّروا فوقها ٨٠ سفينة صغيرة من أسطولهم الذى كان بالبسفور . فجرت عليها السفن والريح تدفع فى شراعها كأنها تجرى على الماء ، حتى بلغت القرن الذهبى ، فنزلت فيهِ بلا عناء . وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول يضلّل حامية المدينة بالإلحاح على ضربها بالمدافع من باقى الجهات الأخرى . وعندئذٍ اشتركت السفن والجيش البرى فى ضرب الأسوار ، فلم تقوَ على احتمال هذه النيران . وحمل العثمانيون على المدينة حملةً صادقة ، فدخلوها بعد قتال عنيف قُتل فيهِ امبراطور الروم « قسطنطين بالْيُولُوغُوس » . وكان ذلك فى أواخر عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ، وبهِ سقطت دولة الروم الشرقية

فتح المدينة

ودخل السلطان محمد عاصمته الجديدة فى موكب حافل ، وسار توًّا الى كنيسة « أياصوفيا » ، فصلّى فيها ظهر ذلك اليوم وبقيت مسجداً إسلامياً الى الآن . وهذا البناء من أجمل آثار دولة الروم الشرقية ، ومن أحسن النماذج لفن المبانى البوزنطية

فتوح محمد الثانى الأخرى

استولى السلطان محمد الفاتح على عاصمة الروم وهو لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، فلم تقف فتوحه عند ذلك ، ولم يلبث أن تمَّ له إخضاع معظم « المورة » و « الصرب » و « البوسنة » . وأراد الإغارة على ايطاليا وألبانيا ، فحال دونها وقوف « اسكندر بك الألبانى » و « هُونيَاد المجرى » فى طريقه اليهما

اسكندر بك

وذلك أن أولهما كان أول أمره فى خدمة مراد الثانى ، ثم نصّبه والياً على ألبانيا (موطنه الأصلى) ، فخرج على الدولة وأراد أن يستقل بألبانيا . وساعدته طبيعة تلك البلاد الجبلية على صد الجند العثمانية سنة بعد أخرى ، فلم يتم للسلطان إخضاع ألبانيا الا بعد عشرين عاماً ، أى بعد وفاة اسكندر بك فى عام ٨٧١ هـ (١٤٦٧ م) . ولم يعش محمد الثانى لتحقيق أمنيته فى ايطاليا

أما « هونياد » فانه وقف للسلطان فى « بِلْغِراد » عام ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م)



جامع أياصوفيا

عند ما أراد الإغارة على المجر وألبانيا ، وهزمه هزيمة كبيرة اضطرته الى الرجوع عن تلك المدينة بعد أن خسر من جيوشه نحو ٢٥,٠٠٠ مقاتل ، فانصرف عن تلك البلاد الشمالية هونياد



محمد الفاتح

(رسم على افندى يوسف)

على أن صدّ جيوشه فى هذين الموضعين لم يمنعه من مواصلة فتوحه فى الجهات الأخرى . فاستولى فى آسيا على « طَرَبِزُون » (أَطْرابَزُنْدَة) من بقية أملاك الروم ، وأخضع إمارة « القرَمان » التركية إخضاعاً نهائياً . وفى سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٥ م) دانت له بلاد « القِرِم » فبقيت خاضعة للدولة نحو ثلاثة قرون من الزمان . ثم كان

عاقبة تغلبه على ألبانيا أن أزال أكبر عقبة فى سبيل توسيع أملاكه من الغرب . فتوغل فى أملاك البندقية توغلاً فزع منه البنادقة ، ولم يسعهم الاّ أن عقدوا معه محالفة لتسلّم لهم مدينتهم ، سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م)

محاولة فتح ايطاليا

أما ايطاليا فلم يبرح أمرها قط من ذهن محمد الثانى . وكان جل أمانيه فتحها ورفع لواء الاسلام على رومية فى الغرب ، كما رفعه على القسطنطينية فى الشرق

فرسان القديس يوحنا

ورأى أن يمهد الطريق لذلك بانتزاع جزيرة « رودس » من أيدى « فرسان القديس يوحنا » ، فسيّر عليهم أسطولاً عظيماً ، وضيق الحصار على جزيرتهم ثلاثة أشهر ، ولكنهُ لم يقو عليهم ، وفترت همة جنود الانكشارية لمّا علموا أن السلطان منع استيلاءهم على شىء من غنائم الجزيرة . فاضطر محمد الى فض الحصار ، وأبرم مع الفرسان صلحاً عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م)

ثم عاد فوجّه همه لفتح إيطاليا ، فأرسل جيشاً استولى على مدينــة « أُتْرَنْتُو » سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م)

وكان فى العام التالى يشتغل بإعداد حملة عظيمة لإتمام فتح تلك البلاد ، فمات فُجاءة عام ٨٨٦ هـ (١٤٨١م) . وبموته انصرف العثمانيون عن هذه الجهة . وفى أيام خلفه أخلى العثمانيون « أترانتو » ذاتها ، ولم يحتلوا بعدها شيئاً من الأراضى الإيطالية

بايزيد الثانى

ثم خلفه ابنه « بايزيد الثانى » (٨٨٦ — ٩١٨ هـ : ١٤٨١ — ١٥١٢ م) ، فكان أضعف سلاطين آل عثمان الى ذلك الوقت . ولم يكد يجلس على العرش حتى خرج عليهِ أخوه الأصغر « جَمّ » مُطالباً بالمُلْك ، وكان قوى البأس ، فلاقى بايزيد صعوبة كبيرة فى مكافحته ، الى أن اضطره الى الفرار الى مصر . وكان بايزيد محباً للسلم ، لا يدخل الحروب إلاّ مدافعاً ، ولم يزد فى أملاك الدولة إلاّ بضعَ مدن فى مورة . وقد علمنا ما كان من أمره مع مماليك مصر وانتصارهم على جيوشه فى الشام . على أن قوة الأسطول عظمت فى عهده ، وصارت من ذلك الحين موضع خطر على الممالك الأوربية ، فلم يلبث أن اشتبك مع أسطول البنادقة فى موقعة هائلة

هى فاتحة الانتصارات البحرية العثمانيــة على ممالك البحر الأبيض . وكانت جنود الانكشارية لا يعجبهم انكماش بايزيد وضعفه ، فالتفوا حول أصغر أولاده «سليم» ، وأرغموا بايزيد على التنازل عن العرش سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م)

فتولى السلطان «سليم الأول» (٩١٨ — ٩٢٦ هـ : ١٥١٢ — ١٥٢٠م) ، فكان من أعظم سلاطين العثمانيين واكثرهم انتصاراً وفتحاً . وكان مجيداً لقيادة الجيوش والسياسة ، كثير الاطلاع ، ولوعاً بالأدب ، إلاّ أنّ شيئاً يخالطه من القسوة والميل الى سفك الدماء . وقد قيل إنهُ قتل من أقاربه وعمّاله ما لم يقتله أحدٌ قبله ولا بعده من ملوك آل عثمان . ورأى السلطان سليم أن يَقِف فتوحَ الدولة فى أوربا فترة ، وأن يستعيض عن ذلك بالاستيلاء على شىء من ممالك الشرق النفيسة سليم الأول

فبدأ بدولة فارس . وكان على عرشها حينئذٍ الشاه اسماعيل الصفوى ، وكان قد ذاع صيته بفتوحه العظيمة فى المشرق ، وأصبح لا يبالى بنشر مذهب الشيعة (الذى يمقتهُ العثمانيون) فى آسيا الصغرى ، ويحرّض أمراء تلك الجهة على الخروج على العثمانيين . فعزم السلطان سليم على غزو فارس ، وعَجَّلَ ذلك إيواء الشاه اسماعيل لابن أخى سليم ، الفارّ من وجهه غزو فارس

ففى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) خرج السلطـــان سليم بجيش عظيم يريد غزو الفرس ، ماراً فى طريقه على « ديار بَكْر » و « كُرْدِسْتَان » ، فتراجع الفرس الى داخل بلادهم وخرّبوا كل ما فى طريق الترك من المرافق ، كى تضمحل جيوشُهم جُوعاً وتعباً . ولما التقى الفريقان فى وادى « جَلْدِيران » قرب « تِبْرِيز » كانت الجنود العثمانية فى شدة التعب ، إلاّ أن الفرس لم يقوَوا على مقاومة قوة الانكشارية ، والمدافع العثمانية ، فانهزموا شر هزيمة . فدخل السلطان سليم « تبريز » (حاضرة الفرس فى ذلك الوقت) وأمر بإرسال الفٍ من أمهر صناعها الى القسطنطينية . ثم اضطُر بعد أيام الى الانصراف الى بلاده ، لتمرّد جنود الانكشارية عليهِ . وكانت نتيجة تلك الحرب استيلاء العثمانيين على « ديار بكر » و « كردستان »

فتح مصر وتأثيره فى الدولة

وبعد عامين (٩٢٢ هـ : ١٥١٦ م) خرج السلطان سليم لفتح مصر ، ففتحها كما أوضحنا فى غير هذا المكان . وجنى بيت آل عثمان من فتح مصر فائدة لم يجنها من فتح غيرها من البلدان ، إذ أنّهُ بتنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) صار له ولسلاطين آل عثمان من بعده زعامة على العالم الإسلامى لم تكن لهم من قبل . وكان السلطان سليم يتأهب بعد ذلك لفتح « رودس » ، فمات قبل أن يتمّ عمله ، بعد ثمانية أعوام من حكمه

سليمان القانونى

فتولى ابنه السلطان « سُلَيمان القانونى » (٩٢٦— ٩٧٤هـ : ١٥٢٠ — ١٥٦٦م) ، وهو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعصرهُ أزهرُ عصر فى تاريخهم ، إذ كانت للدولة فى أيامهِ مكانةٌ لم تحزها قبله أو بعده . صادفت أيامه تلك النهضة العلمية العظيمة التى انتشرت فى أنحاء أوربا فى القرن السادس عشر من الميلاد المسيحى وحَدَتْ بالغربيين الى تلك الاستكشافات العلمية والجغرافية (التى أُسستْ عليها المدنية الحديثة والتى كانت سائرة حينئذٍ بسرعة لم يسبق لها مثيل) ، فلم يقتصر العثمانيون على السير بجانبهم فى ذلك المضمار ، بل فاقوهم فيهِ فى عدة أمور ولا سيما الفنون الحربية . ولم يكن بين ملوك أوربا فى عصر سليمان من يفوقهُ غزْواً أو سياسةً أو إدارة

زهاء عصره

فتح بلغراد

أما فتوح سليمان فلم تكن بأقل من فتوح سليم أو محمد الفاتح ، إذ تمّ له فى العامين الأولين من حكمه ما استعصى عليهما قبله : ففى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) استولى على « بلغراد » ، وفى قابل فتحَ « رودس » ، انتزعهـا من فرسان القديس يوحنا بعد حصار أظهر فيهِ من الكفاءة والدراية بالعلوم الحربية ما عظم به شأن الدولة فى أعين الأوربيين

فتح رودس

غزو المجر

على ان معظم غزوات سليمان كانت موجّهة الى الغرب للتغلب على النمسا والمجر ، ولا سيما الأخيرة التى طالما وقفت فى وجه العثمانيين ومنعتهم من الزحف فى أوربا الى ما وراء الصرب والبوسنة . ففى سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) غزا بلاد المجر ، فلما التقى بجيوشهم فى موقعة « مُوهاكز » الفاصلة لم يثبت جيش المجر أكثر من ساعة واحدة

قُتل فيها ملكهم « لويس الثانى » وكثير من الأمراء ، وفتح السلطان معظم المدن والقلاع التى بالأقاليم الجنوبية . ثم ولّى على البلاد ملِكاً من أهلها وهو « جان زابولى » ، وغادرها ومعه أكثر من مائة ألف أسير

وبعد خروجه من البلاد أغار عليها « فِرْدِنَنْد » ملك النمسا ، واستولى على مدينة « بُودا » ، وخلع الأمير الذى نصبه سليمان . فاستغاث الأمير بالسلطان ، فخرج فى جيش عظيم مؤلف من ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠ مدفع ، فاسترد « بودا » وأعاد « زابولى » الى عرشه . ثم اتخذ عمل « فردنند » ذريعة للإغارة على النمسا ، فسار نحو « وِيانا » (فينّا) . وكان فصل الشتاء قد أقبل وكثر المطرُ ، فاضطر العثمانيون لترك مدافعهم الضخمة بالمجر . فلما وصل سليمان الى « ويانة » ألقى عليها الحصار عشرين يوماً سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) ، ثم وجد أن الجوّ وقلة المدافع يحولان دون الاستيلاء على المدينة ، فرجع عنها . وكان هذا أول نزال فَشِل فيه ، فلم ينسه طول حياته غزو النمسا

وبقى الحرب الى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) ، فتمَّ الصلح على تقسيم بلاد المجر بين زابولى وفردنند . ولما مات الأول عام ٩٤٦ هـ (١٥٣٩ م) أغار فردنند على البلاد جميعها ، فغزا السلطان سليمان بلاد المجر كرَّة أخرى . وكان هذه المرة يترك حاميةً فى كل مدينة يفتحها ، لجعلها من الأملاك العثمانية . ثم تمَّ الصلح بين الفريقين ، فاعترف فردنند للسلطان بسيادته على المجر وترَنسِلْوانيا ، وتعهد أن يدفع له جزية سنوية . وربما كان خذلانه أكبر لو لم يُشغل سليمان عن تلك الجهات بحروبه مع فارس وغيرها من بلاد المشرق . ومما فتحه السلطان فى المشرق جزء كبير من أرمينية وأرض الجزيرة والعراق وفيه مدينة بغداد العظيمة فتح بغداد

وفى عصر هذا السلطان تقدمت البحرية العثمانية تقدماً عظيماً حتى صارت تهابها الأُمم فى جميع البحار ، من البحر الأبيض فالبحر الأحمر ، الى المحيط الهندى . وظهر فى الدولة إذ ذاك من مهرة الملاّحين وأمراء البحر مَنْ تفتخرُ بهم أعظمُ دولةٍ بحرية . وفى مقدمتهم « أسرة بَربَرُوس » الشهيرة ، ورأسها « خير الدين بربروس » القوة البحرية

أكبر قوّاد أوربا البحرية فى عصره . وُلد فى جزيرة « لِسْبُوس » ، ثم اتخذ هو

قطع الطريق فى البحر الابيض

وأخوه قَطْعَ طريق البحر مهنةً لهما ، وكانت منتشرة وقتئذٍ فى البحر الأبيض المتوسط ثم عظم شأنه فى هذه المهنة وصارت له سطوةٌ عظيمة ، واستولى على كثير من ثغور شمالى إفريقية ، الى أن صار صاحب الكلمة العليا فى بلاد الجزائر . وعند ذلك

خير الدين بربروس

قدَّم ولاءه للباب العالى ، فنصَّبه السلطان سليم الأول حاكماً عاماً للجزائر سنة ٩٢٦هـ (١٥١٩م) ، وأجزل له العطاء ، وأمدَّه بألفى جندى من الانكشارية . وفى سنة ٩٤١هـ (١٥٣٣ م) اختاره السلطان سليمان قائداً للأسطول العثمانى الذى سيّره لمحاربة أساطيل « شارل الخامس » « شرْلكان » ملك اسبانيا ، وكانت بقيادة « أندريا دوريا »

الحرب فى تونس


الجِنْوِى ، فقهره « بربروس » ، وانقضّ على سواحل إيطاليا ، فسلب ونهب منها شيئاً كثيراً . ثم ولى وجهته شَطر تونس يريد الاستيلاء عليها . وكان يحكمها وقتئذٍ أحد ملوك الدولة الحَفصِيّة من بقايا الموحدين ، فلجأ الى شارل الخامس المذكور ، فذهب شارل بنفسه الى إفريقية فى جيش عظيم ، فلم يقدر بربروس على مقاومته ،

الحرب بين الدولة والبندقية

وانجلى عن المدينة . ثم وقع خصام بين الدولة والبندقية لاعتداء بعض لصوص البحر من البنادقة على سفير الدولة فى وقت السلْم ، فخرج « بربروس » الى البحر الأدرياتى للانتقام من البندقية ، فاستغاثت بالبابا وشارل الخامس . فساعداها بأسطوليهما ، ولكن بربروس هزم الأساطيل الثلاثة فى موقعة « بِرِوِيزة » سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) وقد حط ذلك كثيراً من شأن البنادقة

الحرب فى الجزائر

وفى عام ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) أغار « شارلكان » على بلاد الجزائر ، فصدَّه بربروس ، وساعده الحظ بأن عصفت الرياح على سفن شارلكان فحطّمتها . وبقى بربروس مصدرَ الرعب والفزع فى البحر الأبيض ، إلى أن أرسله سليمان القانونى عام ٩٥٠ هـ (١٥٤٣م) لمساعدة حليفه ملك فرنسا فى الإغارة على الأملاك الاسبانية . فاستولى بربروس على « نِيس » ، وبقى بفرنسا إلى أن خشى بأسه الفرنسيون أنفسهم ، وأجزلوا له العطايا والهدايا ، حتى جلا عن بلادهم وذهب الى الاستانة حيث قضى بقية أيامه فى هدو متقلداً منصب قبودان باشا


الدولة العثمانية
في أوسع أطرافها
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
او
بحر سفيد
بحر اليونان
الروم ايلي
بلغاريا
الأفلاق
البغدان
خانات القرم
بحر آزاق
قفقاسيه
بحر خزر
أرمينيه
آذربيجان
ولاية القرمان
سلطان اوكي
قبرس
جزيرة كريد (قريطش)
رودس
بلاد الفرس
العراق العجمى
خوزستان
الخليج الفارسى
بغداد
البصره
الموصل
حلب
دمشق
مصر
مصر القاهره
طرابلس
الجزائر
البحر الأبيض المتوسط
تونس
بنغازى
بلاد العرب
نجد
الحجاز
اليمن
حضرموت
عمان
مسقط
بحر العرب
السودان
مكة المكرمه
المدينة المنوره
الرياض
البحر الأدرياتيكى
ايطاليا
صقلية
مالطه
مملكة بولونيا
كراكو
بادوليا
النمسا
ويانه
بلغراد
صوفيه
ادرنه
سلانيك
قونيه
انقره
سيواس
ارضروم
تفليس
تبريز
كرمانشاه
طهران
جيلان
مازندران
الكويت
كربلاء
اللاذقيه
طرابلس
بيروت
حماه
حمص
يافا
القدس
عكا
الاسكندريه
السويس
طور سيناء
باطوم
سنوب
سمسون
طرابزون
ازمير
بروسه
كوتاهيه
اسكيشهر
قيصريه
اضنه
مرعش
دياربكر
ماردين
نصيبين
اربل
موش
وان
اوزى
دون
اوكرين
دنيبر



سليمان القانونى

(رسم على افندى يوسف)

ومن أعظم أفراد هذا العصر أيضاً « بيرِى رَيِّس » و « سيِّدى على » ، وكانت لهما اليد الطولى فى بسط نفوذ الدولة على شواطئ بلاد العرب وفارس والهند بيرى ريس وسيدى على

ومنهم « بيَالة باشا » ، فإنهُ حارب القائد الجنوى « دوريا » وانتصر على أساطيله انتصاراً مُبيناً عند جزيرة « جرْبَة » من أعمال تونس عام ٩٦٧ هـ (١٥٦٠ م) بيالة باشا

ومن أشد رجال هذا العصر بأساً « دِراغوت » (طَرْغود) : كان مثل بر بروس فى أول أمره مشتغلاً بقطع الطريق فى البحر ، ولما علم بر بروس بما لَهُ من الصيت طرغود

الهائل فى ذلك ضمّهُ اليهِ ونصّبهُ وكيلاً لهُ . ومن ذلك العهد أخذ يبدى من المهارة البحرية ما جعله اكبر قواد عصره ، وانتصر على « دوريا » فى عدة مواقع . ومن أهم أعماله أنهُ فتح مدينة « المهدية » عاصمة بلاد تونس فى ذلك الوقت

فرسان القديس يوحنا وحصار مالطة

على أن الأساطيل العثمانية على قوتهـا وشدة بأسها لم تقدر على التغلب على « فرسان القديس يوحنا » أصحاب جزيرة مالطة . وكانت هذه الجزيرة قد أعطاها لهم الامبراطور شارل الخامس عند ما طردهم العثمانيون من جزيرة « رودس » سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) ، فبقوا محافظين على مالطة من ذلك العهد ، وصدّوا عنها العثمانيين مراراً . وفى أواخر أيام سليمان أرسلت الدولة اليها أسطولاً عظيماً سنة ٩٧٣هـ (١٥٦٥ م) بقيادة مصطفى باشا ييالة ودراغوت ، فحاصروها أربعة أشهر ثم اضطروا للجلاء عنها بعد قتال عنيف ، وذلك لما أبداه فرسان القديس يوحنـا من الشجاعة والصبر . ولم يبق من حاميتها بعد هذا الحصار الاّستمائة فارس ، بعد ان كان بهـا تسعة آلاف !

ومات السلطان سليمان عام ٩٧٤ هـ (١٥٦٦ م) أثناء غارته الأخيرة على المجر ، وكانت سنه اذ ذاك ستاً وسبعين سنة

٤ — ﴿ ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية ﴾

(٩٧٤ — ١٠٤٩ هـ : ١٥٦٦ — ١٦٤٠ م)

أجمع المؤرخون على أن عصر سليمان الأكبر هو العصر الذى بلغت فيهِ الدولة العثمانية أقصى مجدها وعظمتها : فى مدة ثلاثة قرون تَسنَّى لقبيلة آل عثمان الصغيرة أن تبسط سلطانها ونفوذها على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر . وتمدّ فتوحها من مكة المكرّمة الى بودا من جهة ، ومن بغداد الى الجزائر من جهة أخرى . فكان كل من الشاطئين الشمالى والجنوبى للبحر الأسود فى قبضة يدهم ، وجزء عظيم من مملكة النمسا والمجر الحالية يعترف بسلطانهم . وقد دان لسلطانهم أيضاً

أقصى اطراف الدولة

شمالى إفريقيّة ، من أطراف بلاد الشام الى حدود بلاد مَرَّاكُش

اسباب انحطاط الدولة

وبعد موت سليمان ابتدأت الدولة فى الانحطاط المستمر ، اللهم الاّ فترات كانت تنتعش فيها وتُظهر بعض مجدها العسكرى القديم . وترجع أسباب الانحطاط الى عوامل خارجية وأخرى داخلية : فانّ نموّ الأمة الروسية ، وظهور طائفة من أكابر القوّاد فى المجر وبولندة والنمسا ، لمن أهم الأسباب الخارجية التى افضت الى اضمحلال الدولة التركية ، وأدت الى انتقاصها الى مساحتها الحالية

الاسباب الخارجية

الاسباب الداخلية

ثم كانت ثَمّةَ جراثيم داخلية تفتّ فى عظام الدولة ، وتثلّ عرش مجدها وعظمتها الأثيلين . اذ أن حكم ولايات الدولة العثمانية المختلفة الأديان والمذاهب والأجناس ، وحفظ نفوذها فيها ، يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلهما فى إدارة شؤون الدول الأخرى المؤلفة غالباً من عنصر واحد ودين واحد ، لأن نفوذ الاتراك المستمد من القوة العسكرية ، والذى يتحكمون به فى رقاب كثير من الشعوب الأجنبية المختلفة فى كل شىء لم يكن ليدوم طويلاً الاّ بعناية خاصة بإعداد الجيش لكل طارئ فجائى من جهة ، وبإرضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة ، من جهة أخرى

(ا) اختلاف الأديان والأجناس

(ب) ضعف السلاطين

وذلك ما لم يتهيأ للحكومة العثمانية بعد سليمان ، لأنها لم تُعِرْ كل هذه الأمور شيئاً من الالتفات ، اذ بعد أن نهض الملوك السالفون من آل عثمان بالدولة الى ذروة مجدها بما أُوتوه من الذكاء والحذق ، خَلَفَ من بعدهم خلْفٌ أضاع تلك الأملاك الشاسعة التى نالها أجداده بحدّ السيف وحافظوا على كيانها بحسن إدارتهم . ولم يكن لهؤلاء السلاطين الضعفاء همّ الاّ الانغماس فى اللذات ، غير مكترثين بتضعضع ملكهم

(ح) فساد الجيش

فلما أصبح الجنود بلا سلطان شجاع يقودهم الى ساحة الوغى ، وسقطت هيبة السلاطين من أعينهم ، أخذوا يشعرون بما لهم من الحول والقوة ، وابتدءوا يعزلون ويُوَلّون مِنَ السلاطين من يشاءون ، مُبتَزّين الأموال الكثيرة والأعطِيَة الجزيلة من كل سلطان يقيمونهُ على العرش . فأدّى استئثارهم بالسلطة الواسعة التى كانوا يستعملونها

حسب أهوائهم الى الانغماس فى الترف والفساد ، ففقد جنود الإنكشارية منهم بالتدريج ما كان لهم من الصفات الحربية القديمة ، وأصبحوا لا يوثق بهم فى ساحة القتال . فكان ما يُبذل لهم من العطايا عند تولّى كل سلطان ، تفوق قيمته فى أعينهم أعظمَ انتصار لهم فى ساحة القتال

(د) عدم ادخال الاصلاحات الحديثة

هذا إلى أن الجيش لم يدخل فيه من الاصلاحات ما يجارى به جيوش الممالك الأوربية الأخرى من استخدام آلات القتال الجديدة والتفنن فى الطرق الحربية التى كانت آخذة فى التحسن عندهم

على أن أعظم نقص ظهر فى الجيش كان فى قواده وضباطه : فلم تكن ترقية

(هـ) الرشوة

القواد بحسب الكفاءة الشخصية . بل بحسب ما يبذلونه من الرِّشوة لولاة الأمور وبطانة السلطان

وليس غرضنا هنا أن نذكر بالتفصيل حوادث انحطاط الدولة وتدهورها التى هى فى الجملة عبارة عن سلسلة هزائم يتخللها بعض انتصارات وعدَّة معاهدات صلح تخسر الدولة فى كل منها شيئاً من أملاكها ، ثمَّ سِير ملوكٍ وحكامٍ ضعفاء منهمكين فى الشهوات ، عُمْيِ البصيرة ، إلاّ نفراً قليلاً نهضوا بالدولة فترات يسيرة . وانما غاية ما نستطيعه هنا هو أن نذكر بالإيجاز أهم الحوادث التى من أجلها انكمشت الدولة التركية وأصبحت فى حجمها الحالى :

سليم الثانى

بعد سليمان الأكبر تولى المُلك ابنهُ « سليم الثانى » (٩٧٤ — ٩٨٢ هـ : ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م) وكان ضعيفاً لاهياً سِكّيراً ، ولذلك لُقب بالمجنون

الانحطاط تدريجى

ولكن النظام الباهر الذى وضع أساسه سليمان ورجال دولته لم يتلاش دَفعةً واحدة على يد خلفِهِ ، إذ كان كثير من عمَّال سليمان لا يزالون بعدُ أحياء : يَدِبّ فى نفوسهم ذلك الروح العظيم الذى بثهُ فيها مولاهم . ونخصُّ بالذكر منهم وزيرَه « صُقلِّي محمود » الذى لم يألُ جهداً فى حكم البلاد على طريقة سيده ، فكان من أعماله أنهُ أمر « سِنَانَ باشا » فأخضع بلاد العرب عام ٩٧٨ هـ (١٥٧٠ م)

انتزاع قبرس من البنادقة

وبعد ذلك ابتدأ فتح جزيرة « قبرُس » وانتزاعها من يد البنادقة ، وقام بأمر هذه الحملة « لالا مصطفى » أحد نظراء « صقلى » . وقد كلف فتح هذه الجزيرة الدولة خمسين ألف مقاتل ، أخفَقَتْ مصارعُهم قائدَهم مصطفى ، فلم يشتف لهم فى ساعة النصر الا بالانتقام من قائد حامية الجزيرة شر انتقام ، إذ سلخ جلده حياً

وبهذا الفتح قويت شوكة العثمانيين فى البحر ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً ،

الاتحاد على الدولة

حتى اتحدت عليهم اسبانيا والبابا والبندقية وغيرها (واشترك معهم فرسان القديس يوحنا) فى مايو سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) . وكان غرض البندقية من هذا الاتحاد استرداد جزيرة قبرس فقط ، غير أن « فليب » ملك اسبانيا أبى إلا أن يجعله تحالفاً عاماً ، فتم الاتفاق على أن تكون أسبانيا والبابا والبندقيـة ، متحدة جميعاً على مغاربة تونس وطرابلس والجزائر والترك ، وأن تحمى كل منها أملاك الأخرى ، وألا تعقد احداهن صلحاً على انفراد ، وأن تعيّن كل من دول التحالف قائداً لأسطولها ، وأن تُوكل القيادة العامة الى « دون جون » النمسوى

واقعة ليبنتو

ظهر أسطول الحلفاء فى ١٦ سبتمبر سنة ١٥٧١ فى مياه « مِسّينى » ، ولما وصل الى « كُرْفو » بلغه أن الأسطول العثمانى فى خليج « ليبَنْتُو » . وفى سابع أكتوبر كان الأسطولان على مقربة بعضهما من بعض فى هذا الخليج . وكان أسطول الحلفاء يشمل ٢٦٤ سفينة ذات حجوم مختلفة بعضهما مسلح بأضخم المدافع ، تحمل ٢٦,٠٠٠ جندى و ٥٠,٠٠٠ مُجَذِف وبحرى . أما الأسطول التركى فكان يحتوى على ٣٠٠ سفينة ، وما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ جندى ومجذف . وكان غرض أمير البحر التركى (بيالة باشا) فى الموقعة التى نشبت أن يشتّت جناحى اسطول خصمه ، غير أن هذه الحركة لم تُفلح ، لأن « بَرْبَرِيجو » قائد سفن البندقية فى الجناح الأيسر و « أندِريا دوريا » فى الجناح الأيمن احتميا بالشاطئ ، وبعد ذلك نشبت معركة عنيفة خسر فيها الحلفاء خسارة عظيمة . غير أن البنادقة تمكنوا أخيراً من صد عدوهم بعد جرح قائدهم « بربريجو » جرحاً مميتاً ، وقتـل القائد التركى محمود

« سيركو » (شلوك) الذى كان يهاجمهُ . وفى غضون ذلك كان قلب الأسطول بقيادة « دون جون » منتصراً بعد كفاح شديد أشبه بالحرب البرّية منه بالحرب البحرية . قُتل فيه القائد التركى « بيالة باشا » وسلّم معظم المراكب التركية أو حُطّم . أما «على الألوج» (داى الجزائر) الذى كان متغلباً على ما أمامه من سفن «جنوة» فانهُ لما رأى ما حلّ بالترك ولّى هارباً ، فتم بذلك النصر للمسيحيين

تأثير الموقعة

ويمكن معرفة ما لهذه الموقعة التى لم تستغرق اكثر من أربع ساعات من الأهمية اذا علمنا أن الترك لم تكن هُزمتْ فى البحار الى ذلك اليوم . أما الخسائر فلا يمكن تقديرها بالتحقيق ، غير أنهُ من المؤكد ان خسائر الترك كانت ضعفى خسائر الحلفاء ، وأن ما نجا من سفنهم لم يتجاوز الخمسين

وكان المنتظر بعد هذه الهزيمة المنكرة أن تفقد الدولة سيادتها على البحار . الاّ أن ذلك لم يكن ، وغاية ما أثّرت أنها برهنت لدول أوربا أنه يمكن التغلّبُ على الترك . أما تأثيرها فى سيادة الترك فى البحر الأبيض خاصة فكان ضئيلاً جداً ، اذ أنهم بعد الهزيمة بمدة وجيزة أنشئوا لهم أسطولاً بلغ عدد سفنه ٢٥٠ . ومما يبرهن على قلة تأثيرها أيضاً ان البندقية نقضت عهودها مع حليفتيها ، وطلبت الى الباب العالى أن يعقد معها صلحاً على انفراد ، وقبلت أن تبقى قبرس فى قبضة الباب العالى ، وان تدفع له الثمن الذى كلفه فتحُها أياه

مسالمة البندقية

بقيت بعد ذلك الدولة ربع قرن فى مُسالمة مع البندقية ، وذلك لا يرجع الى تأثير المعاهدة فقط ، بل الى تأثير نفوذ بعض أزواج السلطان . إذ لما تولى مراد الثالث (٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ : ١٥٧٤ — ١٥٩٥ م) الملك بعـد موت أبيه سليم الثانى (وكان ضعيفاً) ترك مناصب الدولة تُباع لمن يدفع فيها اكبر قيمة . وكان طوع ارادة نسائه وخاصةً حظيّته « صفية » ، وأصلها من سَبْى البندقية ، فتسلطت عليه فى مصلحة وطنها

ولما مات هذا السلطان خلفه ابنهـا محمد الثالث (١٠٠٣ — ١٠١٢ هـ :

١٥٩٥ — ١٦٠٣ م)، وهو واحد من أبناء مراد الثالث البالغ عددهم ١٠٢ . وقد قتل منهم محمد هذا ثمانية عشر عند توليته عرش الخلافة . ولم تضعف فى أيامه سلطة « صفية »، وبقيت هى صاحبة النفوذ والسلطان

سيكالا

وكان أكبر مساعد لها فى هذه المدة « سيكالا »، وهو من عنصر جنوى : تزوج باحدى حفيدات سليمان الأكبر، وارتقى فى الجيش العثمانى بما كان له من الذكاء والحظوة . ولقد أدى خدمة عظيمة للترك فى عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٦ م)، وذلك انه بعد أن حارب الترك جنود النمسا وترنسلوانيا واستولوا على « إرْلو » : قضوا فى مكافحتهم فى سهل « كِرِزْت » ثلاثة أيام بانت الهزيمة بعدهـــا فى الترك، وفكر السلطان مرتين فى الهرب، فحمل سيكالا على جيوش الأعداء، وشتت شملها وأفنى من رجالها خمسين ألفاً

ابتداء ظهور النمسا على الدولة

على ان هذا النصر لم يخلّص الدولة من الثورات العسكرية والحروب الخارجية، وما كانت تشعر به البلاد من الاستياء العام . وأوضح دليل على وهن نفوذها ان النمسا حينما عقدت معها صلحاً فى عهد السلطان أحمد الأول (١٠١٢ — ١٠٢٦هـ:١٦٠٣— ١٦١٧ م) وكان يناهز الرابعة عشرة من عمره، لم تعاملها الاّ معاملة النظير للنظير، لا الضعيف للقوى، ومنعت ما كان مفروضاً عليها من الجزية السنوية

ثم سادت السكينة فى الأصقاع التركية الشمالية لأن يدى امبراطور النمسا كانتا مغلولتين فى حرب الثلاثين سنة،* وكان من مصلحته أن يكون على وفاق تام مع الترك، على حين ان الدولة نفسها لم ترَ فائدة من مهاجمته لأنها كانت إذ ذاك قد استرجعت كل فتوحها

مراد الرابع

وفى سنة ١٠٣٢ هـ تولى السلطان « مراد الرابع » أريكة الملك (١٠٣٢ — ١٠٤٩ هـ : ١٦٢٣ — ١٦٤٠ م)، وكان شديد البأس، ولوعاً بالحرب . الاّ أنه رأى أن يُبرم عقد صلح من جديد مع امبراطور النمسا ليضمن به بقاء السكينة والهدو

* حرب دارت بين كثير من دول أوربا من سنة ١٦١٨ الى ١٦٤٨ م . وأصلها أسباب دينية

فى أجزاء الدولة الشمالية مدة النصف الأول من القرن السابع عشر ، حتى يتمكن من توجيه كل قواه الى الفرس

الحرب مع الفرس

كان مراد الرابع آخر ملوك آل عثمان الحربيين . وأول حرب أثارها كانت على مملكة فارس ، وسببها انه فى مدة مراد الثالث قامت حرب مع الشاه كان النصر فيها حليف الترك ، وعُقد الصلح فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) ، فضمّت الترك الى أملاكها بلادَ « جُرْجيا » و « تبريز » وبعض الأقاليم المتاخمة لجنوبى بحر قزوين . الاّ أن الفرس ما زالت تنازع الترك هذه الأقاليم حتى استرجعتها فى عام ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) ، وأرجعت حدود الدولة من هذه الناحية الى ما كانت عليه فى عهد « سليم الأول » . فعزم مراد على فتح هذه الأصقاع ثانية ، فلاقى فى سبيل ذلك أهوالا عظيمة

اخماد الفتن الداخلية

فانه لما تولى عرش الخلافة وهو فى الحادية عشرة من عمره كانت البلاد فى حاجة الى رجل يقبض على زمامها بيد من حديد ، لتوالى المصائب عليها وهبوب عواصف الفتن والثورات فيها : فكانت الفرس منتصرة ، وآسيا الصغرى فى ثورة ، وولاة الأقاليم متمردين ، وأصبحت بلاد المغرب مستقلة ، والخزينة خالية ، والجيش ثائراً

الاّ أنهُ رغم كل هذه الصعوبات العظيمة تمكّن بمساعدة أمّهِ من حفظ كِيان الدولة بعد انهزامات مؤلمة ، ففى التاسعة من حكمه ثارت الانكشارية وطلبوا رأس وزيره الأول « حافظ باشا » ، فسلم هذا نفسه اليهم فداء لمليكه . الاّ أن السلطان انتقم له بعدُ مِن هذه الفئة الضالة شر انتقام ، اذ تمكن من قتل الثوّار فى كل اقليم وخصوصاً الانكشارية حتى تكدست رؤوسهم على ضفاف البسفور . وقد قيل ان من قُتلوا فى هذا الحادث يبلغون مائة ألف أو يزيدون

ومن ذلك العهد قبض السلطان مراد الرابع على زمام الأمور بكل يقظة ، فانتشر العدل وساد النظام فى كل مكان بحالة لم يُر مثلها منذ أيام سليمان الاكبر

ولما استتب الامن فى نصابه سار مراد الرابع قاصداً حدود الدولة الاسيوية ينشر

فيها السكينة . ففى عام ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م) أعاد فتح « اريوان » وعاقب ولاة آسيا الصغرى على تمردهم . وفى عام ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨م) قصد « بغداد » ليسترجعها من يد الفرس ، فأخذها عنوة بعد أن أظهر فى فتحها ضروب الشجاعة و بعد أن فنيت



مراد الرابع

(رسم على افندى يوسف)

كل حاميتها إلاّ ثلاثة آلاف . وتمّ بعدها عقد الصلح مع الشاه ، وكانت نتيجته أن استردّت الفرس بلاد «اريوان» ، أما بغداد فبقيت من هذا الوقت فى يد الأتراك ، ودخل « مراد » القسطنطينية دخول المنتصر الظافر

وفى العام التالى وافتهُ منيته وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وبموته مات آخر سلطان حربى من ملوك آل عثمان

٥ — ﴿ عهد سلطة الوزراء — أسرة كُبْريلى ﴾

(١٠٤٩ — ١١٠٣ هـ : ١٦٤٠ — ١٦٩١ م)

تولى شؤون الملك بعد مراد الرابع السلطان «ابراهيم الأول» (١٠٤٩ — ١٠٥٨ هـ: ١٦٤٠ — ١٦٤٨ م)، فلم يكن قوى العزيمة كسابقه . فدبّ فى أيامه روح الفساد وسوء الادارة فى داخلية البلاد، ولذلك لم يفلح فى فتح جزيرة إقريطش «كريت» بعد أن جهّز لها أسطولاً فى عام ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) . ولم يمكث طويلاً حتى عُزل وقُتل

اضطراب الدولة — وتولى بعده «محمد الرابع» (١٠٥٨ — ١٠٩٩ هـ : ١٦٤٨ — ١٦٨٨ م). ففى العام الثانى من حكمه هُزم الأسطول التركى فى بحر الأرخبيل، وقامت الثورات الداخلية فى آسيا الصغرى، وأصبحت الحال فى العاصمة أسوأ حال . إذ كان الوزراء يُولَّوْن ويُعزلون تِباعاً حسب إرادة نساء القصر، وطِبْقاً لرغبات الجنود، واحتل الدردنيلَ عام ١٠٦٦ هـ (١٦٥٦ م) أسطولٌ للبنادقة هدد القسطنطينية نفسها . وقصارى القول ان الدولة فى هذه الآونة كادت تمزق شذر مذر، لعدم وجود رجل قوى الشكيمة يدير شؤونها، حتى قيّضت لها المقادير رجلاً شديد البأس حفظ كِيانها

محمد كبريلى — هو وأفراد أسرته من بعده : ذلك الرجل هو «محمد كُبْرِيلى» رئيس أسرة كبريلى الشهيرة، وهى من عنصر ألبانى استوطن القسطنطينية من زمن. وكان محمد هذا وقت ظهوره قد ناهز السبعين من عمره، وكان محترماً من الصغير والكبير، لقوة عقله وحسن أخلاقه . ولهذه الصفات اختارته أم السلطان «محمد الرابع» (الذى كان لا يزال فتى) صدراً أعظم، فقبل ذلك بشرط أن يُطلق له العنان فى إدارة شؤون البلاد، فكانت نتيجة ذلك أنهُ أظهر شدة بأس، مقرونة بعدل، فأعاد النظام فى كل أصقاع الدولة .

وقضى فى ذلك خمسة أعوام على أشد ما يكون وزير يقظةً لكيد الكائدين، وضرباً على أيدى المفسدين، فلم تر الدولة فى كل عصورها رجلاً مطاعاً مثله. ذلك على شدّة فيه، وقد قُتل فى أيام وزارته بأمره ٣٦٠٠٠ شخص فى سبيل توطيد السكينة

وكان هو ومن خلفه من أفراد أسرته هم القابضين على زمام الأمور فى البلاد العثمانية، ولهم يرجع كل الفضل فى انتعاش الدولة فى النصف الأخير من القرن السابع عشر، فكان همهم الأكبر أن يعيدوا للدولة مجدها القديم وأن يحيوا فى سبيل حكمها السنّة التى سار عليها محمد الفاتح ومن قبلَه من السلاطين. وقد ظهرت ثمرة حكم محمد كبريلى فى مدة وجيزة جدًّا، إذ انمحت آثار الفوضى وعاد النظام الى نصابه. وفى العام الثانى من توليته طَرد أسطول البندقية عن الدردنيل بعد قتل قائده «موسنيجو»، واسترجعت الدولة جزيرة «لِمنوس» و «تَنْدُوس». ثم ضيّق الحصار على جزيرة «إِقريطش»، وأعد المعدات لتجديد الفتوح العثمانية فى أوربا. ولما مات «محمد كبريلى» فى عام ١٠٧٢هـ (١٦٦١م) كانت كل أجزاء الدولة متحدة الكلمة منبثاً فيها روح النشاط، متوجهة بكل قواها لمنازلة عدوها العنيد امبراطور النمسا

احمد كبريلى

لبس احمد كبريلى حلة أبيهِ وقبض على زمام الأمور بعده، فكان مثله فى الحزم، وحذا حذوه فى سياسة البلاد. وكان مبدأ تولّيه شؤون الدولة هو أجَلَ انفراط عقد المحالفة مع النمسا، فسار على رأس جيش يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جندى وانقض به على بلاد النمسا والمجر عام ١٠٧٤ هـ (١٦٦٣م)، فعبر نهر الطونة عند «جِران» واستولى على قلعة «نيُوهوَزِل» وخرّب من «مرافيا» حتى أسوار مدينة «أُولْمَتْز». إلاّ أن «لويس الرابع عشر» مدّ الى الامبراطور يد المساعدة نكاية بالترك الذين أهانوا سفيره فى بلادهم. فأعد جيشاً يبلغ ٣٠,٠٠٠ مقاتل، ولما وصل هذا الجيش الى «مُنْتِكُوكُيُولى» قائد الجيوش النمساوية أحس أنهُ يمكنهُ تهديد جناح الجيش التركى اذا زحف عليهِ من جهة «فينا». الاَّ أن احمد تقهقر الى الجنوب نحو «بودا» فتقابل الجيشان عند «سَنْغوتار» على نهر الراب سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤م)، فلم يقو

الحرب مع النمسا

احمد على عدوه وانهزم أمامه . ورأى الامبراطور أن يعقد صلحاً حتى يتخلص من

معاهدة فزفار

تدخُّل فرنسا فى شؤونه ، فتم ذلك بمعاهدة « فَزْفار » فى أغسطس سنة ١٦٦٤م ، وقد اعترف فيها بسيادة السلطان على « ترنسلوانيا » . و بعدئذٍ وجه الصدر عنايته الى محاربة

فتح اقريطش

البنادقة ، واشترك هو بنفسه فى حصار « اقريطش » (كريت) ، وهى من خيرة أملاكهم ، فسقطت فى يد الأتراك بعد حرب عوان فى ١٧ سبتمبر سنة ١٦٦٩ م (١٠٨٠ ﻫ)

الحرب مع بولندة

وعقب فراغه من حرب البنادقة دخل مع بولَندة فى حرب عوان . وسبب ذلك يرجع الى عسف البولنديين وظلمهم لقبائل « القوزاق » القاطنين مقاطعة « أوكرين » وكان البولنديون يعتبرونهم من رعاياهم، ثم زاد غضب القوزاق وسخطهم على البولنديين حينما تولى « ميخائيل » مُلْك بولندة ، إذ كانوا يرون فى توليته ابتداء عصر لاضطهادهم لأنهُ هو ابن اكبر ملك أجحف بحقوقهم وسامهم الخسف وسوء العذاب . فثاروا فى عام ١٠٨١ ﻫ (١٦٧٠ م) وآذنوا بالحرب ذلك الملك الطاغى . إلاّ أنهم هُزموا على يد قائده الشهير « جون سُو بِيِسْكى »

فلما ضاقت بهم الحال ، وأيقنوا أن لا مناص من الخسف والظلم ، طلبوا الى الباب العالى أن يكونوا تحت سيادته ليحميهم من هذا الملك الغشوم، فاغتنم « احمد كبريلى » هذه الفرصة وأعلن الحرب على بولندة بحجة حماية رعاياها المظلومين

ففى عام ١٠٨٣ ﻫ (١٦٧٢ م) ظهر السلطان بنفسه ومعه احمد كبريلى » أمام

سقوط كامنيك

حصن « كامِنْيك » المنيع وهو مفتاح مقاطعة « بادوليا » (فى بولندة) ، فسقط الحصن فى يد الترك فى أقل من شهر . فجبُن عند ذلك ميخائيل ملك بولندة ، وعقد صلحاً مع الترك كان أهم شروطه أن يتنازل لهم عن « بادوليا » « وأوكرين » ويدفع جزية سنوية للباب العالى

جون سوبيسكى

إلاّ أن مجلس الأعيان البولندى رأى من العار قبول هذه المعاهدة ، وجمع كل من يستطاع تجنيدهم من الجنــد بقيادة « جون سوبيسكى » ليقاوم بهم عدوهم حتى

النهاية . وبالرغم من عدم مساعدة الدول الأخرى له ، والدسائس التى كانت تُكاد له فى بلاده ، وتمرد الجنود عليه ، تمكن بحذقه ومهارته الحربية وقوة شكيمته من استدامة الحرب بينه وبين الترك أربعة أعوام ، فوقف تقدمهم فى « بادوليا » و « غليسيا » وانتصر على أعظم قوادهم انتصارات باهرة فى موقعتى « شُكزِم » سنة ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م) و « لِمبُرغ » سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥ م) ، وشتت شمل الجيوش التركية الى أن اجتاز نهر « الطونة »

وفى عام ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤م) (وحينما كانت الحرب فى منتهاها من الشدة) مات الملك ميخائيل فانتخب البولانديون بطلهم « جون سوبيسكى » مليكاً عليهم ولكنهم خذلوه مع حبهم له ، فبعد توليته بيومين وجد نفسه وجيشه محاطين بالترك عند « زُرَانو » على نهر الدنيستر ، ولم ينجده البولنديون . ومع ذلك كانت هيبته وشهرة اسمه سبباً فى خلاصه من هذه الورطة ، إذ فضّل القائد التركى ابراهيم أن يعقد صلحاً رابحاً على أن ينازل الأسد فى عرينه . وفعلاً تم عقد صلح « زرانو » سنة ١٠٨٧ هـ (اكتوبر سنة ١٦٧٦ م) ، وأهم شروطه أن تتنازل بولندة عن « كامنيك » و « بادوليا » وجزء من « أوكرين » . وبعد مضى سبعة أيام من تاريخ معاهدة « زُرانو » مات احمد كبريلى ، إلاّ أن سياسته لم تُقْبَر معهُ



جون سوبيسكى
(عدو الترك اللدود)

قره مصطفى

خلف احمد كبريلى فى منصب الصدارة العظمى صهره « قَرَه مصطفى » ، وكانت

أمانيه واطماعه لا تقل عن سلفه ، ولكنهُ لم يُعطَ نصيباً وافراً من المقدرة وحسن التدبير ، فهدم ما بناه محمد واحمد كبريلى بجدهما ونشاطهما بكبريائه وانغماسه فى الشهوات وافتخاره الكاذب. وكان فى بادئ أمره يشعر بحسن المستقبل، فعزم عزماً أكيداً على أن يخترق قلب البلاد الأوربية ويقضى عليها القضاء المبرم بفتح « ويانة »

نجاحه فى اول امره

فابتدأ يتأهب سراً بما لم يُسمع بمثله من قبل ، وجدد علائقه الودية مع « فرنسا» ، وعقد صلحاً مع « الروسيا » ، ووثق صلته ببولندة . وكان غرضه من ذلك أن يترك الامبراطور وحيداً ، وأوشك أن يتم له فعلاً ما أراد ، اذ كان المجر أيضاً ناقمين منذ سنتين على الامبراطور « ليبولد » لتضييقه عليهم فى معتقداتهم الدينية والسياسية ، فثاروا عليهِ سنة ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤ م) بقيادة « توكولى » ، ثم انضم اليهم بعدُ أمير « ترنسالوانيا » ، فتمكنوا فى عام ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) من إجبار الامبراطور أن يعيد اليهم ما سلبهم من الحقوق السياسية ، ويمنحهم الحرية الدينية

الحرب مع النمسا

إلاّ أن « توكولى » لم يكتف بذلك ، بل رغب فى أن يكون هو والياً على المجر ، ولذلك صفا الى «قره مصطفى» الذى منّاهُ بولاية المجر اذا انضم اليهِ على الامبراطور وبذلك تم كل شيء « لقره مصطفى » بعـد أن وثق من عدم مساعدة « لويس الرابع عشر » للإمبراطور ومن منعه ألمانيا أيضاً من موٴازرة النمسا

أماط « قره مصطفى » اللثامَ عن أغراضه سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢ م) وأعان فى ربيع ١٠٩٤ هـ (١٦٨٣ م) أن المجر ولاية عثمانية ، وعبر نهر الطونة على رأس جيش يبلغ ١٥٠٫٠٠٠ جندى . فلما رأى الامبراطور حرج موقفه وأن فرنسا تقف سداً أمامه فى كل باب يطلب منهُ المساعدة ، يئس من مقاومة الترك

مساعدة سوبيسكى لامبراطور النمسا

إلاّ أن « جون سوبيسكى» نكث العهد وأقنع أمته بضرورة مساعدة الامبراطور ، وفى ٣١ مارس أُبرمت محالفة بين الدولتين تعهدت فيها بولندة بتجريد ٤٠٫٠٠٠ مقاتل للدفاع عن النمسا

وكانت الجيوش التركية فى هذه الأثناء متابعة الزحف « نحو فينا » حتى اضطر

الامبراطور « ليبولد » الى الانتقال بحاشيتـه الى « بَسَّاو » . وفى ٩ يوليو خفقت الأعلام التركية على مقربة من أسوار فينا ، وفى ١٤ منهُ حوصرت المدينة وحُفرت خنادق الحصار

حصار فينا

وكانت حالة المدينة سيئة جدًّا ، غير متأهبة للحصار ، وكان عدد حاميتها ١٤٫٠٠٠ مقاتل فقط ، وهى غاصة بالقرويين اللاجئين اليها من الأرياف . وكانت أسوارها قديمة متداعية الى السقوط . على حين أن المهندسين من الترك ورجال مدفعيتهم كانوا من أمهر رجال أوربا فى ذاك العصر

ومع كل هذا لم ينتفع قره مصطفى بهذه الفرصة ، وأضاعها بتلكُّئه وتوانيه ، فانهُ بعد أن شتّت شمل رجال الامبراطور وأنزلهم من معاقلهم ، وأصبحت المدينة ممكنة الفتح مُعْوِرة من كل جهاتها ، لم يُقْدم على مهاجمتها ، بل تردد ، وكان غرضهُ أن تسلّم المدينة بلا حرب ويأخذ ما فيها من الخيرات لقمةً سائغة لنفسه

وكان جون سوبيسكى فى هذه الأثناء يجمع جموعه بكل سرعة عند « كِرَكاو » لإنقاذ المدينة . وكان « الدوق لورين » قائد قوات الامبراطور قـد بعُد عن المجر وعسكرَ شرقى «فينا» على مسافة منها ، ووكل أمر الدفاع عنها الى الكونت استَهْرِمبُرج قائد الحامية ، ولم يجروْ على الزحف لتخليص المدينة حتى أتاه « جون سوبيسكى » فى ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣ م وتسلم قيادة جميع الجيش . ثم زحف نحو المدينة وصار على مقربة من معسكر الجيش التركى ، حين كانت الحاجة ماسة اليـه جدًّا ، إذ كانت الأتراك قد نقبوا أسوار المدينة ، وتفشى المرض فى أهليها . فلما رأت الحامية طلائع النجدات دبَّ فى نفوسهم روح الأمل ، وأيقنوا أن النصر أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى . وتمت لهم أمانيهم بهجوم « جون سوبيسكى » على مقدمة الجيش التركى ، ثم باشتباكه معهُ فى معركة عنيفة شتّت فيها شمل الأتراك وانقذ المدينة . وقـد نجا « قره مصطفى » بحياته بعد أن يئس من الخلاص . وجمع شتات جيشه المنهزم عند « بلغراد »

فشل الترك

ومن هذا الحين ابتدأ نجم الأتراك يأفُل فى أوربا . أما « قره مصطفى » فان الترك باعوه ذلك النصر المضيَّع بضرب عنقه . على أن خلفه ابراهيم كان نصيبه القتل والهزيمة أيضاً . اذ اندحرت الترك فى نفس العام فى شهر اكتوبر عند « بَرْكانى » على يد « جون سوبيسكى » ، فأجلاهم عن كل بلاد المجر

واقعة بركانى

وفى العام التالى (١٠٩٥ هـ : ١٦٨٤ م) انضمت جيوش البندقية الى جيوش « جون سوبيسكى » لاقتفاء جيوش الترك المنهزمة . وفى هذا العام عقد « الحلف المقدس » بين الامبراطور و بولندة والبندقية على الترك ، ولم تمض إلاَّ فترة يسيرة حتى ظهرت ثمرتهُ ، لأنهُ بالرغم من اعتزال « جون سوبيسكى » قيادة الجيش فى ١٠٩٧ هـ (١٦٨٥ م) لاعتلال صحته وشيخوخته ، بقيت فتوح الحلف المقدس تمتد على نهر الطونة برًّا ، وفى البحر الأبيض المتوسط بحراً

الحلف المقدس

ولم تمضِ هـذه السنة حتى استرد « دوق لورين » جميع المجر التركية عدا « بودا » ، واستولى الأسطول البندقى على عدة بلاد على ساحل « ألبانيا » . وفى العام المقبل سقطت « بودا » فى يد « لورين » ، وأخضع لورين جميع المجر . وفى عام ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ م) دُحر الصدر الأعظم عند مدينة « موهاكز » التاريخية ، واسترجع القائد « لورين » « كُرُواتيا » و « سلافونيا » وأخضع « ترانسلوانيا » ، ثم عبر نهر « الطونة » وأخذ « بلغراد » عنوة ، واستمر فى الزحف حتى وصل الى « نيش » عام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ م)

خسائر الترك

وكان مُرُسينى أمير البحر البندقى فى الوقت نفسه يظهر نشاطاً عظيماً فى البحر الأبيض المتوسط ، اذ أخضع فى عام ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦م) أهم بلاد المورة ، ولم يأت عام ١١٠٦ هـ (١٦٩٤ م) حتى خسرت الترك كل أملاكها فى بلاد « اليونان » وعلى الساحل « الأذرياتى »

وكانت قد قامت ثورة فى عام ١٦٨٨ فى القصر السلطانى كانت نتيجتها عزل محمد الرابع وتولية ابنه سليمان الثانى (١٠٩٨ — ١١٠٢ هـ : ١٦٨٧ — ١٦٩١م) ، فعهد

هذا أمر الصدارة العظمى الى « مصطفى كبريلى » اخى احمد كبريلى ، فأظهر ما هو مشهور عن رجال هذه الاسرة من شدَّة البأس وسعة الخلق . فاتبع سياسة التسامح الدينى فى كل أنحاء الدولة ، وأعاد النظام فى الجيش ، فلم يمض عامان من توليته زمام الأمور حتى أصبح النصر حليف الترك . ففى عام ١١٠٢ هـ (١٦٩٠ م) استرجع مصطفى كبريلى « نيش » « وبلغراد » وغزا « المجر » ؛ ولكنهُ هُزم وقُتل فى سنة ١١٠٣ هـ (١٦٩١م) فى واقعة (سِلاَنْـكَمِن) على يد حاكم « بادِن »

مصطفى كبريلى

موته فى موقعة سلانكمن

وبموت هذا الرجل قُضى على آمال الترك المرجوَّة . واستمرت الحرب بعدُ مدة ثمانية أعوام كان النصر فيهـا سجالاً ، إلاّ أن جيوش الامبراطور وجيوش البندقية بقيت محافظة على « المجر » و « ترانسلوانيا » وبلاد « المورة » ، وفى عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) انتصرت الجيوش النمسوية بقيادة البرنس « يوجين » نصراً مبيناً على السلطان « مصطفى الثانى » (١١٠٦ — ١١١٥ هـ : ١٦٩٥ — ١٧٠٣ م) الذى كان يقود الجيش بنفسه عند « زَنْتا »

واقعة زنتا

وابتدأ يظهر شأن بطرس الأكبر ، قيصر الروس العظيم ، فدخل فى هذه الآونة الحرب ، وأخذ من العثمانيين بلدة « آزاق » . فلما رأى السلطان حرج موقفه ، وأن لا فائدة من امتداد أمد الحرب (إذ أيقن أنهُ بانقراض اسرة كبريلى قد انقضى عصر الفتوح) عقد صلح « كارْلُوِتْز » سنة ١١١٠هـ (١٦٩٩م) . وكان أهم شروطه أن يسترجع الامبراطور كل بلاد « المجر » (ما عدا تَمَسْوَار) والجزء الأعظم من كُرْوَاتيا و « سلافونيا » ، وأن تكون له السيادة على « ترانسلوانيا » . أما بولندة فانها استرجعت « بادوليا » وفيهـا « كامنيك » . وتنازلت الدولة أيضاً عن آزاق « للروسيا » . وأما البندقية فانهـا بقيت فى بلاد المورة . ومنذ هذه المعاهدة سقطت هيبة الدولة من أعين دول أوربا سقوطاً نهائياً

معاهدة كارلوتز

٦ – الدولة العثمانية وحروبها مع الروسيا والنمسا

فى القرن الثامن عشر

مقدمة

أخذت الدولة العلية تضعف شيئاً فشيئاً خلال القرن الثامن عشر ، وذلك يرجع الى سببين عظيمين : الأول نهوض الأمــة الروسية وتحالفها مع النمسا على الأتراك لبسط سلطانها وطرد الأتراك من أوربا . والثانى اختلال النظام وسوء الإدارة فى البلاد العثمانية وثوران من فيها من الشعوب المختلفة فى وجه الدولة

المسألة الشرقية

ولما ظهرت علامات الضعف والاضمحلال فى الدولة أخذت دول أوربا تنظر فيما سيؤول اليه أمرها ، ومَنْ يكون الوارث لأملاكها . وتُعرف هذه المسألة عندهم « بالمسألة الشرقية » . ويرجع تاريخها الى عام ١١٠٨ ﻫ (١٦٩٦ م) عند ما استولى الروس على مدينة « آزاق » التى تنازلت عنها الدولة للروسيا رسمياً فى معاهدة « كرلوتز » كما تنازلت أيضاً عن بعض ممتلكاتها الى النمسا ، وبذلك دخلت سياسة الشرق الأدنى فى طور جديد

وبعد هذه المعاهدة وقف تيار تقدم الروس فى الجنوب فترة ، وذلك لِمَا تنازلوا للترك عنهُ فى معاهدة « بروث » الآتى ذكرها سنة ١١٢٣ ﻫ (١٧١١ م) بعد أن انهزمت الروسيا هزيمة منكرة . ولكن ما لبثت هذه الفترة ان انقضت وعادت الروسيا الى مناوأة الترك طول القرن الثامن عشر بلا انقطاع

وكان ضعف الدولة المستمر فى خلال هذا القرن سبباً لمشاكل جديدة وارتباكات شديدة بين دول أوربا . فبينما كانت الروسيا تبذل جهدها لبسط سلطانها على البحر الاسود كانت النمسا من جهة أخرى تعمل طاقتها لمد أملاكها على نهر الطونة . الاّ أن عمل كل من الروسيا والنمسا كان داعياً لقلق فرنسا وتدخُّلها . وفى سنة ١١٨٨ ﻫ (١٧٧٤ م) ابتدأت مقاصد الروسيا تظهر جلياً بعد معاهدة « كجوك قينارجَة » (كُتْشُك كينارجى) التى سيأتى ذكرها . ففطنت انجلترا للأمر ، وأخذت تخاف

انحلال عرا الدولة العثمانية ، كما أخذت أوربا من ذلك الحين تهتم أيضاً بالمسألة الشرقية وتنظر ان كان بقاء الدولة وحفظ كيانها فى أوربا خيراً من ضمها الى الروسيا أم لا

نهضة الروسيا وبطرس الأكبر

وأول من عمل على توسيع نطاق الدولة الروسية وجعلها فى مصاف دول أوربا العظمى هو قيصرها بطرس الأكبر (١١٠٠ — ١١٣٧ هـ : ١٦٨٩ — ١٧٢٥ م)، وكانت قبل عهده بعيدة عن الحضارة الأوربية ، منزوية عن العالم المتمدين . فلما تولى هذا القيصر الملك عام ١١٠٠ هـ (١٦٨٩ م) خطا بهـا خطوات واسعة فى سبيل العمران ، اذ غير أنظمتها وسياستها الداخلية دفعة واحدة ، فاتخذ « بتروغراد » مقراً لملكه بعد ان كان مدينة (مُسكو) ، وأدخل العادات ووسائل المعيشة الغربية فى بلاده ، وضرب بيد من حديد على سلطة الاشراف ، ووضع الكنيسة والجيش (الذى دربه على الأنظمة الأوربية) تحت مراقبته نفسه . أما سياسته الخارجية فلم تقل حزماً وبُعد نظر عن سياسته الداخلية ، اذ رأى أنه لا يتسنى للروسيا أن تكون مملكة تجارية الاّ اذا أرسخ قدمها على البحرين البلطى والاسود ، وكان الأول فى قبضة السويد والثانى فى يد الترك . فجعل همه ابتداء مناوأة السويد ، وبعد حروب طويلة تم له مقصده فى معاهدة « نيستاد » سنة ١٧٢١ م اذ تنازلت السويد للروسيا عن ليفونيا ، وايثونيا ، وإنجريا ، وكرِليا ، وغيرها

أما الترك فأخذ منها آزاق فى معاهدة « كرلوتز » كما سبق[1] . الاّ أن العثمانيين استردوها ثانية فى عهد أحمد الثالث (١١١٥ — ١١٤٣ هـ :—١٧٠٣—١٧٣٠م)

واقعة بروث

وذلك ان الروس لما هزموا « شارل الثانى عشر » ملك السويد فى موقعة « بَلطاوا » لجأ شارل الى الترك وطلب منهم المساعدة ، فلبت الترك دعوته اذ وجدت فى ذلك فرصة لاسترداد ما خسرته ، فشنّت الحرب على الروسيا . وبعد مواقع عنيفة تمكن القائد التركى (بَلْطَجى باشا) من حصر الجيش الروسى ووشك القبض على قيصر الروس عند نهر « بروث » ، ولكنه نجا من الأمر بما قدمته زوجته « كترين » من الرشوة الى الخائن « بَلطجى باشا » . فأفلتَ بطرس وجيشه (بل روسيا الجديدة كلها)


بطرس الأكبر

من براثن الفناء ، واضطرت الدولة بعد هذه الغلطة الشنيعة الى عقد صلح « بروث » عام ١٧١١م الذى استرجعت به من الروسيا ميناء « آزاق » . ويعتبر عقد الروس لهذه المعاهدة على ما نالهم فيها من الخسائر الطفيفة من اكبر سعودهم ، إذ لو لم تتقيد بها الترك وواصلت عليهم الحرب ، لقضت لا محالة على دولتهم وهى فى إِبَّان نهضتها

(١) وبعد مضى خمسة عشر عاماً على معـاهدة « كرلوتز » أراد « قومرْجي على » الصدر الأعظم أن يمحو العار الذى لحق الدولة فى هذه المعاهدة باسترداد بلاد المجر والمورة . وكانت الفرصة سانحة له ، اذ كانت الدولة قد انتصرت على بطرس الأكبر (كما أسلفنا) ، وكانت « الامبراطورية » (النمسا) قد أنهكتها الحروب الأوربية ، ولم يكن للبنادقة من القواد مثل « مروسينى » وأمثاله حتى يقودوها الى الظفر ، فضلاً عن أن بلاد المورة نفسها عند ما غُزيت لم تُظهر أى مقاومة جدّية ، فكانت النتيجة ان تمكن قومرجي بزحف واحد من استرجاع بلاد المورة سنة ١١٢٧ ﻫ (١٧١٥ م)

على أنهُ لم يتم له فى المجر ما أراد ، فانهُ هُزم عند « بيتَرْ وَرْدِن » هزيمة منكرة على يد الأمير « يوجين » فى أغسطس سنة ١١٢٨ ﻫ (١٧١٦ م) . وقُتل الصدر الأعظم فى هذه الموقعة ، فاضطر الباب العالى الى عقد صلح « بَسَّارُوِتْز » عام ١١٣٠ﻫ (١٧١٨ م) . وكان أهم شروط هذا الصلح ان أبقت الدولة للنمسا مقاطعة تمسوار وبلغراد ، وبقى معها المورة معاهدة بساروتز

الحرب مع الفرس

وبعد معاهدة « بسَّاروِتز » لم تفكر الترك فى منازلة الروس ، بل وجهوا همهم نحو «فارس» اذ كانت نار الثورة متأججة فيها . ففى عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ — ١٧٢٣م) لجأ « الشاه طَهْماسْب » الى الروسيا والدولة ليساعداه على منازع له فى الملك ، فانتهز الباب العالى هذه الفرصة واستولى على بعض جهات فارس ، وساعده على ذلك خروج الأرمن على الفرس

وفى عام ١١٣٦ هـ (١٧٢٤ م) عُقدت معاهدة بين الترك والروس على أن تستولى الروسيا على الأقاليم المحيطة ببحر قزوين وتستولى الترك على أقليمى «جورجيا» و « أذِرْبيجان » ، إلاّ أن هذا الأمر لم يدم طويلاً ، اذ ظهر فى فارس عام ١١٤١هـ (١٧٢٩م) زعيمٌ قوى يدعى «نادر شاه» عمل على تخليص بلاده من نير الأجانب ، وما زال بالترك حتى أجلاهم عن البلاد الفارسية عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) بعد حروب طويلة

وكانت الروسيا تريد امتداد الحرب بين الترك والفرس حتى تحقق غرضها فى مسألة الوراثة البولندية (وهى تنصيب أمير من قبلها على هذه البلاد) . لذلك تنازلت للفرس عما أخذتهُ فى عام ١١٣٦ هـ (١٧٢٤ م) وأمدتهم بالذخائر ، وبهذه الحروب الفارسية ضيّعت الدولة فرصة عظيمة بعدم مهاجمتها للروسيا أثناء حرب الوراثة البولندية . والسبب فى ضياعها يرجع الى السلطان « احمد الثالث » ووزيره « ابراهيم » اذ كانا لا يميلان الى مناوأة الروسيا والنمسا ، على حين كانت الروسيا تسعى جهدها دائماً فى مناوأة الدولة

اتفاق الروسيا والنمسا على الدولة

وفى عام ١١٣٨هـ (١٧٢٦م) عقدت روسيا محالفة مع النمسا نعلم منها سر سياسة كلتا الدولتين فى القرن الثامن عشر . وأهم شروطها أن تتعهد كل للأخرى أن تمدها بنحو ٣٠,٠٠٠ مقاتل اذا هاجمها غير الترك ، أما اذا كانت الدولة العثمانية هى المهاجمة فيجب على كلتا الدولتين أن تحارباها معاً بكل ما لديهما من القوة

وبعد أن نجحت النمسا والروسيا فى تنصيب أمير على « بولندة » من قبلهما لم

يكن أمامهما عائق من مهاجمة الدولة والسعى فى تقسيمها بينهما . وقد كانت الفرصة سانحة للروسيا فى هذه الآونة لمحو أثر معاهدة « بروث » ، إذ أن بولندة التى كان يطمح بطرس الأكبر أن يجعلها الطريق الموصل الى بلاد الترك قد خضعت لنفوذ الروسيا ، والترك مغلولو الأيدى فى حربهم مع نادرشاه ، والنمسا أيضاً كانت تطمح الى الزحف على نهر الطونة لتعويض ما فقدته من الممتلكات فى جهات أخرى من أوربا . هذا الى ان نادرشاه كان أكّد للروسيا قبل صلحه مع الدولة أن لا يمسها بمكروه اذا دارت رحى الحرب بينها وبين الترك ، والى أن الروسيا فوق ذلك كان لها أعوان وجرائيم فتن فى قلب المملكة العثمانية من الشعوب المسيحية التى كانت شديدة الميل الى الروسيا ، حتى أنه لما أشيع خبر نشوب الحرب فى عام ١١٤٨ ﻫ (١٧٣٥ م) ثارت كل الرعايا المسيحيين العثمانيين آملين الخلاص من حكم الدولة . ومن هذا الوقت أخذت الروسيا تستعمل اطماع هؤلاء الرعايا الدينية والوطنية فى تمزيق احشاء الدولة العثمانية وتبديدها

تأهب الروسيا للحرب

نشوب الحرب

كل هذه الامور تدل على أن الروسيا كانت تتأهب لمحاربة الدولة وتنتظر حدوث أى شيء تتمسك به لشهر الحرب عليها . وفى عام ١١٤٨ ﻫ (١٧٣٥ م) وجدت لذلك فرصة مناسبة وهى زحف جيوش من التتار على بلاد « القوقاس » (القبجاق) وأرمينية . وكان هؤلاء التتار خاضعين للدولة العثمانية ، فخرجت الجيوش الروسية لصدهم وغزوهم فى ديارهم ، ثم أخذت تتأهب لملاقاة الترك ، فعهدت بالقيادة العامـــة الى « ميونخ » ، وضم هذا اليه غيره من الضباط الاجانب المستأجرين

القائد ميونخ

وكان « ميونخ » هذا من أكبر قوّاد القرن الثامن عشر ، وُلد فى ألمانيا وحارب فى الجيوش النمساوية والبولندية والروسية . وبهر بطرس الأكبر بما له من الصفات الحربية العظيمة ، فسعى فى استخدامه

الحرب فى القرم

وأول ما عزم عليه فى هذه الحرب استرجاع « آزاق » ، فأخذ يستعد فى شتاء ١٧٣٥ — ١٧٣٦ م . وفى ربيع ١١٤٨ ﻫ (١٧٣٦ م) انقض على « القرم »

وناط حصار « آزاق » بالقائد « لاسى » الأرلندى . وفى شهر مايو وصلت أخبار الحملة الروسية الى القسطنطينية ، فأعلنت الدولة الحرب على الروسيا فى ٢٨ منه . وكان ميونخ وقواده قد توغلوا فى شبه جزيرة القرم واحتلوا كثيراً منها . الاّ أنهم تكبدوا فى ذلك خسائر فادحة واضطروا للجلاء عنها والتراجع الى « أوكرين » فى ٢٥ أغسطس سنة ١٧٣٦ بعد ان ارتكبوا فى القرم من الفظائع والمنكرات ما لا يوصف

دخول النمسا فى الحرب

ثم دخلت الحرب فى طور جديد لتجديد تحالف الروسيا مع النمسا فى ٩ يناير سنة ١١٤٩هـ (١٧٣٧م) تأكيداً لمعاهدة ١٧٢٦م ، فأثارت النمسا الحرب أيضاً على الدولة العثمانية التى قابلتهما بمقاومة أدهشت أوربا بأسرها : فاضطرت ميونخ الى التقهقر عن أوكرين ، وردّت النمسويين مقهورين حتى أقليم « بنات» ، فأحجموا عن الحرب وأخذوا يفاوضون الدولة سرًّا فى عقد الصلح معهم على انفراد . فغاظ ذلك ميونخ غيظاً شديداً . وكانت له آمال كبيرة فى القضاء على الترك : من ذلك أنه عرض على قيصرة الروسيا فى ذلك العهد أساس ذلك المشروع الخطير الذى يسمى «المشروع الشرقى» وفحواه أن الروسيا ترى أن لها الحق الطبيعى فى الزعامة على المسيحيين من رعايا الدولة ، فيجب عليهـا أن تعمل على نشر الدولة « البوزنطية » بالقسطنطينية . ولذلك كان جل أمانى « ميونخ » مواصلة الحرب ، وبالفعل أغار على « مُلدافيا » (البغدان) وهزم جيوش الدولة فى « شُكزِم » سنة ١١٥٢هـ (١٨ أغسطس سنة ١٧٣٩م) . إلاّ أن توالى هزائم النمسويين وعقدهم وحدهم الصلح مع الدولة قضى على أمانيه ، وخاصة بعد أن علم بعزم السويد على محاربة الروسيا وبقيام بعض الفتن فى داخلية بلاده ،

مهادنتها للدولة على انفراد

المشروع الشرقى

معاهدة بلغراد

ولذلك رضيت الروسيا بعقـد الصلح وأبرمت مع الدولة معاهدة بلغراد الشهيرة فى سبتمبر سنة ١٧٣٩ م : ففى المعاهدة التى عقدت مع النمسا على انفراد أخذت الدولة العلية بلغراد و « أرسُوفا » وجميع بلاد الصرب والبوسنه و بلاد الأفلاق والبغدان .

أما الروسيا فانها لم تأخذ مما فتحتهُ سوى آزاق بعد هدم قلاعها ، واشترطت عليها الدولة ألاّ تدخل أساطيلها فى البحر الاسود ، بأن يكون بحيرة عثمانية بحتة

وهذه هى آخر معاهدة رابحة عقدتها الترك مع الدول الأوربية . وقد لقيت الدولة فى ابرامها مساعدة عظمى من فرنسا ، لأنها كانت تخشى اتساع سطوة الدولتين: الروسية والنمسوية

بعد ذلك ساد السلام بين الروسيا والدولة مدة طويلة مات فى أثنائها السلطان « محمود الأول » (١١٤٣ — ١١٦٨هـ : ١٧٣٠ — ١٧٥٤م)، وخلفه السلطان « عثمان الثالث » (١١٦٨ — ١١٧١هـ : ١٧٥٤ — ١٧٥٧م)، ولم يحصل فى عصره شىء جدير بالذكر . ثم تولى بعده السلطان « مصطفى الثالث » (١١٧١ — ١١٨٧ هـ : ١٧٥٧ — ١٧٧٣ م)، وكان ولوعاً بالحروب ، فلما رأى أن ازدياد نفوذ الروس فى بولندة يتعاظم بهمة قيصرتهم العظيمة « كترين الثانية » التى تولت الملك سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٣ م) خشى على بلاده . ورأت ذلك أيضاً الحكومة الفرنسية بالنسبة لبلادها فوافقته على رأيه ، ولذلك عزم الباب العالى على منازلة الروس . وقوّى عنده هذا العزم أن الروس كانوا منذ ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) يحرضون اليونان و «الجبليين» و «البوسنيين» على الخروج على الدولة . وفى سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨م) اشتد حنق الباب العالى إذ دخلت الجنود الروسية أملاك الدولة أثناء مطاردتهم لبعض البولندية الفارّين من وجوههم ، وأحرقوا «بلطة» التابعة لخان القرم أحد ولاة الدولة . فأعلن الباب العالى الحرب على الروسيا فى ٦ أكتوبر سنة ١٧٦٨ لذلك وبحجة الدفاع عن حرية البولنديين

تجدد الحرب

ابتدأت الحرب بين الدولتين، فلازم سوء الطالع الدولة من أول نشوبها، فلم تلبث ان انهزمت أمام الروس على نهر دنيستر واحتلت الروسيا « ملدافيا » (البغدان) وبلاد « الأفلاق » و « بِسَّارَبيا » و « القرم » . وفى خلال هذه المدة كان الأسطول الروسى ظافراً فى البحر ، فانتصر على أسطول الدولة عند ثغر « جَشْمَة » (شِزْمى) فى يوليو سنة ١٧٧٠ ، ولولا ما أبداه القبودان حسن باشا الجزائرلى من الشجاعة لأحدق الخطر بالقسطنطينية . وما زالت الجيوش الروسية تجدّ فى فتح بلاد

الدولة بقيادة القائدين العظيمين « رومانوف » و « سوفاروف » وغيرهما حتى خشيت الدولة العلية العاقبة وطلبت الصلح فى سنة ١٧٧٤م . وكانت « كترين » مشغولة أيضاً بحرب بولندة و بثورةٍ داخلية أثارها قوزاق نهر الدون . وكانت انجلترا أيضاً قد استرجعت قوَّادها من الجيوش الروسية لما رأته من توالى هزائم الترك ، فلم ترَ « كترين » بدًّا من إيقاف الحرب مع الدولة مع كثرة انتصاراتها فيها ، وأبرمت معها معاهدة كجوق قينارجة (كنشك كينارجى) سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) . وهى أهم معاهدة عقدت بين الدولة والروسيا وأول طور جدى فى المسألة الشرقية . على أن الروسيا لم تنل بهذه المعاهدة أملاكا شاسعة ، اذ كان ما أخذتهُ قاصراً على « كِنبُورْن » و « كِرْتش » و « آزاق » والأقاليم المجاورة لها : مما ثبّت قدمها على شمالى البحر الأسود . ولكنها نالت بها حقوقاً سياسية كبيرة كان لها شأن عظيم فى المستقبل ، لأن الدولة قبلت فى هذه المعاهدة أن تضمن للروسيا حكومة عادلة وحرية دينية للرعايا المسيحيين، وجعلت للروسيا الحق فى المطالبة بحقوقهم كلما رأت حاجة الى ذلك . وهذا حق كبير لا يستهان بهِ ، اذ أخذتهُ الروسيا بعدُ ذريعة للتدخل فى شؤون الدولة كلما رأت ذلك من مصلحتها . وقد كان ذلك أكبر مكدر لصفو الدول الأوربية على الدوام

خسائر الدولة



كترين الثانية

معاهدة كجوق قينارجة

سادت السكينة بعد ذلك فترة بين الدولة والروسيا ، ولكن « كترين » كانت لا تزال متشبثة (بالمشروع الشرقى) وتمنّى نفسها بإنفاذه متى سنحت الفرصة . وفى عام ١١٩٧ هـ (١٧٨٣ م) نقضت العهد وضمت القرم اليهـا بالرغم من تهادنها مع

نبذ الروسيا العهد

معاهدة القسطنطينية — الدولة ، فخشيت فرنسا وانجلترا من توغل كترين فى الأملاك العثمانية ونصحت للباب العالى بالتنازل عن « القرم » و « كوبان » ، فتم ذلك بمقتضى معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨ هـ (يناير سنة ١٧٨٤ م)

على ان الروسيا لم تقف عند هذا الحد ، ودأبت على إنفاذ مشروعها الشرقى وتوسيع نطاق أملاكها من الأملاك العثمانية ، فأخذت تعمل منذ عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٦ م) على دس الدسائس فى كل ولايات الدولة ، فنجحت دسائسها فعلاً فى مصر (راجع ظهور على بك الكبير فى الفصل التالى) ، وفى اليونان والبغدان . فشرعت الدولة تستعد للحرب الى أن أرغمتها روسيا على خوض غمارها بتعدد إهاناتها

وآخر ما حدث من ذلك ان « كترين » خرجت الى القرم فى موكب حافل ، تجدد الحرب — ولما وصلت فى طريقها الى « خرسون » كتبت على احد أبوابها : « الطريق الى بوزنطة » ، إشارة الى أنها عما قريب ستفتح القسطنطينية . عند ذلك ثارت خواطر مسلمى الدولة ، واضطر الباب العالى الى اعلان الحرب على الروسيا سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٧ م) . فأسرع القائد حسن باشا الى مهاجمة « كِنبُورْن » ، ولكنه ردّ عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة لوقوف القائد العظيم « سوفاروف » فى وجهه . وكانت الروسيا قد عقدت معاهدة جديدة مع النمسا على الدولة العثمانية ، ولكن النمسا لم تقدر على القيام بمساعدة تذكر فى هذه الحرب لاشتغالها بالاضطرابات القائمة فى الأراضى الواطئة (وكانت من أملاكها) ، ثم اضطرّت الى ابرام معاهدة «سِسْتوفا» مع الدولة سنة ١٢٠٦هـ (أغسطس سنة ١٧٩١ م) ، وبذا انسحبت من الحرب . أما الروسيا فانها بقيت قادرة على مواصلة الحرب بفضل مهارة « سوفاروف » ، فاستولى على جهتى « اوخاكوف » و « اسماعيل » سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠م) ، وانضم الى ذلك انتصارات الجيوش الروسية فى « القوقاس » و « كوبان » . وأخيراً انتبهت أوربا الى اطماع « كترين » ، ورأت أن لا بدَّ من وقوفها عند حد ، فتدخلت انجلترا وبروسيا وهولندة فى الأمر ، ولم تبدِ الروسيا معارضة لأنها أخذت توجّه انظارها نحو

[illegible] ١٧٨٧ - ١٧٩٢ .

فرنسا التى كانت نار الثورة تتأجج فيها وينتظر اشتباك النمسا وبروسيا معها فى حرب و بذلك يخلو الجو للروسيا فى بولندة . لذلك رضيت كترين بمهادنة الدولة وأبرمت معها معاهدة « ياسى » سنة ١٢٠٦ هـ (يناير سنة ١٧٩٢ م) . وأهم شروطها ان اعترف الباب العالى بكل مواد معـاهدة « كينارجى » وترك للروسيا أيضاً القرم وباقى الأراضى العثمانية الى نهر الدنيستر . و بذا صارت الروسيا صاحبة السيادة المطلقة على شمالى البحر الاسود مساهدة ياسى

هذا ما وصلت اليه الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر من جراء السياسة الروسية. وقد خسرت أملاكاً أخرى فى القرن التاسع عشر ، ولكن دول أوربا العظمى لم تسمح للروسيا الى الآن بتنفيذ مايرمى اليه المشروع الشرقى الذى كان تحقيقه جل أمانيها ، وان يكن سمحت لغيرها بالتصرف فى كثير من أملاكها

الفصل الثالث

حكم العثمانيين فى مصر

(٩٢٣ — ١٢١٣ هـ : ١٥١٧ — ١٧٩٨م)

باستيلاء السلطان سليم على مصر فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) أصبحت جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، ودخلت فى طور طويل دام نحو ثلاثة قرون (٩٢٣—١٢١٣هـ : ١٥١٧ — ١٧٩٨ م) لم يكن لها فيه شأن سياسى يذكر فى التاريخ . وقد كانت مصر فى معظم ذلك العصر مشهَداً للفتن والمُشاحنات : إمّا بين سلائل المماليك أنفسهم ، واما بينهم و بين الولاة العثمانيين ، واما بين هؤلاء وجنود الحامية العثمانية. وكل هذه الحوادث متشابهة ، ولم يكن لها أثر دائم فى تاريخ مصر . لذلك نعدِل عن تتبع أخبار فتن ذلك العصر ، ونكتفى بالكلام على حالة البلاد فيه بوجه عام ، فنقول : طور جديد فى تاريخ مصر

١ — ﴿ نظام الحكومة ﴾

الحكومة فى ثلاث سلطات

بعد أن تمّ للسلطان سليم فتح مصر وضع لإدارتها نظاماً يكفُل بقاء خضوعها وعدمَ استقلال أحد فيها بأمرها ، فأودع مقاليدَ حكمها ثلاثَ سُلطات ، له من تنافس رجالها اكبرُ كفيل ببغيته :

١ . الوالى

السلطة الأولى — الوالى ، وأهم أعماله إبلاغُ الأوامر التى ترد عليه من السلطان الى عُمّال الحكومة ومراقبةُ تنفيذها

٢ . الجيش

والسلطة الثانية — جيش الحامية ، وقد كوّنه السلطان سليم من ست فِرَق (وجاقات) ، ونصّب عليهم قائداً يقيم بالقلعة ، وجعل على كل فرقة ستة من الضباط ، وشكّل من هؤلاء الضباط مجلساً (ديواناً) يساعد الوالى فى إدارة شؤون البلاد ، وجعل لهذا الديوان الحقَّ فى رفض مشروعات الوالى اذا لم يرَ فيها مصلحة

٣ . المماليك

والسلطة الثالثة — المماليك : نصّب كل واحد منهم على سنجق (مديرية) من الأربع والعشرين مديرية التى تتكوّن منها البلاد . وكان هؤلاء الرؤساء من المماليك يُعرَفون « بالبيكوات » وتسمى مديرياتهم « سناجق »

تعديل سليمان

ولما انقضى حكم السلطان سليم فى سنة ٩٢٦ ﻫ (١٥٢٠ م) وخلفه السلطان سليمان القانونى أنشأ مجلسين آخرين يُعرفان بالديوان « الأكبر » « والأصغر » ، يجتمع أولهما عند التحدث فى الشؤون الخطيرة ، ويجتمع الثانى كل يوم ، وأعضاء الأول من رجال الجيش والعلماء معاً ، وليس بالثانى أحد من العلماء ونحوهم . وأضاف سليمان أيضاً فرقة سابعة الى الجيش ضم اليها عتق المماليك . فبلغ بذلك جيش الحامية نحو ٢٠٠٠٠*

* وقد ادخل الترك كثيراً من الالقاب فى مصر لايزال كثير منها مستعملاً الى الآن منها : لقب « باشا » الذى كان يطلق على الولاة المرسلين من القسطنطينية ، ولقب « أغا » وكان يطلق على قائد الجيش أو الفرقة الواحدة ، ولقب « كتخدا » أو « كخية » وهو وكيل الباشا وكان يطلق أيضاً على موظف خاص فى كل فرقة بالجيش . أما لقب « البك » و « الافندى » فكان لكل منهما معنى خاص فى مبدأ الامر فقد بالتدريج حتى صارا يستعملان فى معنييهما الحاليين

ذلك هو النظام الذى وضعهُ العثمانيون لإدارة مصر ، ولا غاية لهم منـهُ سوى المحافظة على بقاء البلاد خاضعة للدولة ، سواء أكان ذلك فى صالحها أم لم يكن . وقد بقيت هذه السياسة ناجحة نحو قرنين من الزمان ، الى أن أخذت الدولة فى أسباب التقهقر ، وزحفت النمسا والروسيا على حدودها الشمالية ، فضعف نفوذها فى مصر ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى أيدى المماليك

٢ — الضرائب

المال الأميرى وميزات الملتزمين

لما فتح العثمانيون مصر فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فرضوا عليها خراجاً سنوياً يرسل للسلطان ، يجُمع من ضرائب الأملاك وخاصة الأراضى . وكانت هذه الضرائب تسمى « الميرى » (أى الأموال الأميرية) ، وكان لكل جهة ملتزِم يتعهد بتوريد ما يخصها من الخراج ، ومن أجل ذلك تُعفى أرضه من الضريبة ، ويُكلّف الفلاحون زرعَها له بالمجان ، علاوة على ضريبة أخرى يجبيها لنفسه منهم . وكانت حقوق هؤلاء الملتزمين ومناصبهم وراثية

الاوقاف

وكان جانب عظيم من الأرض موقوفاً على المساجد والمدارس والأربطة وغيرها من الأمور الخيرية ، وهو مُعفى أيضاً من الضريبة ويُزرع بعضه (إن لم يكن كله) بالتسخير *

قلم الأفندية

وأنشأ السلطان سليم بالقاهرة قلماً يعرف بقلم « الأفندية » لتقرير الضرائب ومراقبة جمعها وتسلُّمها من الملتزمين ، وجعل فيهِ دفاتر لحصر حساب الحكومة وأخرى لتدوين انتقال الملكية

كثرة الضرائب

فيُعلم مما تقدم ان كاهل الفلاح كان مُثْقَلاً بالضرائب وأعمال السخرة . وليت مصابهُ وقف عند ذلك الحدّ ، فإنَّ ما كان ينتزّه منهُ بيكواتُ المماليك أنفُسهم كان

* روى ان السلطان سليم لما هم بمغادرة الديار المصرية شاوره « خير بك » فى ابقاء اوقاف المماليك أو حلها (وكانت نحو عشرة قراريط من ارض مصر ، جميعها معفى من الضرائب) ، فامر السلطان سليم بابقائها . فاعترض عليه وزيره ، فضرب عنقه

أدهى وأمرّ ، فإنّ كل بيك من حكام المديريات كان يفرض على محصول الأراضى ضريبة لإدارة المديرية تسمى « كشوفية » ، وكثيراً ما يفرض على السكان ضرائب أخرى اضافية كلما احتاج الى المال لمحاربة نظرائه من المماليك أو مكافحة الباشا أو السلطان

بهذه الضرائب المضاعفة ، التى لم يكن لها حد معلوم ، تسرّب الفقر الى أهل البلاد حتى وصلوا فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الى درجة من الفاقة لم يسبق لها مثيل

٣ — ﴿ المبانى ﴾

فقر البلاد

لم تعُدْ مصر بعد أن فتحها العثمانيون دولة ذات أملاك عظيمة كما كانت من قبل، بل صارت ولاية لا ثروة لها الآمن داخلها ، وهذه الثروة ذاتها أخذت فى الاضمحلال بتسرّب الإهمال فى مرافق الزراعة والصناعة ، ثم إن اهتداء البرتقال الى طريق للهند حوْل جنوبى افريقية حوّل التجارة المارة بين أوربا والهند من طريق مصر الى المحيط الاتلنتى (كما سيأتى ذكره) . كل ذلك أضعف كثيراً من ثروة البلاد فصارت لا تقوى على إنشاء الآثار العظيمة التى كانت تقام من قبل

عدم اهمال المبانى

على انه لم ينشأ عن هذه الحالة اهمال المبانى جملةً . فالقاهرة مملوءة بالجوامع التركية ، وبها من السبُل والأربطة (التكايا) والوكائل والربوع التى شُيّدت فى هذا العصر شيء كثير ، وانما نشأ عنها توخى الاقتصاد فى إقامة المبانى وزخرفتها ، فلم تعد الجوامع تُبنى بتلك السعة العظيمة التى نشاهدها فى أبنية القرون السالفة ، ولم يُصرف على زخرفتها من المال شيء يذكر بجانب ما كان يُنفق على مثلها فى تلك الأزمان . ومن نتائج الاقتصاد فى مبانى هذا العصر أيضاً ان صارت السُّبُل والمكاتب تبنى لها ابنية قائمة بذاتها بعد ان كانت من ملحقات الجوامع

توخى الاقتصاد

قلة الدقة فى البناء والزخرفة

كذلك قلّت الدقة فى البناء ، لقلة الثروة من جهة ، ولتقهقر الصناعات من أخرى . وليس من آثار هذا العصر ما يلاحظ عليه آثار الدقة الاّ القليل ، ومثل ذلك شُيد فى أوائل عهد العثمانيين فى مصر . ومن أهم هذا النوع سبيل « خسرو باشا » بالنحاسين

سبيل خسرو باشا

المشيَّد ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) وهو المجاور لقبة الصالح أيوب بالنحاسين

وقصارى القول ان آثار العصر التركى فى مصر ، وان كانت جميلة فى بابها ، هى أقل رونقاً ودقة من آثار المماليك . وسواء فى ذلك المبانى أو الترميمات ، فإنَّ هذه الترميمات لم تتناسب فى أى أثر رُمِّم فى هذا العصر مع جمال البناء الأصلى ، وكثيرًا ما تكون أشبه بالرقع الخلقة فى الثوب الجميل

مستحدثات العثمانيين فى المبانى المصرية

واستحدث العثمانيون فى بناء الجوامع بمصر الشكل التركى ، وهو متخذ من شكل كنائس « بوزنطية » القديمة . وأهم شيء فى أوضاعه اتخاذ القباب بدلاً من السُّقُف المستوية ، فصارت القبة فى كل جامع هى المركز الذى يدور عليه البناء بعد ان كانت إشارة الى الأضرحة والتُرَب فى الزمن السابق . ومن مميزات هذه المبانى أيضاً اتخاذ « القاشانى »* المحلى بالأشكال الفرنجية دون العربية ، و بناء المنائر الاسطوانية الشكل أو المنشورية الكثيرة الأضلاع جدًا حتى تقرب من الاسطوانيـــة ، وتنتهى غالباً بمخروط أو هرم كثير الأضلاع يتخذ من الخشب

فأول جامع بُنى فى مصر على هذه الأشكال البوزنطية هو جامع سليمان باشا الشهير الآن بسارية الجبل الذى شيد داخل القلعة سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨م) . ويليه جامع سنان باشا ببولاق المشيّد سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) ، ثم جامع الملكة صفية بالداودية المبنى سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م)

سبيل عبد الرحمن كتخدا

وقد حوكيت الأوضاع العربية فى بعض مبانى هذا العصر ، الا أن هذه المحاكاة قلما كانت تامة ، حتى فى أقرب المبانى الى الوضع العربى مثل سبيل عبد الرحمن كَتْخدا المبنى سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤م) ، وهو فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية . ويكفى للدلالة على أنه ليس عربى الشكل من كل وجه شكل شبابيكه ومصبَّعاتها النحاسية .
(قارن هذه بشبابيك سبيل خسرو باشا العربية الشكل)

كتخدا شيخ المشيدين

ولم يكن الولاة وحدهم هم المشيدين لهذه الآثار ، بل ان معظمها كان من عمل أمراء

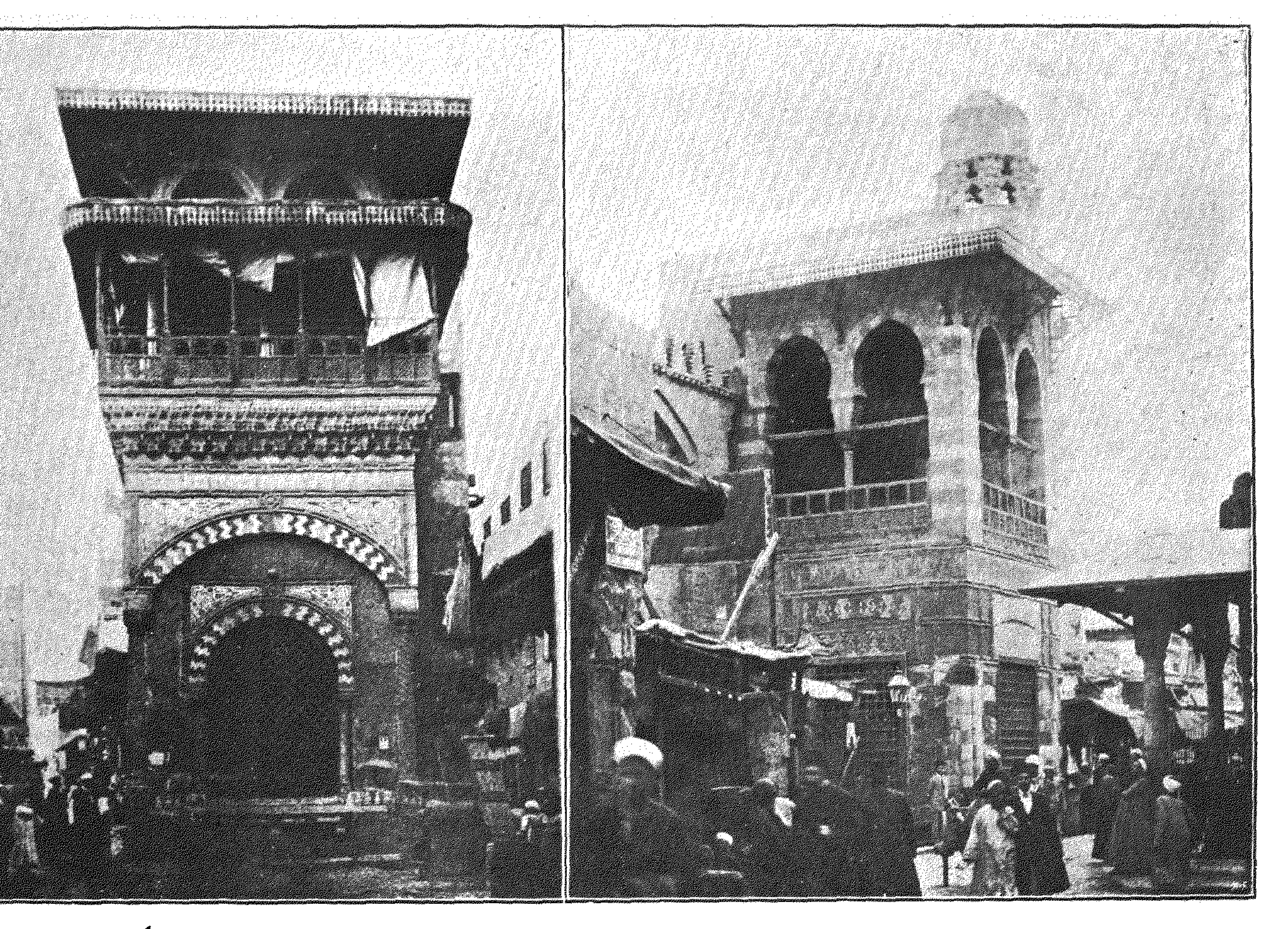
* القاشانى قطع من الخزف المطلى بالميناء عليها أشكال هندسية أو نباتية ملونة

المماليك أنفسهم . وشيخُ المشيدين والمرممين فى ذلك العصر هو « عبدالرحمن كَتْخُدَا » من كبار المماليك الذين استحوذوا على جانب عظيم من السلطــة فى أواسط القرن الثامن عشر بعد الميلاد ، فان بالقاهرة من آثاره ١٨ جامعاً مابين مُنشأ ومجدَّد ، وذلك عدا الكثير من الزوايا والأضرحة الصغيرة التى رممها ، وعدا السبل الكثيرة التى أنشأها ، وله أيضاً قناطر (كبارى) وأعمال أخرى هندسية . ومن أجمل آثاره سبيله الصغير ، السالف الذكر ، وان كان فى الحقيقة أصغر أعماله . ومن مبانيه جامع خارج باب الفتوح وآخر بالقرب من باب الغُرَيّب ملحقٌ بهِ صهريج وسبيل ومدرسة . وبنى صهريجاً آخر للسقائين بالقرب من جبَّانة الأزبكية ، وجدّد ضريح السيده زينب وضريح السيدة سكينة ، وشيد غيرهما بالقرب من باب القرافة وبجهة عابدين وغيرها . ومن أهم آثاره تجديداتُه بالأزهر ، فإن معظم ما جُدِّد أو زيد فى هذا الجامع حتى جعله فى شكله الحالى: من عمل عبدالرحمن كتخدا . ذلك الى ما أنشأه فيه من دور الكتب والمطابخ وغيرها تشجيعاً لطلب العلم

وآخر ما أقيم بمصر من الآثار التركية الجميلة المكتب والسبيل اللذان بناهما السلطان مصطفى الثالث (١١٧٣ هـ : ١٧٥٩ م) تجاه مسجد السيدة زينب عند مدخل شارع الكومى الموصل للمدرسة السنية ، والمدرسة والسبيل والمكتب التى بناها السلطان محمود الأول (١١٦٤ هـ : ١٧٥٠ م) فى شارع درب الجماميز فى مدخل حارة الحبانية أمام قنطرة سنقر . والبناءان فى قِمَّــة ما وصل اليهِ فن العمارة التركية البحتة من الإتقان

متى اهملت المبانى العربية

يعلم مما تقدم أن الآثار العربية لم تهمل أثناء العصر العثمانى فى مصر ، بل عُنى بصيانتها وزِيد عليها بقدر ما تسمح بهِ ثروة البلاد فى ذلك الحين . وإن ما أصاب الآثار العربية من الاهمال (بل الإبادة) لم يبتدئ إلاَّ منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر م) عند ما استولت الحكومــة على ريع الأوقاف التى كان يُصرف منها على صيانتها . وزاد الطين بلة ما ابتدأ بهِ ذلك العهدُ من إصلاح البلاد



سبيل ومكتب خسروه باشا

سبيل ومكتب عبد الرحمن كتخدا

على النمط الأوربى ، إذ اقتضى ذلك انشاء شوارع مستقيمة بالقاهرة . وغالى القائمون بهذا الإصلاح ، فهدّموا كثيراً من الآثار النفيسة لإيجاد فضاء للشوارع أو الميادين المراد انشاؤها . وأوضحُ مثال لذلك «شارع محمد على» ، فانهُ لم يتمّ انشاؤه إلاّ بعد أن هُدّم لأجله الكثير من المبانى الأثرية الفاخرة : من ذلك جامع بديع كان «بميدان» «باب الخَرْق» تلهج كتب التاريخ بفخامته* ، وجامع «قوصون» (قَيسون) ، وجامع أزبك (موضع العتبة الخضراء) ، وكان الأخيران من الجوامع الفخمة العظيمة

لجنة حفظ الآثار العربية

وربما كان الخطب أعظم لو لم تؤلف «لجنة حفظ الآثار العربية» : ألّفها الخديوى توفيق باشا سنة ١٨٨١م لمنع العبث بهذه الآثار والمحافظة عليها، فكان لأعمالها أعظم ثمرة فى ذلك

٤ — ﴿ المماليك وأهل البلاد ﴾

عزلة المماليك عن المصريين

مماليك هذا العصر (كمن سبقهم من المماليك) لم يمتزجوا بالسكان الأصليين، بل عاشوا مُتَرَفّعين فى مَعْزِل عنهم . وقليل منهم من تزوج وكوّن له اسرة ، إذ كان دَيْدَنهم الحروب والفروسية ، فلا يرضَوْن بشيء يشغلهم عنها . ومعظمهم كان يموت فى ساحة الوغى وسنّه لا تتجاوز الخامسة والثلاثين . ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج (وهو النزر اليسير) كان نسله يندمج على مدى الأيام فى المصريين

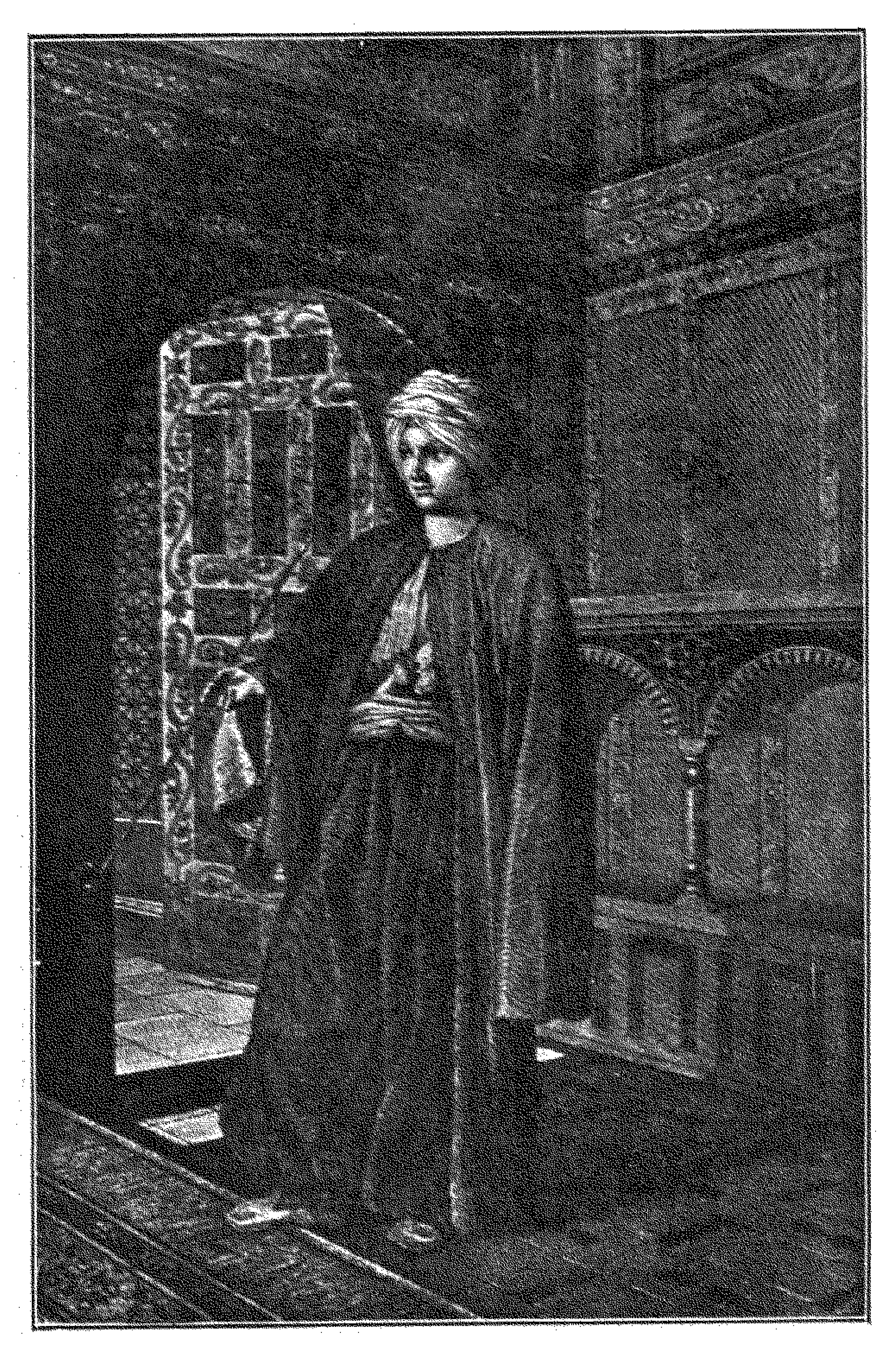
ترف المماليك

وقد غالى المماليك فى أواخر العصر العثمانى فى ابتزاز الاموال من الاهلين ، وانغمسوا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عاداتهم الأولى المبنية على الخشونة والسذاجة فى كل شيء ، وصارت حُلّة البيك منهم لا يقل ثمنها عمّا يعادل ٦٠٠ جنيه الآن (مع عظم قيمة النقود فى تلك الأيام) ، ولا يمتطون إلاّ خيول «نجد» العربية الاصيلة التى يبلغ ثمن أحدها نحو ٣٠٠ جنيه

ولم يكن ذلك قاصراً على البيكوات أنفسهم ، بل ان مماليكهم الذين لم يرتقوا بعدُ

* هو جامع اسكندر باشا المتولى على مصر سنة ٩٦٣ هـ ، وهو غير اسكندر باشا الفقيه الجركسى الذى انابه سنان باشا عند خروجه الى اليمن ، وسيأتى ذكره بعد

الى مراتب الرياسة كانت ركائبهم مزيّنــة بأفخر الحرائر ، ومُرَقّشة من كل جانب بالذهب والفضة ، على حين أن المصريين الاصليين لم يسمح لهم إلا بركوب البغال والحمير



شكل مملوك

(عن كتاب وصف مصر)

فقر الأهلين

وصار أهل البلاد هم العبيـد الحقيقيين ، و « المماليك » هم السادة . اذ استولى المماليك على جميع الأملاك الاّ ما كان منها موقوفاً على الأعمال الخيرية فى وصاية

العلماء . وتشعثت حال الفلاّح حتى صار رثّاً فى ملبسه ومسكنه ومأكله : لا يكاد يُفيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يطالَب بدفع أخرى ، واذا امتنع عن الدفع (فقراً أو ادّعاءً) ضُرب وعُذّب حتى يدفع ، وربما قُتل من أجل ذلك

اهمال الزراعة والصناعة

واختلّ الأمن فى تلك الأيام ، وكثرت مناسر اللصوص وقطّاع الطرق ، فتأخرت التجارة ، وأُهملت مرافق الزراعة ، وانقرض معظم الصناعات ، وكانت قد دخلت فى طور تقهقر بعد أن نقل السلطان سليم أمهر الصنّاع الى القسطنطينية ، فقضى الفقرُ واختلال الأمن على البقية الباقية منها

وفى أواخر القرن الثانى عشر هـ (الثامن عشر م) كان تكرير السكر لا يزال جارياً فى بعض أنحاء البلاد ، وكذلك بقى أثر من صناعة الحرير والكَتان التى كانت لمصر فيها شهرة فائقة من قبل ، كما بقيت نماذج من صناعة الزجاج

كرم المماليك

على ان الذى لطّف هذه الحالة أنّ ما كان يُجْبَى من البلاد كان يصرف فى نفس البلاد : فالثروة التى كانت ترد متجزئة الى خزائن الأمراء وتتجمع فيها ، تُنفق بعد متجزئةً الى التجار من الأهلين بعد دفع الخراج ، الذى لم يكن كبيراً . ولم يكن ظلم المماليك وعسفهم ليمنعهم من الكرم وبذل الصدقات ، فكان كبار القوم يعيشون فى رخاء وسعة ، وكانت بيوتهم مفتّحة للقادمين فى الغداء والعشاء . وكانوا فى الاعياد يوزّعون كثيراً من الارز والعسل واللبن على الفقراء والمساكين ، كما يوزعون عليهم الحلوى أيضاً فى أيام الجمعة والمواسم

بعض الثراة من الأهلين

ولم يكن أمراء المماليك وحدهم هم أصحاب القصور الفاخرة ، بل شاركهم فى ذلك كثير من التجار ، وكان من بين المنازل الكبيرة المطلة على بِركة الازبكية (حديقة الازبكية الآن) منزل لتاجر شهير يدعى « أحمد الشرايبى » غاية فى الحسن . وكانت لهذه الاسرة ثروة طائلة ، وبيتهم يؤمه العلماء من كل جانب لاشتماله على كل ما يرغبه الطالب من الكتب ، التى كانوا يُعْنَوْن بجمعها من كل سوق ، ولا يضنون على أحد باعارتها

درجة تقدم العلم في ذلك العهد

وان اهتمام هذه الاسرة وأمثالها بجمع الكتب وتسهيل اعارتها يدلنا بعض الدلالة على مقدار إقبال الناس على العلم فى هذه الايام . ويؤيد لنا ميل الناس الى الانقطاع الى طلب العلم ذكر ذلك العدد الكبير من أهل العلم والتأليف الذين عُنى «الجبرتى» بكتابة تراجمهم : من مشايخ الاساتذة والعلماء ، والمؤرخين والشعراء ، وغيرهم ممن ليس لهم نظير فى زماننا . غير ان اشتغالهم كان قاصراً على مدارسة قواعد العلوم اللسانية والشرعية والرياضة النظرية . فلا هم تأثروا بالنهضة العلمية باوربا ، ولا هم رجعوا الى النهضة العربية القديمة التى جعلت عصر الرشيد والامين والمأمون من أزهر عصور العلوم العملية

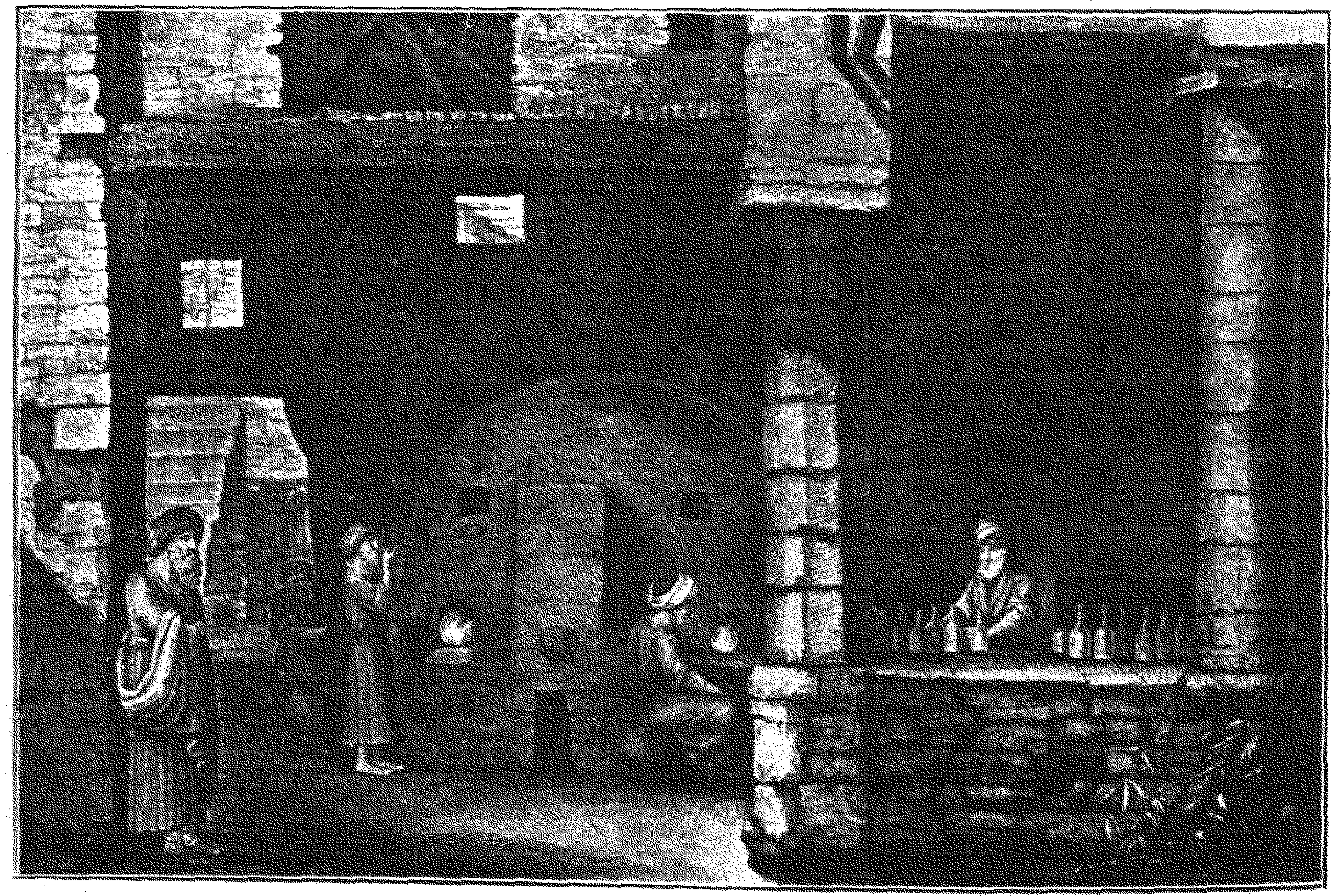
٥ — ﴿ تجارة مصر وشواطئ البحر الأبيض ﴾

وتأثرها بالاستكشافات البرتغالية فى افريقية

التجارة مصدر ثروة عظيمة للمماليك

كان سلاطين دولتى المماليك البحرية والبرجية فى سعة عظيمة من المال ، تدل عليها مبانيهم الشاهقة وآثارهم النفيسة . لأن موارد ثروتهم لم تكن بالطبع قاصرة على الزراعة التى هى أساس ثروة مصر الآن ، بل ان كثيراً منها كان من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية العظيمة عند مرورها الى اوربا وذلك انهُ قبل الاهتداء الى الطريق المؤدّية من اوربا الى الهند حولَ جنوبى إفريقية لم يكن للتجارة الهندية مع أوربا الآ طريق البحر الأبيض المتوسط : تُنقل البضائع برًّا من الخليج الفارسى أو البحر الأحمر الى اسكندرونة أو الاسكندرية على شاطئ البحر الأبيض ، ومنهما تنقل بطريق هذا البحر الى مدينة «البندقية» حيث توزَّع فى اوربا . وسواء أُنقلت البضائع بطريق الخليج الفارسى أم بطريق البحر الأحمر (وهو الأغلب لموافقته) تمرّ لا محالة من أراضى المماليك ، اذ هم المالكون فى ذلك الوقت لمصر والشام معاً . فانتفع المماليك بهذه المزية أيّما انتفاع ، وضربوا مكوساً كبيرة على التجارة عند دخولها فى أملاكهم وعند خروجها منها ، فكان ذلك يأتيهم بدَخْلٍ لا يُستهان بهِ





بقايا الصناعات المصرية

(١ ـ مصنع نسيج — ٢ ـ مصنع زجاج)

وجنوة والبندقية

وقد كان لمرور التجارة الهندية من هاتين الطريقين أكبر أثر فى ترويج تجارة البحر الأبيض المتوسط، وعظمت بسببها ثروة الدولتين اللتين اشتهرتا بالملاحة فيه: وهما «جنوة» و «البندقية»، ولا سيما الاخيرة، فانَّ تجّارها نالوا لدى المماليك حُظوة كبيرة وصلت بهم فى آخر الامر الى احتكار نقل هذه التجارة العظيمة

مقدار المكوس

ولم يتفق المؤرخون على تفاصيل مقدار المكوس التى كان يجبيها المماليك من هذه التجارة، ولكن المفهوم من تقدير معظمهم أنها لم تقلّ عن سدس ما تساويه البضاعة وقت وصولها الى حدود الاملاك المصرية، وسدس ما تساويه أيضاً عند خروجها من موانيها. فاذا فرضنا أن أحد تجار العرب اشترى من الهند بضاعة بما يعادل ١٠,٠٠٠ جنيه مثلاً، وسلك طريق البحر الاحمر حتى رسا بها فى السويس، أصبحت قيمتها بالطبع أعظم كثيراً مما اشتريت بهِ من الموانى الهندية، ولنفرض أنها صارت تساوى ١٨,٠٠٠ جنيه مثلاً. فيكون ما يدفع عنها من المكوس حينئذٍ يعادل ١٨,٠٠٠ × $\frac{1}{6}$ = ٣,٠٠٠ جنيه. ثم يشتريها تاجر آخر، فينقلها الى الاسكندرية ليبيعها الى أحد تجار البندقية، فتزيد قيمتها بالطبع بقدر ما دُفع عليها من المكس وأجر النقل وبقدر الربح الذى يريده التاجر الثانى، ولنفرض أنها صارت تساوى ٣٠,٠٠٠ جنيه. فتكون مكوسها بالاسكندرية تعادل ٣٠,٠٠٠ × $\frac{1}{6}$ = ٥,٠٠٠ جنيه. أى أن مجموع مادُفع عليها من المكوس يبلغ ٣,٠٠٠ + ٥,٠٠٠ = ٨,٠٠٠ جنيه، وذلك عدا ما يكون قد دُفع عنها لعمال الحكومة على سبيل الهدايا أو الرشوة: مما يقدّر بألف جنيه أو ألفين، أى أن مجموع ما دخل الاراضى المصرية من المال بسبب مرور هذه البضاعة فيها (١٠,٠٠٠ جنيه تقريباً) يقرب من الثمن الاصلى الذى دُفع عنها فى الهند. زد على ذلك أن تجار العرب كانوا تحت رحمة المماليك: يصادرونهم أحياناً، ويقترضون منهم قهراً كلما احتاجوا الى المال. ومن ذلك نعلم السر فى بقاء دولتى المماليك البحرية والجراكسة على تلك الدرجة العظيمة من الثروة التى مكّنتهم من حفظ أبّهة الملك وتشييد القصور الشاهقة والمبانى الفاخرة جيلا بعد جيل

غيرة اوربا من البنادقة والمصريين

ولا يخفى أن البضاعة التى اشتراها تاجر البندقية من مصر بمقدار ٣٥٫٠٠٠ جنيه كانت تباع فى أوربا بأبهظ الأسعار، وربما بلغ ثمنها هنالك ٧٠٫٠٠٠ جنيه. فاشتعل الحسد فى الممالك الأوربية الاخرى من هذه الارباح العظيمة التى لا ينقطع تدفقها فى جيوب البنادقة والمصريين بسبب احتكار التجارة الهندية، فدفعهم ذلك الى التفكير فى الاهتداء الى طريق أخرى توصل الى الهند، حتى ينالهم شطرٌ من أرباح تلك التجارة العظيمة. وساعد على اثارة هذه الهمة قيامُ النهضة العلمية العامة التى ابتدأت فى أوربا بعد فتح القسطنطينية (نهضة احياء العلوم) وولّدت فى تلك البلاد روح الاستطلاع والاستكشاف

نهضة احياء العلوم باوربا

البرتقال ونهضتهم فى الاستكشاف

وأول من فكّر من الأوربيين فى البحث عن طريق أخرى الى الهند هم «البرتقال»، وهم أمة تسكن الجزء الغربى من شبه جزيرة الاندلس: كانوا احدى الامارات التى استولت عليها العرب فى الاندلس، وانسلخوا عن حكمهم قبل إجلاء العرب من تلك البلاد (فى سنة ٨٩٧ هـ: ١٤٩٢ م) بقرنين تقريباً. ومن ذلك الحين أخذوا يدافعون عن استقلالهم من غارات مملكة «قَشْتالة» (كستيل) المجاورة لهم، حتى أمِنوا شرها بانتصارهم عليها فى واقعة «الجَبرُوتا» سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م)

هنرى الملاح ومعاضدته للملاحة

ثم تولى عرش البرتقال الأمير «هنرى» (الشهير بهنرى «الملاّح» لكثرة استكشافاته البحرية وعظم ما أصلحه فى الملاحة)، فتمّ فى أيامه من الاستكشافات ما نسخ آراء الأقدمين بشأن شكل العالم المعمور، وكانت عاقبته كشف طريق الهند والدنيا الجديدة

بحثه عن طريق للهند حول افريقية

شرع هذا الملك منذ سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) فى العمل على كشف طريق جديد للهند، فأقام بثغر «سَجْر» فى الجنوب الغربى من البرتقال (وهو يكاد يكون أقصى نقطة فى أوربا من جهة الغرب)، وأنشأ فيه مرصداً ومدرسة بحرية لتعليم الملاحة، ودعا اليها علماء الفلك وكبار المُلمّين برسم المصورات الجغرافية، وعُنى بصنع السفن العظيمة للاستكشاف خاصة، وأدخل فيها استعمال بيت الابرة (البوصلة) ناقلاً

استعمالها عن العرب ، وحسّن آلة « الأسطرلاب » التى يُعرف بها خط العرض بالتقريب

ثم عوّل بعد استشارة من حوله من العلماء على تتبّع شاطئ افريقية بقصد بلوغ الهند . وكان الشاطئ الغربى من افريقية لا يُعلم منهُ حينئذٍ لأهل أوربا شيء جنوبى « رأس بوجادور » . وكانت المصورات الجغرافية التى رسمها الأقدمون بعضها يمثّل بقية افريقية بنصف دائرة تمتد من الشمال الغربى (جهة مرّاكُش) الى جنوبى البحر الأحمر ، وبعضها يتركه غير محدود اشارة الى أنهُ لم يُكشف بعد

بلوغ الرأس الأخضر

فرأى هنرى أن يستكشف عن هذا الشاطئ ، حتى اذا سار حوله الى الشرق بَحَثَ عن طريق تؤدى الى الهند من تلك الجهة . فأرسل لهذا الوجه بُعوثاً بحرية سنة بعد أخرى ، فكان كل بعث يصل الى وراء ما وصل اليه سالفه، حتى وصل آخر بعث فى عهده الى « جزائر الرأس الأخضر » . وما زالت هذه الاستكشافات يتبع بعضها بعضاً حتى بلغ « بَرْتُلُومِيُودِيَاز » الملاّح البرتقالى الشهير الى طرف افريقية الجنوبى ، وسار حوله حتى وصل الى خليج « أَلجَوَا » سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وسمّى هذا الطرف « رأس الزوابع » (لهول ما لاقاه فى السير حوله) ، ولكن ملك البرتقال (ابن هنرى) أدرك قيمة هذا الكشف العظيم ، ورأى أنهُ فاتحة خير لتحقيق أمنية دولته وهى الاهتداء الى طريق الهند . وعمل على مواصلة هذه الاستكشافات

بلوغ دياز جنوبى افريقية

وقوف الاستكشافات البرتقالية فترة

وفى هذه الأثناء كان المستكشف العظيم « خِرِسْتُوف كُلُومْب » قد خرج فى بعث بحرى أمدَّه بهِ ملك الأسبان ، وسار بهِ غرباً يأمل الوصول الى الهند من هذا الطريق الغربى اعتقاداً منه بكروية الأرض ، فوصل الى احدى جزائر الهند الغربية سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . فظن الناس أن هذه جزء من بلاد الهند ، وأن « كلومب » قد كشف للإسبان طريقاً الى تلك البلاد اقصر وأسهل من الطريق الطويل الذى يعانى البرتقال كشفه . فوقفت الاستكشافات البرتقالية فترة من الزمن ، الى أن اتضح أن كلومب لم يهتد الى طريق الهند ذاتها ، وأن طريقه إن أدى اليها يكون أطول

استئناف الاستكشاف بقيادة فاسكو دى جاما

من الطريق حول افريقية . فرجع البرتقال الى مواصلة استكشافاتهم ، وفى سنة ٩٠١هـ (١٤٩٦ م) أرسل ملكهم « إمانويل » بعثاً لهذا الغرض برياسة الملاّح العظيم «فاسكو دى جاما» ، فوصل الى رأس الزوابع الذى سماه تفاؤلاً «رأس الرجاء الصالح». وبعد ان كابد مصاعب جمة فى المسير حوله، لشدة الرياح الجنوبية الشرقية، سار ازاء شاطئ افريقية الشرقى

ومن ثَمَّ شرع يسأل من الثغور التى يمر عليها عن الطّريق المؤدية الى الهند ، فكان كلما حلّ بثغر وجده مسكوناً بالعرب، فكانوا يمتنعون عن ارشاده، مخافة أن يجرّ عليهم ذلك منافسة تجارية لاطاقة لهم بها . وبعد أن أخفق سعيه فى « مُزَنْبيق » و« كِلْوة » و « مَنْبَسة » فاز فى « مِلِنْدة » ، حيث أخذ ما يلزمه من الزاد واصطحب معه أحَدَ الهنود العالمين حق العلم بالطريق الى « قليقوت » (على الشاطئ الغربى للهند) . فوصلها « جاما » بهداية هذا الدليل فى ثلاثة وعشرين يوماً

وصوله الى قليقوت



فاسكو دى جاما فى حضرة الزامرين

ولم يرحّب بِهِ فى بادئ الأمر مِلكها الملقب « زامُرِين » (أى ملك البحار) ، بل زاد فى تنفيره منه تجار العرب فى تلك الجهات ، إذ أفهموه أن البرتقال ليسوا إلاّ

لصوص بحر لا عمل لهم إلاّ النهب والسلب فى البحار . ولكن « جاما » (أول مستعمر أوربى فى الشرق) استعمل الملق والثبات ، وما زال بالزامرين يتملقه ويشرح له غرضه حتى استماله ورغّبه فى تبادل التجارة مع البرتقاليين ، وعقد معه معاهدة تجارية كانت بعد ذلك سبباً فى زوال ملكه

جاما والزامرين

بذلك تمّ للبرتقال كشف طريق جديدة للهند ، فكانت فاتحة لانقلاب عظيم فى تجارة العالم بأسره ، اذ ان نقل البضائع صار يُنفق عليه بهذه الطريق ثلث ما كان يُنفق بالطريق القديمة ، فوق متاعبها ومضايقها . فكانت النتيجة أن تحوّل مجرى هذه التجارة العظيمة من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاتلنتى حول شواطئ افريقية

تأثير كشف الطريق الجديدة

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديدة وقوع الصواعق على مصر والأمم التجارية بالبحر الأبيض ، ولا سيما البنادقة ، لعلمهم ان فيه الضربة القاضية على أهم منابع ثروتهم. وكان البرتقال قد أخذوا فى توسيع نفوذهم فى بلاد الهند ، غير مكتفين بالعلائق التجارية بل استولوا بالسيف والمدفع على إمارة « قليقوت » وجعلوها فى عداد مستعمراتهم

اتحاد الغورى والبنادقة والزامرين على البرتقال

وذلك ان السلطان الغورى اتحد سراً مع البنادقة ومع ملك « قليقوت » (الذى اتضح له سوء نية البرتقال) على أن يعملوا معاً على نزع سيادة البرتقال من الشرق . فأنشأ الغورى أسطولاً عظيماً ، وساعده البنادقة بجلب الأخشاب اللازمة لبنائه ، فظهر الأسطول فى البحار الهندية والتقى بسفن البرتقال بالقرب من شواطئ بماى ، فكانت الغلبة للمصريين ، وقتل ولد الوالى البرتقالى (ألميــدا) بالهند فى تلك الموقعة . ولكن لم يلبث البرتقال أن جمعوا أسطولاً آخر ، وحاربوا المصريين فى موقعة بحرية عظيمة بالقرب من جزيرة « دِيُو » أمام بماى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩م) انتصروا فيها على المصريين فى موقعة كانت هى الفاصلة فى أمر التجارة الهندية

واقعة ديو

فإنَّه لما خضعت مصر بعد للدولة العثمانية لم يصبح لها من الأمر شىء فى مكافحة البرتقال . ولما اشتدّ عبث البرتقال بسفن غيرهم ممن حاولوا الاتجار فى تلك البحار ،

تهاون العثمانيين بعث السلطان سليمان القانونى أحد ولاة مصر بأسطول لردعهم ، فلم يفلح . والحق ان العثمانيين لم ينتهزوا الفرص المناسبة لمنازلة البرتقال والاستيلاء على الثروة الهائلة التى كان يجنيها المماليك من مرور تجارة الهند من مصر والشام . فكان الواجب عليهم أن يتحدوا مع البنادقة (شركائهم فى هــذه الخسارة) ، ويستعينوا بهم فى القضاء على أساطيل البرتقال ، ولكنهم غفلوا عن ذلك ، بل كانوا هم القاضين على قوة البنادقة بحروبهم التى شنّوها عليهم واستيلائهم على كثير من أملاكهم

ومن ذلك الحين كثر التلصص فى البحر الأبيض ، فقضى على البقية الباقية من التجارة التى كانت تمر من هذا البحر

٦ — ﴿ أشهر الولاة وأهم الحوادث ﴾

خير بك أول من ولّى العثمانيون على مصر من الولاة « خير بك » : ولاّه السلطان سليم مكافأة له على مساعدته فى فتح مصر والشام . وبقى فى منصب الولاية أكثر من خمس سنوات كان فيها مكروهاً من جميع الرعايا المسلمين . فقرَّب منهُ اليهود والنصارى وأخذ بناصرهم ، فلم يغنِ ذلك عنهُ شيئاً . ولما ازداد كَرْبهُ من الحياة أفرج عن كثير من مسجونى القاهرة ، ووزّع كثيراً من المال والخيرات على المساكين وخدمة المعاهد الدينية . وقــد أبدى أسفه الشديد وهو فى سياق الموت على ما فرط منهُ . ودُفن بمسجده الذى بناه بالتبانة بالقرب من باب الوزير بجهة الخيربكية المسماة بهذا الاسم نسبة اليه

مصطفى باشا وخلفه « مصطفى باشا » زوج أخت السلطان سليمان القانونى . وهو أول من لقب بلقب باشا من ولاة مصر . وكان لا يعرف العربية ، ولا يُظهر شيئاً من الحفاوة للوافدين عليهِ والمهنئين له من أهل البلاد

احمد باشا ومحاولته الاستقلال بمصر ولم يمض عهد طويل بعــد الفتح حتى ظهر فضل احتياط السلطان سليم لتقييد سلطة الوالى ، فان الوالى الثالث « احمد باشا » همّ بعمل ما كان يُخشى منهُ ، إذ

أراد الاستقلال بملك مصر ، فأمر بضرب السكة باسمه ، والدعاء له فى الخطبة . ولكنهُ لم يلبث أن قُبض عليهِ وأرسل رأسه الى القسطنطينية بعد أن علّق على باب زَوِيلة

على أن تاريخ مصر فى القرنين الأولين من الفتح العثمانى ليس بهِ شيء من الأخبار المُمتِعة ، ولا يشتمل غالباً على غير سلسلة من الولاة لا يكاد الواحد منهم يعيَّن حتى يُعزَل ، منهم نفر قاموا بتشييد بعض المساجـد والمدارس ، ومنهم من لم يشتغل بشيء سوى التزوّد من المال قبل أن تنقضى مدة ولايته . ومع ذلك كان ولاة القرن الأول واكثر الثانى فى العدل وضبط الأمور خيراً ممن أتى بعدهم

سليمان باشا واصلاحاته

ومن أعظم الولاة العاملين فى ذلك العصر « سليمان باشا » : نُصّب على مصر سنة ٩٣١ هـ (١٥٢٥ م) ، فاهتم بالنظر فى أحوال البلاد وإصلاح ما فسد منها ، فعيّن مأموراً لمسح الأراضى ، ورتب الضرائب على أحسن نظام ، واستحدث دفاتر جديدة لأعمال الحكومة ، وشيّد كثيراً من المبانى النافعة . وفى مدة ولايته كثر تعدّى سفن البرتقال على بلاد البحر الأحمر وسواحل الهند حتى قُطعت المواصلات التجارية بين مصر وتلك الجهات . فاستغاث « درشاه » حاكم « كجرات » بالسلطان سليمان القانونى ، فأصدر السلطان أمراً الى سليمان باشا بإنشاء أسطول بالديار المصرية والخروج بهِ الى البحر الأحمر لكسر شوكة البرتقال ، فجهز سليمان باشا الأسطول وشحنه بالجيوش وأقلع بهِ من السويس سنة ٩٤٤ هـ (١٥٣٨ م) . فاستولى على « عدن » ، ثم توجه الى بلاد الهند ، فالتحم مع البرتقال فى المياه الهندية فى موقعة عظيمة كان النصر فيها للبرتقال بالرغم مما بذله سليمان باشا من الجهد العظيم

خروجه لمحاربة البرتقال

انابة خسرو باشا

وكانت ولاية مصر قد أُسندت أثناء اشتغال سليمان باشا بأمر حملة الهنـد الى « خُسْرُو باشا » سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥ م) ، فأتمّ الإصلاحات التى بدأها سليمان باشا ثم زاد فى مقدار الجزية التى تُرسل للدولة ، فاستُدعى الى الاستانة مخافة أن يكون قد أحدث ضرائب جديدة تضر بالبلاد . ولما عاد سليمان باشا الى مصر تسلم مقاليد الأمور ثانية ، وبقى والياً عليها الى أن استدعى الى الاستانة وأُسند اليهِ مسند الصدارة العظمى بها

سنان باشا

ثم تتالت الولاة على مصر حتى وليها « سنان باشا » سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧م) ، فأخذ يتصرف فى شؤون البلاد بحكمة وتدبر ، وبعد تسعة أشهر وردت عليه الأوامر السلطانية بأن يستعد لفتح بلاد اليمن واستخلاصها من « الزيديين[1] » فجهز جيشاً ،

خروجه لفتح اليمن

وخرج به من مصر سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٨ م) بعد أن أناب عنهُ فى الولاية « اسكندر باشا[2] » . ولما عاد من فتح اليمن سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) تسلم ولاية مصر ثانية وأخذ يشيّد المبانى ، فأنشأ فى بولاق (سنة ٩٧٩ هـ : ١٥٧١ م) رِباطاً

انابة اسكندر باشا

(تكية) ومسجداً كبيرًا لا يزال الى الآن من أعظم الآثار العثمانية بمصر ، وهو ثانى مسجد بُنى بها على الأشكال البوزنطية . وبقى سنان باشا بمصر سنتين كان أثناءهما موضع محبة الأهلين ، لكثرة اصلاحاته وعظم مبرّاته

مسيح باشا

ومن أفضل الولاة الذين وُلّوا مصر بعده « مسيح باشا » (٩٨٢ — ٩٨٨ هـ : ١٥٧٤ — ١٥٨٠ م) ، وكان من أكثر الحكام عفة واستقامة ، وأشدهم حرصاً على نشر الأمن وإقامة العدل . إلاَّ أنهُ تشدد فى معاقبة المفسدين ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف . وشيّد مدرسة وتربة له خارج القرافة بشارع نور الدين بعرب اليسار ، ووقف عليهما أوقافاً باسم الشيخ نور الدين القرافى

اضمحلال نفوذ الولاة

ثم أخذ نفوذ الولاة فى الاضمحلال ، لعجز الكثير منهم ، وقوة شوكة الجنود بالبلاد وتدخُّلهم فى كل شؤونها ، حتى صاروا هم الآمرين الناهين للولاة . فلما ولى « أُويس باشا » على مصر (٩٩٥ — ٩٩٩ هـ : ١٥٨٧ — ١٥٩١ م) ، وأراد أن ينظم أولاد العرب من المصريين فى سلك الجيش ، اشتعل لهيب الفتنة بين الجنود ، ولم

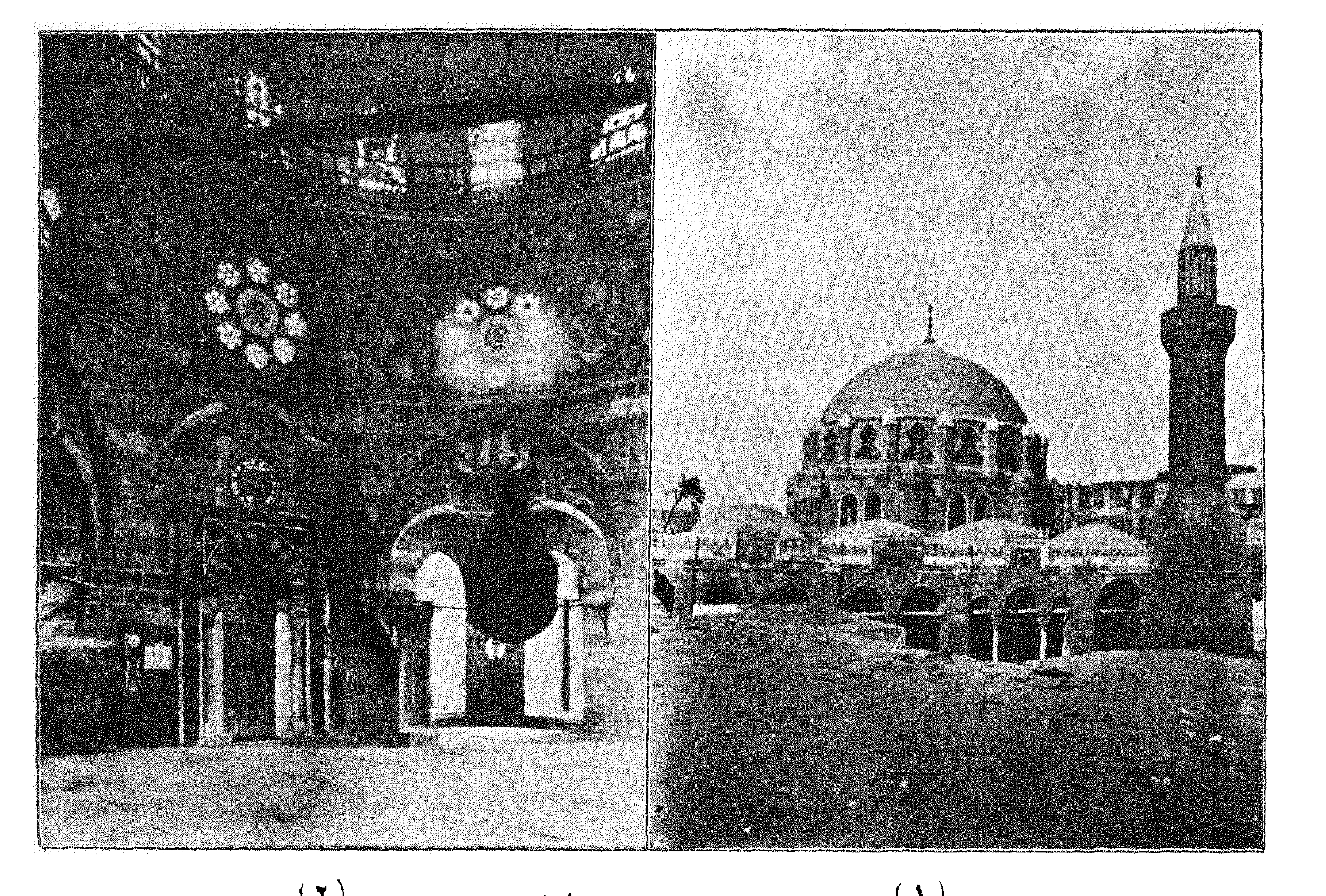
ازدياد نفوذ الجند

يقبلوا ان يتشبَّهَ بهم غيرُهم فى لباسهم ، وهجموا على أويس باشا وأهانوه (٩٩٧ هـ : ١٥٨٩م) ، فاضطر الى الإذعان لمطالبهم . ومما يجدر ذكره بمناسبة ولاية أويس باشا

---

(١) وهم قوم من شيعة زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه . وهم جملة فرق جمهرتهم الآن باليمن ولهم فيها امام لا يزال خارجا على الخلفاء من العرب أو الترك

(٢) اسمه اسكندر باشا الفقيه الجركسى ، وهو مسلم طبعاً



(١)　　　　(٢)

جامع سنان باشا

(١) من الخارج　　(٢) من الداخل

(رسم علي افندي يوسف)

زلزال — أنهُ حدث فى عهده زِلزال عظيم سقط بهِ عدة منارات و بيوت ، وتفلّق جبل المقطم قرب اطفيح الى ثلاث فِلَق تفجر منها الماء

قره مصطفى يوطد السكينة — وما زال روح الفتنة ينتشر فى الجنود عاماً بعد عام ، و يشتد تطاولهم على الولاة ، حتى وُلّى « قره مصطفى باشا » سنة ١٠٢٢ هـ (١٦٢٢ م) ، وكان قوى البأس ساهراً على توطيد السكينة ، فأخذ يتجول بنفسه فى الأسواق ، وينظر فى الشكاوى والأسعار ، ويحكم فى الجنايات بنفسه ، فهابه الجند . وكان لأعماله وقع حسن فى القلوب ، وعظُم فى أعين الناس . ولما جلس السلطان مراد الرابع على عرش آل عثمان سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) عزل هذا الوالى من مصر ونصّب مكانه « على باشا الجِشْنَجى » .

رفض الجند بديله — فطلبت منه الأجناد الأعطية المعتاد توزيعها عند تولية الوالى الجديد ، فلما لم يجب طلبتَهم لم يعترفوا بعزل قره مصطفى باشا ، واضطروا على باشا الى العودة من حيث أتى . وعند ما ركب البحر أطلقوا على سفينته بعض القذائف من قلعة منار الاسكندرية * ، فلم ينج إلاّ بصعوبة . ثم أرسل الجنود مندوباً منهم الى الاستانة ، فنال لهم أمراً سلطانياً ببقاء قره مصطفى باشا فى الولاية ، فعاد الباشا الى مصر سنة ١٠٣٥ هـ

وباء — (١٦٢٥ م) . وفى عهده ظهر بالبلاد وباء شديد ، فصار يغتصب أموال المتوفَّيْنَ لنفسه كأنه الوارث للناس . فرُفعت فى حقه الظلامات لدار الخلافة ، فعزله السلطان ثم قُتل بعــدُ بالقسطنطينية . ولقره مصطفى باشا من العمارات والمدارس التى شيّدها بمصر شىء كثير

بعض اوبئة هذا العصر — ولم يكن الوباء الآنف الذكر الوحيدَ من نوعه فى هذا العصر ، بل حدث غيره طواعين كثيرة ، وكانت تصحبها غالباً المجاعات (وتلك سُنّة معتادة فى التاريخ) . ومن أوبئة هذه المدة طاعون حدث سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) فتك بكثير من القرى والامصار ، وآخر تفشى بالبلاد سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) فاشتد بطشه حتى أُقفلت الأسواق وتعطلت الأعمال . وفى سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢١ م) حدث غلاء

* المسمى الآن حصن قايتباى

عظيم أعقبه وباء آخر بقى يفتك بالبلاد نحو ثلاثة أشهر . ولم يكد يُنسى هذا حتى حدث سنة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥ م) وباء أنكى من السالف . وأعظم من هذا كله وباء حدث سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٤٢ م) لم يُسمع بمثله من قبل ، كثرت فيه المُوتان حتى صارت الموتى تدفن بلا صلاة ، وخربت به ٢٣٠ قرية . وأعقبه قحط وغلاء

تضاعف نفوذ الجند

وفى هذه الأثناء كانت الجنود العثمانية بمصر دائبة على جمع السلطة فى قبضتهم ، حتى جعلوا الولاة أُلعُوبة فى أيديهم ، فعجزوا عن رَدْعهم وتأمين الرعايا شرَّ مفاسدهم . وصارت كل طائفة من الجند تأخذ فى حمايتها جملة من التجار أو المزارعين أو الملاّحين فيقتسمون معهم الأرباح ، وفى نظير ذلك يحمونهم من أداء حقوق الحكومة . وما زالوا فى شغب على الولاة ، وهم معهم فى مكافحات ، حتى عظمت قوة البيكوات المماليك ، فقضوا على نفوذ الطائفتين

﴿ عودة النفوذ الى المماليك البيكوات ﴾

اسباب عودة النفوذ الى المماليك

أدّت كثرة تنقل ولاة العثمانيين الى عدم تأييد نفوذهم فى مصر ، والى استرجاع المماليك (الراسخة قدمهم بالبلاد) لكثير من قوتهم الأولى ، وساعد على نمو هذه القوة طول أمد النزاع بين الولاة والجند ، حتى اشتغل الطائفتان بمشاحناتهم عن كل ما سواها

شيخ البلد

ومما ساعد المماليك على القبض على السلطة تمهيدهم الطريق لاتحادهم ، باختيارهم زعيماً من بينهم وهو حاكم القاهرة ، المسمى اذ ذاك « شيخ البلد » . وكان المماليك قد تعودوا من قديم الزمان جلب مماليك احداثٍ وتدريبَهم ليكونوا لهم حاشيــة وانصاراً . فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح لزعمائهم من ذلك قوة لم يعُد للوُلاة قِبَلٌ بدفعها . وذلك ان المماليك الأحداث الذين يُشترَون بالمال كانوا يُحرَّرون عادة بعد بضعة أعوام ، فيبقون الحرمة لأسيادهم ، حتى اذا ولجوا أبواب الرق ، وصاروا أنفسُهم بيكوات ، لا يألون جهداً فى تلبية دعوة مواليهم الأولين متى

استمدوا منهم المعونة . فكان يكون لشيخ البلد دائماً عصبية من مواليه وعتقاه البيكوات يعظم بها شأنه ، وصار للماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها فى عزل من أرادوا عزله من الولاة ، بل أخذوا يطمحون الى التخلص من السيادة العثمانية جملة ، وبخاصة عند ما دخلت الدولة فى طور التقهقر وشُغلت بحروبها مع النمسا والروسيا ، كما ذكرنا آنفاً

الولاة يدسون الدسائس بين المماليك

وتنبَّه بعض الولاة الى ما يرمى اليه المماليك ، فعملوا على دسّ الدسائس بينهم ، وتفريق كلمتهم . وكان المماليك منقسمين الى احزاب (أعظمها « القاسمية » ، و« الفقارية »*) ولم تَسْلَم الطائفتان من عداوة بينهما . فلما عُهِد بولاية مصر الى « حسين باشا كتخدا » سعى فى تفريقهما ، وتفاقمت العداوة بينهما حتى وصلت سنة ١١١٩ هـ (١٧٠٧ م) الى حد أثار بين الفريقين حرباً استعرت نيرانها ثمانين يوماً . وقيل ان المتخاصمين كانوا أثناء هذه المدة يخرجون من القاهرة نهاراً للمحاربة ، ثم يعودون اليها بالليل فيبيتون فيها كغيرهم من السكان

القاسمية والفقارية

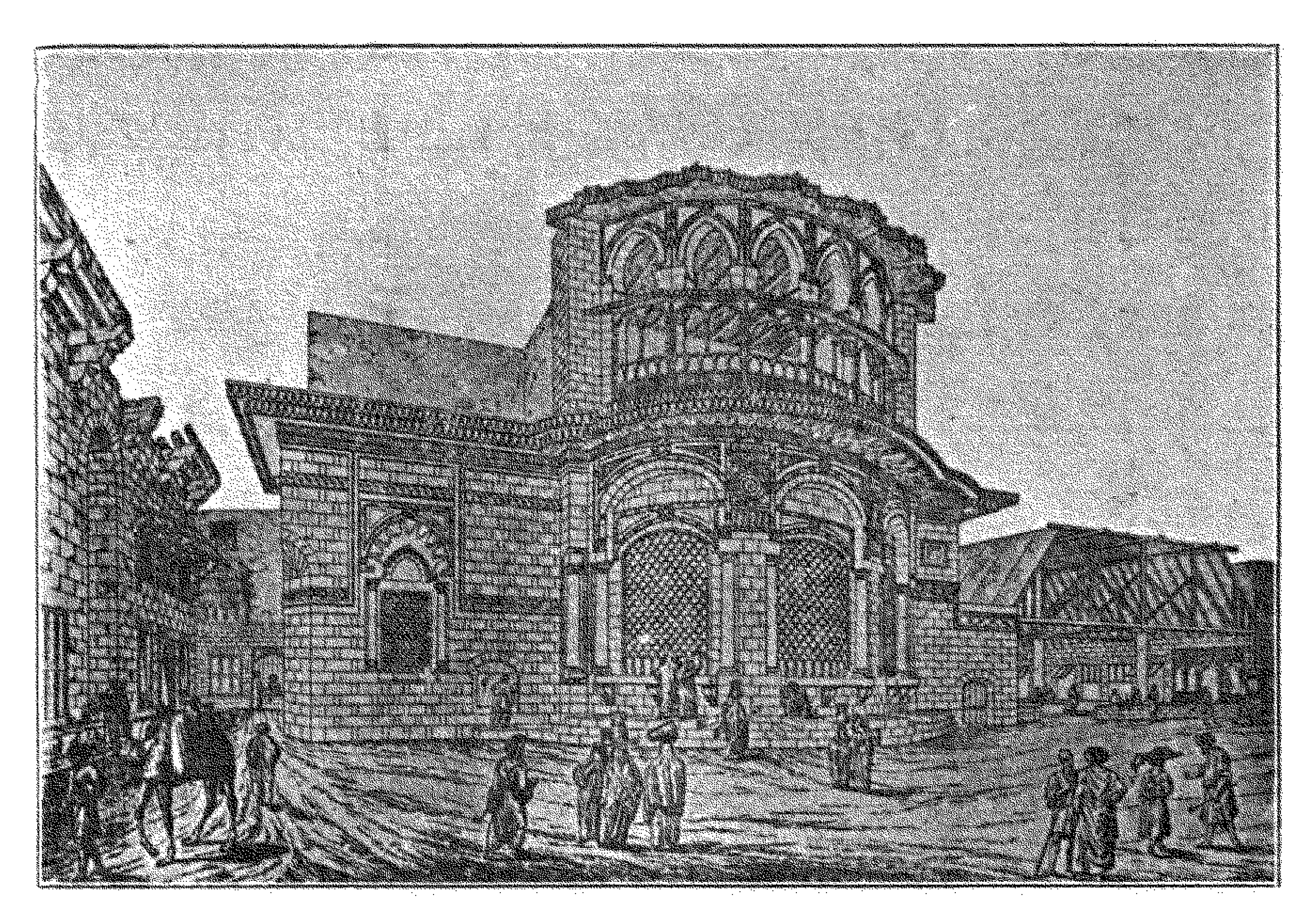
وأسفرت هذه الفتنة الطويلة عن قتل شيخ البلد « قاسم بك ايواظ » زعيم القاسمية . فخلفه ابنه « اسماعيل بك » . فأصلح ما بين المماليك ووحّد كلمتهم ، وصارت لشيخ البلد الكلمة العليا على الوالى . فعمل الوالى سراً على تحريض الفقاريين عليه الى أن قتله أحدهم « ذو الفقار » ، فوهب له الوالى ثروة اسماعيل بك ، وأسند منصب شيخ البلد الى « جركس بك » بعد أن فتك بأتباع اسماعيل بك . ويعرف اسماعيل بك هذا باسماعيل بك الكبير ، ومن آثاره بمصر سبيل ومكتب بجهة سوق العصر القديم بمدخل الداودية وحوش الشرقاوى كانا من أجمل مبانى ذلك العصر ، وبقي منهما الآن جزء خَرِب

اسماعيل بك الكبير

ثم استعان ذو الفقار بما آل اليه من الثروة فى شراء المماليك وتدريبهم حتى صارت له قوة كبيرة ، فانتزع السلطة من جركس بك ووضع نفسه فى منصب شيخ البلد . ولكنه لم يلبث ان ثار عليه المماليك وقتلوه . فقبض أحد قواده « عثمان بك »

---

* نسبة الى زعيمين لهما ، هما : قاسم وذو الفقار



سبيل ومكتب اسماعيل بك الكبير (فى أيام رونقهما)

على السلطة ، فصار شيخاً للبلد بعد أن انتقم لسيده شرّ انتقام

عثمان بك

وكان عثمان بك ذا مقدرة وبأس ، فعمل على توطيد السكينة وسهر على حفظ الأمن وإقامة العدل ، فحسنت سيرته وأحبه الأهلون ، وبقى ذكره بعده زمناً طويلاً حتى أنه لما ثار عليهِ أعداؤه واضطروه الى الهروب من مصر صارت الناس تؤرخ حوادثهم بسنة خروجه ، فكانوا يقولون : « هذا الأمر حدث بعد خروج عثمان بك بكذا من السنين ، ووُلد فلان فى سنة كذا من خروج عثمان بك »

ابراهيم بك ورضوان بك

وسبب فراره من مصر أنْ قوى فى عهده شأن حزبين من المماليك وهما : «الكردغلية» و «الجلفية» ، فاتفق «ابرهيم بك» زعيم الحزب الأول و «رضوان بك» زعيم الثانى على توحيد كلمة حزبيهما ، ونزع السلطة من عثمان بك ، وجعلها فى أيديهما معاً . وبعد نزاع طويل بينهما وبين عثمان بك تغلبا عليه ، ففرّ خوفاً منهما الى الشام

ثم اقتسما السلطة بينهما ، واتفقا على أن يشغلا منصبى شيخ البلد وأمير الحج بالتناوب سنة بعد أخرى . ولما رأى الولاة أن السلطة قد سُلبت من أيديهم ، عملوا

على النكاية بابرهيم بك ورضوان بك ، ودبروا لقتلهما مكايد لم يفلحوا فيها ، إلاّ أن البلاد لم تهدأ من الفتن بعدُ ، و بقى امراء المماليك فى هيج على انفسهم

هكذا كانت حالة البلاد فى هذا العصر الأخير ، لا يكاد يفارقها الخلل والفوضى: تارة بثوران الجند ومكافحتهم للولاة ، وطوراً بتنازع المماليك مع الولاة مرة ومع انفسهم اخرى . وما زالت الحال كذلك حتى قبض على ازمّة الأمور احد المماليك الاقوياء وهو « على بك الكبير » ، فكان ذلك ابتداء حوادث جديدة ذات شأن آخر

﴿ زوال ما كان للسلطان من القوّة والنفوذ فى مصر ﴾

على يد على بك الكبير

كان « على بك الكبير* » فى اول نشأته مملوكاً لابراهيم بك السالف الذكر ، فما زال يتقدم عندهُ لذكائه ومقدرته ، حتى رقّاه الى رتبة « بك » . ومن ذلك الحين اخذ « على بك » يعقد الآمال على ان يتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوماً ما شيخاً للبلد . فقضى ثمانية اعوام فى شراء المماليك وتدريبهم ، ولم يدخر فى اثنائها وسعاً فى استجلاب مودة البيكوات الآخرين . واخيراً تنبّه شيخ البلد « خليل بك » الى افعاله ، ورأى ان يقضى عليه قبل ان يستفحل امره ، فهجم عليه بجيوشه ، فلم يقوَ عليه على بك فاضطر الى الفرار الى الصعيد . وهنالك التقى بكثير من الساخطين على خليل بك ، فانضموا اليه ، وزحف الجميع على القاهرة ، فدخلوها بعد ان انتصروا على خليل بك وأتباعه فى عدة مواقع اظهر فيها على بك مقدرة كبيرة . وبذلك تمَّ له امر شياخة البلد سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م) نشأة على بك — توليه شياخة البلد

وكان سيده ابرهيم بك قد مات قتلاً ، فلما تولى على بك شياخة البلد أمر بإعدام قاتله ، فلم يرق ذلك فى أعين بيكوات المماليك ، وتألّبوا عليهِ وألجئوه الى الفرار الى تألب المماليك عليه

* سمى « الكبير » لكثرة انتصاراته

السلطان يثبته في منصبه

بيت المقدس . ثم وشوا به الى السلطان ، فأمر بطلبهِ الى الاستانة . فاحتمى بأمير عكاء ، فسعى هذا له لدى الباب العالى وأظهر براءته . فثبتهُ السلطان فى منصب شيخ البلد ، فرجع الى القاهرة وتسلّم زمام الأمور بها مرة أخرى

أعماله

ولما استتب له الأمر سهر على اصلاح البلاد وتوطيد السكينة بها . ورأى أن يُكثر من أتباعهِ كى يأمن غوائل المستقبل ، فرقى ثمانية عشر من المماليك الى رتبة البيكوية ، ليكونوا هم وحاشيتهم أنصاراً له اذا احتاج الى مساعدتهم

طمعه فى الاستقلال

ثم طمحت نفسه الى الاستقلال بمصر ، فشرع يعمل على ذلك سرًّا و ينتهز لهُ كل فرصة

محاولة الباب العالى قتله

ولما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا فى سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) طلب الباب العالى من مصر أن تمدّه باثنى عشر ألف مقاتل ، فأذعن على بك لمطلب الدولة ، وشرع فى جمع الجيش . ولكن الدولة شكّت فى إخلاصه ، واعتقدت انهُ يجمع هذا الجيش لمساعدة الروسيا عليها لتساعده على الاستقلال بمصر ، فأرسلت بكتاب الى الوالى بمصر تأمره فيهِ بقتل على بك

تنفيره المماليك من الدولة

وكان لعلى بك عيون بالاستانة ، فبادروا بتبليغه الخبر قبل وصول الكتاب الى مصر . فتربص لحامل الكتاب وقتله قبل أن يصل الى الوالى . ثم أعلن للمماليك إن الدولة أرسلت فى هذا الكتاب أمراً الى الوالى بذبح جميع المماليك . وكان «على بك» خطيباً مؤثراً ، فأثار حميّة المماليك ، ونفّرهم من الباب العالى ، وذكّرهم بمجد سلاطين المماليك الأقدمين ، وان الدولة تريد القضاء على هذا المجد ، وعليهم أنفسهم . فأوقد النار فى قلوبهم ، وقرّ قرارهم على خلع الباشا و إِخراجه من مصر فى الحال ، والدفاع

اعلانه الاستقلال

عن استقلال البلاد . ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩)

فتحه بلاد العرب

ولاشتغال الدولة بمحاربة الروسيا لم تقدر على الالتفات اليهِ ، فانتهز على بك هذه الفرصة لتوطيد ملكه بمصر . ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب ، فاستولى على «جُدَّة»

لتكون له مركزاً للتجارة الهندية وموضعاً يراقب منهُ ملاحة البحر الأحمر ، ولم يلبث ان أخضع باقى جزيرة العرب ، وفى ذلك الحرمان الشريفان

غارته على الشام

ثم وجّه همته لفتح الشام ، فأنفذ لذلك جيشاً بهِ ٣٠٠٠٠ مقاتل بقيادة «محمد بك أبي الذهب » ، فكان حليفه النصر واستولى على كثير من مدن الشام

أبو الذهب واتفاقه مع الدولة عليه

وعند ذلك أكبَرَ « أبو الذهب » على سيّده هذا الملك العظيم ، فحسده . ورأى أيضاً ان الدولة ربما التفتت لمصر وأرجعتها الى سلطانها فيصبح على بك وأتباعه فى خطر ، فخطب ودّ الباب العالى واتفق معهُ على ان ينزع الملك من على بك ، ويقبض هو على زمام الأمور بمصر ، مع الخضوع للدولة . فقصد مصر بالجيش الذى كان معهُ

فتحه مصر

بالشام ، ولم يلبث ان استولى على البلاد ، وفرّ على بك الى عكاء واحتمى بحاكمها مرة أخرى . وهنالك وجد أسطولاً للروسيا ، ففاوضه بشأن تحالفه معها ، فأمدّه الاسطول

استنجاد على بك بالروسيا

بالذخيرة والرجال ، وبذلك استرجع المدن السوريّة التى كان قد فتحها له أبو الذهب وعادت الى الدولة بعد رجوع أبي الذهب عن الشام

ثم جاءتهُ الأخبار من مصر ان الناس فى استياء من حكم أبي الذهب ، وانهم يودون قدومه لإنقاذهم منهُ . فخرج الى مصر بقوة صغيرة ، فانتصر أولا على جيوش

فشله فى حملته على مصر

أبي الذهب بجهة الصالحية ، ثم دسّ هذا على رجال على بك من أوقع فى قلوبهم الفتنة ، فانقلبوا على « على بك » وخذلوه . فانهزمت جيوشه وأُخذ هو أسيراً الى القاهرة ، فمات بها بعد بضعة أيام بسبب الجراح التى أصابتهُ وهو يدافع فى الواقعة الأخيرة دفاعاً شديداً

ومن أعماله تجديد قبة الامام الشافعىّ ، وإنشاء سوق ببولاق

ولاية أبي الذهب

وكافأ الباب العالى « أبا الذهب » على ذلك ، فمنحهُ لقب « باشا » وولاّه حكم مصر سنة ١١٨٦ ه (١٧٧٢ م) . فلم يتمتع بذلك ، إذ مات بعدها بعامين ، ودُفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر . وهو آخر جامع كبير أُنشئ بمصر فى عهد العثمانيين

عند ذلك قبض على ازمة الأمور اثنان من المماليك وهما : « ابراهيم بك »

ابراهيم بك ومراد بك

و « مراد بك » ، واتفقا على ان يتوليا شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب كما حدث بين رضوان بك وابراهيم بك من قبل . فوقع بينهما شيء من الاختلاف فى اول الامر ، ثم صلح ما بينهما وبقيا قابضين على مقاليد الأمور من ذلك الحين الى أن اغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، ما عدا فترة (من ١٧٨٦ الى ١٧٩٠ م) عاد النفوذ فيها الى العثمانيين

عودة النفوذ للدولة

وذلك ان الدولة ارسلت حملة لتوطيد السكينة وإطفاء الفتن التى انتشرت فى البلاد فى اوائل حكم ابراهيم بك ومراد بك . فوصلت الحملة فى شهر يونيه سنة ١٧٨٦م واستولت على القاهرة بعد قتال لم يقوَ فيه المماليك على مقاومة المدافع التركية ، ففرّ ابراهيم ومراد الى الصعيد

عودته لابراهيم ومراد

وعهد العثمانيون بشياخة البلد لاحد بيكوات المماليك المدعو « اسماعيل بك »

وفى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) حدث بالبلاد وباء شديد اكتسح اسرة اسماعيل بك ، فعاد ابراهيم بك ومراد بك من الصعيد واستردا منصبهما ، واخذا يحكمان البلاد بحزم لا بأس به . الا انهما اشتطا فى ابتزاز اموال الناس ، وخصوصاً التجار ، حتى الفرنج منهم . فكثرت شكاوى هؤلاء الى دولهم ، مما لفت نظر اوربا

الغارة الفرنسية

الى مصر وجعله الفرنسيس ذريعة لإغارتهم عليها فى ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م)



مراد بك

(عن كتاب وصف مصر)

ملخص بأهم الحوادث التاريخية الواردة فى الباب الأول

	هـ	م
﴿ منشأ الدولة العثمانية ﴾	٦٢٧—٨٥٧	١٢٣٠—١٤٥٣
أرطغرل	٦٢٧ —٦٨٠	١٢٣٠—١٢٨٨
+ حكم اللاتين بالقسطنطينية	٦٠٠ —٦٦٠	١٢٠٤—١٢٦١
علاء الدين السلجوقى يمنح أرطغرل « اسكى شهر »		
مولد عثمان فى اسكى شهر	٦٥٦	١٢٥٨
عثمان (تحت امرة علاء الدين)	٦٨٠ —٦٩٩	١٢٨٨—١٣٠٠
يفتح قره حصار وغيرها - يمنحه علاء الدين لقب بك		
قضاء المغول على الدولة السلجوقية	٦٩٩	١٣٠٠
عثمان (مستقلاً)	٦٩٩ —٧٢٦	١٣٠٠—١٣٢٦
فتح بروسة على يد ابنه ارخان		
ارخان	٧٢٦ —٧٦١	١٣٢٦—١٣٥٩
افتتاح نيقوميدية وازنيق		
٢٠ عاماً فى السلم وتثبيت دعائم الملك		
انشاء طائفة الانكشارية		
ظهور الموت الاسود	٧٤٧	١٣٤٧
مبدأ الفتوح العثمانية باوربا (غليبولى)	٧٥٨	١٣٥٧
مراد الاول	٧٦١ —٧٩٢	١٣٥٩—١٣٨٩
اخضاع معظم الروملى (أدرنة — فلبة)		
تحالف ملوك البوسنة والصرب والمجر عليه وقهره اياهم عند « أدرنة »	٧٦٥	١٣٦٣

+ اشارة تدل على ان الحوادث خاصة بالدول المسيحية المعاصرة للدولة

* اشارة تدل على أنها خاصة بمصر

	هـ	م
اخضاع بلغاريا	٧٩١	١٣٨٨
انتصاره على أمراء أوربا الشرقية فى واقعة		
قوصوة واخضاع الصرب	٧٩٢	١٣٨٩
(عدا فتوحه فى آسيا واندراج ٤		
امارات تركية فى سلك الدولة العثمانية)		
بايزيد الاول	٧٩٢ — ٨٠٥	١٣٨٩ — ١٤٠٢
اخضاع باقى الامارات التركية فى آسيا وكثير		
من مدن الروملى — توطيد أركان		
الدولة فى اوربا		
تحالف المسيحيين على العثمانيين ثانية بقيادة		
سجسمند ملك المجر		
قهر المسيحيين فى واقعة نيقوبوليس	٧٩٩	١٣٩٦
غزو جزء من اليونان (تساليا وابيروس)		
قهر تيمورلنك لبايزيد وأخذه أسيراً فى انقرة	٨٠٥	١٤٠٢
أربعة أولاد لبايزيد يتنازعون الملك	٨٠٥ — ٨١٦	١٤٠٢ — ١٤١٣
محمد الاول (المتغلب عليهم)	٨١٦ — ٨٢٤	١٤١٣ — ١٤٢١
لمّ شعث الدولة بعد تمزيقها فى واقعة انقرة		
مراد الثانى	٨٢٤ — ٨٥٥	١١٤١ — ١٤٥١
يعمل على مواصلة الفتوح العثمانية — يحاصر		
القسطنطينية		
+ توحيد الكنيستين (برومية والقسطنطينية)	٨٤٣	١٤٣٩
نهضة جديدة لاخراج الاتراك من أوربا		
انتصار المسيحيين بقيادة هونياد ومعاهدة		
ازجدن	٨٤٨	١٤٤٤
يتنازل عن العرش لابنه		
محمد الثانى — الاوربيون ينقضون العهد		

	هـ	م
ويغيرون على أملاك الدولة بقيادة هونياد		
مراد يرجع الى الملك ويهزمهم فى وارنة	٨٤٨	١٤٤٤
يتم اخضاع البوسنة والصرب		
محمد الثانى	٨٥٥ — ٨٨٦	١٤٥١ — ١٤٨١
يتأهب لفتح القسطنطينية		
﴿ الدولة العثمانية فى أوج عظمتها ﴾	٨٥٧ — ٩٧٤	١٤٥٣ — ١٥٦٦
محمد الثانى يفتح القسطنطينية - سقوط الدولة البوزنطية - ابتداء التاريخ الحديث	٨٥٧	١٤٥٣
اخضاع معظم المورة والصرب والبوسنة		
وقوف اسكندر بك وهونياد فى سبيل فتح ايطاليا والمجر		
هونياد يهزم السلطان عند بلغراد	٨٦٠	١٤٥٦
اخضاع البانيا	٨٧١	١٤٦٧
فتح طربزون واخضاع القرمان		
اخضاع القرم	٨٧٩	١٤٧٥
قهر البنادقة وعقد محالفة معهم	٨٨٢	١٤٧٧
حصار رودس (لم يفلح لحسن دفاع فرسان القديس يوحنا)	٨٨٥	١٤٨٠
فتح اترنتو	٨٨٥	١٤٨٠
+ وصول برتلوميودياز الى طرف افريقية الجنوبى	٨٩١	١٤٨٦
+ وصول خرستوف كلومب الى احدى جزائر الهند الغربية	٨٩٧	١٤٩٢
+ وصول فاسكودى جاما الى قليقوت	٩٠١	١٤٩٦

	هـ	م
بايزيد الثانى	٨٨٦ — ٩١٨	١٤٨١ — ١٥١٢
اضعف سلطان الى ذلك العهد — مكافحات مع اخيه جم		
* انتصار المماليك على جيوشه فى الشام		
زيادة قوة الاسطول العثمانى — انتصاره على البنادقة		
* موقعة ديو	٩١٥	١٥٠٩
الانكشارية ترغمه على التنازل لاصغر أولاده سليم	٩١٨	١٥١٢
سليم الاول	٩١٨ — ٩٢٦	١٥١٢ — ١٥٢٠
تحويل تيار الفتوح الى آسيا		
غزو فارس (الاستيلاء على ديار بكر وكردستان)	٩٢٠	١٥١٤
* فتح مصر (مواقع مرج دابق والريدانية ووردان)	٩٢٢ — ٩٢٣	١٥١٦ — ١٥١٧
تنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم	٩٢٣	١٥١٧
سليمان القانونى	٩٢٦ — ٩٧٤	١٥٢٠ — ١٥٦٦
ازهر عصر فى تاريخ آل عثمان — تقدم عظيم فى العلوم واتساع كبير فى أملاك الدولة		
فتح بلغراد	٩٢٧	١٥٢١
فتح رودس (من فرسان القديس يوحنا)	٩٢٨	١٥٢٢
* تنصيب « سليمان باشا » والياً على مصر	٩٣١	١٥٢٥
غزو المجر — موقعة موهاكز — قتل ملكهم وتولية سليمان « جان زابولى » عليها	٩٣٢	١٥٢٦
غزو المجر ثانية لاغارة ملك النمسا عليها —		

	هـ	م
الاغارة على النمسا وحصار ويانة	٩٣٥	١٥٢٩
عقد صلح مع النمسا على اقتسام المجر بين ملك النمسا وزابولى	٩٤٠	١٥٣٣
* انابة خسرو باشا عن سليمان باشا لاشتغال هذا بحملة بحرية على البرتقال	٩٤١	١٥٣٥
* خروج سليمان باشا بأسطول من مصر لصد البرتقـال فى الشرق واستيلائه على عدن	٩٤٤	١٥٣٨
اغارة ملك النمسا ثانيـة على المجر وعودة السلطان الى غزوها	٩٤٦	١٥٣٩
اعتراف النمسا بسيادة السلطان على المجر وترنسلوانياوتعهدهابدفع جزية سنوية له		
فتح بغداد		
تقدم القوة البحرية		
استيلاء « خير الدين بربروس » على الجزائر وتنصيبه والياً عليها من قبل الباب العالى	٩٢٦	١٥١٩
قهره أساطيل شرلكان	٩٤١	١٥٣٣
قهره أساطيل شرلكان والبابا والبندقية فى موقعة بروزة	٩٤٥	١٥٣٨
صده شرلكان عن بلاد الجزائر	٩٤٨	١٥٤١
انتصار « بيالة باشا » على « دوريا » عند جزيرة جربة (تونس)	٩٦٧	١٥٦٠
« طرغود » يفتح المهدية عاصمة تونس		
حصار مالطة وعدم مقدرة البحرية العثمانية على التغلب على فرسان القديس يوحنا	٩٧٣	١٥٦٥

	هـ	م
﴿ ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية ﴾	٩٧٤ — ١٠٤٩	١٥٦٦ — ١٦٤٠
سليم الثانى (كان ضعيفاً لاهياً سكيراً)	٩٧٤ — ٩٨٢	١٥٦٦ — ١٥٧٤
* تنصيب سنان باشا على مصر	٩٧٥	١٥٦٧
* فتحه بلاد اليمن	٩٧٦ — ٩٧٩	١٥٦٨ — ١٥٧١
انتزاع الترك جزيرة قبرس من البنادقة	٩٧٩	١٥٧١
اتحاد أوربا على الدولة وقهرها فى موقعة « ليبنتو » البحرية	٩٧٩	١٥٧١
مراد الثالث	٩٨٢ — ١٠٠٣	١٥٧٤ — ١٥٩٥
مسالمة البندقية	٩٨٢	١٥٧٤
* ولاية مسيح باشا على مصر	٩٨٢ — ٩٨٨	١٥٧٤ — ١٥٨٠
* خروج الجنود العثمانية على أويس باشا لتجنيده المصريين	٩٩٧	١٥٨٩
محمد الثالث	١٠٠٣ — ١٠١٢	١٥٩٥ — ١٦٠٣
انتصار العثمانيين بقيادة سيكالا على النمسا وترنسلوانيا فى سهل كرزت	١٠٠٤	١٥٩٦
* وباء فى مصر	١٠١٢	١٦٠٣
أحمد الاول	١٠١٢ — ١٠٢٦	١٦٠٣ — ١٦١٧
استمرار الثورات العسكرية وابتداء ظهور النمسا على الدولة		
* وباء آخر فى مصر	١٠٢٨	١٦١٩
* وباء آخر	١٠٣٠	١٦٢١
مراد الرابع (من أعظم سلاطين العثمانيين)	١٠٣٢ — ١٠٤٩	١٦٢٣ — ١٦٤٠
يوطد العلائق مع النمسا ليوجه قواه الى الفرس		
* تنصيب قره مصطفى على مصر	١٠٣٢	١٦٢٣
* صرفه بعلى باشا الجشنجى — تمرد الجند لذلك		

	هـ	م
* اعادة قره مصطفى	١٠٣٥	١٦٢٥
* وباء شديد فى مصر	١٠٣٥	١٦٢٦
أعاد السلطان فتح أريوان	١٠٤٥	١٦٣٥
استرجع بغداد من الفرس	١٠٤٨	١٦٣٨
﴿ عهد سلطة الوزراء — أسرة كبريلى ﴾	١٠٤٩—١١٠٣	١٦٤٠—١٦٩١
ابراهيم الاول	١٠٤٩—١٠٥٨	١٦٤٠—١٦٤٨
* وباء بمصر وغلاء	١٠٥٢	١٦٤٢
لم يفلح فى فتح جزيرة أقريطش	١٠٥٥	١٦٤٥
عزل وقتل	١٠٥٨	١٦٤٨
محمد الرابع (ازدياد اضطراب الدولة)	١٠٥٨—١٠٩٩	١٦٤٨—١٦٨٨
انهزام الاسطول التركى فى بحر الارخبيل	١٠٥٩	١٦٤٩
اسطول البنادقة يهدد القسطنطينية	١٠٦٦	١٦٥٦
نهوض الدولة على يد محمد كبريلى	١٠٦٧—١٠٧٢	١٦٥٧—١٦٦١
وزارة أحمد كبريلى	١٠٧٢—١٠٨٧	١٦٦١—١٦٧٦
الاغارة على النمسا والمجر	١٠٧٤	١٦٦٣
انهزام الترك عند سنغوتار وعقد معاهدة فزفار	١٠٧٥	١٦٦٤
استيلاء الترك على اقريطش من البنادقة	١٠٨٠	١٦٦٩
+ خروج القوزاق على بولنـدة وانهزامهم على يد جون سوبيسكى	١٠٨١	١٦٧٠
غزو الترك لبولندة وفتحهم كامنيك وتنازل بولندة لهم عن بادوليا واوكرين	١٠٨٣	١٦٧٢
رفض الشعب البولندى للمعاهدة وقهرهم الترك بقيادة جون سوبيسكى فى شكزم ولمبرغ	١٠٨٤—١٠٨٦	١٦٧٣—١٦٧٥
صلح زرانو بين الترك وبولندة	١٠٨٧	١٦٧٦

	هـ	م
وزارة قره مصطفى	١٠٨٧—١٠٩٤	١٦٧٦—١٦٨٣
تأهبه سراً للاغارة على النمسا بتوثيق صلته بفرنسا والروسيا و بولندةمنذتداول عهده		
+ خروج المجر على النمسا	١٠٨٥—١٠٩٢	١٦٧٤—١٦٨١
اغارة قره مصطفى على المجر	١٠٩٤	١٦٨٣
حصاره لمدينة فينا	١٠٩٤	١٦٨٣
فشل الحصار لنقض جون سو بيسكى العهد ومؤازرته لامبراطور النمسا		
قتل قره مصطفى لفشله		
عقد الحلف المقدس بين النمسا و بولندة والبندقية على الترك	١٠٩٥	١٦٨٤
خسائر متوالية للترك براً وبحراً	١٠٩٧—١١٠٠	١٦٨٥—١٦٨٨
سليمان الثانى	١٠٩٨—١١٠٢	١٦٨٧—١٦٩١
نهضة قصيرة على يد مصطفى كبريلى	١٠٩٨—١١٠٣	١٦٨٧—١٦٩١
موته فى موقعة سلانكمن	١١٠٣	١٦٩١
مصطفى الثانى	١١٠٦—١١١٥	١٦٩٥—١٧٠٣
انتصار الجيوش النمساوية على الترك فى واقعة زنتة	١١٠٨	١٦٩٦
معاهدة كارلوتز (بين الترك والنمسا والروسيا و بولندة)	١١١٠	١٦٩٩
* الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر — م *		
+ نهضة الروسيا على يد بطرس الاكبر	١١٠٠—١١٣٧	١٦٨٩—١٧٢٥
استيلاء بطرس على آزاق	١١٠٨	١٦٩٦
أحمد الثالث	١١١٥—١١٤٣	١٧٠٣—١٧٣٠
* تفاقم العداوة بين القاسمية والفقارية فى مصر	١١١٩	١٧٠٧

	هـ	م
انتصار الترك على الروس على نهر بروث وعقد معاهدة بروث	١١٢٣	١٧١١
استرجاع قومرجى على بلاد المورة من البنادقة	١١٢٧	١٧١٥
انهزامه فى المجر على يد الامير يوجين عند بيتر وردن	١١٢٨	١٧١٦
معاهدة بساروتز	١١٣٠	١٧١٨
حرب الترك مع الفرس (انتهت بجلاء الترك عن فارس)	١١٣٥—١١٤٨	١٧٢٢—١٧٣٥
* قتل اسماعيل بك شيخ البلد وتولى جركس بك شياخة مصر	١١٣٦	١٧٢٣
انتهاز الروسيا فرصة اشتغال الترك بمحاربة الفرس وعقدها محالفة مع النمسا على الدولة	١١٣٨	١٧٢٦
* تولى عثمان بك شياخة البلد بمصر	١١٤٢	١٧٣٠
محمود الاول	١١٤٣—١١٦٨	١٧٣٠—١٧٥٤
اشهار الروس الحرب على الترك	١١٤٨	١٧٣٥
دخول النمسا فى الحرب وهزم الترك لها وللروسيا ومهادنة النمسا للترك على انفراد	١١٤٩	١٧٣٧
غيظ ميونخ (قائد الروس) وعمله على تحقيق المشروع الشرقى		
هزمه جيوش الترك فى شكزم وعقد معاهدة بلغراد بين الترك والروسيا	١١٥٢	١٧٣٩
* اتفاق ابراهيم بك ورضوان بك على عثمان بك بمصر وطردهما اياه الى الشام واقتسام السلطة بينهما	١١٥٦	١٧٤٣
عثمان الثالث	١١٦٨—١١٧١	١٧٥٤—١٧٥٧
مصطفى الثالث	١١٧١—١١٨٧	١٧٥٧—١٧٧٣
+ تولى كترين الثانية عرش الروسيا	١١٧٦	١٧٦٣

	هـ	م
* تولى على بك الكبير شياخة البلد بمصر	١١٧٧	١٧٦٣
اعلان الترك الحرب على الروس لتعديهم على خان القرم	١١٨٢	١٧٦٨
* الباب العالى يستنجد على بك فى حربه مع الروسيا	١١٨٢	١٧٦٨
* اعلان على بك الكبير استقلاله بمصر	١١٨٣	١٧٦٩
انتصار الروس على الترك بحرا عند جشمة	١١٨٤	١٧٧٠
* ارسال على بك الكبير محمداً «أبا الذهب» للاستيلاء على الشام	١١٨٥	١٧٧١
* اتفاق أبى الذهب مع الدولة وتوليته والياً على مصر من قبلها	١١٨٦	١٧٧٢
* وفاة على بك	١١٨٧	١٧٧٣
عبد الحميد الاول	١١٨٧—١٢٠٣	١٧٧٣—١٧٨٩
معاهدة كجوق قينارجة بين الروس والترك	١١٨٨	١٧٧٤
* وفاة أبى الذهب	١١٨٩	١٧٧٥
* اقتسام السلطة بين مراد بك وابراهيم بك	١١٨٩—١٢٠١	١٧٧٥—١٧٨٦
نقض كترين العهد وضم القرم اليها	١١٩٧	١٧٨٣
معاهدة القسطنطينية بين الروس والترك	١١٩٨	١٧٨٤
اعلان الترك الحرب على الروسيا لتعدد اهانتها لهم	١٢٠١	١٧٨٧
* رجوع السلطة الى الباب العالى فى مصر	١٢٠٠—١٢٠٥	١٧٨٦—١٧٩٠
سليم الثالث	١٢٠٣—١٢٢٢	١٧٨٩—١٨٠٧
استيلاء الروس بقيادة سوفاروف على اوخاكوف واسماعيل	١٢٠٥	١٧٩٠
توسط انجلترة وغيرها فى ابرام معاهدة ياسى بين الروس والترك	١٢٠٦	١٧٩٢
* رجوع السلطة فى مصر الى مراد بك وابراهيم بك	١٢٠٥—١٢١٣	١٧٩٠—١٧٩٨
* غارة الفرنسيس على مصر	١٢١٣	١٧٩٨

الباب الثانى

تاريخ مصر

من الحملة الفرنسية الى انتهاء عهد محمد على

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر

(١٢١٢ — ١٢١٦ هـ : ١٧٩٨ — ١٨٠١ م)

حالة مصر قبيل الحملة

قضت مصر تحت حكم ولاة العثمانيين والأجناد والمماليك نحو ثلاثة قرون عانت فيها من أنواع الظلم وسوء الإدارة ما أضعف تجارتها وجعلها فى معزل عن بقية العالم، فأصبحت لا تدرى شيئاً عن قوى الدول الأوربية وأطماعها، أو علاقة بعضها ببعض. وقد كان يقيم بمصر فى ذلك الحين كثير من جالية الفرنسيين والانجليز، ولكن المصريين لم ينتفعوا بإقامتهم بينهم، بل اكتفوا بالنظر اليهم بعين الازدراء والمقت، ظناً منهم أن دولهم ما زالت على الضعف الذى سمعوه عنهم أيام الحروب الصليبية، وفاتهم ان الزمن قد تغيّر، وان أوربا أصبحت على مبلغ من القوة وسعة العلم وعظم الدراية بالفنون الحربية بحيث لا يمكن مصادمته الا بمثله

قوة فرنسا

وكانت دولة فرنسا قد قويت شوكتها بين دول أوربا، وظهر فيها فى أواخر القرن الثامن عشر (من التاريخ الميلادى) قائد حربى عظيم أخذ يتغلب على ممالك

أوربا ، وبات كثير من دولها فى خوف منه : ذلك هو البطل الشهير «نابليون بونابرت»

وفى أواخر سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٨ م) جرّد « نابليون » هذا حملة على مصر ، فامتلكها ، ودخلت البلاد من ذلك الحين فى طور يُعتبر ابتداؤه مبدأ تاريخها الحديث. نعم لم يلبث الفرنسيون بمصر اكثر من ثلاث سنوات ، ولكن فتحهم لها كان الحلقة الأولى من سلسلة حوادث ، لعبت أوربا أهم أدوارها ، وأفضت عاقبتها الى المركز الاجتماعى والسياسى الذى تشغله مصر الآن

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر فجائية أو من خواطر اللحظات ، بل ان «ليبنتز» أحد وزراء لويس الرابع عشر الحّ عليه سنة ١٦٧٢ م بوجوب غزو مصر ، وبيّن له ان امتلاكها يجعل فرنسا سيدة العالم . وقد رأى ذلك غيره من وزراء فرنسا بعده ، ولكن فرنسا لم تخط خطوة فى هذه السبيل الا فى عهد « نابليون » متى فكر فى الحملة

على ان نابليون نفسه لم يقدم على هذه الحملة الا بعد تفكير طويل : فاستشار فيها العلماء ، وقرأ لأجلهـا الكتب ، وبعدئذ عرض اقتراحه على هيئة الحكومة الفرنسية مع ايضاح طويل

أما أهم الأسباب التى حدت بنابليون الى الاقدام على هذه الحملة واقتنعت بها الحكومة الفرنسية فهى : أولاً — رغبته فى زيادة نفوذ فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط وضم وادى النيل اليها ، لما فيه من الخيرات الكثيرة التى تغنى فرنسا عن كثير من المستعمرات البعيدة ، ولما له من المكانة التجارية العظمى . وثانياً — تمهيد الطريق لقهر الانجليز بطردهم من الهند واستيلاء الفرنسيين عليها ، لان مصر هى مفتاح الطريق الى تلك البلاد . وفى الحقيقة كانت لنابليون اطماع كبيرة فى الشرق بأسره ، وكانت نفسه تتوق الى أن يأتى فيه بمثل ما أتاه الاسكندر من قبله* اسباب الحملة

كل هذه الاعتبارات ، الى ما عسى أن يكون قد نال الفرنسيين المقيمين بمصر

* ووافقت الحكومة الفرنسية اخيراً على تجريد الحملة لأنها أخذت تخشى سطوته بعد انتصاراته فى اوربا



نابليون بونابرت

من عسف المماليك وظلمهم ، جعلت فرنسا تُقْدم على تجريد تلك الحملة ، مع ما فيها من المبادأة بالعدوان لسلطان آل عثمان الذى كان صديقها فى ذلك الحين

تدبير الحملة

ورأت الحكومة الفرنسية أن يكون إعداد هـذه الحملة بغاية التستّر والتكتّم ، كى لا يعلم بمسيرها احد وخاصة انجلترة اشد اعداء فرنسا فى ذلك الحين . فسهر « نابليون » على إعداد ما يلزم لها من الجند والسفن الحربية والمراكب النقّالة ، فجهز

لها نحو ٤٠ الف مقاتل، عليهم ضباط من نخبة قواد فرنسا : مثل « كليبر » و« ديزيه » و « مينو » و « مورات » . وأعدَّ لها اسطولاً كبيراً جعل على رأسه القائد العظيم « برُوِي » ، وسلَّحه بالكثير من المدافع والذخيرة . واصطحب معه كذلك مَن لا يقلون عن مائة رجل من اعظم علماء فرنسا : جمعهم من اكبر اساتذة كل علم وفن ، وجهزهم بكثير الكتب والآلات العلمية ، مما رأى أن يكون له فائدة فى الاستكشاف عن حال مصر خاصةً والشرق عامة . ومن أهم ما عنى باحضاره معهم مطبعة عربية كان للحملة منها فوائد كبرى

خروج الحملة من فرنسا

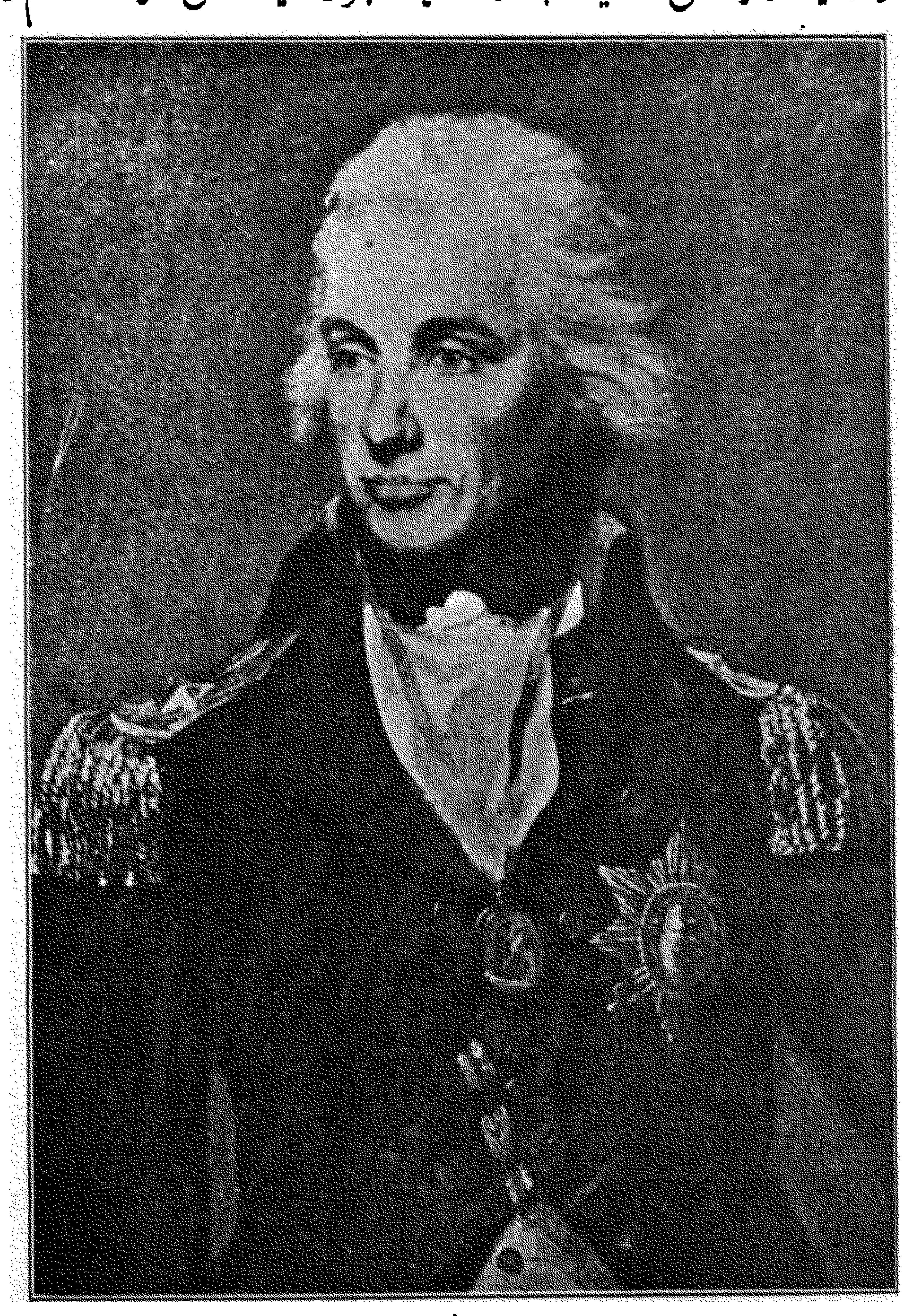
وفى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ١٢١٢ هـ (١٩ مايو سنة ١٧٩٨ م) اقلع نابليون بهذه القوة من ميناء طولون ، وانضمت اليها بعض المراكب من الجهات الاخرى . وقصد جزيرة مالطة ، فاستولى عليها بلا عناء ، وكانت اذ ذاك فى يد « فرسان القديس يوحنا » . وترك احد قواده حاكماً عليها ، ثم غادرها

وكان إعداد هذه الحملة قد تمَّ وعلمه بعض الدول ، غير انه لم يعلم بمقصدها أحد .

بحث نلسن عن الاسطول الفرنسى

وأوجست انجلترا منها خيفة ، وظنت أنها ربما تقصد شواطئ « إرلندا » رجاء الإغارة على الجزائر البرطانية . فعهدت البحرية الانجليزية الى « نلسُن » أمير البحر الانجليزى العظيم بان يقتفى اثر هذا الاسطول الفرنسى ، وأن يلحق به كل ما امكنه من الضرر . فتلقى « نلسن » هذه التعليمات ، ولكنه لم يبحث عن نابليون غربى البحر الابيض حيث يُنتظر وجوده لو كانت وجهته الحقيقية ارلندا ، بل اداه ذكاؤه الفطرى ان يقصد « مالطة » . فلما وصلها وجد أن نابليون قد غادرها بجيشه منذ خمسة ايام ، وانه سار شرقاً . فادرك أن وجهة نابليون لا بد ان تكون مصر ، ورأى أن يتبعه اليها . وبالفعل وصل باسطوله الانجليزى الى الاسكندرية يوم ٨ المحرم سنة ١٢١٣ هـ (٢١ يونيه سنة ١٧٩٨ م) ، فلم يعثر للفرنسيين فيها على اثر . فبعث وفداً الى حاكم المدينة « السيد محمد كريم » (وكان مصرى الجنس) يستفسر منهُ عن قدوم اسطول فرنسى الى البلاد المصرية . فراع أهل المدينة رؤية الاسطول

الانجليزى ، واوجسوا منه خيفة ، اذ لم يكن لهم علم بعزم الفرنسيين على غزو بلادهم . وحاروا ايضاً فى امر استعلام الانجليز عن مجئ الاسطول الفرنسى، فلم يعرفوا لاهتمامهم هذا علة . وذلك يدلك على الدرجة التى وصلت اليها مصر فى تلك الايام من قِصَر النظر وقلة الدراية باخبار العالم والتنافس الحاصل بين ممالكه . فاكّد رجال « نلسن » للحاكم أن الاسطول الانجليزى ما اتى الى هذه البلاد الا ليدفع عنها الاسطول الفرنسى ، وان غاية ما يبغيه الانجليز ان يُسمح لهم بانتظار الاسطول الفرنسى خارج الميناء ، وأن يشتروا من المدينة بالمال ما يحتاجون اليه من الزاد . فلم يقتنع السيد



نلسن

محمد كريم بحسن نيّة الانجليز ، وامتنع عن اجابة ملتمسهم ، وأجابهم بصراحة (ما كانت لتغنى عنه شيئاً لو قصد الانجليز بالبلاد سوءاً) إذ قال : « ان مصر بلاد السلطان . وليس للفرنسيين او سواهم شيء فيها ، فاذهبوا انتم عنا »

نلسن بالاسكندرية

ولما كان هم نلسن منصرفاً الى مطاردة الاسطول الفرنسى ، لم يرَ داعياً الى استعمال القوة فى الاسكندرية ، وأقلع عنها مؤقتاً ليتجوّل قليلاً فى البحر الابيض المتوسط ويأخذ من بعض جزائره ما يحتاج اليه من الزاد

وصول الحملة الى مصر

ومضى اسبوع بعد اقلاع العمارة الانجليزية ولم يظهر فى المياه المصرية أحد من الاعداء ، فهدأ روع النـاس بالاسكندرية والقاهرة . وبينا هم كذلك اذا بالعمارة الفرنسية العظيمة قد لاحت امام الثغر الاسكندرى ، فعاد الفزع وزاد عما كان ، وبعث حاكم المدينة بالرسل الى القاهرة على جناح السرعة ، يستنجد مراد بك وابراهيم بك ، ويصف لهما حرج الحالة ، وهول العمارة الفرنسية ، وقال عنها انها : « لا يُعرف اولها من آخرها »

تدابير المماليك

فلما وصل الخبر الى مراد بك أسرع الى مقابلة ابراهيم بك بمنزله (مستشفى قصر العينى الآن) ، فبادر الى عقد جمعية عمومية من كبراء البلاد ، ليتداولوا فيما يجب عمله لصد الأعداء . فاجتمعت الجمعية توّاً من كبار المماليك والعلماء ، وحضرها « بكر باشا » والى السلطان بمصر * . وبعد أن تباحثوا فى الأمر قرّ قرارهم على أن يسير مراد بك الى الاسكندرية لصدّ الأعداء ، وأن يبقى ابراهيم بك بالقـاهرة للدفاع عنها لو اقتضى الأمر ذلك

* كانت السطوة الحقيقية فى هذه الايام للمماليك . ولكن لما كان هؤلاء يعلمون انهم اجانب عن البلاد ، بعيدون عن أهلها فى الشعور والعادات ، خشوا ازدياد الجفاء بينهم ، وعملوا على اكتساب مودة العلماء ليحببوا فيهم الاهلين ، فكانوا يشاورونهم فى الأمر ، ويصغون لرغباتهم ، حتى صار للعلماء قول مستمع فى ادارة شؤون الحكومة

اما الوالى فلم يكد يكون له من الأمر شيء سوى تسلم الجزية وارسالها الى السلطان . وكان المماليك دائماً يرتابون فى اخلاصه لهم ويخشون دسائسه لدى الباب العالى ، حتى ان «مراد بك» قال لبكر باشا فى هذا الاجتماع الذى نحن بصدده : «ان الفرنسيس ما قدموا الى هذه البلاد الا برضاء الباب العالى ، ان لم يكن بإيعاز منه »

نزول الفرنسيس بالاسكندرية

هذا ما كان من أمر المماليك . أما العمارة الفرنسية فانها وصلت أمام الاسكندرية في اليوم الثامن عشر من المحرم (أول يوليه) . وعند ذلك أرسلت زورقاً الى الميناء يطلب القنصل الفرنسى ، فتردد « السيد محمد كريم » أولاً فى تسليمه ، ثم أذن له بالذهاب . فعلم منه نابليون ما كان من أمر العمارة الانجليزية وما يعدّه المماليك للدفاع عن البلاد . فأقرّ على انزال جيشه الى البرّ فى الحال ، واختار لذلك نقطة غربى الاسكندرية بنحو ثلاثة أميال (العجمى الآن) ، فسار بأسطوله اليها وشرع فى إنزال رجاله وعدده ليلاً بكل سرعة ، فتم له ذلك من غير أن يعترضه أحد . وبعد أن استراح برهة على الرمال جرد قسماً من جيشه وسار على الأقدام قاصداً الاسكندرية . فقابلهم قُبيل الفجر بعض فصائل من عرب « أولاد على » ، تبادلوا معهم بعض الطلقات ، ثم فروا مَذعورين ، فاستمر الجيش فى المسير نحو الاسكندرية ، حتى صار على مقربة من أسوارها

مهاجمة اسوار الاسكندرية

فقابلتهم حامية المدينة بما لديها من وسائل الدفاع . فقسم نابليون رجاله الى ثلاثة أقسام وهاجم بهم الأسوار هجوماً عاماً من اليمين واليسار والقلب ، فدخلوا المدينة عنوة ، وانسحب الحاكم ورجاله الى قلعة « فاروس » فى طرف الميناء الشرقية (قايتباى الآن) . ولما دخل الفرنسيون المدينة مخترقين شوارعها الضيقة ، أمطرهم الأهلون من نوافذ المنازل وابلاً من المقذوفات ، فقابلهم الفاتحون بأشد منها ، وكادوا يفتكون بالعبـاد فتكاً ذريعاً ، لولا ان أرسل نابليون رسولاً الى الاسكندريين ، يؤمّنهم على أموالهم وأرواحهم ودينهم وتقاليدهم ، وأخبرهم بأن فرنسا لا تقصد سوءاً الاّ بالمماليك ، وانها تحرص على مودّة الأهلين وودّ سلطانهم الأعظم . فهدأ الناس حقناً للدماء ، واستسلم اليه السيد محمد كريم ، لقلة ما بقى معه من الذخيرة . فأكرم نابليون مثواه ، وقال له : « قد أخضعتُك بالقوة ، ولى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكن نظراً لما أبديتَه من الشجاعة ، ولأن الشجاعة حليفة الشرف ، أردّ اليك سيفك ، أملاً أن تُخلص للجمهورية الفرنسية بقدر ما أخلصت لتلك الحكومة العاتية » .

فأعرب السيد محمد كريم عن رغبته فى خدمة الجمهورية ، وأبقاه نابليون فى منصبه تحت اشراف « الجنرال كليبر » (وكان هذا قد اضطرّ الى البقاء بالاسكندرية لجرح اصابه وقت مهاجمة الأسوار)

ملل الجند من المدينة

ولم تكد الجنود الفرنسية تنزل الى المدينة وتتجول فى انحائها ، حتى لحقهم الملل واستولت عليهم الكآبة ، فإنهم (فضلاً عن تألمهم من الحرّ الشديد الذى لم يعتادوه فى بلادهم ، والذى كان بالطبع على أقصى درجاته فى هذا الفصل من السنة) لم ترق المدينة فى أعينهم ، ولم يجدوا فيها شيئاً من العظمة والبهاء ؛ مما سمعوا به قبل مجيئهم وكان من مميزات الاسكندرية فى القرون الأولى ثم ذهب باضمحلال شأن المدينة على مدى الأيام . وكل ما وقع عليه نظرهم : من شوارع ملتوية ، وأزقّة ضيقة قذرة ، وآثار مهملة ، وملابس وازياء لا تنطبق على ذوقهم الفرنسى ، لم يزدهم الاّ قنوطاً واعتقاداً بأنهم مسخّرون فى غزوة لا فائدة فيها

نشاط نابليون

على ان نابليون ذاته لم يظهر عليه شيء من ذلك ، بل بقى ثابت الجأش ، كلّه حركة ونشاط ، ولم يكد يتمّ له الاستيلاء على الاسكندرية حتى أمر بانزال كل المعدات الحربية الى البر ، كى لا يفاجئه « نلسن » على غير أهبة . ثم التفت الى تنظيم حكومة الاسكندرية ، فعهد بادارة شؤونها الى ديوان ، فشُكّل من سبعة اشخاص مختارين . وأمر بانزال جماعة العلماء الذين معه ، وكلّفهم مباشرة البحث والتنقيب بالاسكندرية ، ريثما يتم له فتح العاصمة فيستدعيهم اليها ، فشرعوا فى عملهم بكل همة ونشاط . ومن انفع ما بدءوا به انهم رسموا مصوراً وافياً للاسكندرية وضواحيها

منشور نابليون الى المصريين

وقبل ان يزحف نابليون بجيشه الى القاهرة امر بكتابة منشور بالعربية ليلقى به السكينة فى قلوب الأهلين ، وعهد بكتابته الى المستشرقين من علمائه ، وطُبع بالمطبعة العربية التى معهم . وقد رأى نابليون فى هذا المنشور ان يُخضع المصريين من باب الدين واحترامه لعقائدهم وخليفة نبيهم ، فغالى فى مصانعتهم حتى شك معظم الأهلين فى

صدق نيته ، واخذوا يهرعون الى القرى والبلاد التى بمعزل عن طريق الفرنسيين حتى لا يقعوا فى حبال مكايدهم . ومما قلل من ثقة الأهلين بهذا المنشور ان نابليون كان وعدهم عند استيلائه على الاسكندرية بعدم التعرض لحريتهم وتقاليدهم ، ولكن ما لبث ان جردهم من السلاح وامرهم أن يحملوا على صدورهم شارة الجمهورية الفرنسية (وهى قطعة مستديرة من القماش مؤلفة من ثلاثة الألوان : الازرق والابيض والاحمر) وها هى بعض عبارات هذا المنشور العجيب ، نقلاً عن كتاب المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى كان معاصراً لهذه الحملة :

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية . السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى . فحضر الان ساعة عقوبتهم . واحسرتاه ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابزة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون ، قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين . اننى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم : ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها : من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة . فان كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الان فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الامة كلها . وسابقاً كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك . أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية واعيان البلد ، قولوا لامتكم : ان الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا ، الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا

يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره . فما أطاعوا أصلاً الا لطمع أنفسهم. طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم. طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم ، غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ، ولا يبقى منهم أثر

الزحف على القاهرة

ترك نابليون « كليبر » بالاسكندرية وشرع فى الزحف على القاهرة فى ٢٣ المحرم (٧ يوليه) . واختار لذلك طريق الصحراء الغربيـة مُخترقاً مدينة « دمنهور » . وكان قد ارسل قسماً من جيشه بطريق الساحل الشرقى للاستيلاء على « رشيد »[١] وعزّزه باسطول من المراكب الصغيرة ، حتى اذا تمّ لهما فتح المدينة سار الاسطول فى النيل ويجانبـه الجيش لينضما الى جيش نابليون عند « الرحمانيـة » . وجدّ « نابليون » فى البر حتى وصل الى دمنهور ، بعد ان لاقت جيوشه من التعب والحر والظمأ ما ذهب بقواهم[٢] وزاد من سخطهم . فاستراحوا بها يوماً ، ثم واصلوا المسير نحو الرحمانية فجر يوم ٢٦ المحرم ، وقبل وصولها التقوا بشرذمة من المماليك لم تكد تشتبك معهم حتى فرّت امام نيرانهم الحامية

الوصول الى الرحمانية

ولما وصلوا الى الرحمانية رأت جنود نابليون النيل لأول مرة ، فهرولوا اليه يطفئون ظمأهم ، ويمتّعون ابصارهم التى ملّت الصحراء ورمالها ، وأبدوا رغبة عظيمة فى البقاء طويلاً بالرحمانية. فرأى نابليون أن يبقى بها بضعة أيام ريثما يلحق به الجيش والاسطول اللذان ذهبا لفتح رشيد

الاستيلاء على رشيد

وكان هذان قد نجحا فى مهمتهما ، وسار الاسطول فى النيل ، وانضم الجيش الى نابليون . ثم سار الجيش ازاء الاسطول على ضفة النيل الغربية . الا ان الريح كانت شديدة ، فساقت الاسطول امام الجيش حتى وصـل منفرداً الى « شَبراخيت »

(١) وكانت اذ ذاك مدينة تجارية عظيمة وتمتاز عن الاسكندرية بكثرة حدائقها وجمال منظرها
(٢) لان اكثر الترع كان نيلياً

واقعة شبراخيت

(بعد الرحمانية) ، فالتقى هنالك قبل وصول نابليون باسطول المماليك وجيشهم المؤلف من ٤٠٠٠ فارس على رأسهم « مراد بك » ، فوقع الاسطول الفرنسى بين نارين ، وكاد المماليك يفتكون به ، لولا ان اشتعلت النار بذخيرة احدى سفن المماليك ، فعاقهم ذلك حتى وصل نابليون . فقسم جيشه الى خمس مربعات ، وامسك عن اطلاق النار ، حتى اقدم عليه فرسان المماليك بشجاعتهم المعتادة ، ولما صاروا على مرمى مدافعه اطلقها عليهم ، فكانت تحصدهم حصداً ، فاضطر مراد بك الى الانحياز الى القاهرة بمن بقى من رجاله (٢٩ المحرم : ١٤ يوليه)

استعداد المماليك

وكان اهل القاهرة قد استولى عليهم الجزع منذ نزول الفرنسيس الى ارض الاسكندرية ، فلما جاءهم نبأ انهزام مراد بك بشبراخيت وتقهقره الى القاهرة هاجوا وماجوا ، وأخذ الكثير منهم يفرون من المدينة . ولما سمع « ابراهيم بك » بتقهقر زميله شرع فى تحصين « بولاق » (فرضة القاهرة فى ذلك الحين) ، وعمل على نصب المدافع على النيل بين بولاق وشبرا . واقبل عليه الأهلون يساعدونه بكل ما لديهم من الوسائل ، فاكتظت بهم بولاق حتى كان يخيل للناظر ان سكان القاهرة انتقلوا اليها . وكان الجميع يزدادون فزعاً كلما سمعوا باقتراب الفرنسيس ، فامتلأ الجو بصياحهم وعويلهم وتضرعاتهم ، والعقلاء منهم ينصحون لهم بالتزام السكينة ، ويذكّرونهم بان ذلك لا يجدى نفعاً ، وان النبي واصحابه كانوا يقاتلون بالسيوف والرماح ، لا بالعويل والصياح

واقعة انبابة أو الاهرام

اما مراد بك فانه استعد للقاء الفرنسيس ببلدة « أُنبابة » من اعمال الجيزة وخندق بها ، ونصب المدافع امام عسكره مخافة ان يحصل له ما حصل بشبراخيت يوم هاجم الاعداء بفرسانه من غير المدافع

وقد كانت تجزئة المماليك لقواهم على الوجه المتقدم من اكبر غلطاتهم ، اذ كان خير طريقة لهم أن يجمعوا كل قواهم على الشاطئ الشرقى وينتظرون قدوم العدو ، فيضطرونه الى عبور نهر النيل العظيم ، فيهاجمونه مجتمعين أثناء عبوره . ولكنهم غفلوا

عن ذلك كما غفلوا عن غيره من الحيل الحربية ، واعتمدوا على شجاعتهم وانتصاراتهم القديمة ، ونسوا أنهم انما يحاربون دولة فى مقدمة دول أوربا : لها من الدراية بالفنون الحربية الحديثة ما تذوب أمامه كل شجاعة ، ويفنى بهِ كل استبسال . وصل نابليون الى « انبابة » فى اليوم السابع من شهر صفر (٢١ يوليه) ، فرأى المماليك أمامها فى انتظاره ، وقد ملئوا الجو بصياحهم وحماستهم . وبريقُ دروعهم وملابسهم المطرزة بالقصب يتلألأ فى الشمس فيزيد منظرهم روعة ومهابة . ورأى وراءهم الأهرام تتجلّى فى الصحراء وتُذكّر القادم بأنهُ فى أرض الفراعنة الأقدمين ، فأشار اليها وقال محرضاً جنوده على القتال : «أيها الجند ، إن أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام» فكانت هذه الكلمة من أشهر كلماته المأثورة

ورأى نابليون أن المماليك يتأهبون لمهاجمته من الأمام كعادتهم ، فقسّم جيوشه فِرَقاً كل منها على شكل مربّع مجوّف ، وساقها على المماليك على هيئة هلال : يستعد وسطُه للقاء قلب المماليك ، ويحيط طرفاه بجناحيهم

فأدرك مراد بك قصده ، فأمر أبسل قوّاده « أيوب بك الدفتردار » أن يهاجم الفرقة التى أرادت الالتفاف حولهم من الغرب . فانطلق أيوب بك على الفرنسيس برجاله انطلاق السهام ، فأفسح لهم هؤلاء الطريق حتى صاروا فى وسط المربع ثم أصلوهم ناراً حامية من ثلاث جهات ، ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً

ثم هجم قلب الجيوش الفرنسية على خنادق المماليك واستولوا عليها برؤوس الحراب ، وساقوا فرقة أخرى للاحاطة بالمماليك من الشرق . فلما رأى مراد بك أن الفرنسيس كادوا يحيطون بهِ ، وأن طرفى هلال جيوشهم آخذان فى الاقتراب ، بادر بالتقهقر ، واضطر الى ترك مئات من رجاله فى الميدان ، فحصرهم الفرنسيس بينهم وبين النهر ، وما زالوا بهم حتى أفنوهم قتلاً وغرقاً

ولم يستطع مراد بك بعدُ استئنافَ القتال ، فأسرع الى منزله وأخذ ما قدر على حمله من المال والنفائس ، وقصد الى الصعيد

هذه هي الموقعة التي تعرف عند المصريين بواقعة « أُنبابة » وعند الفرنسيس بواقعة « الأهرام » : استمرت أقل من ساعة من الزمان ، فكانت كما رأيت القاضية على المماليك ، ولم يخسر فيها الفرنسيس غير عشرة قتلى وثلاثين جريحاً ، فكانت اكبر برهان على فضل الأنظمة الحربية الحديثة وفوقها على شجاعة القرون الوسطى وإقدامها

بعد الواقعة

ولم يكد ابراهيم بك يسمع بهذه الكارثة حتى أسرع بالتأهب للفرار من القاهرة ، وحذا حذوه بقية المماليك . ثم ازداد الفزع فتبعهم معظم الأهلين ، وظل الناس طول الليل يخرجون بنسائهم وأطفالهم من المدينة ، بعضهم قاصد الى الصعيد ، وبعضهم الى جهة بُلْبَيْس والسُّوَيس ، وفى هذه الطريق سار ابراهيم بك

تسليم القاهرة

وفى الصباح (٨ صفر) اجتمع علماء المدينة بالجامع الأزهر ليتداولوا فى الأمر ، فقرّ قرارهم على التسليم ، وذهب وفد منهم ومن الأعيان الى بونابرت بالجيزة يخبره بالأمر ، فأحسن مقابلتهم ، وأمّنهم على حياتهم ومالهم ودينهم بعبارات تشبه عبارات المنشور ، مؤكداً أنهُ صديق المصريين والسلطان ، وأنه ما أتى إلاَّ لتخليصهم من نير المماليك الظلمة

ولما سمع أهل المدينة بذلك هدأ روعهم ، وأُرسلت الزوارق الى الجيزة ، فجاءت بمعظم الجيش ، فنزل قسم منهُ بالقلعة . وفى يوم ١٠ صفر (٢٥ يوليه) دخل نابليون نفسه القاهرة بعد أن ترك « ديزيه » لحماية الشاطئ الغربى ، ونزل بقصر محمد بك الألفى على شاطئ بركة الأزبكية (حديقة الأزبكية الآن)

استئصال شأفة المماليك

ورأى نابليون أن يبدأ باستئصال شأفة المماليك : فأرسل « ديزيه » فى فرقة من الجيش لمطاردة مراد بك بالصعيد ، وأرسل أخرى فى طلب ابراهيم بالشرقية ، فلم تقوَ عليه لقلة عددها ، واضطر نابليون أن يذهب اليهِ فى جيش بنفسه . فقابله ابراهيم بك بالصالحية ، فانهزم واضطر الى الفرار جهة الشام ، بعد أن كبّد الجيوش الفرنسية خسارة كبيرة

ثم عاد نابليون الى القاهرة ، واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم ، وتشددوا



نابليون أمام الأهرام

(رسم علي افندي يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

مع نسائهم حتى اضطروهنّ الى أن يفدين أنفسهنّ بالمال : من ذلك أن زوجة مراد بك فدت نفسها بمبلغ ١٢٥٫٠٠٠ ريال . وحاول بعضُ الغوغاء الاشتراكَ مع الجند فى نهب بيوت المماليك ، فقابلهم نابليون بالشدة ، فساعد ذلك على رجوع السكينة بعض الشىء

اصلاحات نابليون

ولما رأى نابليون أن قد هدأت الأمور عمل على تنظيم الحكومة ، وأن يدخل فى البلاد كل ما يستطيع من الإصلاحات التى تقتضيها الحضارة الفرنسية ، فنصّب أحد رجاله حاكماً على القاهرة ، وجعل آخر مديراً للشؤون المالية . وأمر بتشكيل مجلس نيابى (ديوان) من الأهلين ليسترشد بهم فى ادارة البلاد . وتكوّن الديوان بادئ الأمر من عشرة من المشايخ منهم الشيخ عبدالله الشرقاوى (مؤلف كتاب « تحفة الناظرين » فى تاريخ مصر) والسيد خليل البكرى (نقيب الأشراف وشيخ سجّادة البكرية فى ذلك الوقت) وغيرهما من أفاضل العلماء . ثم وسّع من نطاق المجلس ، فانضمّ اليه أعضاء يمثّلون جميع الطوائف المقيمة بمصر ، ومن جملتهم أعضاء من الفرنسيين

استياء المصريين

واندفع نابليون فى ادخال كثير من الاصلاحات الأخرى الخاصة بالصحة العامة أو الأمن وغير ذلك ، غير ناظر لاستياء الناس أو رضاهم ، ومكتفياً باعتقاده أنهُ انما يريد الاصلاح على النمط الأوربى . فمن ذلك أنه أمر الأهلين بكنس شوارعهم ورشّها فى أوقات معيّنة ، وبوضع مصباح على كل منزل ، مع تهديد كل من يخالف ذلك بالعقوبات الشديدة ، ووضع أنظمة لقيد عُقود الزواج والوفيات والمواليد ، مع تأدية مغارم لكل ذلك : مما جعل المصريين يحسّون تدخّله فى حريتهم الشخصية (وكانوا لم يعهدوا شيئاً من ذلك فى عهد أظلم المماليك) . فقلّت ثقتهم بوعود نابليون ومواثيقه ، وأخذوا ينظرون شَزْراً الى كل قانون جديد يَسنّه ، خصوصاً عندما أمر بهدم أبواب الحارات والدروب

وكان نابليون قد أخذ يحصن القاهرة ، فهدّم لذلك كثيراً من الآثار والمساجد ، فزاد استياء الأهلين . ولما جمع العلماء وكلفهم تعليق شارات الحكومة الفرنسية ذات

الالوان الثلاثة ، ونهرهم عندما رفضوا ذلك ، امسكوا عن مساعدته فى تحسين العلائق بينه و بين العامة ، وأخذ سخطهم فى الاستفحال

و بينما نابليون مشتغل باصلاحاته هذه اذ جاءه نبأ تدمير الانجليز لاسطوله فى خليج « بوقير »

واقعة بوقير البحرية

وذلك ان « نِلْسن » امير البحر الانجليزى لم يفتر عن البحث عن الاسطول الفرنسى حتى عثر عليه فى خليج « بوقير » في ١٧ ربيع الأول (اول اغسطس) ، فوقعت بين الأسطولين موقعة بحرية عظيمة انتهت بتدمير الاسطول الفرنسى ، فكانت من أهم الوقائع التى كوّنت مجد برطانيا البحرى . والفضل فى ذلك للبطل العظيم « نلسن » قائد الاسطول الانجليزى ، فانه مع فَوْق الفرنسيس عليه فى عدد مراكبهم ، ونصبهم القلاع والاستحكامات على الشواطئ لمعاونة الاسطول ، تمكن من شطر الاسطول الفرنسى شطرين ، أحاط بأحدهما من الجانبين وفتك به ، وشتّتت السفن الانجليزية شمل المراكب الباقية ، فلم ينج منها من الغرق او الحريق الا القليل

وكان الفرنسيس فى اول الواقعــة قد ارسلوا بعض مراكبهم الصغيرة لتغرى الأسطول الانجليزى على الاقتراب من شواطئهم المحصنة ، حتى يقع بين نارين ، فلم يعبأ بهم نلسن ، وكان من مهارته ما رأيت . وفى هذه الواقعة جرح نلسن فى رأسه جرحاً خفيفاً ، ومات « برويس » قائد الاسطول الفرنسى بعد ان أظهر من البسالة والثبات ما يجعله فى مقدمة أعاظم الرجال

ثورة القاهرة

بلغ نابليون ذلك فحزن حزناً شديداً لانقطاع كل اتصال بينــه وبين فرنسا ، ولـكنه أظهر الجلد واستمر فى تقوية مركزه فى الديار المصرية . وبقيت مشروعاته تلى بعضها بعضاً من غير أن يعبأ باستياء الأهلين ، حتى بلغ السيلُ الزُّبى ، وخرج سكان القاهرة على الفرنسيس خروجاً عاماً فى ١٠ جمادى الأولى (٢٢ اكتوبر) أي بعد نزولهم مصر بشهرين تقريباً



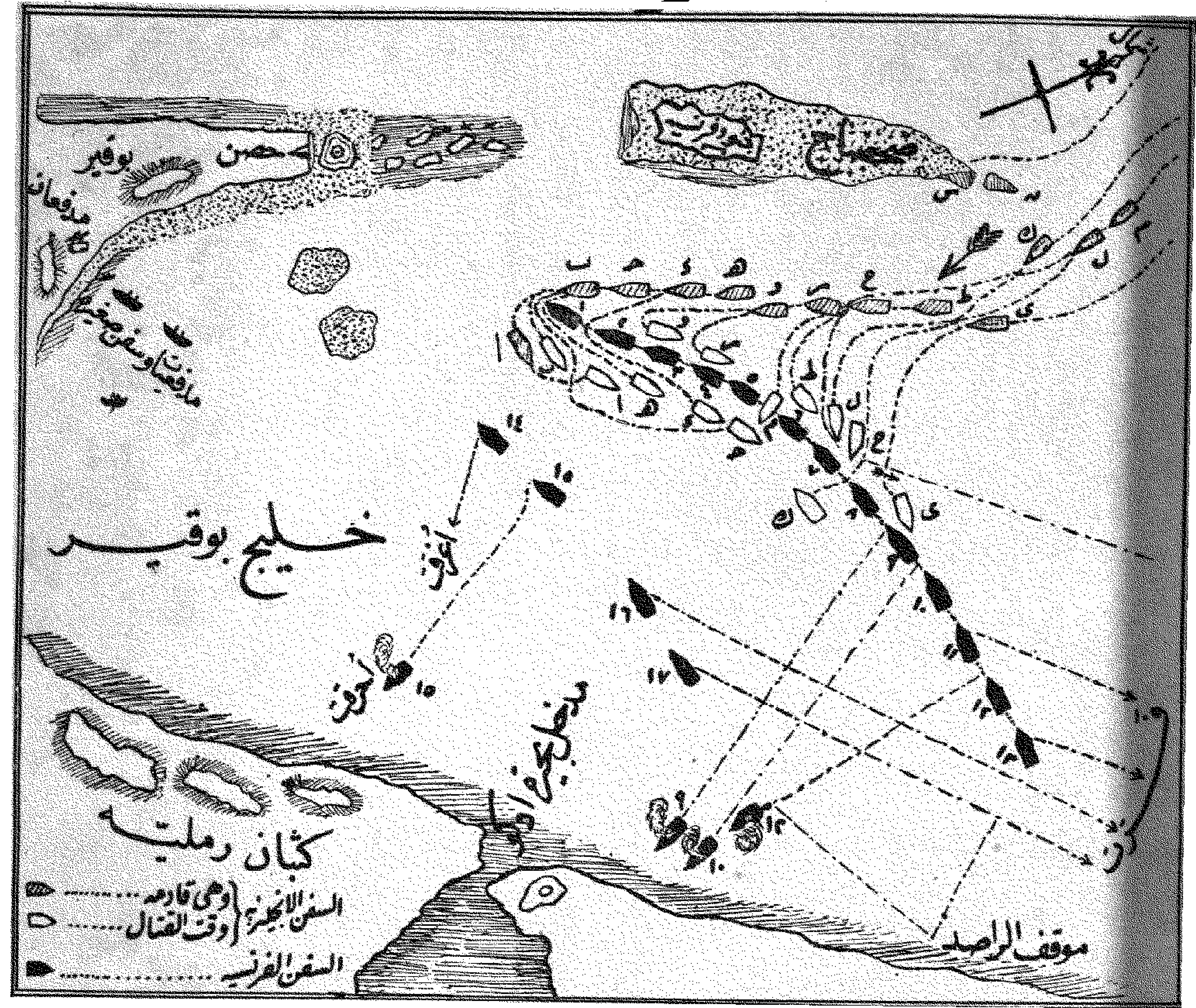
بعض أعضاء المجلس النيابى

(١) السيد خليل البكرى — (٢) الشيخ عبد الله الشرقاوى

(٣) الشيخ المهدى الكبير — (٤) الشيخ سليمان الفيومى

(رسم على افندى يوسف عن مجموعة بدار الكتب السلطانية)

بيان واقعة بوقير البحرية
اغسطس سنة ١٧٨٩



وتُلَخَّص أهم اسباب هذه الثورة فيما يأتى :

(١) قتل الفرنسيس للسيد محمد كريم (حاكم الاسكندرية) لاتهامه بمخابرة المماليك — أسباب الثورة

(٢) غلو الفرنسيس فى ضرب الضرائب وكثرة الحاحهم والجاجهم فى الاستفسار عن الاملاك الشخصية

(٣) هدم بعض المساجد لتحصين القاهرة

(٤) خوف الأهلين من بعض اصلاحات نابليون وحملها على محمل سيئ ، مثل هدم ابواب الحارات . وكانت هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة كأنها حصن فى ذاتها

(٥) انهزام الفرنسيين فى موقعة بوقير البحرية ، وسماع المصريين بأن الباب العالى أرسل جيشاً لفتح مصر

استفحال الثورة

وقد استفحل أمر الثورة وأظهر فيها عوام القاهرة إقداماً كبيراً لم يُعهد فيهم من قبل ، فذبحوا كثيراً من رجال الفرنسيين ، ثم تحصنوا فى الأحياء الوطنية (داخل حدود مدينة الفواطم) ، ونصبوا المتاريس على مداخلها ، ووقفوا يدافعون عنها بما لديهم من الاسلحة والذخيرة . ولكن ماذا تجدى الشجاعة والحماسة امام القوة والعلم ؟ فان نابليون لم يكد يسمع بالخبر حتى طار برجاله الى مواضع المتاريس ، فصوّب عليها المدافع . ثم رأى أن الثائرين لجهلهم لم يحصّنوا التلول المشرفة على القاهرة من الشرق (*) فأسرع بارسال المدافع لتُنصَب عليها، وطاول زعماء الثورة : يطلب منهم الصلح خديعة منهُ ليتم له نقل المدافع الى المواقع المذكورة . فلما أصبح الصباح ورأى الثائرون المدافع مصوّبة عليهم استولى عليهم الفزع ، وعلموا أنهم وقعوا فى شرك أعمالهم ، ولما انهالت المقذوفات طول المساء على حيّ الأزهر (مقر المشايخ ومنبعث الفتنة) هاج الأهلون وماجوا ، واضطر المشايخ الى الذهاب الى بونابرت واظهار خضوعهم له . فأشبعهم تأنيباً وتعنيفاً على ماسبّبوه من سفك الدماء ، ثم أمر بالكف عن اطلاق النيران وأمسك الأهلون أيضاً عنهُ ، إلا سكان حيّ الحسينية (ومعظمهم من طائفة الجزارين) فانهم لما فُطِروا عليه من الشدة والعنف استمروا فى القتال حتى نفدت جميع مقذوفاتهم، والفرنسيس يصلونهم طول الوقت ناراً حامية حتى ألحقوا كثيراً من الضرر بحيّهم . وما زالت آثار هذا التخريب باقية الى الآن

اخماد الثورة

ثم دخل الفرنسيس المدينة وتجوّلوا فى أسواقها لاعادة النظام والسكينة . ثم دخلت طائفة منهم الجامع الأزهر بخيولهم ، وحطّموا قناديله ، وأزالوا بعض الآيات القرآنية المنقوشة على جدرانه ، ثم غالوا فاتخذوا الجامع اصطبلاً لخيولهم . فعظم استياء الناس ،

(*) أى من جهة باب الوزير وباب البرقية (جبانة المجاورين)

وأرسل المشايخ وفداً الى نابليون يلتمسون اصدار الأمر باخلاء الأزهر من الجند . فأجاب ملتمسهم بعد التحذير والتهديد

فهدأت المدينة ، ورجعت المياه الى مجاريها ، وإن كان نابليون قلّل بعد ذلك من اعتبار المشايخ فى الديوان وغيره ، وأصبح عملهم قاصراً على نشر المنشورات التى يحثّون العامة فيها على التزام السكينة والخضوع للفرنسيس والاعتراف بما أبداه اليهم نابليون من الجميل

الترك يحاولون فتح مصر

و بعد ان اخمد نابليون الثورة تفرغ لتحصين مصر لصد غارات العثمانيين . وكان هؤلاء قد أخذوا يسعون فى استرجاعها ، وعقدوا لذلك معاهدة مع انجلترة وروسيا . وعوّلوا فى فتحها على تسيير جيشين اليها : الأول يزحف على « العريش » من جهة الشام ، والثانى يجتمع فى جزيرة « رودس » ومنها ينقله الاسطول الانجليزى الى سواحل مصر . الاّ انهم أساءوا التدبير فى انفاذ هذه الخطة ، اذ وصل الجيش الأول الى العريش قبل أن يستعد الثانى للقيام . فتسنى لنابليون مقابلة كل منهما على حدة بمجموع جيوشه ، مع انه كان يضطر الى تجزئتها لو وصل الجيشان فى وقت واحد

حملة نابليون على الشام

فلما علم نابليون بذلك أسرع بمعظم جيشه للقاء جيش الشام ، فبلغ العريش بعد احدَ عشر يوماً واستولى عليها عنوة ، وسقطت « غزّة » فى يده بعد ذلك بقليل . وفى اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢١٤ (٣ مارس سنة ١٧٩٩) بلغ « يافا» وحاصرها ، ولما رأت حاميتها أن لا قِبَل لهم به استأمنوا اليه فأمّنهم ، ولكنه غدر بهم واستعرضهم جميعاً رمياً بالرصاص . وتلك وصمة كبرى فى تاريخ حياته لا يغفرها له التاريخ مهما انتُحل له من الأعذار ، وانه انما قتلهم جميعاً ليخلص من عبء ثقيل هو إطعامهم وحراستهم

وبعد ان حصّن يافا أسرع الى حصار «عكاء» ، فلم يقدر عليها لحسن دفاع حاكمها «احمد باشا الجزّار» ومساعدته بحراً بأسطول انجليزى بقيادة « السير سِدنى سمِث » ، فرجع عنها بعد ان حاصرها ٥٠ يوماً

واقعة بوقير البرية
ولم يكد يصل الى مصر حتى جاءه خبر وصول البوارج العثمانية الى الاسكندرية وانزال ١٠٠٠٠ من الاتراك بجهة « بوقير » يوم ٩ المحرم سنة ١٢١٤ (١٣ يونيه سنة ١٧٩٩) . فسار اليهم وهزمهم شرّ هزيمة

عودة نابليون الى فرنسا
على أن ذلك لم يطيّب من خاطر نابليون ، فانّ انقطاع المواصلات عنه بمصر بعد تدمير أسطوله بموقعة « بوقير البحرية » ، وعجزه عن الاستيلاء على عكاء التى هى فى نظره مفتاح الشرق ، وضياع أمله فى فتح الهند ، كل ذلك ملأه يأساً ، وذهب أدراج الرياح ما كان له من الآمال فى تكوين دولة عظيمة بالمشرق . ثم ان « السير سدنى سمث » كان قد أرسل اليه طائفة من الصحف الأوربية ، فقرأ فيها ان الحرب تجددت بين فرنسا والنمسا ، وان الأخيرة استردت شمالى ايطاليا الذى كان قد استولى عليه هو قبل مجيئه الى مصر . فعوّل فى الحال على أن يعود الى فرنسا سراً. فغادر مصر يوم ١٩ ربيع الأول سنة ١٢١٤ (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) بعد أن عهد بقيادة الجيش للقائد « كليبر »

الحالة بعد خروج نابليون
خرج نابليون من مصر وترك الجيش الفرنسى تهدده الأخطار من كل جانب . اذ كان عدده قد نقص كثيراً فى معارك الشام وغيرها ، ودبّ السخط فى نفوس الجند وقلّت أموال الخزينة ، وأصبح الجيش فى حاجة الى الذخيرة والملابس . وأرسلت الدولة العثمانية جيشاً آخر الى العريش يقوده الصدر الأعظم ، وأسطولا الى دمياط : تريد اعادة الكرة على مصر ، هذا الى ان المماليك عادوا الى مكافحة الفرنسيس . نعم انهم فى جمادى سنة ١٢١٤ هادنوا المماليك الذين كانوا قد تغلبوا على معظم الصعيد بزعامة رئيسهم مراد بك . بأن ولوا مراداً حكم بلاد الصعيد ، بشرط أن يكون خاضعاً لسلطتهم مستعداً لمعونتهم ، ولكنه كان متربصاً بهم النوازل حتى يستبد فى قومه بملك مصر

كليبر وسياسته
وكان « كليبر » من أكبر قوّاد الفرنسيس وأعظمهم مهارة ، الّا أنهُ أدرك صعوبة التغلب على هذه الأمور ، ورأى من المصلحة أن لا يبقى بمصر ، وعرض الصلح على



القائد كليبر

(رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

الصدر الأعظم والسير سدنى سمث ، واتفق معهما على أن يخرج من مصر بجنوده وجميع مهماته ، ويسافر الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية ويُعرف ذلك « بمعاهدة العريش » (شعبان سنة ١٢١٤ : يناير ١٨٠٠) . فلما علمت بذلك الحكومة الأنجليزية استنكرت تصرّف السير سدنى سمث ، وأرسلت اليه الأوامر بأن لا يعقد صلحاً مع الفرنسيس الاّ اذا سلّموا جميع جيشهم بمصر . فكان ذلك من الغلطات التى دوّنها التاريخ للحكومة الانجليزية ، اذ ان غرضهم الأصلى لم يكن الاّ إخراج الفرنسيس من مصر ، وها هو ذا قد عُرض عليهم بلا ضرب ولا طعن . فأبلغ السير سدنى سمث أوامر حكومته الى كليبر ، فانقطعت بذلك المفاوضات بين الطرفين

الترك فى مصر

وكان كليبر بعد معاهدة العريش قد سمح لجيش الصدر الأعظم بدخول مصر، فسار وعسكر بجهة «بلبيس». ثم انتشر عسكره فى ضواحى القاهرة والأقاليم المحيطة بها يجمعون المعونات والضرائب، ودخل كثير منهم المدينة، وغفلوا عن احتلال القلاع والحصون التى أخلاها الفرنسيون. فلما تحقق الفرنسيون تغيّر نية الانجليز انتهزوا فرصة تشتت الجيش العثمانى وأوقعوا بكل قسم منه على انفراده بغتة، وكانت الوقعة الفاصلة بعين شمس، فانهزم الترك وتبعهم الفرنسيس الى «الصالحية»، فتقهقروا الى الشام

ثوران القاهرة

ولما عاد كليبر الى مصر وجد ان رؤساء العثمانيين الذين بقوا بالقاهرة هم وبعض المشايخ والتجار أثاروا أهلها وغمّوهم على الفرنسيس، فهاجوا وملكوا البلد وحصّنوا مداخل الدروب ومنعوا الفرنسيس من دخول المدينة. فحصلت بين الطرفين مناوشات عظيمة انتهت بعد نحو ثلاثين يوماً بإبرام الصلح بينهما على أن يخرج العثمانيون الى بلادهم، وأن يغرم العلماء والأهلون نحو عشرة آلاف ألف فرنك

أما شأن مراد بك ومن معه من المماليك فى هذه الثورة فانهم جاءوا الى «دير الطين» (الساحل القبلى) ينتظرون لمن يكون الغلب فيكونون معه، فلما حدث ما حدث رجعوا الى الصعيد

عودة النفوذ الى الفرنسيس

وبذلك رجع للفرنسيس نفوذهم فى مصر، الاّ أنه لم يمض قليل حتى قُتل «القائد كليبر» غيلة: قتله «سليمان الحلبى» أحد طلبة العلم من نزلاء السوريين، بإيعاز من أحد زعماء المماليك (على ما قيل)، وذلك فى ٢٠ المحرم سنة ١٢١٥ هـ (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ م)

مقتل كليبر

مينو وسياسته

فعُهد بقيادة الجيش الفرنسى الى القائد «مينو»، وكان أقل كفاءة من كليبر غير محبوب من الجيش مثله، وكان شديد الميل الى البقاء بمصر. فتظاهر باعتناق الاسلام وتسمى «عبد الله مينو»، وتزوج بنت أحد كبار المصريين من أهل رشيد

ولم يفتر الانجليز عن العمل على اخراج الفرنسيس من مصر. ففى شهر شوال

سنة ١٢١٥هـ (فبراير سنة ١٨٠١م) أرسلوا جيشاً بقيادة « السير رالف أبر كرومبي» فوصلت السفن الانجليزية الى الاسكندرية ، وأنزلت الجنود بجهة « بوقير » ، ثم وصل جيش عثمانى وانضم اليهم . فعهد مينو بقيادة مدينة القاهرة الى القائد « بليار» وجاء بمعظم الجيش الفرنسى الى الاسكندرية . فالتحم الفريقان فى موقعة فاصلة عند « كانوب » قرب بوقير انهزم فيها الفرنسيس وتراجعوا الى الاسكندرية ، فحوصروا بها ومات « ابر كرومبي » فى هذه الواقعة فعهد بالقيادة الى « هتشنسن » . وفى أثناء ذلك تقدم الجيش التركى الذى كان بالعريش . فسار هتشنسن للانضمام اليه بعد أن عهد بفتح الاسكندرية الى أحد قوّاده حملة ابركرومبي

فالتقى الجيشان بجهة « الرحمانية » وسارا نحو القاهرة . فلم يأنس بليار من نفسه مقدرة على صدهم وعرض عليهم الصلح على أن تخرج الجيوش الفرنسية من مصر وتسافر مخفورة الى فرنسا على نفقة الحكومة الانجليزية . فقبل الانجليز ذلك ، وأنزلت الجنود الفرنسية بقوارب فى النيل الى رشيد وبوقير ونزلوا هنالك فى السفن التى أعدت لهم

جلاء الفرنسيس

فدخلت الجنود العثمانية وبعض رجال الجيش الانجليزى الى مصر ومعهم من امراء مصر ابراهيم بك الكبير والبرديسى والألفى والسيد عمر مكرم وغيرهم ، فامتلأت قلوب الأمة المصرية فرحاً لتخلصهم من أذى الفرنسيس وجورهم

أما عبد الله « مينو » فكان قد أصر على الدفاع عن الاسكندرية ، فشدّد الانجليز والعثمانيون عليه الحصار . وانتهى الأمر بقبوله التسليم والخروج من مصر بنفس الشروط التى سلّم بها « بليار » ، فسافر بجنوده الى فرنسا فى اليوم العاشر من جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ (١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١م) ، وبذلك تم جلاء الفرنسيس عن مصر بعد أن قضوا فيها نحو ثلاثة أعوام

اعمال البعث العلمي الفرنسي

ذكرنا فيما تقدم ان نابليون أحضر معه الى مصر نحو مائة رجل من اكبر علماء فرنسا الملمين بكل فن وعلم . وكان أهم غرض من احضارهم الانتفاع بآرائهم فى

كل ما يلزم للجيش والجالية التي كان يرمي نابليون الى توطينها بالبلاد فلم يكد رجال البعث يبلغون الديار المصرية حتى انكبوا على دراسة جميع ما فيها من آثار ونبات وحيوان ومعادن، ورسموا كل شيء ووصفوه وصفاً مسهباً وقد نجحوا في أعمالهم نجاحاً تاماً حتى أنه قيل في وصف الحملة الفرنسية: « انها كانت علمية اكثر منها حربية »

اقسامه

وبعد خروج نابليون من مصر عني « كليبر » بتنظيم أعمال هذه الهيئة العلمية ، فقسم أعضاءها الى تسعة أقسام : قسم لدرس الشؤون الزراعية ، وآخر للصناعة والتجارة ، وقسم للجغرافيا ، وآخر للآثار ، وآخر للادارة ، وآخر لدرس الأخلاق والعادات ، وهكذا



القائد مينو

(رسم على افندي يوسف عن صورة بدار الكتب السلطانية)

مشروع قناة السويس

ومن أهم أعمالهم بمصر أنهم فحصوا أمر برزخ السويس وامكان شق ترعة فيه بين البحرين الأبيض والأحمر . فدرسوا المشروع درساً دقيقاً برئاسة مهندسهم العظيم « لابير » ، وكتبوا فيه تقريراً وافياً كانت له اكبر فائدة للمسيو « ديلسبس » الذي

حفر هذه الترعة فيما بعد فى عهد الخديوى اسماعيل . ولم ينجز الفرنسيس هذا المشروع اذ ذاك لوقوعهم فى خطأ حسابى توهموا به أن سطح البحر الأحمر أعلى من سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار

ومن أعمالهم انهم درسوا الأمراض الخاصة بالبلاد وطرق علاجها ، ولا سيما الرمد ، وفحصوا نظام الرى وطرق اصلاحه ، ومسحوا أرض القطر ، ورسموا له خريطة عظيمة نُشرت عند عودتهم الى فرنسا

الآثار المصرية

أما بحوثهم فى الآثار المصرية القديمة فكفاهم فخراً أنهم أول من لفت نظر أوربا الى درس هذه الآثار وأن ما دوّنوه فيها كان الأساس الأول لبحوث العلماء الاوربيين بعد . وقد كشفوا كثيراً من المدن والآثار المصرية القديمة ، ورسموا لها صوراً جميلة * ، وأشكالاً تبين دواخل أهم المعابد وما على جدرانها من النقوش . وكان كل ذلك طبعاً بالقلم والقرطاس ، اذ لم يكن التصوير الشمسى وقتئذٍ معروفاً . ولا يفوتنا أن رجال هذه الحملة هم الذين عثروا على حجر رشيد الذى كان له الفضل الأكبر فى انجلاء تاريخ مصر القديم

كتاب وصف مصر

وفى سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) أمرت الحكومة الفرنسية بجمع أعمال علماء الحملة ونشرها فى مؤلف واحد ، فظهرت فى ذلك الكتاب العظيم المسمى « وصف مصر » (Description de l'Egypte) ، فكان أكبر وأوفى مؤلف ظهر الى الآن فى وصف الديار المصرية

---

* هذه الصور بعضها مطابق تماماً لحالة الآثار وقت رسمها وبعضها يمثل شكلها فى ايام رونقها واستعانوا فى رسمها بالنظر الى الاجزاء التى لم تتهدم فى الأثر واستنتاج شكل التى تهدمت بطريق المحافظة على التماثل فى البناء

الفصل الثانى

محمـــد على باشا

١ — ✱ نشأته ونهوضه ✱

نشأته — وُلد محمد على باشا ابن ابراهيم أغا من سلالة الباني بيلدة « قَوَلَة » أحد الموانى الصغيرة التى على الحدود بين تراقية ومقدونية عام١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م)، وهو العام الذى وُلد فيه « ولنجتون » القائد الانجليزى العظيم « ونابليون » الفاتح الكبير، ولكل منهما أثر عظيم فى تاريخ حياة المترجم. وانه لمن العبث أن نسرد هنا الأقاصيص التى تعزى اليه فى حداثة سنه، اذ لم نعثر عليها فى أصل يُعتمد عليهِ

توفى والده ابراهيم أغا وهو فى سن الطفولة، فتولى أمره عمه « طوسون » غير ان هذا وافته منيته بعد مدة وجيزة، فقام بأمر تربيتهِ أحد أصدقاء والده، وقد تبناه وعُنى بهِ حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، فتعلم طرفاً من الفروسية واللعب بالسيف. ثم زوّجه احدى قريباتهِ، وكانت من ذوات اليسار. وخدم حاكم قولة واكتسب رضاه بما كان يأتيهِ من ضروب المهارة والحذق فى جباية الأموال من القرى المجاورة التي كانت لا تؤدى ما عليها الاّ بالشدة واستعمال القوة الجبرية. واعانته ثروة زوجته على الاتجار فى الدخان، فاصطحب المسيو « ليون » أحد صغار التجار (ويغلب أنه كان وكيلاً لأحد المحال التجارية بمرسيليا مسقط رأسه)، وشاركه فى الاتجار فى هذا الصنف فلم تعد عليهِ هذه التجارة بالأرباح الطائلة، الاّ أنه استفـــاد فائدة جمة من مرافقته للمسيو « ليون »: فاكتسب منه كثيراً من العادات والآداب الفرنسية التى تركت فى نفسه أثراً عظيماً، وساعدته مساعدة كبيرة فى بقية أطوار حياته

هذا كل ما رواه لنا التاريخ من سيرته الأولى، وهو يحملنا على أن نترك الثلاثين

سنة الاولى من تاريخ حياته صحيفة بيضاء . وذلك أمر لا بد منه لمن نشأ فى بلدة صغيرة لم تكن ذات شأن كبير من قبل

وقبل أن نشرح طريقة استيلاء محمد على على الديار المصرية وابادته للماليك يجب علينا أن نصف حالة الدولة العثمانية فى إبان شبابه ، حتى يتمكن القارئ من الوقوف على سر نجاحه :

حالة الدولة العثمانية فى اول عهد محمد على

كانت الدولة العثمانية اذ ذاك مكوّنة من عدة شعوب مختلفة ، ذوى أديان متباينة ونِحَل متضادة : مما طرّق اليها الضعف ؛ وأدخل عليها الوَهَنَ والاختلال الذى كاد يبلغ أقصاه فى عصر محمد على ، إذ قد بدأ فى عهد صغره أمر « على باشا والى يانينه » ، وهو أيضاً من الألبانيين : أولئك القوم الذين فتحوا الشرق بقيادة الاسكندر ، واستوطنوا مصر فى عهد البطالسة ، وهدّدوا رومية فى زمن بيروس . خرج ذلك الرجل على دولته ، فنكث فَتْلها ، وأقلق بالها ، واستقل بأمر البانيا مدة خمسين عاماً انتهت بقتله غيلةً سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م)

وكانت كذلك جميع أجزاء الدولة مفككة العُرا ثائرة على الباب العالى : فمصر والأناضول وسورية كلها كانت فى فتن وقلاقل ، وبلاد العرب مع الدولة فى حرب عوان . وكانت الولاة فى يانينة وبغداد كأمراء مستقلين ، واستقلّ بالفعل فى عكاء أحمد باشا الجزّار ، وشرع يحذو حذوه معظم ولاة الدولة . ووقف دولاب أعمال الحكومة الداخلية جملةً ، وكان الجيش موءلفاً من رَعاع الناس وسِفلَتهم ، وكان السلطان أشبه بسجين أو ألعوبة فى يد وزرائه وعساكره الانكشارية ، وكان الباب العالى مكوّناً من فئة الوزراء الذين يتهددهم الخطر فى كل لحظة ، فقد كان كل منهم يتحيّن الفرص لاغتيال زميله ، أو للسعى فى عزل السلطان وتولية غيره : ليكون هو الصدرَ الأعظم الجديد

تلك كانت حال الدولة بالاختصار فى شبيبة محمد على ، ومنها يسهل تفهُّم أطوار حياته وعلاقته مع الدولة . وبالرغم من كل هذا كان عامة مسلمى الدولة مُطيعين

خاضعين للسلطان من آل عثمان : لأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والإمام الواجب تنصيبه ديناً ، ولو لم يكن له من الأمر شيء . بخلاف الوزير أو الوالى اللذين لم يكن كل منهما فى نظرهم الاّ فرداً من رجال الحاشية توصّل الى مركزه السامى بالحظوة أو الرشوة . لذلك نرى أن كل الفتن والقلاقل فى ذلك العهد كانت نتيجة المنافسة القائمة بين حكام الأقاليم ورجال الباب العالى ، وان فوز أحدهم بأمنيته كان متوقفاً على حسن الحظ والإقدام والخداع ، لا على الكفاءة الشخصية والمواهب الطبيعية

اول قدومه الى مصر

بلغ محمد على الثلاثين من عمره عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٨ م) ، وكان لا يزال فى مسقط رأسه بين أولاده الثلاثة : ابراهيم وطوسون واسماعيل . وقد ذكرنا ان تجارة الدخان لم تعد عليه بربح طائل ، لذلك كان ميّالاً للاحتراف بمهنة أخرى . فلم يلبث الاّ قليلاً حتى دخل فى طور جديد من أطوار حياته . والسبب فى ذلك يرجع الى الحملة الفرنسية على مصر

اولاً فى واقعة بوقير

وذلك أنه فى سنة ١٢١٣ هـ (عام ١٧٩٩ م) أعلن الخليفة الحرب على الفرنسيين لغزوهم مصر ، فأصدر الأوامر بجمع الجيوش من أنحاء الدولة ، فجمع حاكم قولة (الشربجى) فرقة عددها ٣٠٠ من الجنود المتطوعين (الباش بُزُق) بقيادة ابنه « على أغا » ، ورافق محمد على هذه الفرقة وكيلاً له عليها . فتوجهت بطريق البحر الى الدردنيل ، ومن ثمة انضمت الى عامة الجيش فى جزيرة رودس

ولما وصل الجيش الى ميناء بوقير من الديار المصرية التحم بالجيش الفرنسى ، فكانت الدائرة على الترك ، واضطرهم الفرنسيون الى الالتجاء لسفنهم وسفن الانجليز المرافقة لها بعد مذبحة شنيعة . وكان محمد على قد أشرف على الغرق ، لو لا أن قيض الله له « السير سِدْنى سمِث » ، فانتشله من الماء بيده وأنزله فى سفينته

ثانيا فى حملة ابركرومبي

وبعد ذلك رجع محمد على الى بلدته ، ثم عاد سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠١ م) مع جيش « القبطان حسين باشا » الذى جاء ليساعد القائد الانجليزى « أبِرْكُرومبى » على اجلاء الفرنسيس . ومن هذا الوقت بقى فى مصر حتى صار والياً عليها

وقد نال إعجاب قائده والقواد الانجليز بما كان يأتيه من ضروب الشجاعة وشدة البأس عند هجومه على حصن الرحمانية ، إذ دخله عنوة بعد أن اضطر القائد الفرنسى الى إخلائه . وكان هذا سبباً فى رقيه الى رتبة قائد فى الجيش

﴿ نهوض محمد على ﴾

النزاع بين الباب العالى والمماليك

بعد اخلاء الحملة الفرنسية البلاد ورجوعها الى فرنسا ابتدأت جماعة المماليك تشرئبّ أعناقها لأن تقبض على زمام الأمور فى البلاد كما كانت من قبل . فى حين أن الباب العالى كان يطمح الى طرد المماليك من الديار المصرية ، واسترجاعها بعد ان اغتُصبت منهُ مدة من الزمان . لكن المقادير جاءت بعكس ما أمل الفريقان : إذ أراد الله أن تكون نصيباً لمحمد على

محاولة الترك الفتك بالمماليك

بدأ النزاع بين الباب العالى والمماليك عند ما أراد الأول أن يستقل بالسيادة فى مصر ، فاستخدم للتغلب عليهم طريقة غير مقبولة : وذلك ان القبطان حسين باشا دعا البكوات العظام من حزب مراد بك الى معسكر بوقير ، بعلّة التفاوض معهم فى صيرورة حكومة مصر ، فكان معظمهم غير مرتاح البال الى هذه الدعوة ، الاّ أن خوفهم من نزع السلطة كلها من أيديهم حملهم على تلبيتهـا ، وطَمْأَن خاطرهم قربُ معسكر القائد « هتشنسون » الانجليزى

حماية الانجليز للمماليك

قابلهم الباشا القبطان بتهلل واستبشار وأكرم مثواهم ، ثم دعاهم الى ركوب زورق له لزيارة القائد الانجليزى ، بحجة أنهُ يريد أن يتفاوض معهُ أيضاً . ولما بعدوا عن الشاطئ قليلاً لحقهُ زورق يحمل بعض الأوراق ، فاستأذنهم ليقرأها على انفراد وترك الزورقِ بمن فيهِ من البكوات. فظهر لهم عند ذلك أنهُ يريد بهم سوءًا، فأمروا النواتى بالرجوع فامتنعوا واطلقوا عليهم النار ، فقتلوا ثلاثة وجُرح عثمان بك البرديسى واثنان آخران . فلما علم القائد الانجليزى بذلك امتشاط غضباً ، فاعتذر له الباشا القبطان بأسباب واهية . وفى الوقت الذى حدثت فيـه تلك الحادثة عند ساحل البحر كانت تمثل

الرواية نفسها فى القاهرة ، وقد احتمى معظم من بها من البكوات بالمعسكر الانجليزى فيها ، فأسعفهم القائد «رَمْزى» رغم إلحاح الصدر الأعظم فى تسليمهم اليه ، فكانت هذه الحادثة مدعاة الى اشتعال نيران الحقد فى صدور المماليك . وقد زادها لهيباً جعل « محمد خُسْرُو » مملوك الباشا القبطان والياً على مصر فى ربيع الاول سنة ١٢١٦ هـ (يوليه سنة ١٨٠١ م) : حصّل له القبطان ذلكَ المنصبَ بتوسط الصدر الأعظم يوسف باشا لدى الباب العالى

خسرو باشا

ويُعتبر خسرو باشا الوالى الجديد على الديار المصرية من أشهر رجال الترك فى القرن الثالث عشر . وكان ذا حُظْوَة عظيمة لدى السلطان . وقد خاصم محمد على مدة نصف قرن كان فى أثنائها عدوَّهُ المبين لأسباب سنذكرها فى موضعها . وكان من الذين يُعتدُّ برأيهم فى جسام الأمور ومعضلات السياسة كما سيجىء . ولا يُعْزَى فشلُه فى مصر الى قلة الذكاء والشجاعة ، بل لأنه ابتدأ حروباً داخلية فى وقت كانت فيه خزائنه خلواً وجيشه غير مدرب ، على قوة عظيمة من فرسان المماليك الذين كان فى قبضتهم خيرات البلاد وفيضُها

خسرو باشا والمماليك

ومن العبث أن نتجاهل ما كان للمماليك من المزايا العظيمة التى يمتازون بها على الأتراك فى حربهم لهم ، وذلك لأنهم التحموا بالجيوش الفرنسية اكثر من الأتراك ، فاقتبسوا من طرقهم الحربية ما زادهم فوْقا على الأتراك ، ذلك الى أنهم يعرفون البلاد اكثر من جنود الترك الذين وصلوا اليها حديثاً ، وأنهم كانوا لا يزالون أصحاب النفوذ والسلطان فى البلاد

فلما أراد « خسرو » مطاردتهم ونزع البلاد من أيديهم ، ظهرت كل هذه العقبات أمامه ، فضلاً عن أنهم القابضون على أزمّة الأحكام فى المديريات ، فأصبح القصد اذاً من حربه لهم انتزاعَ البلاد من قبضتهم . فأرسل لذلك «طاهر باشا» قائد الألبانيين بجيش كان نصيبه الخيبة والفشل ، وطارده عثمان بك البرديسى قائد المماليك من الوجه القبلى الى الوجه البحرى حتى ساحل البحر . ولما وصلت أخبار هذه

الهزيمة الى خسرو أعدّ مدداً أرسله بقيادة محمد على ، وكان ممن نال ثقة خسرو فى هذا الحين ، إلاّ أن عثمان بك بادر الى مناجزة الجيش التركى قبل أن يصل اليهِ المدد الذى كان يقوده محمد على ، و بدد شمله

خسرو ومحمد على

فلما علم خسرو بالهزيمة الثانيـــة وجَّه لومه الى الألبانيين وخاصة الى محمد على ، وأراد أن يحاكمه على تقصيره أمام مجلس عسكرى ، وكان غرضه بذلك اغتياله ، فامتنع محمد على عن الحضور ، ومن هذا العهد ابتدأت بذور العداوة تنبت بين هذين الرجلين : تلك العداوة التى فتّت فى عضد الدولة ومزقت أحشاءها كل ممزق

خسرو وجنود الحامية العثمانية

و بعد هذه الهزيمة الأخيرة أبت عساكر الترك الحرب كل الإباء لتأخر رواتبهم، وثاروا وحاصروا الخزانة ونهبوا وسلبوا القاهرة ، فاعتصم خسرو بالقلعة ، وأصلى العصاة منها ناراً حامية . فأراد إذ ذاك طاهر باشا قائد فرقة الألبانيين (وعددهم ٥٠٠٠) أن يتوسط بين خسرو والعصاة ، فأبى خسرو وساطته ، فانضم الى العصاة عليه . ولما

فشل خسرو

لم يجد خسرو لديهِ حينئذٍ جنداً تحميهِ ولى هارباً الى دمياط ، و بقى بها ينتظر فرصة يسترد بها ما فقده

ولما علم طاهر بذلك جمع رءوس العلماء وأشراف العاصمة وشاورهم فى الأمر ، فرضُوا أن يكون نائباً عن الوالى عليهم ، فأعلن انهُ هو الحاكم على مصر حتى يولّى الباب العالى خلفاً لخسرو باشا ، وذلك فى صفر ١٢١٨ (مايو ١٨٠٣) . وكان من سوء

طاهر باشا ومقتله

طالع طاهر باشا انهُ وقع فى نفس الحيرة التى وقع فيها خسرو ، إذ لم يمكنهُ دفع مؤخر رواتب الجند : و بعد ٢٢ يوماً من قبضهِ على زمام الأحكام تألّب عليهِ الجند ، واغتاله ضابطان (موسى اغا واسماعيل اغا) بعد ان تظلّما له من تأخير رواتب الجنود

ابتداء ظهور محمد على

فأصبح محمد على ، بعد هرب خسرو وقتل طاهر ، رئيس الأجناد غير المماليك من الارناءوط وغيرهم ، لأن رتبته فى الجيش كانت تلى رتبة طاهر باشا ، ولأنهُ كان محبوباً لدى العلماء والأهالى لما كان يبديه من العطف والحنان عليهم ، فحاز رضاهم بدفاعه ، وكاد يعلن نيابته عن الوالى لولا أن رأى مركزه لايقل خطراً عن مركز طاهر:

لعدم قدرته على دفع مؤخر رواتب الجند ، وعلى مقاومة خسرو باشا والمماليك معاً بمن كان تحت إمرته من الألبانيين . فرأى أنهُ من الحكمة والكياسة أن ينضم الى عثمان بك البرديسى هو ومن معه ، فتحالفا ونصّبا ابراهيم بك الكبير نائباً عن الوالي العثمانى ، لكبر سنّه ومكان احترامه عند المماليك ، وطردوا الانكشارية من مصر

اتحاده مع البرديسى على خسرو

مداخلة والى ينبع

وكان بمصر وقتئذٍ « أحمد باشا » والي المدينة وينبع ، ماراً بها : يستمدّ واليها ويتأهب للخروج الى منصبه ، ويؤلف حملة يكافح بها الوهابيين . فاشترك فى هذه الحوادث وفى مقتل طاهر باشا ، وجعل نفسه والياً على مصر ، أو على الأقل نائباً عن خسرو ريثما يحضر من دمياط . وكاد يتم له مراده ، لولا مناصبة محمد على وابراهيم بك له وعدم اعترافهما له بأى حق فى التدخل فى شئون البلاد . ولم يشعر بسلطته أحد لأنها لم تدم اكثر من يوم وليلة . ثم جاءه التقليد من الاستانة بنيابته عن الوالى حتى يحضر ، ولكن بعد فوات الفرصة : فانهم طردوه وباقى الانكشارية من مصر ، فخرج الى الحجاز

ثم ان البرديسى ومحمد على تعاونا على اخضاع المماليك الثـائرين الذين كانوا يهددون العاصمة . وبعد أن تم لهما ذلك عملاً على بت الأمر فى قضية خسرو ، فأعدّ لذلك عثمان بك البرديسى جيشاً برياً ، أما محمد على فانهُ جهز أسطولاً صغيراً ونزل بهِ الى دمياط . وكان قد أخذ لذلك عدته ، وبعد مناوشات خفيفة أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة

أخذ خسرو سجيناً

ولما علم الباب العالى بسير الأحوال فى مصر استولى عليهِ الخوف والقلق ، واتضح له جلياً أن خسرو أصبح غير لائق لولاية مصر ، فأصدر عهداً بتولية «على باشا الجزائرى» . ونزل هذا الوالى الجديد بالاسكندرية فى ربيع الأول سنـة ١٢١٨ هـ (٨ يوليه سنة ١٨٠٣) ، فرأى أنهُ لا يمكنه مقاومة البرديسى ومحمد على بحد السيف ، فاتفق معهما ظاهراً ، على حين أنه كان يعمل فى الخفاء على هدم قوتهما وتكوين حزب وطني مصرى يناهض المماليك . ولكن من سوء حظه ان بعض مراسلاته مع السيد

على باشا الجزائرى

« السادات » وقعت فى يد البرديسى (وكان هذا ضيفاً عنده)، فاحتال البرديسى فى قتله، وتمّ له ذلك فى شوال سنة ١٢١٨ هـ (يناير سنة ١٨٠٤ م)

محمد الالفى

وفى الشهر التالى لمقتل على باشا الجزائرى ظهر رجل ذو سطوة و بأس وأعوان كثيرين وهو « محمد بك الألفى » الذى يُعدُّ من اكبر المماليك فى الديار المصرية. وذلك انه رجع من انجلترا بعد أن مكث بها سنتين، وكان قد سافر اليها عام (١٨٠٢م) مع الحملة الانجليزية. وسبب سفره أن الانجليز كانوا عاهدوا المماليك فى واقعة سنة (١٨٠١ م) أن يأخذوا بناصرهم، ليتخذوهم صنائع وأعواناً لهم بمصر اذا اقتضى الحال تدخلهم فى شئونها مرة أخرى. فلما رجعت الحملة صار يتغنى قوادها بفروسية المماليك وشجاعتهم وخدماتهم، فسهل على الأمة الانجليزية تعزيز هذا الاتفاق، وعزموا على مساعدة الألفى وحماية المماليك. فلما وصل الى السواحل المصرية علم أنه لا يمكنه الوصول الى ضالته إلاّ بتوحيد قوى المماليك وجعلهم تحت حماية الانجليز، وكان ذلك لا يتم له إلاّ بالاتحاد مع البرديسى عدوه العنيد، وابرهيم بك الكبير. فلما نزل عند بوقير قابله أعوانه بكل حفاوة واكرام. واذ كان فى ريبة من أمر البرديسى اتخذ مسكنه فى دمياط، وأصدر الأوامر الى اتبـاعه بالاجتماع فى ضيعتهِ بالجيزة، ومعهم كل ما يمكن جمعه من العدة والعدد، على أن يلحق بهم بعد

اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى

إلاّ أن وصوله الى الديار المصرية لم يرق فى نظر كل من البرديسى ومحمد على: لأن الأول رأى ان من الخطل أن تكون نتيجة خلعه والبين وقتله ثالثاً أن يشاركه فى السلطة مناظر كان بعيداً عن الديار أثناء حربه معهم، وفاته أنهُ لو اتحد مع الألفى كما اتحد مع ابراهيم بك لاستعادوا سلطة المماليك فى مصر، لأن محمد على غريب عن البلاد وهو وحده لا يقوى على مقاومتهم. ولكن تدبير محمد على ودهاءه وسعوده كلها حالت دون اتفاقهم، خصوصاً أنهُ رأى أن البرديسى فى قبضتـه ولا داعى قط لإشراك مملوك آخر فى حكم البلاد. فاتفق الاثنان على أن يتخلصا من محمد الألفى، وفعلاً حاصر محمد على ومن كان معه من الألبانيين قصرَه فى الجيزة وأخذ أتباعه

فرار الالفى الى سورية

على غرة ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفر الباقون . أما البرديسى فسار بجيشه ليفتك بالألفى فى طريقه الى القاهرة ، فقابله بالمنوفية هو وحاشيته ، فأفلت الألفى من يده وهرب الى سورية ، أما من كان معهُ فقتل معظمهم وسلب كل ما معهم من المتاع والمال

تظاهر محمد بالخضوع للدولة

اتبع محمد على أثناء كل هذه المكافحات التى ناصب بهـا السلطان ومحمد الألفى خطة أظهرت ما كان عليـهِ من الدهاء والحكمة ، إذ أنهُ اختفى وراء الستار ، وأظهر البرديسى بمظهر العاصى فى وجـه السلطان والمهاجم للألفى بك ، مع أن محمد على كان يساعده فى جباية الأموال اللازمة للجيش الذى كانا يستظهران بهِ على من ينازعهما السلطة

تأليبه الاهالى على البرديسى

ولما هرب الألفى من الديار المصرية طلب محمد على من البرديسى رواتب الجند ، وأنذره أنهُ اذا تأخر اضطر الى تركه وحيداً ، وساعد الترك عليهِ وانضم اليهم . فلم يسع البرديسى إلاّ تلبية طلبه ، وبذل كل جهده فى جباية ما يلزم من المال بالقوة من التجار ، فأثار غضب الأهالى وهيّجهم ، ولا سيما أن ذلك أعقب ضرائب فادحـة جمعتها الحكومة واستعمل الجباة فى استخراجها العنف والشدة معهم ، اذ كانوا يضربون من يمتنع منهم ، وقد يقتلونه

استمالة قلوبهم

فانتهز هذه الفرصة محمد على وانسلخ من البرديسى ، وأظهر استياءه لجمع هذه الضرائب الفادحة ، ووعد الأهالى بالأخذ بناصر الذين يعارضون فى جمعها ، فمال اليهِ الناس ، وأصبح محبوباً عند عامة أهل القاهرة وأشرافها . ولما وثق من أن الرأى العام يؤيّده ، وأن هذه أحسن فرصة للقضاء على سلطة البرديسى والتخلص منهُ ومن أتباعه

مهاجمة البرديسى

قام فى فجر يوم ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ (١٢ مارس سنة ١٨٠٤ م) هو وجميع من التف حوله من الجند وحاصروا قصر البرديسى ، (الذى كان محصناً بالمدافع) .

فرار البرديسى وابراهيم بك

فتمكن محمد على من رشو رجال مدفعية البرديسى فحوّلوا مدافعهم على سيّدهم . إلاّ أن البرديسى وابراهيم بك الكبير اقتحما الطريق وفرّا هاربين الى بلاد سورية

فصفا الجو عندئذ لمحمد على، وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى القاهرة . الآ أنه رأى الفرصة لم تحن بعد للقبض على زمام الأمور فى الديار المصرية للأسباب الآتية :

(١) أنه رأى لا بد من أن عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى سيتفقان على مناوأته، وهو لا يقوى على مكافحتهما متحدين — العقبات الباقية

(٢) ان اتباعه من الجند لم تكن الا عصابة صغيرة من الالبانيين لا تقوى على منازعة جميع المماليك

(٣) انه كان يُعتبر فى هذه الفترة خارجاً على الدولة لاشتراكه فى خلع خسرو، وأن الدولة ربما ارسلت جيشاً لقهره والضرب على يده

فأراد أن يتخلص من هذا المأزق الحرج باذاعته أنهُ يريد تحرير القطر المصرى من جور المماليك وعسفهم، حتى يكون قد خدم الدولة خدمة جليلة تمحو ما مضى من سيئاته وعصيانه، ومهّد السبيل لذلك أنهُ لما علم أن الباب العالى عيّن والياً جديداً بدلاً من الجزائرى* قام فى الحال وأطلق خسرو باشا (وكان سجيناً) ليتولى الأمور حتى يصل الوالى الجديد. ولكن الجند لم يرضوا بأى حال إعادةَ تنصيبه والياً، فاضطر محمد على بعد اطلاقه بثلاثة أيام أن يسفره الى رشيد، ومن ثَم أبحر الى القسطنطينية بعد أن أظهر له عجزه عن حمايته

وبعد هذا الحادث بزمن وجيز وصل « أحمد خورشيد باشا » الوالى الجديد، واعترف بتوليته كلُّ الجيش : من ترك وألبان، وأذعنوا له بالطاعة . ولكنه أظهر بعد فترة من الزمن انهُ والٍ ضعيف الارادة غير كفء لهذا المنصب، وعجز كسابقيه عن دفع مرتب الجند الاتراك، فرجعوا الى السلب والنهب . أما محمد على فاتبع الطريق الأقصد، ومنع اتباعه من الألبانيين من مصادرة الأهالى، بل كان بالعكس يجتهد فى حمايتهم من ظلم الاتراك وعسفهم. ولما رأى الأهالى ما ارتكبهُ الجنود ثاروا على الوالى والتجئوا الى محمد على ليوقف هذه المظالم، فأمّنهم على حياتهم وأموالهم — خورشيد باشا — ضعفه وتمرد الجند

* ويسمى على باشا الطرابلسى ايضاً نسبة الى طرابلس الغرب

التجاء الاهالى الى محمد على

بشرط أن يدفعوا له من المال ما يقوم بحاجة اتباعه من الألبانيين . وفى هذه الأثناء جاء الى خورشيد باشا الوالى أمر سلطانى باستدعاء الألبانيين وقائدهم محمد على ، فتأهب هو وجنده للرحيل من الديار المصرية ، فرجاه كبار الأمة وعلماؤها فى البقاء بمصر خوفاً من تسلط الاتراك وبطشهم ، فقبل ذلك منهم وأبى الرجوع . وفى هذه الأثناء جمعت المماليك جموعها على مقربة من المنية ، للإغارة على القاهرة ، فولى خورشيد محمد على قائداً على الجيش الذى أعده لمحاربة المماليك ، فحاربهم فى عدة وقائع لم تكن فاصلة . وفى خلال هذه الحروب وصل جيش من الدلاة من قِبل الباب العالى أكثر همجية وأبشع حالاً من الجيش الذى فى داخل البلاد ليحل محل الألبانيين . فلما علم محمد على بذلك ظن أنهُ وقع بين نارين ، فقفل راجعاً الى القاهرة وواجه الجيش الجديد جهة « البساتين » و « دير الطين » ، وأخبرهم أنهُ لم يحضر لخلاف ولا عصيان ، ولكن لطلب النفقة والمؤونة ، وأنهُ يرمى معهم الى غرض واحد وهو تأييد الوالى والسلطان وابادة المماليك . فانخدعوا بقوله ، وأفسحوا له الطريق ، فدخل القاهرة دخول المنتصر بعد ان اتفق مع الدلاة وأجزل لهم العطاء والهدايا ، فأصبحوا معهُ على الوالى . وسمح لهم بالذهاب فى طول البلاد وعرضها ، يجمعون الضرائب ويأكلونها

بقاؤه بمصر رغم ارادة الدولة

اتفاقه مع الدلاة

ولما عاثت جنود الاكراد (الدلاة) فى الأرض فساداً قام الأهالى فى وجه خورشيد ، وطلبوا من محمد على أن يحميهم ويكون الوالى عليهم ، فقبل ذلك وشنَّ الغارة على الوالى . فاعتصم هذا بالقلعة ، ولما لم يجد له وسيلة يتخلص بها من محمد على اجتهد فى الحصول على عهد من الباب العالى بتنصيب محمد على والياً على جده . فلم يلتفت محمد على لهذا التنصيب ، وحاصر خورشيد باشا فى القلعة ، وأطلق عليها المدافع اطلاقاً ذريعاً ، وذلك فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م)

محاصرته خورشيد باشا

الاهالى يختاورن محمد على والياً

وحينئذٍ اجتمع علماء البلد ووجهاؤها وأقاموا محمد على والياً على مصر ، فقام اليهِ الشيخ الشرقاوى و « السيد عُمَر مَكْرَم » نقيب الأشراف وألبساه «الكرك» ايذاناً

بالولاية . وكان فى يد السيد عمر أمر العامة فى جميع أنحاء مصر : لا يعصون له أمراً . فأيد أمر محمد على بنفوذه وجاهه اكثر من ٤ سنين تأييداً لم يقم بهِ أحد مثله . وأرسل العلماء رسولاً الى البـاب العالى ليلتمس العفو عما فرط منهم فى حق الوالى ويرجو اعتماد تنصيب محمد على خلفاً له ، فعلم السلطان من ذلك مقدار ميل الأهلين لمحمد على، وأيقن أنهُ أصبح صاحب الكلمة العليا فى مصر ، فوافق على تنصيبه والياً عليها فى ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ (يوليه سنة ١٨٠٥ م) . ولما علم خورشيد باشا بهذا النبأ سلّم له القلعة وتخلى عنها

قبول الباب العالى ذلك

﴿ توطيد سلطة محمد على فى مصر ﴾

كانت لا تزال سلطة محمد على بعد يوليه سنة ١٨٠٥ مزعزعة الأركان : لأن اختياره والياً كان بالرغم من الباب العالى ، فكان أولياء الأمور فى القسطنطينية يتحينون أول فرصة للتخلص منهُ ، فإنهُ وإن كان أدار الشؤون المصرية بالضبط والمهارة ، وقام بها خير قيام ، لا يبعد أن يجاهر يوماً ما بالعصيان فى وجه الباب العالى كما فعل من قبل . هذا الى ان ما حاق بالمماليك من المصائب والنكبات المتتابعة جعلهم يتحدون معاً على محمد على عدوّهم العنيد . ثم دهمهُ أمر لم يكن فى الحسبان وهو ورود حملة انجليزية لغزو مصر . والسبب فيها يرجع الى تحالف فرنسا مع الترك بعد توليته بعام ونصف ، وكانت فرنسا إذ ذاك فى حرب عوان مع انجلترا ، فأرسلت الأخيرة حملة لتغزو البلاد المصرية باتفاق مع حليفتهـا الروسيا مؤملة أن ترجع البلاد المصرية الى حكم المماليك على الأقل وتقضى على آمال الترك فيها (وأرسلت أيضاً أسطولهـا ليقتحم الدردنيل) . فساعد الحظ محمد على باشا وتخلص من كل هذه الأخطار التى كانت تحدق بهِ ، الواحد بعد الآخر : فأرضى الباب العالى ، وقضى على المماليك وسلطتهم ، وتغلب بمعونة الأهالى وحامية رشيد على الحملة الانجليزية

الصعوبات الباقية

ذكرنا سابقاً أن المماليك كانوا يهددون القاهرة فى أول ولاية محمد على ، وكان هذا

ابتداء التغلب على المماليك

أول خطر يحدق به، لأن جميع ما لديه من الجند كانوا مشاة لا يقوَوْن على مكافحة فرسان المماليك، خصوصاً فى الخلوات حيث يمكنهم الكرّ والفرّ بكل نظام وبدون أدنى خطر. فدبَّر لهم مكيدة أنفذهـا بعض الموالين له: وذلك انهم اتفقوا سرًّا مع رؤساء المماليك على أن يفتحوا لهم أبواب القاهرة فى يوم الاحتفال بفتح الخليج، أى فى الوقت الذى يكون فيه محمد على وجميع ضباطه مشغولين لاهين فى الاحتفال خارج المدينة، على شرط أن يدفعوا لهم مالاً فى مقابل هذه الخدمة. فاغترّ المماليك ووقعوا فى هذه الأحبولة. فلما حلّ اليوم المعهود دخلوا المدينة من باب الفتوح، فلم يجدوا فى حراسته الاّ ثلّة ضئيلة من الفلاحين تغلبوا عليها بدون عناء. ثم ساروا قاصدين باب زَوِيلة، فلما صاروا فى قلب المدينة انصبت عليهم النيران من جانبى الشارع من النوافذ. وكان قد استعد لذلك محمد على، فلما تنبهوا لغلطتهم التجأ اكثرهم الى جامع برقوق، وسلَّم معظمهم عند ما أمّنهم الوالى على حياتهم. الاّ انهُ رغم ذلك ذُبح معظمهم فى جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ هـ (أغسطس سنة ١٨٠٥ م)

الصعوبة الثانية — ثم أراد محمد على أن يجمع مالاً لإعطاء الجند مرتبهم مخافة أن يُعزل كسابقيه، وأراد أيضاً أن يجزل العطايا الى أمير البحر التركى (وكان راسياً بأسطوله فى ميـاه الاسكندرية، يحمل الأوامر بمساعدة المماليك على محمد على). ولما رأى أنهُ من المحال أن يضرب الضرائب على الفلاحين، ولا سيما ان جميع الأراضى كانت لا تزال فى قبضة المماليك، جمع بعض المال من أقباط مدينة القاهرة، ووجد بفحص دفاتر الحساب أن الجُباة منهم اختلسوا ما لا يقل عن ٤٨٠٠ كيساً، فأجبرهم على دفعها، وبذلك أجزل العطايا الى أمير البحر التركى وأرجعهُ من حيث أتى. وكان ذلك فى اكتوبر سنة ١٨٠٥. ولم يمر على هذا الحادث الاّ زمن يسير حتى عاد أمير البحر

صدور عهد بنقله الى سلونيك — التركى نفسه يصحبه «موسى باشا» والى سلونيك ليكون والياً على مصر، ولينتقل محمد على معهُ ليتولى منصب موسى باشا. فتظاهر محمد على بإظهار الطاعة لأوامر الباب العالى، ثم ادَّعى انهُ يتعذر عليهِ أن يغادر مصر توًّا، لأن الجنود أبوا عليهِ النقلة،

ولا حيلة له فى دفعهم ، فإن فئة كبيرة من الضباط عاهدوا أنفسهم وأغلظوا الأيمان والمواثيق ألاّ يخضعوا لأحد غيره ، وأن يعاضدوه ويأخذوا بناصره ولو على السلطان.

تظلم العلماء والاشراف

وقد تظلّم العلماء والأشراف لدى الباب العالى والتمسوا إبقاء محمد على. ومن حسن حظه ان نشبت فى هذه الفترة نار حرب بين الروس والترك ، فاضطر الترك بطبيعة الحال الى استدعاء أسطولهم الى المياه التركية ، فأبحر الأسطول بعد أن أجزل محمد على العطاء لأمير البحر وموسى باشا معاً. وأخيراً وصل الى مصر فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١هـ (نوفمبر سنة ١٨٠٦ م) عهد بتأييد محمد على فى منصب والى مصر

تأييده فى الولاية

اتحاد البرديسى والألفى عليه

وفى أثناء هذه الحوادث جمع الألفى بك والبرديسى شعَث جيشهما ، وأوثقا عرى التحالف بينهما وبين البدو ، وشنا الغـارة على محمد على فى بلاد الوجه البحرى. وشجعهم على ذلك الأسطول التركى الذى كان راسياً فى المياه المصرية. فاشتبك الألفى مع فرقة أرسلها عليه محمد على ، فانهزمت عند «النجيلة» ، ثم انضم الألفى بعد انتصاره الى البرديسى وحاصرا دمنهور ، فدافع الأهالى عنها دفاعاً صادقاً ، وأظهروا شدة وبسالة لم تكن فى الحسبان ، على حين أن الألفى والبرديسى كانا يتنازعان السيادة والأفضلية. وكان محمد على يستعد للواقعة الفاصلة بينهُ وبين المماليك بعد ما تخلص من الأسطول التركى كما تقدم ، فساعدتهُ السعادة وحسن الجد بموت عدويهِ العظيمين: فمات البرديسى بالحمى فى سنة ١٢٢١ هـ (أكتوبر سنة ١٨٠٦) ، ومات الألفى فى ذى القعدة سنة ١٢٢١هـ (يناير سنة ١٨٠٧م). وبموتهما تفرّق اتباعهما ايدى سبأ ، وفرّ معظمهم الى الوجه القبلى

موت البرديسى والألفى

الحملة الانجليزية

ثم وصلت الحملة الانجليزية التى أسلفنا الذكر عن سبب مجيئها الى الديار المصرية باختصار. وكان الغرض من هذه الحملة تأييد سلطة المماليك ونزع البلاد من يد الباب العالى ، ولكن كانت نتيجة الحملة الفشل التـام. والسبب فى ذلك يرجع الى غلو الانجليز فى تقدير ما كان لدى المماليك من الجند

وصلت هذه الحملة فى أول المحرم سنة ١٢٢٢هـ (مارس سنة ١٨٠٧م) واستولت

على الاسكندرية . ثم سيّر قائدها « فريزر » قوة لتحتل رشيد ، فتغلّبت عليها أولاً لضعف حاميتها ، إلاّ أن الحامية عادت واخذتهم على غِرّةٍ و بددت شملهم . ولما علم محمد على بما جرى فى الاسكندرية رجع من مطاردة المماليك فى الصعيد الى القاهرة وجهز جيشاً سيّره الى رشيد ، فالتقى هو وأهالى البلاد من رشيد ودمنهور و بعض أهل البحيرة مع الانجليز عند قرية « الحمّاد » (جنوبى رشيد) ، وهزموهم شرّ هزيمة . ثم ذهب محمد على الى جهة الاسكندرية وأراد أن يحاصرها ، ولكن ولاة الأمور الانجليز كانوا أرسلوا الى قائد الحملة بالرجوع ، فأخلى الاسكندرية بعد أن عقد شروط الصلح مع الوالى فى دمنهور ، وتركت الحملة البلاد المصرية فى رجب سنة ١٢٢٢ ﻫ (سبتمبر سنة ١٨٠٧) . أما العمارة البحرية التى أرسلتها الأمة الانجليزية لاختراق الدردنيل فانها حُطِّمَتْ ولم ينج منها الاّ بضع سفن

انهزامها عند الحماد

وكان من نتائج هذه الحملة رضاء الباب العالى عن محمد على ، فمنحهُ السلطان خلعة وسيف شرف ، وأمر بإرجاع ابنه ابراهيم اليهِ (وكان معتقلاً فى القسطنطينية) . وقد صار لهذه الإنعامات السلطانية أثر عظيم فى توطيد سلطته إذ كان فى هذا الوقت فى وجل شديد من جنده ، حتى أنهُ استعد للاعتصام بالقلعة اذا تألبوا عليهِ

رضاء الباب العالى عن محمد على

﴿ القضاء على المماليك ﴾

لما وثق الباب العالى من محمد على أراد أن يستخدمهُ فى اصلاح شؤون الدولة ، فأول أمر كلفه إياه اخضاع طائفة الوهابيين الذين كانوا يتدخلون فى أمر الحج واحتلوا الحرمين الشريفين وسلبوهما . ولهذه الطائفة مذهب خاص سنتناول الكلام عليهِ فيما بعد . فجاءت الأوامر الى محمد على باخضاع هؤلاء القوم، فاضطرّ أن يُعِدَّ جيشاً أعظم عدداً وأكثر تدرباً من الجيش الذى عنده وأن يكون له أسطول لنقل الجنود فى البحر الأحمر ، فوجد أن لا مندوحة من زيادة الضرائب الى درجة أقصت عنه كل من كان ملتفاً حوله . ولقد كان مركزه اذ ذاك غاية فى الخطر ، فرأى أن لا يتحرك

الخوف من المماليك

بجيشهِ الى محاربة الوهابيين قبل أن يقضى على البقية الباقية من المماليك ، وخاصة بعد أن ظهر له أنهم جميعاً مزمعون على قتله . وكان قد رأى أولاً أن يتفق معهم ، وأرسل لهذا الغرض حسن باشا الأرناءوطى يبلغهم أنه يعطيهم كل ضياعهم ، فأبوا ذلك ، ففكر فى قهرهم بحدّ السيف ، فحاربهم فى موقعة عند أسيوط انهزم فيها جيشهُ . إلاّ أن المماليك انتكث فتلهم وتفرقوا ثانية فى طول البلاد وعرضها ، فى أواخر رجب سنة ١٢٢٥ هـ (أغسطس سنة ١٨١٠ م) ، ولم تمضِ مدة يسيرة حتى خُدع شاهين بك (رئيس المماليك بعد موت الألفى) واحتال لذلك محمد على بمنحه كل الأراضى التى على ضفة النيل اليسرى من الجيزة الى بنى سويف وفيها الفيوم . فخضع كل المماليك اقتداءً بهِ ، ووقعوا على شروط الصلح فى سلخ عام ١٨١٠ م ، ورجعوا الى القاهرة واتخذوا مساكنهم فى قصورهم كما كانوا من قبل

استرضاء المماليك فى الظاهر

وكان شغل محمد على الشاغل فى هذه الأثناء تخليص الحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين . الاّ انهُ لم يجرُؤ على تسيير جندى واحد الى بلاد العرب ما دامت المماليك تهدد ولايته وتناصبه العداء . وكان على يقين من وثوبهم به فى أول فرصة تتغيب فيها الأتراك عن البلاد ، وقد تمثل له جلياً مبلغ تحفزهم لقتله غيلة عند ما وافته الأخبار وهو فى مدينة السويس مهتماً بشؤون الحملة الى بلاد العرب من « محمد بك لاظ الكخية » يحذره من المماليك ، وكانوا يريدون اغتياله وهو راجع الى القاهرة . فأخذ الحيطة ، وبدلاً من مكثه فى السويس الى اليوم الذى ضربه لرجوعه تركها فى غَلَس الظلام على ظهر نجيب سريع العدو غير معلن أحداً وجهته ، ووصل القاهرة فى فجر اليوم الثانى يصحبهُ أربعة من الخدم . فهذه المؤامرة وغيرها جعلته يفكر فى القضاء عليهم بأية وسيلة قبل أن يسبقوه الى ذلك

سبب الفتك بهم

وفى شهر صفر سنة ١٢٢٦ هـ (فبراير سنة ١٨١١ م) جمع محمد على جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ جندى فى القاهرة تحت قيادة « طوسون باشا » ثانى أولاده ، لغزو بلاد العرب وإخضاع الوهابيين . ورأى أنه لا بد قبل مسير الحملة من الديار من الاحتفال

مذبحة المماليك بالقلعة

بها وتسليم وسام الشرف السلطانى له . فدعا فى اليوم المضروب جميع ضباط الجيش والأعيان وعدداً عظيماً من الجند . ثم دعا جميع المماليك ورؤسائهم ، وأعدّ لهم وليمة فاخرة تذكاراً لهذا اليوم المشهود ، فاجتمع الجميع فى القلعة فى يوم الجمعة خامس صفر (أول مارس) ، وكان عددُ مَن حضر من المماليك يقرب من الخمسمائة

وكان الغرض الحقيقى من دعوة المماليك التخلص من شرهم ودسائسهم ، فأسرّ محمد على بذلك الى « حسن باشا » و « صالح قوج » الأرناءوطيين فقط ، وفى صبيحة هذا اليوم أسرَّ بِهِ الى « ابرهيم أغا » (حارس الباب) . فنُظِّم الموكب فى القلعة على الترتيب الآتي :

ابتدأ الموكب بعساكر الدلاة ، ثم تبعهم العساكر الانكشارية ، ثم الجنود الألبانية بقيادة صالح قوج ، وتلاهم المماليك ، ففرقة من الجنود النظامية . فلما سار الموكب وانفصل الدلاة ومَن خلفهم من الانكشارية عند باب العزب ، أمر صالح قوج باغلاق الباب وأشار الى طائفته بالمقصود ، فأعملوا السيف فى رقاب المماليك ، وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر ، وهو الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب (بين الباب الأسفل والباب الأعلى) الذى يتوصل منهُ الى رحبة سوق القلعــة . وكان قد جهز محمد على عدداً من الجند على الحجر والأسوار ، فلما بدئ بالضرب من أسفل أراد المماليك التقهقر ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، وذلك لوجود خيلهم فى مضيق صغير جداً لا يسع جوادين جنباً الى جنب ، وقد أعمل جنود محمد على فيهم السيف قتلاً وفتكاً حتى فنى كل من كان منهم فى القلعة

اضطراب القاهرة

ولما قُتل شاهين بك كبير المماليك ، وعلم الناس بهذا الخبر ، أغلقوا الحوانيت ، وصارت العساكر بعد ذلك تنهب وتسلب فى جميع أنحاء العاصمة ، بدعوة البحث عمن هرب من المماليك للفتك بهم . ولما علم محمد على بما ارتكبه الجنود من السلب والنهب ركب جواده ونزل بشخصه يمنع العسكر من ارتكاب هذه الجرائم . وقد

وجل محمد على

حذا حذوه ابنه طوسون باشا فى إيقاف الجنود عند حدها . ويقال ان محمد على كان



محمد على فى القلعة

وقت مذبحة المماليك

(رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

فى شدة الوجل خوفاً من خيبة تدبيره ، وكان قد أعد الخيل للهرب اذا لم يفلح

وفى أثناء حدوث هذه الحوادث فى القاهرة أصدر فى الوقت نفسه أوامره لكل حكام المديريات بقتل من يعثرون عليه من المماليك ، فكان مجموع من قُتل منهم بالقاهرة والمديريات يزيد على الألف . وهكذا انقرضت هذه الطائفة التى عاثت فى الأرض فساداً اكثر من ستة قرون أذاقت فى خلالها المصريين كل صنوف الذل والعذاب

٢ — ﴿ الحروب الوهابية فى بلاد العرب ﴾

منشأ الوهابيين

من أعظم الثورات المشهورة ، واكبر الفتن الدينية التى شاهدتها بلاد العرب من عهد القرامطة ، الثورة التى أضرم نارهـا الوهابيون . وذلك أنهم أثبتوا فى حماستهم العسكرية وشجاعتهم البدوية صفات العرب القديمة وتمسكهم بالدين . ومؤسس هذه النهضة رجل اسمه «عبد الوهاب» من بنى تميم بنجد ، وقد أُطلق على ما كان متمسكاً به من العقيدة « المذهب الوهابى »

عبد الوهاب

وُلد عبد الوهاب صاحب هذا المذهب عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) فى قرية تسمى « العُيَيْنَة » من اقليم « العارِض » . وقد جاور فى أثناء شبابه بمكة والمدينة ومعظم مدن الشرق المشهورة ، وخاصة البصرة . ولما رأى فى أثناء سياحاته العديدة أن الدين الحقيقى داخلَه الفساد ، وتسلطت عليهِ البدع والمنكرات ، عزم على إِصلاح ما أفسده المفسدون . وكانت قواعد مذهبه وسياسته على غاية من الايجاز فى الاصلاح الاسلامى ، وهى أشبه بالاصلاح البروتستنتى عند المسيحيين

المذهب الوهابى

وكان الوهابيون فى عقيدتهم ومذهبهم على طريق أهل السّنة والجماعة . والاساس الاصلى لمذهبهم هو توحيد الله ، واعتقاد أن النبى صلى الله عليـه وسلم انسان أدّى ما يجب عليهِ من إِبلاغ الرسالة ، ورفض جميع تفاسير القرآن التى لم تأت من طريق السنة . ومن معتقداتهم أن الناس عند الله سواء ، وكلهم عباده ، اكرمُهم عنده أتقاهم

وأصلحهم فى أعماله ، و بنوا على هذا الاعتقاد أن الاستغاثة بالذين توفوا من الاولياء الصلحاء والانبياء إثمٌ عند الله ، وبدعة حدثت فى الدين يجب استئصالها وازالة كل أثر يقويها ، كالنصاصيب التى على القبور والقباب وما أشبهها ، فأزالوها وحرّموا زيارتها والتوجه اليها والاستغاثة عندهـــا . ويرون أن الحلف بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جريمة كبرى ، ويلعنون مَنْ يُكثر من الخضوع للموتى لعناً مؤبداً ، ولا يلفظون بلفظ « سيد » للنبى صلى الله عليه وسلم فى صلاتهم

أما آدابهم فهى على نقاء وصفاء : إذ يحرمون جميع الموائع المسكرة وكل المواد المخدرة ، ويحرمون جميع أنواع الفجور والفسق والعدول عن الحق والانصاف ، والعمل بالحيل والخداع ، والاغتصاب والمقامرة . أما فى شهامة التعصب الحقيقى للدين فإنهم يغارون على كل صغيرة مخلة بالدين الحق . ووجهوا أيضاً جل قوتهم الى تحريم الملابس الحريرية ، والترف فى العيش ، وحلق الرأس ، والبكاء والنحيب على الميت

محمد بن سعود — ولما أراد عبد الوهاب نشر مذهبه قام فى وجهه اناس كثيرون واضطهدوه . ففرّ هارباً الى « الدرعية » ، وهى احدى مدن نجد وعلى بُعد ٤٠٠ ميل من شرق المدينة . فحماه «محمد بن سعود» حاكمها ، ومال الى مذهبه فاعتنقه وعمل على نشره . وكان غرضه من ذلك أن يمدّ سلطانه على البلاد العربية ، فاتخذ ذلك وسيلة الى مطامعه الشخصية ، فامتد سلطانه وسلطان ابنه « عبد العزيز » على جميع بلاد نجد من

وفاة عبد الوهاب — سنة ١١٥٩ الى ١٢٠٦ هـ (١٧٤٦ — ١٧٩١ م) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن عبد الوهاب عاش حتى رأى مذهبه منتشراً فى طول البلاد وعرضها ، وتوفى سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٧ م) بعد أن بلغ من العمر الخامسة والتسعين تقريباً ، تاركاً ثمانية عشر ولداً من عشرين زوجة

ولقد أقلق بالشريف مكة انتشارُ مذهب عبد الوهاب وازدياد نفوذ عبد العزيز ابن سعود فى البلاد العربية ، فجرّد فى عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) حملة على عبد العزيز كان نصيبها الفشل

ولما أمن عبد العزيز جانب شريف مكة (لأنهُ كان لايقوى على مقاومته) وجّه جُل عنايته الى نشر مذهب الوهابية وتوسيع نطاق ملكه فى وادى الفرات ودجلة . فلم يوفّق الى ذلك لأن والى بغداد هزمه هزيمة منكرة ، وان كان لم يقتف أثره فى أواسط بلاد العرب خوفاً من هلاك جيشه فى وسط الصحراء . ومن ذلك الحين لم يجرُؤ عبد العزيز على محاربة والى بغداد . الاّ أنهُ قام فى عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) وهاجم « كربلاء » وقتل رجالها واستحيا نساءها وانتهك حرمة ضريح الحسين وسلب أشياء كثيرة . وفى العام التالى دخل مكة بدون معارضة من شريفها « غالب » ، وكان تركها وانحاز الى جُدة

عبد العزيز ابن سعود

فتحه مكة

وفى نفس العام قام أحد المتعصبين من الأعجام واغتال عبد العزيز وهو يصلى ، انتقاماً لما ارتكبهُ من الفظائع فى كربلاء . فقام باعباء الملك بعده ابنه «سعود الثانى» ، وهو أعظم رجال هذه الأسرة ، اذ وصلت فى عصره مملكة الوهابيين الى أوج عزها ومجدها . وقد دخل فى السنة التى تولى فيها الضريحَ النبوى ، ونهب كل ما فيهِ من الكنوز ومن هذا العهد أصبحت بلاد العرب كلها تحت سلطانه . ثم ابتدأ من عام ١٢٢١هـ (١٨٠٦ م) يتشدد فى جميع الضرائب ، حتى كره الناس حجّ بيت الله الحرام . ومن غلوه فى مذهبه أنهُ أغلق أبواب جميع القهوات وحرّم شرب الدخان ولبس الحرير وغيره مما يُتزيّن بِهِ

سعود الثانى

ومما سبق يُعلم ان ما كُلفه محمد على من قبَل الباب العالى كان فى الحقيقة فتح بلاد العرب للدولة من جديد . وكان بقاؤه على ولاية مصر متوقفاً على نجاحهِ فى اخضاع الوهابيين

مهمة محمد على

حملة محمد على على الوهابيين

قبل أن يعدّ محمد على حملته على بلاد العرب كاتب شريف مكة ، ولما وثق من موالاته له ، وعلم أنهُ لم ينقد للوهابيين الاّ كرهاً ، جهّز جيشاً عظيماً يبلغ ٨٠٠٠ من الألبانيين وأرسله بطريق البحر الأحمر فى أسطول أعدّه لهذا الغرض ، كان يصنع

اعداد الاسطول

سفنه قطعاً مفككة بالقاهرة ، ثم يرسلها الى السويس على ظهور الإبل لتركب هناك . وقد أفاد هذا الاسطول فائدة عظيمة إذ به يمكنهُ أن يُسيطر على جميع ثغور العرب ويصبح فى قبضته كل التجارة وطرق الحج الى بيت الله الحرام

وصول طوسون الى ينبع

نزلت هذه الحملة فى ثغر «ينبع» بقيادة ابنه طوسون ، فلم يلقَ بها أدنى مقاومة لأن شريف مكة « غالباً » سلَّمها طوع ارادته ، ومن ثم سار نحو المدينة . وكان العدو قد كمن له ، فتغلب فى طريقه بعد مناوشات خفيفة على قريتى « بدر » و «الصفراء» .

انهزامه عند الجديدة

الاّ أن العدو بيّته عند «الجُدَيّدة» فى درب ضيق جداً وكاد يقضى على كل الجيش ، فلم يبقَ منهُ الاّ ٣٠٠٠ جندى التجئوا الى ينبع بعد ان أنهكهم التعب ، وهرب بعد هذه النكبة كل الألبانيين . فلما علم محمد على بذلك استشاط غضباً وأنّب « صالح قوج » رئيسهم على تخاذلهم وما أظهروه من الجبن . وكان يريد الفتك بصالح قوج ، لولا ما له عليهِ من المآثر خصوصاً بلاءه فى حادثة القلعة ، فاكتفى بنفيهِ من مصر مع من هرب معهُ من الألبانيين بعد أن أجزل لهم العطاء . وكان يعتقد أنه لا يهدأ له بال ما دامت هذه الفئة الثائرة المتمردة فى داخل البلاد

فتح المدينة

وفى عام ١٢٢٧هـ (١٨١٢ م) أرسل محمد على مدداً الى طوسون بطريق القُصَير فسار بهِ نحو المدينة ودخلها عنوة بعد أن دوّخ الوهابيين . وكانت هذه ضربة قاضية على سعود الثانى ، وابتدأ المذهب الوهابى يتدهور بعض الشيء . ثم ذهب طوسون توًّا الى مكة بطريق جدة ، فلم يلقَ إلا الاكرام من شريف مكة وسلمه مفاتيح الكعبة ، فأرسلها طوسون هى ومفاتيح الحجرة الشريفة الى والده ، فأرسلها الى الباب العالى يبشره برجوع الحرمين الى حوزته . وأراد بعد ذلك طوسون أن يقتفى أثر الأعداء

انهزام طوسون عند طربة

فى داخل البلاد ، فهزمهُ الوهابيون شرّ هزيمة عند « طَرَبة » ، وهى بلدة صغيرة فى شرقى مكة وعلى مقربة منها . وكانت خسائر هذه الهزيمة عظيمة جداً ، حتى ان سعوداً زحف بجيشهِ على المدينة ثانية وهددها بالأخذ عنوة

ولما وصل خبر هذه النكبة الى محمد على عزم على أن يتولى قيادة الجيش بنفسه .

خروج محمد على الى الحجاز

فأخذ العُدّة لذلك ، وتوجَّه الى الأقطار الحجازية . ولما وصل هناك أدى فريضة الحج ، ثم علم من بعض الأفراد ان الشريف غالباً مذبذب فى ولائهِ ، فاحتال فى القبض عليهِ بواسطة طوسون ابنه ، وأرسله الى القسطنطينية حيث قُتل هناك بعد مدة وجيزة

ثم ابتدأ محمد على بعض مناوشات مع الوهابيين لم تكن فاصلة ، وكان كلا الفريقين يخاف منازلة خصمه

وفاة سعود وتضعضع الوهابيين

وفى أوائل سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) مات سعود الثانى ، وبموته فقد الوهابيون أعظم ساعد واكبر بطل . بلغت فى مدته دولتهم شأواً بعيداً لم تبلغه من قبل ولا من بعد ، فان عبد الله ابنه الذى خلفه كان أقل منه ذكاءً وفروسية وقدرة . وكان آخر ألفاظ فاه بها سعود يوصى بها ابنه الأكبر : « يا عبد الله لا تدخل فى حرب مع الترك فى ميدان مكشوف أبداً ، والزم أنت وعساكرك فى حربهم المواقع الصعبة حتى لا يتيسر لهم النصر ، وخذ لنفسك الحذر ، ولا رادّ لقضاء الله وقَدَره » . ولو اتبع عبد الله هذه النصيحة لَمَا تغلب عليه المصريون قط ، الاّ أنه خالف والده والتحم مع محمد على فى أول واقعة عند « يَبْصَل » حيث دارت الدائرة فيها عليه ، وذلك فى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م)

عبد الله سعود

انهزامه عند يبصل

عودة محمد على

ثم حصلت حوادث فى هذه الفترة اضطرت محمد على أن يرجع الى مصر ، منها أنه لما علم بهرب نابليون من منفـاه فى « إلبا » ، وتوقع احتمال غزو الترك للبلاد المصرية ، رجع مسرعاً بطريق القصير فقنا ، ووصل القاهرة فى اليوم الذى جرت فيه موقعة « ووترلو » . ومنها أنه علم ايضاً بتدبير مؤامرات على عزله وقتله ، وظن أن ذلك بايعاز من رجال الباب العالى . أما رئيس المؤامرة فهو « لطيف باشا » أحد المماليك ، وكشفَ سر هذه المؤامرة « الكخيا لاظ اوغلى باشا » ، فقتل لطيفاً ومن معه بعد أن حاول الهرب والاختفاء . وكان غرضه ان يكون والياً على مصر اذا نجح فى قتل محمد على

عودة طوسون ووفاته

وعند عودة محمد على همّ بتنظيم جيشه على الطراز الغربى ، فأبى عليه ذلك الجند ، مُقلّدين الأتراك فى ذلك ، ولما علم طوسون بتلك الفتن والقلاقل من جهة وتألب الجيش عليه من جهة أخرى عاد مسرعاً الى مصر ، وتوفى بالاسكندرية عقب مرض لم يمهله أكثر من عشر ساعات

وكان قبل سفره قد عقد شروط صلح مع الوهابيين ، الاّ انهم نبذوها ظهرياً ، ولذلك جهز محمد على حملة أخرى الى بلاد العرب بقيادة ابنه ابراهيم باشا فى شوال سنة ١٢٣١ هـ (سبتمبر ١٨١٦ م) . ولم يسلك ابراهيم طريق السويس ، بل نزل فى النيل بجنده (فى سفن أعدت لذلك الغرض) الى قنا ، ومن ثم على ظهور الابل الى القصير ، ثم الى ينبع ، ومنها الى المدينة المنورة

خروج ابراهيم باشا

قد أعمل الفكرة ذلك البطل العظيم فى استنباط الخطط الحربية التى وفّقته بين صميم عظماء الرجال ومشاهير القواد ، واعانهُ على تنفيــذ تلك الخطط مَهَرة الضباط والمهندسين الفرنسيين . على أن والده قد أوصاه أن يحارب كل قبيلة معاضدة للعدو على انفراد ، ليكون بذلك أقدر على الفتك بجنودها ، وتفريق كلمتها وتمزيقها شر ممزق . كما نصح له ألاّ يتوغل داخل البلاد ، وحذّره من الاغارة على الدرعية من طريق غير طريق المدينة المنورة ، ليحفظ لنفسه خط الرجعة ، وليكون وصول المدد اليه من السهولة بمكان . وأول موقعة التحم فيها جيشه مع الوهابيين كانت عند « الرّيس »

واقعة الريس

سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) ، وفى هذه الملحمة انهزم جيشه هزيمة لم تثن من عزمه ، ولم تفت فى ساعده ، بل استمر سنة كاملة فى كفاح وجلاد ، حتى ذلل كل صعوبة اعترضته فى هذا المضمار . ولذلك أخضع قرى كثيرة ، وصار قاب قوسين أو أدنى من الدرعية حاضرة الوهابيين ، وهى على بعد ٤٠٠ ميل من المدينــة المنورة التى اتخذها قاعدة لأعماله الحربية

حصار الدرعية

وابتدأ ابراهيم باشا فى حصار الدرعية فى جمادى الثانى سنة ١٢٣٣ هـ (أول شهر ابريل سنة ١٨١٨ م) ، فمكث مدة يعالج فتحها وهو مستعص عليه . وفى غضون

ذلك انفجر مخزن ذخيرته ، فلم تفتر همته ، ولم يساوره اليأس ، لأنه كان على يقين من استياء العالم الاسلامى أجمع من فظاعة الوهابيين . هذا الى أن تلك الحرب فى الحقيقة كانت حرباً بين العنصرين التركى والعربى ، وكلاهما يود لو يضعف الآخر أمامه ، فيميل عليه ميلة واحدة يكون فيها القضاء المبرم عليه

تخريب ضواحى الدرعية

بعد ذلك أخذ ابراهيم باشا يمد يد التخريب والتدمير فى ضواحى مدينة الدرعية ،



عبد الله سعود فى سرادق ابراهيم باشا

تسليم عبد الله

ليحول بينها و بين المؤنة والمدد . و بذلك اضطر عبد الله الى الخضوع والاستسلام لسيطرته وسلطانه ، فسلّم نفسه فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ هـ (سنة ١٨١٨ م) . ولم يعامله ابراهيم باشا الاّ بكل كرامة واحسان ، ثم أرسله الى والده بالقاهرة فبالغ فى اكرامه أيضاً ، ثم أرسله الى الباب العالى بعد ان استرد منهُ كل ما سلبهُ من الحرم الشريف . وبعد وصوله بزمن يسير أُمِرَ بِهِ فقُتِل . فلما بلغ أهل الدرعية مقتله هاجوا وماجوا ، وانتثر عقد نظامهم ، ولذلك أرسل محمد على فى طلب قرابة عبد الله الى القاهرة وأجرى عليهم وظائف تقوم بمعاشهم

تخريب الدرعية

أما مدينة الدرعية فأصبحت أثراً بعد عين ، لأن ابراهيم باشا رأى بقاءها عامرة حجر عثرة فى طريقه ، ولو تركها من غير تخريب لكانت ركناً مكيناً ومعقلاً حصيناً لأعدائهِ ، فلم يبقِ عليها لذلك . وساعده على تخريبها الأهالى أنفسهم ، تقرُّباً اليهِ واسترضاءً له

هكذا انتهت الحروب فى بلاد العرب بعد القضاء على سلطة الوهابيين ، الذين كانوا يدعون انهم يسعون فى سبيل استرداد مجد الاسلام الضائع

٣ — ﴿ فتح السودان ﴾

اسباب فتح السودان

بعد ان تم النصر المبين لمحمد على وقضى على الوهابيين القضاء المبرم ، واستأصل شأفتهم من بلاد العرب ، عنّت له حاجة شديدة الى فتح السودان وضمه الى سلطانه ونفوذه . وذلك لأسباب سياسية ومادية

الاسباب السياسية

أما الأسباب السياسية فتلخص فيما يأتى :

لما قضى محمد على على دولة المماليك فى مذبحة القلعة هرب أناس كثيرون منهم واعتصموا بالوجه القبلى ، فطاردهم ابراهيم باشا حتى اجتازوا الحدود المصرية ، وتحصنوا فى دنقلة وأقاموا بها القلاع والحصون ، وقد احتال محمد على فى القبض عليهم والإيقاع بهم فلم يفلح

هذا الى ان جنده الألبانيين كانوا خطراً عليه في كل وقت ، لأنهم كانوا لا يُنزلونه من أنفسهم الا منزلة فرد منهم ، وكان الضباط يشقّون عصا طاعته و يأتمرون فيما بينهم بهِ ليسقطوه ، ولم يذعنوا للإصلاح الذى أدخله فى الجيش . ولذلك كان يصدّرهم فى مقدمة الجيش عند الالتحام ليبيدهم و يقضى عليهم ، فيربأ بنفسه عنهم ، ويستبدل بهم أبناء السودان (الذين شبّوا على الشجاعة والصبر ومقاومة أعباء الحروب) بعد تدريبهم على الفنون الحديثة الحربيـة ، لأنه اعتقد ان أبناء مصر لا يصلحون للتجنيد لما ينقصهم من الصفات التى تؤهلهم لذلك

أما الأسباب المادية فتلخص أيضاً فيما يأتى :

الاسباب المادية

أراد محمدعلى فتح السودان ليتسنى له بذلك تجديد طرق القوافل التى كانت بين مصر والسودان، فيتسع نطاق التجارة بين القطرين، و يناله من هذه التجارة مايفرضه عليها من ضرائب ومكوس جمة ، حتى يسترد ما أنفقه فى محاربة الوهابيين ، ويكون ذلك مورداً دائماً من موارد خزانته فضلاً عما كان يسمع عن السودان وما فيه من مناجم الذهب الغنية التى يمكن استخراجها والانتفاع بها

وان من البواعث التي حركته لفتح السودان ما رآه من أن سعادة مصر متوقفة على استحواذه عليهِ وضمه الى ملكه ، لأن ريف مصر متوقف ريّه على روافد النيل العليا ، ولذلك أصبح من المحتم أن يكون النهر وروافده تحت سلطة واحدة ، ليمكنها بذلك توزيع المياه على حسب الحاجة مع مراعاة المصلحة العامة

تجهيز الحملة وفتح سيوه

ولما عزم محمد علىّ على انفاذ رأيه ، ورأىأن فتح السودان أمر من العِظَم بمكان ، سيّر جيشاً باديء بدء الى واحـة سيوة لإخضاعها قبل الزحف على السودان ، حتى لا تكون مصدر شرّ بجواره . فسار هذا الجيش الصغير فى جمادى الأولى سنة ١٢٣٥ هـ (فبراير سنة ١٨٢٠ م)، فأخضع سكان الواحة ، وصارت جزءاً متمماً لمصر من ذلك الوقت

أما حملة السودان فإنها ابتدأت السير من القاهرة فى شوال سنة ١٢٣٥ هـ

خروج الحملة بقيادة اسماعيل

(يوليه سنة ١٨٢٠ م) ، وكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف راجل، والف وخمسمائة فارس، واثنى عشر مدفعاً ، وخمسمائة من عرب العبابدة تحت إمرة شيخهم «عابدين كاشف» (وكان قد وعده محمد على بولاية دنقلة بعد فتحهـا) . فتجمع الجيش فى اسوان ، حيث رُتّبت هناك الميرة والذخيرة

ولما خرج اسماعيل باشا (وهو أصغر أولاد محمد على) لتولى قيادة الجيش اجتاز هو ومن معهُ الحدود المصرية ، ودخلوا أرض دنقلة ، حيث تقيم البقيــة الباقية من المماليك الذين طاردهم ابراهيم باشا كما تقدم والتجئوا الى هذا الاقليم

فلما علموا بذلك انقسموا قسمين : قسماً سلّم صاغراً بدون معارضة ، وآخر ركب رأسه فاراً الى كردفان ، بعد أن تشتت شمله وناله من العناد والذلة ما ناله

ومما هو خليق بالذكر هنا أن ابراهيم بك الكبير مات بدنقلة قبل الحملة بزمن يسير، وبموته انقرضت رؤساء هذا العنصر الذى حكم مصر ستة قرون تقريباً

واقعة كرتى

سار اسماعيل وبيده زمام القيادة العامة ولم يعترضه فى طريقه عقبات تذكر حتى وصل مدينة « كُرتى » ، حيث سحق عرب الشيخيَّة وشتت شملهم فى موقعتين فاصلتين

فتح بربر

ومن ثم يمم جيشهُ « بربر » ، ودخلها بدون مقاومة فى جمادى الثانية سنة ١٢٣٦ هـ (مارس سنة ١٨٢١ م) . وفى ٤ شعبان من تلك السنة دخل أيضاً مدينة «شِنْدِى»

وشندى

التى سلّمها الملك « نمِر » ، وتم له اخضاع قبيلة الشيخية . وما زال اسماعيل متوغلاً فى البلاد حتى وصل رأس الخرطوم ، ثم حوّل وجههُ شطر النيل الأزرق . ولحسن حظه

وسنار

دخل « سنّار » ، وهى حاضرة اكبر اقليم فى السودان ، بدون معارضة تذكر . وذلك أن سلطانها « بادى » وأخاه كانا إذ ذاك يتنازعان الملك ، فنجح اسماعيل فى تثبيت عرش « بادى » ، الذى قابله بكل تجلة وحفاوة ، ثم قَبِلَ أن يكون نائباً عن محمد على فى هذه الأرجاء الشاسعة مع الاعتراف بسلطانه . ومن هناك أرسل اسماعيل آلافاً من العبيد الى اسوان ، حيث أُعدّ لهم معسكر لتدريبهم على الفنون الحربية الحديثة

مرض الجيش

وتفشى المرض فى جيش اسماعيل أثناء اقامته بسنار ، حتى اضطر الى أن يطلب

مدداً ومؤونة من أبيهِ ، لانحطاط قوة الجيش ، لقلة عدده وفتور عزيمته . ذلك الى ان جنده كانوا بين قبائل شتى معادية لهم ، ولا يمكنهم أن يصدوا هجماتهم اذا ثار ثائرهم وخرجوا عليهم — قلق اسماعيل

لذلك كان اسماعيل قلقاً مضطرباً ، ولكن هدأ روعه وسكن اضطرابه إذ علم بوصول المدد اليهِ ، فرجع قافلاً منحدراً الى ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض حيث وصل المدد الذى أرسله أبوه تحت إمرة أخيهِ « ابراهيم باشا » . فلما وصل اسماعيل بجيشه والتقى بأخيهِ اتفقا على تقسيم العمل والجيش معاً : فكانت مهمة اسماعيل الزحف بجيشه الى أعالى النيل الأزرق بقدر استطاعته ؛ وأما مهمة ابراهيم فهى الاستكشاف عن النيل الأبيض من الجهة الغربية ؛ وكان الباعث له على ذلك رغبته فى الوصول بجيشه الى المحيط الاتلنتى اذا كان النيل الأبيض متصلاً بنهر النيجر ، واذا لم يتحقق له ذلك عاد الى كردفان وعبأ جيشاً يسير بهِ نحو الشمال مخترقاً الصحراء ، حتى يصل الى طرابلس ، ومن هناك الى البحر الأبيض المتوسط . وان هذه الخطة لتدل صراحةً على مقدار ما كان يطمح اليهِ محمد على وأولاده ، كما تدل على مقدار هممهم العالية وثقتهم بأنفسهم — مدد ابراهيم — تقسيم القيادة بين اسماعيل وابراهيم

وصل اسماعيل فى زحفه على النيل الأزرق الى «تومات» ، أما ابراهيم باشا فقد اعترضه مرض شديد ، حال بينه و بين تنفيذ خطته ، واضطره الى العودة لمصر بعد ان وصل جيشه الى جبل « دِنكا » جنوباً — تومات — جبل دنكا

وفى منتصف عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) أرسل محمد على جيشاً ثالثاً تحت قيادة صهره « محمد بك الدفتردار » لغزو كردفان ، فهزم بعض القبائل عند مدينة «بارا» واستولى على الأبيّض ، وضم اقليم الأبيض الى مصر — محمد بك الدفتردار يفتح الابيض

ومما قام بهِ هذا الجيش أيضاً الانتقام من « نمر » ملك شندى على نكايته باسماعيل ومن معهُ

وذلك ان اسماعيل وهو عائد الى مصر ظافراً منصوراً أهان نمراً إهانة شنيعة ، — احراق اسماعيل

فأسرّها نمر فى نفسه ، وأخذ يفكر فى طريقة الانتقام من اسماعيل ، حتى بيّت رأيه على أن يأدب مأدبة فاخرة يدعو فيها اسماعيل ومن معهُ ، فلما تم له ذلك ، ولبّى دعوتهُ اسماعيل ومن معهُ ، أمر أتباعه وأشياعه بأن يجمعوا حول نُزُله حطباً ومواد ملتهبة ثم يضرموا فيها النار . ففعلوا ، فشبّت النار فى النُّزُل ، فدمرته وحرقت جميع من فيهِ . وكان بين المحروقين اسماعيل ، الذى لبى دعوته جاهلاً بنيته الخبيثة

احراق شندى وبناء الخرطوم

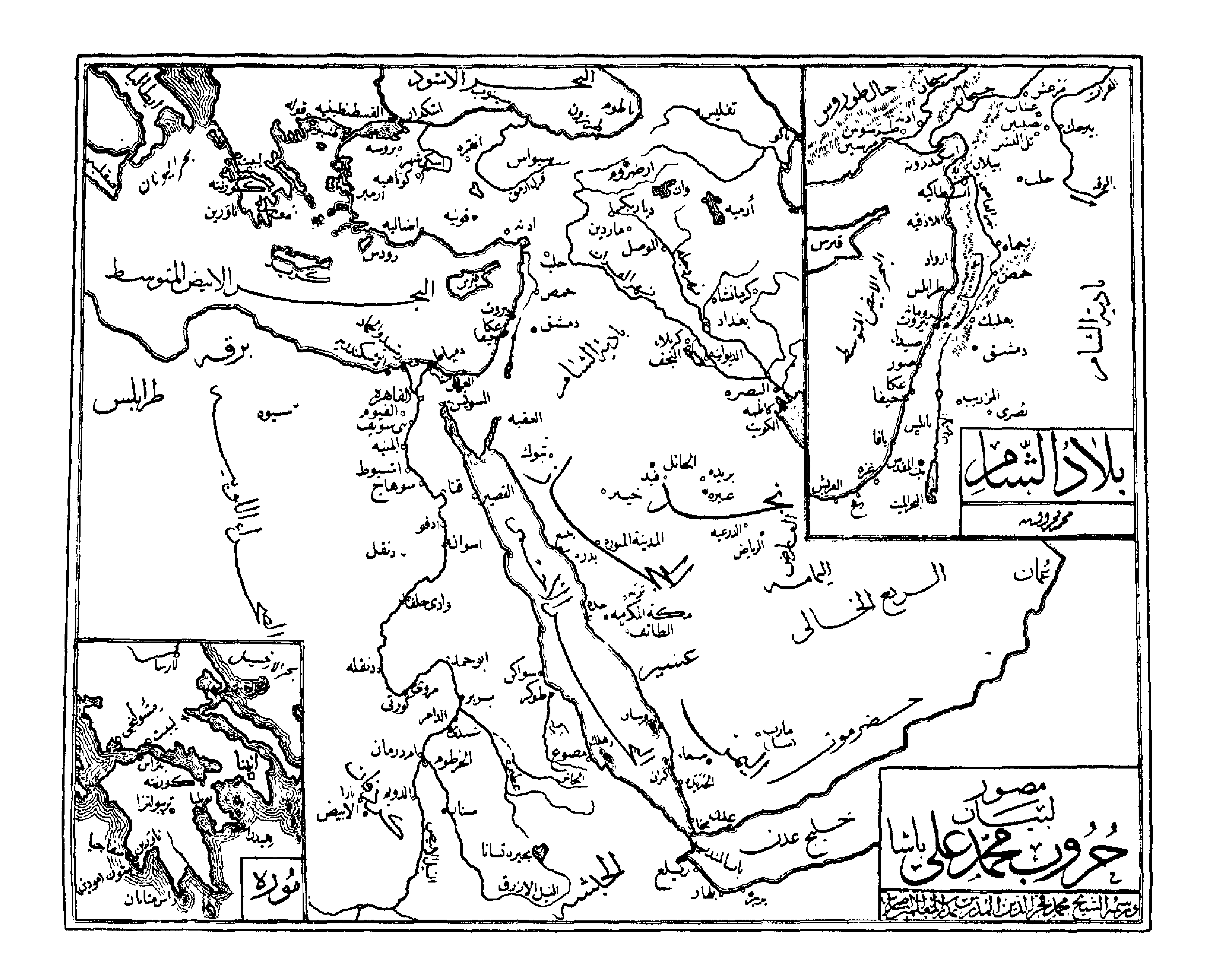
على ان الجيش لم يظفر بقتل نمر ، ولكنهُ أحرق شندى بعد ان أخضع كل الاقليم . وبعد ذلك بنى مدينة الخرطوم سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) ، وجعلها حاضرة البلاد

مقدار نجاح الحملة

ومما تقدم نعلم ان الحملة على السودان لم تقم بتحقيق جميع الأغراض التى كان يرمي اليها محمد على : لأنه لم يجد فى السودان ذهباً يفى بنفقات استخراجه من مناجمه ، ولأن طرق القوافل لم تثمر لكثرة الضرائب الفادحة التى كانت تجبى على البضائع عند الحدود المصرية . أما التجنيد من أبناء السودان فلم يتحقق تماماً ، لأنه جنّد منهم جيشاً عظيماً ، ولكن جو مصر لم يكن ملائماً لهم ، فمات عدد عظيم من هذا الجيش ، ولذلك أضرب محمد على عن التجنيد منهم وعاد الى التجنيد من المصريين

الرقيق

وقد ازداد الاتجار بالرقيق بعد فتح السودان زيادة عظيمة ، حتى اضطرت انجلترا وفرنسا للتدخل فى الأمر . فوعد محمد على أن يقضى على هذه الحرفة الشنيعة التى تنافى الانسانية ، ولذلك خرج لزيارة السودان عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) ، وأمر بمنع بيع الرقيق جملة . ولكن رغم ذلك كله بقى الاتجار به منتشراً الى زمن قريب ، ولم يضمحل تماماً الا بعد الاحتلال البرطانى كما سيأتى



حروب محمد علي باشا
مصور لبنان
بلاد الشام
مورة
البحر الابيض المتوسط
البحر الاسود
بحر اليونان
الربع الخالي
نجد
اليمامة
عسير
اليمن
حضرموت
عمان
خليج عدن
الحبشة
بادية الشام
طرابلس
برقة
سيوه
القاهرة
الفيوم
بني سويف
المنيه
اسيوط
سوهاج
قنا
اسوان
دنقل
وادي حلفا
دنقله
ابو حمد
بربر
شندي
الخرطوم
سنار
النيل الازرق
النيل الابيض
الابيض
بحيرة تسانا
سواكن
مصوع
الحديدة
مخا
عدن
زبيد
صنعاء
مارب
مكة المكرمة
جدة
الطائف
المدينة المنورة
ينبع
العقبه
تبوك
السويس
دمياط
اسكندرية
عكا
دمشق
حمص
حلب
بيروت
يافا
البصره
بغداد
كرمانشاه
الموصل
ماردين
ديار بكر
ارضروم
تفليس
سيواس
انقره
قونيه
اضاليه
ادنه
رودس
بروسه
القسطنطينيه
قبرص
كريد
ناورين
الزبير
الكويت
بريده
عنيزه
الدرعيه
الرياض
خيبر
حائل
بعلبك
حماه
طرطوس
انطاكيه
اللاذقيه
صيدا
صور
حيفا
نابلس
القدس
غزه
العريش
الكرك
بصرى
المزيريب
اسكندرونه
الفرات
مرعش
عنتاب
بيريجك
نصيبين
حل
دمشق
اثينا
كورنثه
تريبوليتزا
ناوارين

٤ — ﴿ أعمال محمد على باشا فى الديار المصرية ﴾

مقـدمة

علمنا ما كانت عليه البلاد من الفوضى فى عهد العثمانيين ، وكيف كانت تئن تحت ظلم المماليك وعسفهم ، وجور الجنود الأتراك الذين ساموا العباد نهباً وسلباً ، حتى عمّ الفقر ، وكثرت الاضطرابات ، وأصبحت البلاد كأنها بلا حكومة . فلم يكن اصلاح هذه الحالة بالأمر الهين على كل من أراد النهوض بالبلاد ، وجعلها فى صف الأمم الراقية

صعوبة مهمة محمد على

فلما قبض محمد علىّ على زمام الأمور بمصر ، وهمّ باصلاح شأنها ، ظهرت أمامه كل هذه الصعوبات ، وعرف مقدار الاعباء الملقاة على عاتقه ، فلم يدع وسيلة فى سبيل تحقيق هذه الأمنية الاّ اتخذها . وقد كان يشعر بصعوبة المهمة التى أقدم عليها ، حتى قال فى حديث له عن اصلاحاته : « ان ثمرة غرسى سيجنيها أحفادى من بعدى ، لأن بلاداً عمّ فيها الارتباك وساد ، ودُرست فيها معالم الحكومة وآثارها ، وأصبح أهلها فى الدور الأول من النشء وبلغوا من الجهل درجة لا يتسنى لهم معها أن تقوم بعمل نافع : لا يدخلها التمدين الاّ ببطء »

ملخص اعماله

ولو نظرنا الى الأعمال الخطيرة التى قام بها فى سبيل إصلاح البلاد لدهشنا من أن فرداً واحداً وُفق لكل هذه الأعمال التى لا زالت خالدة بيننا الى الآن : فهو الذى وضع أساساً متيناً لحكومة عادلة منتظمة ، وأنقذ البلاد من ذلك النظام الممقوت الذى وضعهُ السلطان سليم ، وهو تقسيم البلاد بين الوالى المُولى من قِبل الباب العالى وبين المماليك ، وأغاثها من جور الجنود العثمانيين الذين كانوا يغيرون على البلاد اذا تأخر ما هو مفروض لهم ، وانشأ الطرق وحفر الترع وأصلح الزراعة ، وشيّد المعامل ودور الصناعة ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واستحضر اليها كبار الأساتذة الغربيين لنشر العلوم الحديثة بين أبنـاء رعيته ، وأوفد البعوث العلمية الى

أوربا لتعود مزوَّدة بعلومها ومعارفها وأسرار تقدمها ، وكان فى ذلك يحارب جهل الأمة حتى قضى على ما عندها من خرافة أو عادة ممقوتة ، وكان يسوق التلاميذ الى تلقى العلوم والمعارف رغم معارضة آبائهم وعويلهم كأنما يُساقون الى الموت وهم ينظرون

تقدير اعماله

قام محمد على بتلك الأعمال الجليلة التى لا ينكرها انسان ، مع أنهُ لم ينل فى صغره نصيباً من التعلم ، كما أنهُ لم يكن ملماً تمام الإلمام بالحضارة الأوربية ، ولذلك لا يدهش المؤرخ خطؤه أحياناً فى بعض الاصلاحات والمشروعات الصناعية ، ولا يأخذ عليه ذلك ، بل يغتفر له غلطاته بملء صدره بشفاعة أعماله النافعة

محبته لمصر

واذا قلنا بأن غرضه الأول فى مصر لم يكن إلاّ أن ينشئ لهُ مُلْكاً : ينصره بجميع الوسائل الممكنة لجمع الأموال وحشد الجنود لحروبه العديدة التى لم تجن منها مصر ثمرة تُذْكر ، فلا يغرب عنا أنهُ ما لبث حتى أدرك أن لا قيام للملكِ إلاّ باصلاح مصر ، فأخلصَ فى محبتها ، وعمل على أن ينهض بها الى مستوى الرقىّ والفلاح قدر استطاعته ، مقتدياً فى ذلك بالدول الأوربية العظيمة . وكفاه فخراً أنهُ أول حاكم شرقى أدخل المدنية الحديثة فى بلاده . وكثيراً ما كان يصرّح فى خلال أحاديثه بمحبته لمصر وميله لرقيها . من ذلك أنهُ قال لأحد الغربيين أثناء حديث له :

« لا شك أنك تعلم أن مصر كانت فى قديم الزمان سيدة ممالك العالم ، وعلمها الذى يُهتدى بهِ . أما الآن فقد أخذت أوربا هذه المكانة ؛ وانى لآمل أن يأتى يوم تنهض فيهِ الى مكانتها الأولى فى التمدين والعمران . وما هذه الدنيا الاّ صعود وانخفاض »

الحكومة فى عهد محمد على

صعوبة مهمته

ان من يفكر فى الصعوبة التى تعترض الحاكم عند انشائه نظام حكومة جديدة فى بلاد كمصر كانت مجالاً فسيحاً للسلب والاضطهاد والفوضى ، لا يسعه الاّ أن يعترف بأن ما قام بهِ محمد على فى تلافى هذا الخلل يستحق عليهِ أعظم ثناء ، ويجعله فى عداد كبار المصلحين : على قلة عددهم وبخل الزمان بأمثالهم . لذلك يُقابَل بالقبول ما بالغ

بهِ فى مدحه «السير مَرِى» (فى مذكراته عن حياة محمد على) اذ يقول: « ان العالم الاسلامى منذ فناء دولة العرب الزاهرة من بلاد الأندلس لم يظهر فيهِ حاكم يضارعه فى أعماله وصفاته، فَمَثَلُهُ مَثَلُ صلاح الدين فى عدله وتسامحه الدينى »

ويجب على من يريد أن يحكم على محمد على وما أدخله على حكومة مصر من التغييرات، وأن يقارنه بنابغ من ساسة عصره الغربيين، أن يلاحظ الزمان والمكان لكل منهما، حتى تكون مقارنته قوية الأساس، لا يتطرق اليها الخطأ

نظام الحكومة

تولى محمد على الحكم فلم يغير ما كان عليهِ نظام الحكومة فى عصر المماليك حتى عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م)، وهو العام الذى ادخل فيه التعديل العظيم فى نظام الحكومة، متخذاً الأنظمة التى وضعها نابليون للبلاد رائداً له

الديوان الخديوى

فأنشأ «ديواناً خديوياً[1]» جعل مقرّهُ القلعة، وكان يرأسهُ الوالى، وينوب عنهُ فى غيابهِ « الكتخدا ». وكان عمله الفصل فى الأمور التى ليست خاصة بالقاضى الشرعى أو التى لا يحتاج الأمر فيها الى عرضها على القاضى أو على أى مجلس آخر وذلك لظهورها وجلائها. وكان هذا الديوان يفصل فى القضايا التى يعرضها ضابط القاهرة[2] بعد تحقيقها ابتداءً فى المحارس (القرهقولات)

مجلس المشاورة الملكى

ثم أنشأ مجلسين: أحدهما كان يسمى « مجلس المشاورة الملكى » وينتخب هو أعضاءه بنفسه، وكان عددهم يتراوح ما بين ٣٠ و ٤٠ عضواً. وكانوا ينظرون فى شؤون البلاد العامة، وعليهم تُعرَض القوانين قبل سنّها. ومع ان رأى هذا المجلس كان استشارياً محضاً، تمكن بهِ محمد على من تخفيف عبء المسئولية الملقاة على عاتقهِ أمام شعبهِ وأمام الدول الأجنبية

نظير مجلس الوزراء

وأما المجلس الآخر فكان بمثابة مجلس الوزراء الآن

الدواوين الاخر

وقد أنشأ محمد على فوق ذلك عدة دواوين أخرى تنم اسماؤها عن اختصاصاتها.

(١) هكذا كان يسمى، وان كان لم يمنح لقب « خديوى » رسمياً الا الوالى فى عهد اسماعيل
(٢) هذا الضابط بمثابة الحكمدار فى وقتنا هذا

وأهمها « مجلس المشاورة العسكرية » ، و « ديوان دار الصناعة (الترسخانة) أو البحرية » ، و « ديوان التجارة » ، وكان هذا الديوان مكوناً من تجار مختلفي الجنس والديانة يرأسهم نقيب (شاهبَنْدَر) التجار أو رئيس تجار القاهرة

تقسيم مصر

وقد اقتضت ادارته الداخلية للبلاد تقسيم القطر الى سبع مديريات ، والغاء الأقسام التي كانت في عهد المماليك . ثم قسم كل مديرية الى عدة مراكز بلغت ٦٤ مركزاً . ثم قسم المراكز الى أخطاط أي نواحٍ يدير شؤونها موظف يلقب بالناظر ، وإلى قُرًى يتولى أمورها العمد ومشايخ البلاد . وكان غرضه من هذا التقسيم تسهيل جمع الضرائب

بيد أنهُ رغم هذه الأنظمة والتقسيمات كان يتولى شؤون البلاد بنفسه منفرداً بالسلطة وحده : فكان يفاوض سفراء الدول الأجنبية بنفسه ، ويسمع شكوى رعاياه ومطالبهم بلا واسطة ، ويتصرف في مالية البلاد ، ويقوم بالمشروعات العامة

التقدم المادى

مقدمة

أراد محمد علي أن ينهض بالبلاد بادخال الاصلاحات الغربية فيها ابتداء ، وفاته أن البلاد كانت تسبح في ظلمات الجهل ، وانها في حاجة الى زمن كبير تنفقه في التعليم حتى تصل الى درجة تمكّنها من استثمار الأرض بالطرق الفنية وإدارة المعامل والسير في التجارة حسب ما يقتضيهِ النظام الأوربي الذى عمل على ادخاله في البلاد. ولا شك انهُ كان يشعر بشيء من ذلك ، الآ ان الأحوال التي وُجِدَ فيها كانت تحتّم عليهِ السير في هذه الطريق بسرعة ؛ اذ كان في شدة الحاجة الى المال للانفاق على الجيش ، ودفع الجزية للباب العالى ، وإرضاء أولى الشأن في القسطنطينية . ورأى أنهُ لا يتم له هذا الغرض الآ اذا جعل جميع موارد البلاد تحت سيطرته مباشرةً : من زراعة وصناعة وتجارة

الزراعة

كانت الزراعة أول عمل وجَّه اليهِ محمد على عنايته الخاصة ، اذ رأى انها ينبوع ثروة البلاد ، وعليها يتوقف أهم دخلها السنوى . فجعل زراعة جميع الأراضى تحت إشرافه ، كى لا يفرّ أحد من دفع الضرائب . وتشدّد لذلك فى المحافظة على الأمن العام ، فقبض بيد من حديد على عصابات اللصوص التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد

نزع ملكية الاراضى

ولم يكتف بضرب الضرائب الفادحة ، بل عزم على نزع مِلْكية جميع الأراضى ليستغلها على نفقته الخاصة . فلما همّ بإبراز هذه الفكرة الى حيز الفعل قامت فى وجهه صعوبات عظيمة كان لا بد من تذليلها . وذلك أن الأراضى الزراعية فى مصر كان بعضها أوقافاً خيرية يدير شئونها جماعة العلماء ، وكان جزء آخر كبير جدًّا ملكاً للمماليك أصحاب الشأن والنفوذ فى البلاد ، وما بقى كان فى قبضة عامة أفراد الأمة . فاستعمل محمدعلى مع كل طائفة من هؤلاء التهديد والوعيد ، حتى أصبح المالك الوحيد لأكثرها . فانهُ استولى على أملاك المماليك فى الوجه البحرى بعد حربه مع الانجليز عام ١٨٠٧ م وطرده المماليك من ريف مصر الى صعيدها

الاستيلاء على الاوقاف

واستولى بعد ذلك على معظم الأراضى الموقوفة التى كانت تحت رعاية العلماء ، فجعل الوقف تحت رقابته من غير أن يحله ، فاحتج عليهِ العلماء وتجمهروا وعارضوه معارضة شديدة ، فأقنعهم بالدليل القاطع أنهُ الوالى من قِبَل الخليفة الذى يتولى أمور المسلمين جميعاً ، فهو أحق فرد فى مصر برعاية الوقف . ومن هذا الوقت بقى الوقف تحت إشراف الاسرة المحمدية العلوية

ونزع بعد ذلك ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد ، مدعياً حقَّ التسلط على كل الاراضى لانهُ الحاكم النائب عن الخليفة المالك للأرض بحكم الفتح الاسلامى القديم . فاستحضر كل الملاّك ، وطلب منهم إبراز حقوق ملكيتهم ، فقدموا اليهِ حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ، ويُظهر بطلان بعضها ، ويُمنى

بعضَ الملاّك أحياناً بعوض يُعطاه من الخزانة . ولما أصبحت جميع الاملاك فى قبضة يده جمع كل ما لديهِ من الحجج وأعدمها . و بتعاقب الأيام أصبح من المستحيل معرفة ما كان للمماليك أو للوقف أو لأفراد الأمة من الارض ، اذ لم تقو المحاكم على معارضة محمد على ، وكانت الاهالى تحت رحمته ، و بذلك أصبح معظم أراضى القطر فى قبضة يده الاّ جزءاً يسيراً كان فى قبضة بعض العلماء والأمراء

استخدام الفلاحين

اهتم بعد ذلك بتدبير الوسائل التى تسهّل عليهِ زراعة هذه الأراضى ، فاستخدم الفلاحين طبعاً فى زراعتها ، فأصبحوا بمثابة الموالى ، وكانت القاعدة انهُ ما دام الفلاح قادراً على دفع ما فرض عليهِ اداؤه من ثمرتها يبقى فى الأرض يتعيش منها وتخلفه من بعده ذريته

وظل الفلاحون هكذا محرومين من التمتع بحق امتلاك الأراضى الى زمن غير بعيد ، وذلك عند ما سنّ سعيد باشا قانونه المختص بأرض مصر ، وتلاه من بعده قانون المقابلة الذى وضعه اسماعيل باشا ، ثم القانون الذى سنّته المحاكم الحديثة خاصاً بحق امتلاك الفلاح للأرض

مسح الاراضى

ثم أمر محمد على مديرى البلاد بمسح الأطيان وتقدير عدد الفدادين التى تخص كل قرية ، ما عدا الضياع التى كانت توهب للمقرّبين وذوى الحظوة : فهذه كانوا لا يتدخلون فى أمرها ، وكانت بالطبع شيئاً قليلاً . أما العدد الأوفر من القرى المصرية فكانت تحت سيطرة محمد على ، اذ كان يدير شؤون كل قرية فئة من مشايخ البلد يرأسهم عمدة مُنصّب من قِبَل المدير ، مسئول أمامه عن مقدار ما يُطلب من قريته من الضرائب . ولذلك كان العمدة يوزع الأراضى على الفلاّحين حسب اختياره ، ثم يجمع منهم الضرائب على قدر ما يفلح كل من الأرض . وما أشبه الفلاح فى هذه الحالة بالحيوان تحت رحمة العمدة . أما العمدة فكان مثَلُه كمثل السوط فى يد المدير الذى كان صاحب البأس والسطوة الذى لا يسيطر عليه أحد الاّ الوالى مالك مصر الوحيد

ونظام جمع الضرائب

هذه هى الطريقة التى اتبعها محمد على منذ عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) وسار على مقتضاها ٢٠ عاماً ، وبها أمكنه أن يجنّد الجيوش ويعدّ الأساطيل ويحارب الأمم ويخضعها

التصرف فى المحصولات

وكان من عادته أن يعيّن أنواع المحصولات التى تزرع فى كل بقعة من بقاع المملكة ، ثم تؤخذ المحصولات جميعها وتوضع فى أهراء الحكومة ، ويُقدّر أثمانها طائفة من رجال الحكومة . فكان جزء منها يؤخذ فى مقابل الضرائب التى على الأرض ، وما بقى تشتريه الحكومة فتصنع بعضه فى مصانعها والجزء الأعظم يباع الى التجار الأوربيين ، وبهذا احتكر محمد على كل التجارة فى مصر

المحصولات التى أدخلها فى مصر

ولا يسعنا فى هذا المقام الاّ أن نذكر شيئاً عن المحصولات التى جلبها هذا المصلح الكبير الى البلاد ولا نزال ننتفع بها ، وكانت نتيجة زرعها ازدياد ثروة البلاد : مما أعانه على شنّ الغارة على أعدائه . وأهم هذه النباتات وأعظمها ربحاً للبلاد القطن الذى أشار بغرسه المسيو « جوميل » فى عام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) ، وهو أحد النساجين الفرنسيين المستخدمين بالحكومة المصرية وقتئذٍ . وقد أنتجت تجارب زرعه محصولاً حسناً ، لجودة التربة وملاءمة الجو ، وبذلك ابتدأ طور جديد فى تاريخ مصر المادّى . وجلب بذوره من الهند أولاً ثم من أمريكا فيما بعد من صنف يُعرف بقطن « الجزائر » ، وهو أجود نوع فى العالم . وقد كان يزرع القطن فى مصر قبل عصر محمد على بقرون عديدة ، غير أنه كان من صنف ردىء ، ولا يُعرف تاريخ جلبه الى البلاد

القطن

القنب والنيلة

وقد عُنى فرنسى آخر بزراعة القِنّب فى مصر ، لصنع الحبال اللازمة للأسطول . واهتمّ محمد على أيضاً بزراعة النيل (النيلة) ، فجلب لذلك الفلاّحين الملمين بزراعتها من جزائر الهند الشرقية . وأحضر من آسيا الصغرى زُرّاعاً مهرة فى زراعة الخشخاش ، وزرع الغابات والحِراج ، ليستغنى بها عن الأخشاب التى تُجلَب من البلاد الأجنبية

زراعة الحدائق

ولم يفته تحسين زراعة الجنائن ، إذ أنشأ ابنه ابراهيم باشا فى جزيرة الروضة حديقة

غنّاء، فيها من الفاكهة والرياحين ما لذّ وطاب، وذلك بهمة رجل ايقوسى من مهرة العالمين بفن الجنائن

مقدار فائدة الفلاح

ومما سبق يظهر جلياً ان جلب هذه المحصولات وزراعتها، وتحسين حالة الرى، (مما سيأتى ذكره عند الكلام على الأعمال العامة): كان من اكبر النعم على مصر، لو كان الفلاح يضمن بيع محصوله بأثمان مناسبة. ولكن لسوء حظه كانت معاملاته كلها و بيع محصوله يتوقف على عمّال الحكومة الذين يلاحظون الزراعة، وعلى أمانة الذين يقدّرون أثمان المحصولات التى كانت تشترى جميعَها الحكومة. والظاهر ان الفلاحين كانوا يتحمّلون فى ذلك مغارم كبيرة، اذ كانت تُشترى منهم بأثمان بخسة وموازين مغشوشة، فضلاً عن انهم كانوا لا يأخذون أثمان سلعهم نقداً، بل فى معظم الأحيان يُجبَرون أن يبادلوا بها مصنوعات معامل الحكومة ترويجاً لها

الصناعة

الاهتمام بالصناعة

رأى محمد على أن الممالك الصناعية بأوربا على جانب عظيم من الثروة وسعة الرزق، فحاول إدخال صناعاتها فى مصر، وان يشجّع الصناعات الوطنية أيضاً، حتى يتسنى له صنع كل ما يحتاج اليهِ من لوازم الجيش ومعدات الاسطول، و ينافس الغرب فى صناعة المنسوجات

الصعوبات

ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب، لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج، ولأنهُ أيضاً يلزم المصريين زمن طويل وخبرة كبيرة حتى يصلوا الى درجة بها يمكنهم أن ينافسوا أعمال اوربا. الاّ أنهُ قاوم كل هذه الصعوبات وأنشأ عدة معامل فى أنحاء القطر، وفت بغرضه مدة من الزمان

معامل الغزل والنسيج

فمن أهم ما أنشأه معامل الغزل ونسيج القطن والحرير والكتّان والصوف. فكان للقطن خاصةً ثمانية عشر معملاً فى أمهات مدن القطر، كالمنصورة ودِمياط ورشيد (التى كان ينسج فيها ِكرْباسُ أشرعة السفن)، وفى المحلة الكبرى وزفتى ومُنية غمر

وبنى سويف . وأهم هـذه المعامل معمل بولاق ، وكان يسمى « معمل مالِطة » لكثرة المالطيين فيه ، وكان رئيسه المسيو « جوميل » الفرنسى

المبيضة
وأنشأ مُبَيِّضةً للمنسوجات بين بولاق وشبرا

معمل الجوخ
وأنشأ فى بولاق معملاً للجوخ ، أحضر له فى مبدأ الأمر رجالاً من الفرنسيين لإدارته ، ثم أرسل الشبان الى معامل « سيدان » و « ليون » بفرنسا ليتعلموا صناعته . فلما رجعوا حسَّنوا صناعة هذا الصنف ، وصار يستعمل فى ملبوس الجيش

المصابغ
وأسس مصابغ للمنسوجات استعمل فيها النِيل (النيلة) الذى كان يستخرج من البلاد

معمل الطرابيش
وأنشأ كذلك معملاً عظيماً للطرابيش بمدينة فُوَّه بادارة رجل مغربى ، وجلب له مهرة العمال من تونس ، فنجح نجاحاً باهراً ، اذ كان ما يصنعه فى اليوم يربو على ٧٢٠ طربوشاً

السكر والزيت
وأنشأ أيضاً معامل للسكر فى الصعيد : أهمها معمل الروضة ومعمل ساقية موسى . وأوجد معاصر للزيت ، فكان فى الوجه البحرى منها عشرون وفى القاهرة أربعون

وقد وجّه عنايته الخاصة الى ايجاد جميع المواد الأصلية اللازمة لهذه الصناعات فى البلاد المصرية ، فأكثر من زراعة القطن والقِنّب والكتان ، كما أسلفنا . وربّى

تربية الاغنام
الأغنام وعُنى بأمرها عناية عظيمة ، وجلب كل صنف منها لتحسين نوع الصوف الذى فى البلاد ، غير ان ذلك لم يُجد نفعاً لعدم ملاءمة الجو لهذه الأغنام ، فاضطر أخيراً للعدول عن ذلك ، بعد أن بذل فيه كل مجهود

ودودة القز
واجتهد أيضاً فى إنماء دودة القز فى البلاد ، ليستغنى بنتاجها عما يأتى اليه من الخارج ، فزرع لأجلها أشجار التوت بوفرة فى رأس الوادى ، وحفر السواقى لريها ، وجلب أناساً كثيرين ممن لهم دراية بتربية دود القز ، فبلغ ما جمعه من الحرير سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) عشرة آلاف اقة تقريباً

هذه بعض المصانع التى شيدهـا محمد على فى أنحاء البلاد ، وناهيك بمصانعه

مصانع الجيش الأخرى : من المسابك وغيرها من لوازم الجيش والأسطول . ولكنها لم تدم طويلاً للصعوبات التى بيّنّاها آنفاً ، وتلاشى بعضها فى مدة حياته ، واضمحل الباقى عقب

تلاشى الصناعات موته ، وأصبحت كأن لم تكن : يشهد بذلك ما قاله أحد مهندسى الانجليز من أنهُ « زار دار الصناعة ببولاق عقب وفاة محمد على ، فوجد فيها من الآلات المهملة ما لا تقل قيمته عن ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه »

والسبب فى عدم اضمحلال هذه المعامل جملة فى أيام محمد على يرجع الى أمرين : أولهما أنهُ كان القابض على زمام مالية البلاد ، فكان ينفق على هذه المعامل كل ما تحتاج اليهِ ، ثانيهما أن المحصولات التى كان يشتريها من الأهالى كان لا يدفع ثمنها نقداً ، بل كان يبادل بها منهم مصنوعات المعامل . على ان معظم المعامل كما سبق أُغلق فى أواخر أيامه ، وبادت البقية الباقية منها فى أيام عباس الأول

الأشغال العامة

أهم الأشغال العامة قام محمد على بعدة أشغال عامة عظيمة عادت على البلاد بالمنفعة الجليلة والفوائد التى لا تزال مصر تجنى ثمارها الى الآن . ومن أعظم هذه المشروعات ثلاثة : حفر ترعة المحمودية ، واصلاح مرفأ الاسكندرية ، وانشاء القناطر الخيرية

ترعة المحمودية أولاً — ترعة المحمودية . لا يخفى أن تجارة مصر فى ذلك الوقت كانت تتوقف على نهر النيل وفروعه المنتشرة فى أنحاء البلاد . وكان أهم الثغور التجارية حينئذٍ دِمياط ورشيد ، غير انهما لوقوعهما عند مصبى النيل تَسُد فُرَضَهما رمالُ البحر وغِرْيَنُ النهر : مما يجعلهما غير صالحين للسفن الكبيرة التى تنقل التجارة الخارجية . ولاحظ ذلك محمد على ، فعزم على تحويل مجرى تلك التجارة الى الاسكندرية ، رغم ما بها من العيوب : لأنها معرضة للرياح الشمالية الغربية ، وماء البحر عندها ضَحْضاح . فرأى ان من أعظم المشروعات المفيدة لذلك حفرَ ترعة تربط الاسكندرية بالنيل ، فحفرها وسمّاها « المحمودية » نسبةً الى السلطان محمود الثانى . فأفادت هذه الترعة البلاد فائدة

كبرى ، اذ أصبحت تجرى فيها السفن ذاهبة الى الاسكندرية حاملة حاصلات البلاد فى زمن قصير بدون مشقة كبيرة . وقد جمع الألوف من العمال وسخرهم لحفرها من جميع مديريات القطر ، حتى تمت فى أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها . وقد بلغت نفقاتها ٣٠٠ ألف جنيه ، كما أورده « كاوت بك » فى كتابه على مصر

ومن فوائد هذه الترعة أيضاً انها كانت سبباً فى عمران البلاد التى مرت بها واحياء أراضيها من العطف الى الاسكندرية ، بعد ان كان اكثرها غير صالح للزراعة

أما مدينة الاسكندرية فانها تغيرت بسببها تغيراً عظيماً وجرت شوطاً بعيداً فى الثروة والعمارة . وبقيت هذه الترعة أعظم طريق للتجارة بين مصر والاسكندرية حتى أنشئت السكة الحديدية

ميناء الاسكندرية

ثانياً — ميناء الاسكندرية . بعد ان حفر محمد على باشا ترعة المحمودية كلّف « موجيل بك » ان يصلح مرفأ الاسكندرية ، حتى يتسنى له بناء عمارة بحرية يحقق بها ما تطمح اليه نفسه ، ويجذب بها التجّار الأجانب الى الثغر : تسهيلاً لبيع حاصلات البلاد التى كانت جميعها فى قبضة يده . فأصلحه وبنى فيه دار صناعة بحرية وأحواضاً لبناء السفن ، فاتسع بذلك نطاق المدينة ، وانتابها التجّارُ من كل حَدَب وصَوْب ، وأصبحوا يتنافسون فى شراء حاصلات مصر ، حتى ان احدى الشركات التجارية الانكليزية اشترت فى عام من الأعوام محصول القطن كله

القناطر الخيرية

ثالثاً — القناطر الخيرية . هذه من أجلّ مشروعات محمد على باشا وأعظمها فائدة للزراعة ، وقد كان لها الفضل الاكبر فى تنظيم الرى فى الوجه البحرى

رأى نابليون فى انشائها

وقد قيل ان نابليون لما قدم الى مصر فى غارته المشهورة أدرك الفائدة التى تنجم عن انشاء قناطر على النيل عند تفرعه لتنظيم المياه فى الفرعين وقت انخفاضه ، لأنهُ اذا حُجزت المياه عن أحد الفرعين اتجه ماء النيل كله الى الفرع الاخر ، فيرتفع سطحه عن سطح النيل الأصلى ، وتفيض المياه منهُ الى الترع فتروى الأراضى .

وقال نابليون عندئذٍ : « ان هذه الفكرة لا بد أن تخرج يوماً ما الى حيز الوجود »

فلم يمضِ طويل عهد حتى تحقق ذلك القول وظهر المشروع الى حيّز الوجود على يد البطل العظيم محمد على باشا. ومن أهم الأمور التى حَدَتْ بِهِ الى انفاذه انتشار زراعة القطن فى الوجه البحرى ، اذ كان ينمو فى فصل الصيف ويُروَى فيهِ

تعميق الترع

وأول فكرة خطرت لمحمد على لتدارك ذلك أن يزاد فى عمق الترع حتى تنصب فيها مياه النيل وقت انخفاضه ، فتُرفع منها بالسواقى والشواديف وغيرها من آلات الرفع الى الأرض التى يراد ريّها . غير انهُ اتضح ان انفاذ هذا المشروع يتطلب أموالاً جمة وجهداً عظيماً من الحكومة والأهلين لا يكاد يكون فى الامكان

سد أصم

ثم لاحظ محمد على ان اكثر ترع الوجه البحرى واقع بطبيعة الحال شرقى دال النيل وفى وسطها ، لارتفاع سطح الفرع الشرقى عن الغربى ، فعمد الى زيادة المياه فى تلك الترع باقامة سد أصم على الأخير يكوَّن من أحجار يُرمَى بعضها فوق بعض ، ليمتنع الماء عن فرع رشيد ويرتفع فى فرع دمياط فيملأ الترع الكثيرة المتفرعة من هذا الفرع . وفعلاً شرع فى العمل سنة ١٢٤٩ ﻫ (١٨٣٣ م)

مشروع لينان باشا

ولكن « لينان بك » (لينان باشا فيما بعد) أحد المهندسين الفرنسيين النبغاء الذين كانوا فى خدمة الحكومة المصرية أشار عليهِ بعدم اقامة هذا السد الأصم ، لما ينشأ عنهُ من حرمان أراضى فرع رشيد ، ولرفعه مياه النيل وقت الفيضان فى فرع دمياط الى درجة يخشى منهـا . وعرض عليهِ مشروعاً آخر ، وهو اقامة قنطرتين عظيمتين فى عرض فرعى دمياط ورشيد بعد نقطة افتراقهما عند رأس الدال ، فى كل قنطرة عيون تُحكم عليها أبواب تُرتَج فى كلا الفرعين بالتناوب أثناء الصيف ، فاذا حُجزت المياه وراءها عن فرع ارتفع الماء فى الفرع الآخر وملأ الترع العظيمة التى تستمد منهُ والتى يتوقف عليها الرى الصيفى فى الوجه البحرى . وفى أيام الفيضان تُفتح الأبواب ، فتسير المياه فى مجراها الطبيعى بلا مقاومة

فأُعجب محمد على باشا بالمشروع الجديد ، وأمر بتشكيل لجنة لدرسه والبدء بإنفاذه

فى الحال*. وبعد فحص طويل قرّ رأى اللجنة على مشروع لينان باشا كما هو، واختير لموضع القنطرتين موضعان على بُعد ٩ كيلومترات فى فرع رشيد و٥ كيلومترات فى فرع دمياط. وعُمل التصميم على ان تستقى من النيل ثلاثة (رياحات) عظيمة: أحدها من فرع رشيد، والآخران من فرع دمياط

ابتداء العمل

ثم ابتدأ العمل فى أواخر ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م)، واستعان محمد على على انجازه بسرعة بتسخير الألوف من العمال. ولكن لسوء الحظ انتشر بالبلاد وباء عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م)، ففتك بكثير من العمال، وكاد العمل يقف جملةً بالرغم من مقاومة لينان باشا ومثابرته. وما زال كذلك فى الاحتضار حتى نُصّب لينان باشا على وزارة الأشغال، فلم يعد له ذلك الإشراف المباشر على انشاء القناطر. وسئم محمد على بطء العمل، وانقلب شغفه مللاً، الى ان أمر بتشكيل لجنة للنظر فى الاستغناء عن المشروع. فأقرت اللجنة فائدة المشروع، وأوصت بمواصلة العمل فيه، ولكن ملل الباشا كان قد بلغ أشده، فأمر بايقاف العمل واستعمال ما بقى من المواد المعدة له فى غيره من الأعمال

ايقافه

مشروع موجيل بك

وبقى المشروع كأن لم يكن، الى ان قدم الى مصر مهندس فرنسى آخر يدعى «المسيو موجيل» (موجيل بك فيما بعد) عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م)، فعرض على محمد على مشروعاً آخر ضمّنهُ انشاء قلاع على القناطر لجعلها مركزاً حربياً للدفاع عن مصر، لعلمه باهتمام الباشا بالشؤون الحربية. فأُعجب الباشا بالمشروع أيما اعجاب، وأمر لينان باشا أن يمد موجيل بك بما لديه من المعلومات فى هذا الشأن

الفرق بين المشروعين

ويختلف مشروع موجيل بك عن مشروع لينان باشا بأن موضع القنطرتين فى الأخير كان على بعد ٩ كيلومترات من رأس الدال فى فرع رشيد و ٥ كيلومترات فى فرع دمياط، بيد ان موجيل بك رأى اقامة القنطرتين فى موضعين قريبين جداً من

* ومن شدة رغبته فى انجازه على وجه السرعة انه أراد هدم أهرام الجيزة لاستخدام أحجارها فيه، لولا ان أقنعه لينان باشا ان قطع الأحجار من المحاجر أسهل من ذلك وأشد اقتصاداً

رأس الدال فصارتا قريبتين احداهما من الأخرى كأنهما عمل واحد ، وفى ذلك تسهيل لادارة حركة القناطر وصيانتها بعد انشائها . على ان مشروع لينان باشا كان يمتاز باختيار موضعين صالحين جداً لانشاء القناطر ، لصلابة الأرض عندهما وموافقة الشواطئ لذلك

السرعة الزائدة فى العمل

فشرع موجيل بك فى العمل عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) مبتدئاً بفرع دمياط ، فلم تعترضه صعوبة تذكر ، الى ان ابتدأ العمل فى فرع رشيد فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) . فأخذ الملل يستولى على محمد على ، وأمر أن تضاعف السرعة فى انجاز العمل ، فأضر ذلك بالأساس حتى صار من الضرورى اصلاحه فى العام التالى . ورأى موجيل بك أن يرجئ العمل سنة حتى يصلح وتعظم متانته ، فلم يرضَ الباشا . و بينا الأمر كذلك اذ مات محمد على عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) قبل أن يرى نتيجة المشروع الذى طالما تاقت نفسه الى اتمامه

وفاة محمد على

مظهر بك يتولى العمل

ثم تولى عباس باشا الأول ولم تكن له ثقة فى نجاح هذا العمل ، فأراد توقيفه ، لكنه خشى الرأى العام وسمح بمواصلته . وفى سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٣ م) أغضبه بطء موجيل بك فعزله وسلّم القناطر الى مظهر بك . ثم استؤنف العمل فى انجاز القناطر دون الشروع فى اصلاح أساسها وتقويم ما تصدع منها ، فتمت بكل لواحقها من طرق وشرفات وقلاع عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦١ م)

النفقات

وقد قُدّرت نفقاتها لذلك الوقت بنحو ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه عدا أعمال السخرة التى لا يُستهان بها . وقد قدَّر « السير وِلْـكُكْس » ما تكلفته القناطر على البلاد بنحو ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه

وعند ما جُربت القناطر لأول مرة اتضح انها لا تفى بكل الغرض المراد منها الآ بعد الاصلاح . وسنأتى على ذكر ذلك عند الكلام على الأعمال العامة التى تمت بعد عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م)

مشروعات اشغال اخرى

هذه هى أهم الأشغال العامة التى قام بها محمد على ، وقد كاد يهم بانفاذ مشروعات



القناطر الخيرية

أخرى خطيرة ، مثل مد سكة حديدية بين السويس والقاهرة ، ومثل حفر قناة السويس : مما سنتكلم عليهِ فى موضعه . ونقول بمناسبة هذا المشروع الأخير انه بعد أن خرجت الحملة الفرنسية من مصر ظلّ بعض العلماء الفرنسيين يفكرون فى ابراز هذا المشروع الخطير الى الوجود ، وقصد جماعة منهم مصر ليحببوا الى محمد على حفر هذه الترعة . فقابل مشروعهم فى أول الأمر بصدر رحب ، وكلف المسيو لينان (لينان باشا) أن يرسم له خطة لذلك . لكنه عاد فتراخى فى الأمر ، ويقال انهُ لم ينظر الى المشروع بعين الرضى ، اذ قال مرة فى حديث له : « انى لا أريد ان أجعل وادى النيل طريقاً دولياً » . وقال فى حديث آخر : « انى أخشى أن تكون هذه الترعة بسفوراً آخر* »

رأى محمد على فى قناة السويس

نهضة التعليم

صعوبة نشر التعليم

تولى محمد على شئون مصر فى عصر ساد فيهِ الجهل بين أهلها ، وانحطت فيهِ مداركهم ، ودُرست دور العلم عندهم . وهذه نتيجة طبيعية لحكم المماليك البيكوات الذين قبضوا على البلاد بيد من حديد مدة وضعوا فيها بين المصرى وبين نور العلم الحديث حجاباً كثيفاً لم يزده طول حكمهم الا جدّة . والسبب فى ذلك يرجع الى ما فُطِروا عليهِ من الجهالة وعدم ميلهم الى التعلم ، واعتزالهم العالم بأسره

فلما رأى محمد على ما عليهِ البلاد من التدهور أراد أن يصلح حال رعيته بالتعليم ، فوجّه اليهِ شطراً عظيماً من عنايته . فاعترضه فى طريقه عدة عقبات ، إذ كان الآباء يمتنعون عن ارسال أبنائهم الى دور العلم ، مع تكفله بنفقات تعليمهم وإطعامهم وإلباسهم ، وكان يحبب اليهم العلم والتعليم باعطائهم الرواتب الشهرية . ومن العجيب انهُ كان مع هذا يضطر غالباً الى أن يقود التلاميذ الى دور العلم بالسلاسل والأغلال . ومن هؤلاء أفراد نبغوا وساروا فيما بعد بالتعليم شوطاً بعيداً

أما المدارس التى أسسها محمد على فكانت على ثلاثة أنواع: ابتدائية وتجهيزية وخاصة

المدارس الابتدائية

فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية فى أمهات البلاد ، وكان عدد مَن فيها من الطلبة

---

* يعنى أنها تصبح موضع نزاع بين الدول العظام ربما أفضى الى استيلاء أقواهن على مصر

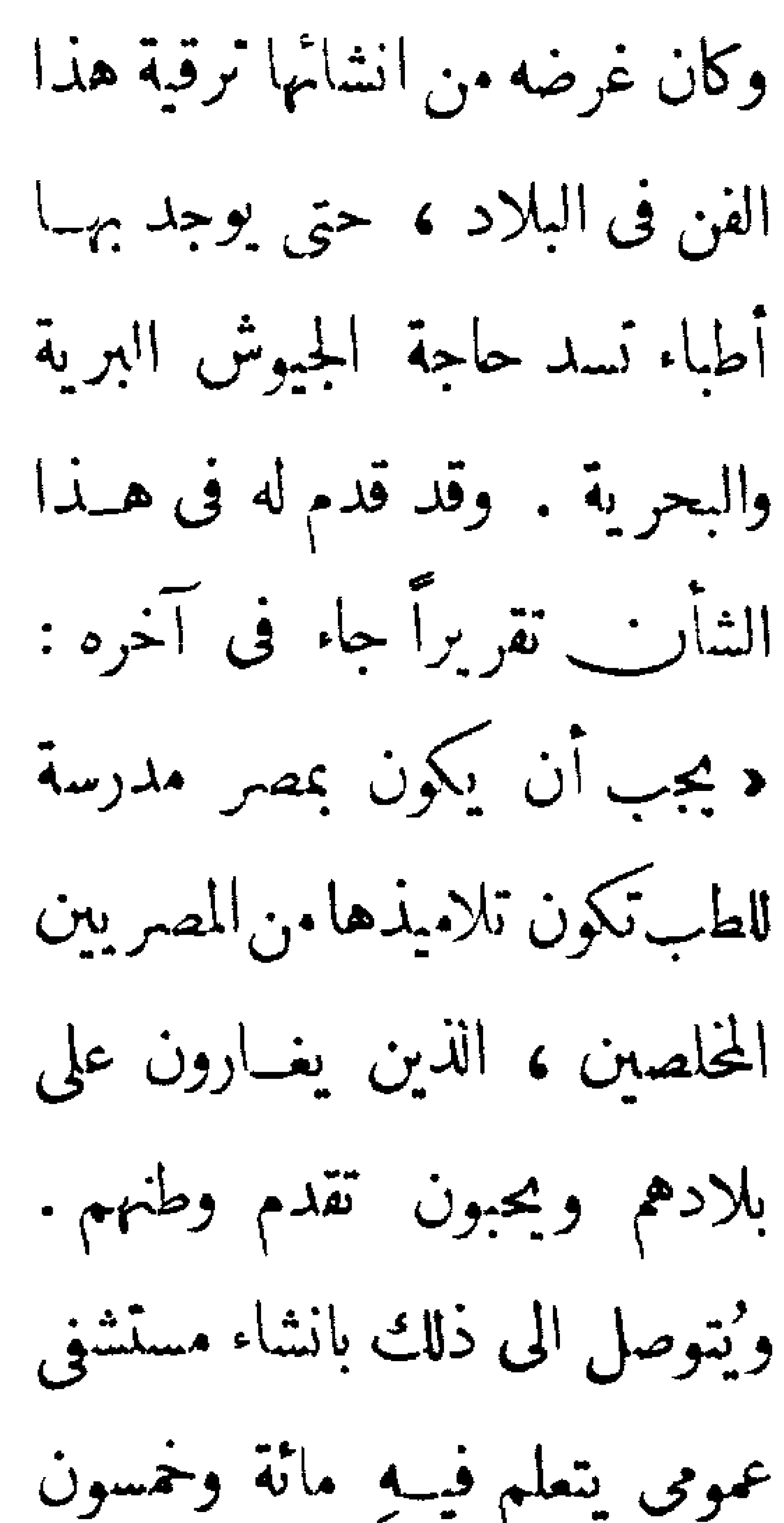
احد عشر ألفاً تقريباً . وأسس مدرسة لتعليم نخبة أبناء الأمة سمّاها كلية الأمراء ، كان يتعلم فيها أبناؤه وأبناء الأمراء ، بلغ عدد تلاميذها نحو ٥٠٠ تلميذ

المدارس الخاصة

أما مدارسه الخاصة فكانت عديدة . وأهمها وأعظمها فائدةً للبلاد مدرسةُ الطب ، التى قضت على عهد التمائم والسحر والرُّقَى وغيرها من أنواع الشعْوَذَة التى كان يتطبّب بها المصريون . والفضل فى إنشاء هذه المدرسة راجع الى الدكتور « كلوت بك » أحد نجباء الفرنسيين الذين كانوا فى خدمة الحكومة المصرية

مدرسة الطب

أسست هذه المدرسة بأبى زعبل كطلب الدكتور المذكور سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م) وكان غرضه من انشائها ترقية هذا الفن فى البلاد ، حتى يوجد بها أطباء تسد حاجة الجيوش البرية والبحرية . وقد قدم له فى هذا الشأن تقريراً جاء فى آخره : « يجب أن يكون بمصر مدرسة للطب تكون تلاميذها من المصريين المخلصين ، الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم . ويُتوصل الى ذلك بانشاء مستشفى عمومى يتعلم فيه مائة وخمسون شاباً ممن لهم إلمام تام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادئ الحساب ، ويجب ان تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب بفروعه ولا سيما الجراحة ، وتكون مدة الدراسة بها أربع سنوات يُختبر التلميذ فى آخر كل سنة منها »





كلوت بك

فسر محمد على من المشروع وأمر بتأسيس المدرسة وجعلها تحت رياسة كلوت بك

الطب البيطرى

وأسس محمد على بجوار هذه المدرسة مدرسة للطب البيطرى ، وولى رياستها

للمسيو « هامون » الفرنسى ، ومدرسة للهندسة بالخانقاه جعل رئيسها « لامبير بك » الهندسة والفنون
وأخرى للموسيقى بالقلعة ، و بنى مدرسة لتعليم الفنون والصنائع، وأخرى لتعليم الألسن
وقد قال عنها « على باشا مبارك » فى كتاب « الخطط » فى ترجمة رفاعه بك ناظرها مدرسة الألسن
ما يأتى : — « عرض رفاعة بك على محمد على تأسيس مدرسة لتعليم اللغات الأورية ينتفع بها الوطن ، ويستغنى بمن يتخرج فيها عن الدخيل . فأجابه الى ذلك ، ووجّه بهِ الى مكاتب القطر لينتخب التلاميذ لهذا الغرض، فأسس المدرسة ، وعند الامتحان امتُحن التلاميذ فى اللغة الفرنسية وغيرها من العلوم المدرسية فظهرت نجابتهم . ثم أنشأ بها قلماً للترجمة تُرجم فيهِ كثير من الكتب الأوربية فى كل فرع من العلوم . وكان بهذه المدرسة أيضاً قسم تجهيزى خاص، فنبغ فيها رجال بارعون فى انشاء اللغة العربية والعلوم . غير أن هذه المدرسة قد ألغيت فى عهد عباس باشا الأول »

ولم يفت محمد على أمر تحسين الزراعة العملية ، فأنشأ لها مدرسة ببلدة « نَبرُوه » التعليم الزراعى
من أعمال مديرية الغربية ، وأحضر اليها المعلمين وآلات الفلاحة من أوربا لتدريس هذا الفن علماً وعملاً . إلاّ أنّ جهل الأهالى وقف عقبة كؤوداً أمام سيرها ، فاضطر محمد على الى نقلها الى شبرا الخيمة لتكون تحت رياسة « المسيو هامون » ، ولكن ذلك لم يجد نفعاً أيضاً ، وأخذت فى الاضمحلال حتى أغلق بابها

ولم تقف همة محمد على باشا عند إنشاء المدارس فى جميع أنحاء القطر ، بل أرسل البعوث العلمية
عدداً كبيراً من الشبان المصريين الى أعظم ممالك أوربا وخصوصاً فرنسا لتلقى العلوم بها ، حتى اذا ما عادوا الى مصر استغنى بهم عن استزادة عدد الأوربيين . فأرسل البعوث من المصريين ليتعلموا العلوم الغربية ، وليستعينوا بآراء الفرنسيين وأفكارهم وطرق حياتهم على اصلاح شأن مصر . ومن الغريب أن آباء التلاميذ كانوا يندبون حظ أبنائهم الذين ساعدهم الحظ الأوفر باختيارهم للرحيل الى أوربا ، واستعملوا كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة العلم . فلم يثنِ كل ذلك عزم محمد على ، وأرسل فى عام ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) أربعين طالباً فتحت لهم مدرسة خاصة فى باريس عُهد

أمر ادارتها الى الاستاذ الشهير « المسيو جومار » ، فقام بها خير قيام ، واختار لها مدرسين اكفاء ، وخصص كل واحد من التلاميذ بدراسة فرع من العلوم خاص ليتقنه . وكان ممن تعلم بهذه المدرسة اسماعيل باشا الخديوى والأمير احمـد والأمير مصطفى فاضل والأمير حليم باشا وشريف باشا ومراد باشا وعلى مبارك باشا [١]

ثم أرسل عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) اثنى عشر طالباً آخرين الى باريس ليتمموا علوم الطب ، ثم أرسل غيرهم حتى صار ما أرسله الى أوربا الى عام ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م) يربو على ١٢٠ طالباً ، اكثرهم الى فرنسا ، وقليل منهم الى انجلترة والمانيا [٢]

ديوان المعارف

وكان ديوان المعارف فى ذلك العصر يديره رجل كبير الهمة خطا به خطوات واسعة ، وقـد أشار الى ذلك « بيتون » المؤرخ الانجليزى فى كتابه على مصر اذ قال : « ان ديوان المعارف فى عصر محمد على كان فى يد « أدهم بك » الذى قام بادارة شؤونه خير قيام ، حتى كان أحسن دواوين الحكومة نظاماً »

نقص التعليم

ومع ما بذله محمد على فى نشر العلوم كان كثيرون ممن زاروا البلاد المصرية من

---

(١) وقد جاء فى كتاب المسيو « هامون » فى تاريخ مصر فى عهد محمد على نقلا عن تقرير المسيو « جومار » الى محمد على سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) ما يأتى : —

« انه خصص تلميذين بدرس العلوم السياسية ، وكان يدرس لهما قانون حقوق الدول والاقتصاد السياسى واكثر لغات اوربا المستعملة فى السياسية ، وتنقلا فى بلاد اوربا للوقوف على عادات أهلها. واختار اربعة للادارة العسكرية، وثلاثة للبحرية، وثلاثة للعلوم الآلية (الميخانيكية): يتعلمون الهندسة العلمية ، ويتدربون فى المعامل ، ويتمرنون على الاشغال اليدوية . وخص فرقة بفن المدفعية والاستحكامات . وتفرغ منهم أيضاً عدد لدرس الكيمياء الصناعية ، وخاصة ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج وصناعة السكر ليكونوا مديرين للمعامل التى شيدت فى مصر . وخص بعضهم بالزراعة العملية والتاريخ الطبيعى والتعدين، وذلك للبحث عما عساه أن يوجد فى مصر من المعادن »

(٢) وقد أوردنا فى الصفحة التالية صور بعض طلبة البعوث العلمية التى ارسلها محمد على باشا الى اوربا ، وهم :

(١) رفاعة بك (ناظر مدرسة الالسن) (٢) مختار بك (احد وزراء المعارف)
(٣) حسن بك (وزير بحرية) (٤) مظهر بك (مهندس القناطر الخيرية)
(٥) مصطفى محرمجى (مهندس) (٦) محمد شافعى (أحد نظار مدرسة الطب)
(٧) محمد على باشا الحكيم (طبيب وجراح) (٨) محمد السكرى (مدرس بمدرسة الطب)



بعض طلبة البعوث العلمية

الغربيين فى أيامه متفقين على أن أكبر غلطة له أنهُ أراد أن يطفر بمصر طفرة فى سبيل الرقى، فكانت النتيجة ان ما تعلمه الأهالى لم يُبنَ على أساس متين. ونحن لا يسعنا الاَّ أن نقول ان مساعى محمد على فى تحسين حال التعليم في البلاد كانت من أنجح أعماله فى مصر، اذ كان هو نفسه ممن يعتقد نفع التعليم الأوربى، فأثر هذا الاعتقاد فى كثير من الأهالى أصحاب النفوذ فى البلاد، وكان ادخاله العلوم الحديثة فى البلاد ونبوغ الذين تعلموها فى مدارس أوربا من المصريين من الدواعى التى أدت الى محو كثير من الاعتقادات القديمة فى التعليم. ولا شك ان بعض الذين تعلموا فى فرنسا نبغوا و بنوا ركناً عظيماً فى تاريخ مصر الحديث، فضلاً عن ان ما ترجمه هم وتلاميذهم من الكتب الى اللغة العربية وطُبعَ فى مطبعة بولاق التى أسسها محمد على أفاد العالم المصرى فائدةً خالدة الأثر — اثره فى البلاد

ومن أياديه على العلم أنهُ شجَّع العلماء الغربيين وخاصة الفرنسيين الذين أتوا الى مصر ليدرسوا تاريخ الآثار المصرية. ونخص بالذكر من هؤلاء الأفاضل العالم «شمبليون» الذى خص كل حياته بحل رموز هذه اللغة حتى اتيح له ذلك فى عام ١٢٣٦ ﻫ (١٨٢١ م) بعد أن جاهد فى سبيل ذلك جهاد الأبطال. ثم العالم «لبسيسوس»، وقد وضع قاموساً لهذه اللغة، ثم العالم «امبير». وقد حل هؤلاء العلماء مشكلات عويصة فى هذه اللغة، ومهَّدوا الطريق لمن جاءوا بعدهم واشتهروا فى هذا الفن الى وقتنا هذا — معاضدة العلماء الغربيين

الجيش

نال محمد على ولاية مصر بفطنته وذكائه، وباغتنام الفرص والتغلب على من نازعه. وقد حصَّل ذلك على كره من الباب العالى، وإن استطاع أن يرضيه ويحافظ على مركزه سنين قلائل بما ناله من الفخار بعد قهره الحملة الانجليزية عام ١٢٢٢ ﻫ (١٨٠٧ م) وتغلبه على المماليك فى جميع أنحاء القطر وقهر الوهابيين. ولكن بتعاقب — الحاجة الى الجيش

الأيام ظهر له جلياً أن رضى الباب العــالى غير ثابت ، وان لا مندوحة له من تنظيم جيش قوى يعتمد عليه فى دفع كل عدو . لذلك وجّه جل عنايته لإعداد جيش يحميه من تدخل الباب العالى فى الشؤون المصرية ، ويقهر بهِ كل مَنْ ناوأه . وقد عظم شأنه بهذا الجيش ، حتى قيل انه كان فى نهاية عظمته يريد أن يرث الدولة العثمانية

محمد على والجنود الالبانية

ولا يخفى ان قوته كانت فى أول أمره مستمدة من أبنــاء جلدته من العساكر الألبانية ، وهو لم يكن فى نظرهم ممتازاً عنهم الاّ برتبته العسكرية . لذلك كان وجودهم حوله خطراً يتهدده فى كل لحظة ، كما كانت الجنود العثمانية أيام المماليك خطراً على مَنْ يرسله الباب العالى من الولاة . فعمل على ابادتهم والاستعاضة عنهم بغيرهم : ممن هم أقل تمرداً وعصياناً

ولما رأى أنهُ لا يستطيع ابادتهم مرة واحدة اضطرُ الى مجاملتهم فى مبدإ الأمر . ورأى ان أهم أسباب ثوراتهم وسلبهم ونهبهم فى البلاد راجع الى تأخير رواتبهم ، فكبح جماحهم وجعلهم طوع ارادته مدة بدفعه رواتبهم بحالة منتظمة ، و بذله العطايا لهم

معارضتهم فى تنظيم الجيش

وفى شهر شعبان سنة ١٢٣٠ هـ (اغسطس سنة ١٨١٥م) أراد أن ينظم جيشه على الطريقة الأوربية ، وكان الجنود لا يألفون النظام ولا سيما الأوربى ، فعارضوا فى ذلك أشد المعارضة ، وكانت النتيجة ان شبت نار الثورة فى القاهرة ، وتآمر الجند على الفتك بهِ ، ونهبوا الأسواق واضطروه الى الاعتصام منهم بالقلعة ، وقُتل فى تلك الفتنة كل منظمى الجيش . الاّ أنهُ بحذقه ودهائه تمكن من اخضاع الضباط بالعطايا ، وأظهر لهم عدوله عن هذا المشروع ، فمال الجند الى الخضوع

اقصاؤهم عن القاهرة

على ان كل هذا لم يُثْنِ عزم محمد على عن تنظيم الجيش كما أراد ، غير انهُ اتبع الحيطة والسياسة فى ابراز فكرته وتنفيذ غرضه ، فأقصى الألبانيين عن القاهرة تدريجاً : فأرسل بعضهم الى بلاد العرب ، و بعضهم الى بلاد النوبة ، ومَنْ بقى فرّقَهُ فى معسكرات الأقاليم

بعد ذلك أسس مدرسة لتعليم النظام الحربى فى بلدة أسوان ، لتكون قريبة من بلاد النوبة وبعيدة عن القاهرة ، وعهد بأمرها الى رجل من ضباط نابليون بونابرت اسمه المسيو « سيف »

انشاء مدرسة حربية بأسوان

وُلد هذا الجندى العظيم فى مدينة «ليون» من أعمال فرنسا عام ١٧٨٨م ، وابتدأ أول طور فى حياته بالخدمة البحرية ، وحارب الانجليز فى موقعة « الطرف الأغر » ، ثم انضم الى جيش نابليون البرى وحارب فى عدة مواقع بقيادة نابليون . ولم يساعده الحظ فى الالتحام بموقعة « وُوتَرلو » ، فترك فرنسا قاصداً مصر حيث نال الحظوة التامة عند محمد على بما قام بهِ من الخدم التى سنذكرها فى موضعها . وقد اعتنق الدين الاسلامى ، وترقى فى الجيش المصرى حتى وصل الى أعلى رتبة فيهِ ، وكان يُعرف بعد إسلامهِ باسم سليمان باشا الفرنسى (الفرنساوى)

سليمان باشا الفرنساوى

قام ذلك الرجل العالى الهمة بتنظيم هذا الجيش بأسوان مدة ثلاثة أعوام ، أعدّ فى أثنائها ضبّاطاً كثيرين ليقوموا بأمر الجيش الجديد . وكان معظمهم من شبان المماليك وصغار ضباط الألبانيين والأتراك ، أما العساكر الذين تألف منهم الجيش الجديد فكانوا فى أول الأمر من أسرى حروب السودان ، غير أن كثرة الوَفَيَات بينهم لعدم ملائمة الجو اضطرت محمد على الى العدول عن التجنيد منهم ، وابتدأ يجنّد الجيش من فلاحى مصر . وقد كان هؤلاء يأبون الانتظام فى سلك الجندية كل الاباء ، وبذلوا فى ذلك كل طاقتهم ، فكان الآباء يشوّهون خَلْق أبنائهم : إما بقطع الأصابع ، أو بفقء العين ، أو بنزع الثنايا ، وكثير منهم هربوا الى بلاد سورية . فلم يثن كل ذلك عزم محمد على ، ونجح أخيراً فى تجنيد عدد عظيم منهم ، صار فيما بعد على جانب عظيم من النظام وكمال العُدّة ، حتى أنهُ فى عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) عند ما ثار الألبانيون لمّا علموا بحرق اسماعيل باشا ابن محمد على فى قرية شندى دخل « سيف » القاهرة يقود ٢٥,٠٠٠ من الجنود المدرّبين على النظام الجديد ، ليحموا الباشا من شرّ هذه الطائفة الطاغية ، ويثبتوا قدمه ويوطدوا سلطانه . فأنعم على هذا

تنظيم الجيش بأسوان

تجنيد الفلاحين والسودان

البطل الفرنسى برتبة الكولونيل (بك) مكافأة له على ما قام به ، ثم رفع راتبه الى ١,٦٠٠ جنيه فى السنة . ومن هذا الوقت أصبح لمحمد على جيش يركن اليه ، وكان معظمه من السودان والفلاحين

المشاة والفرسان والمدفعية

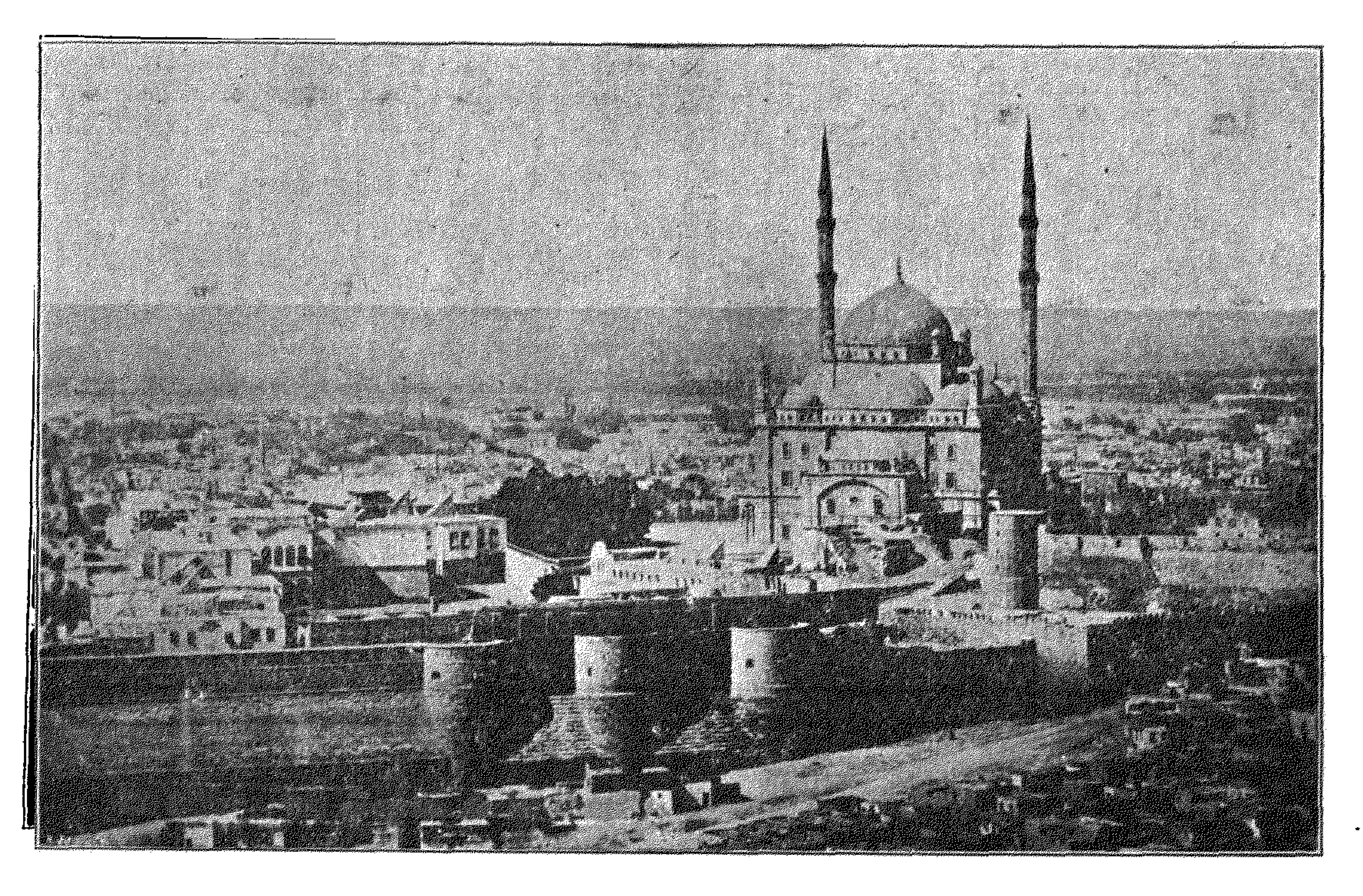
ثم أسس مدرسة للعساكر المشاة فى « الخانقاة » . أما الفرسان فاتخذ لهم قصر مراد بك على الضفة اليسرى من النيل ، وعهد بأمر تعليمهم الى أحد رجال نابليون ، وهو المسيو « فَران » . ولم يَفُتْهُ أمر تعليم فرقة خاصة للمدفعية لما يعلمه من الأعمال الجليلة التى تقوم بها هذه الفرقة فى حومة الوغى ، اذ كانت ذكرى حروب الفرنسيس فى موقعة أنبابة لا تزال جديدة فى ذهنه ، وقد أبلت فيها المدفعية الفرنسية بلاء حسناً ، فناط بالكولونيل « سيجيرو » الاسبانى تأسيس مدرسة للمدفعية ، فنظمها وقام بأمرها خير قيام ، فرفع مقامه محمد على ، ومنحه رتبة بك

دار الصناعة بالقلعة

ولم يترك محمد على باباً الا طرقه رغبة فى تقوية جيشه الذى تتوقف عليه قوته وعظمته ، فحوّل جزءا عظيماً من قلعة الجبل الى دار صناعة ، حيث كان يشتغل فيها مئات من المصريين فى صب المدافع وصنع معدات الجنود والذخيرة ، وكل ما يلزمهم. وكان يشرف على هؤلاء عمال مهرة أحضرهم محمد على من أوربا لهذا الغرض . وقد تمكن بكل هذه المعدات من اعداد جيش من أعظم جيوش العالم فى ذلك العصر

زيادة الجيش تدريجاً

ولم يتبع فى تأليف الجيش الطريقة التى كان يتبعها فى أعماله الأخرى : أى السرعة ، بل كانت زياداته تدريجية . ففى عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) كان عدد الجيش الجديد ٢٥,٠٠٠ جندى ، وفى عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) عند ما أشعل اليونان نيران حرب استقلالهم بلغ ٩٠,٠٠٠ ، وفى عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) بلغ ١٥٠,٠٠٠ من الجنود النظامية يستعملون ١٠٠ مدفع من مدافع الميدان. وقال كلوت بك فى كتابه على مصر عند كلامه على الجيش ان عدد الجنود المصرية عظم فى عصر محمد على حتى بلغ ٢٧٦,٠٠٠ : منهم ١٣٠,٠٠٠ من الجنود المنتظمة ، و ٤١,٠٠٠ من المرتزقة (الباشبزق) ، و ١٩,٠٠٠ بحرى ، والباقى من المهندسين وغيرهم



القلعة

(منظر عام)

البحرية

أول أسطول — أول أسطول أنشأه محمد على كان أيام حربه مع الوهابيين ، وكان الغرض منهُ نقل العساكر من السواحل المصرية الى بلاد العرب . وقد أفاده فيما بعد ، إذ كان يحافظ بهِ على السفن التجارية الذاهبة الى الشرق من لصوص البحر ، وعلى مر الأيام رأى ضرورة بقاء أسطول فى البحر الأبيض لحماية السفن التجارية من لصوص اليونان

وقبل نشوب حرب اليونان اشترى بعض السفن من البندقية ومرسيليا ، وصنع بعضها الآخر هناك على حسابه . إلاّ أن معظم أسطوله حُطم فى هذه الحرب فى واقعة « نوارين » كما سيأتى بعد فى موضعه

دار الصناعة البحرية — ولما علم محمد على ما للأسطول من الفائدة بعد هذه الواقعة أسس فى عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩ م) دار صناعة بحرية بالاسكندرية ، وبنى فيها مصانع خاصة لفتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصوارى والقلوع وكل ما يلزم للسفن ، وأنشأ فيها أيضاً مدرسة بحرية أعدَّها لتمرين عدد من الشبان المصريين على العلوم والمعارف اللازمة لضباط البحريّة . وكان المنوط بهِ انشاء هذه السفن المهندس البحرى «دى سريزى» أما ادارة المدرسة فكانت فى يد المسيو « بيسون » ، وقد ترقى بعدُ الى رتبة أمير البحر للأسطول المصرى . ورقى هذان الرجلان العمارة البحرية الى درجة جعلتهما فى صف سليمان باشا منظّم الجيش البرى

مقدار الاسطول — وقد بلغ عدد المراكب الحربية فى عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) ثلاثين قطعة تحمل ١٫٣٠٠ مدفعاً ، وفيها من العساكر البحرية من لا يقل عن ١٢٫٠٠٠ جندى

البعث البحرى — وأرسل جملة من التلاميذ لتلقى الفنون البحرية العملية على سطح المراكب الانجليزية

ولم يفته أمر تحصين الشواطئ ، فأنشأ الحصون (الاستحكامات) اللازمة لحفظ السواحل ، مخافة الإغارة على البلاد كما حصل فى عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ، فأحضر لذلك مهندسين حربيين من الأجانب ، وكلفهم اختيار المواقع المهمة من جميع

تحصين السواحل

السواحل المصرية ، وأنشأ بها المعاقل ، ونصب بها المدافع اللازمة والعساكر الكافية .
فتضاعفت بذلك قوة مصر ، وعظم شأنها ، كما يدل على ذلك حروبه التى سنذكرها

ميزانية الحكومة

قد رأينا المشروعات العظيمة التى قام بها محمد على : من اصلاح الزراعة ، وتنمية الصناعة ، ونشر التعليم وترقيته ، وتنظيم الجيش وانشاء البحرية . ويجدر بنا الآن أن ننظر كيف كان يتسنى له جمع المال اللازم لكل هذه المشروعات وتوزيعه عليها . على ان الوقوف على ذلك باليقين ليس بالأمر الهيّن ، لأن دفاتر المالية فى ذلك العهد لم يكن يُعتمد عليها ، ولأن الحكومة المصرية لم تُنشر لها ميزانية سنوية الآ بعد عهد محمد على . الآ أن بعض الأوربيين الذين كانوا بمصر فى ذلك العهد وعُنُوا بهذه الشؤون قدّروا ذلك بوجه تقريبي يساعدنا على تفهُّم الوارد والمنصرف . وقد كانت الميزانية فى أول أمرها صغيرة بالطبع ، لصغر الجيش وعدم اتساع نطاق المشروعات ، وقد قُدّر الدخل لعام ١٢٣٦هـ (١٨٢١ م) بمبلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، والمصروف بأقل من ذلك بيسير . أما فى عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) فكان تقدير الميزانية كما يأتى:

كثرة المشروعات

الميزانية فى ١٨٢١ و ١٨٣٣ م

الايراد	جنيه	المنصرف	جنيه
	٢,٥٠٠,٠٠٠		٢,٠٠٠,٠٠٠
منه : ضريبة الأراضى	١,١٢٥,٠٠٠	منه : للجيش	١,٢٠٠,٠٠٠
« الميزانية الصغيرة » (من تجارة الحاصلات)	٤٥٠,٠٠٠	للبحرية	٤٠٠,٠٠٠
المكوس على الحبوب	١٨٠,٠٠٠		
الرسوم الجمركية	١١٢,٠٠٠		
ضريبة الرءوس (الفِرضة)	٣٥٠,٠٠٠		

ثم نمت بعد ذلك الميزانيـــة ، حتى قُدّر الدخل فى سنة ١٢٥٣ — ٥٤ هـ (١٨٣٨ م) بنحو ٤,٥٠٠,٠٠٠ ، والمصروف بنحو ٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه

و ١٨٣٨ م

٥ — ﴿ حرب اليونان ﴾

تأثير الثورة الفرنسية فى اوربا

بعد سقوط نابليون بونابرت أُبرم تحالف متين بين الروسيا وبروسيا والنمسا (الحلف المقدس) كان الغرض منه المحافظة على عروش الملوك فى أوربا ومقاومة كل ثورة عليهم بحد السيف. غير أن هذه المحالفة لم تُسكن تيار مبادئ الثورة الفرنسية: ذلك التيار الذى لم يكد يعم فرنسا حتى فاض على جميع بقاع أوربا. ففى سنتى ١٢٣٥ و ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ و ١٨٢١ م) شبت ثورات فى جنوبى ايطاليا واسبانيا وبلاد اليونان

خروج اليونان على الترك

على أن الثورة فى بلاد اليونان كان الغرض منها اعلان الحرب على الترك لنيل استقلال داخلى، فكان قيصر الروس بمقتضى ذلك التحالف المتين مضطراً الى محاربة اليونان، مع أن السياسة الروسية كانت من زمن بعيد ترمى الى مساعدة اليونان وكلّ المسيحيين فى شبه جزيرة البلقان على الدولة العثمانية.

موقف الدول الاوربية

أما فرنسا وانجلترة فلم ترَ حكومتاهما موازرة اليونان بالرغم من ميل الأهالى فيهما اليها، وذلك لعدم اضعاف الترك امام الروس. فكانت النتيجة ان اليونان لم تساعدها إِحدى هذه الدول رسمياً، إلاّ بأفراد تطوعوا من تلقاء أنفسهم

حالة الدولة العثمانية

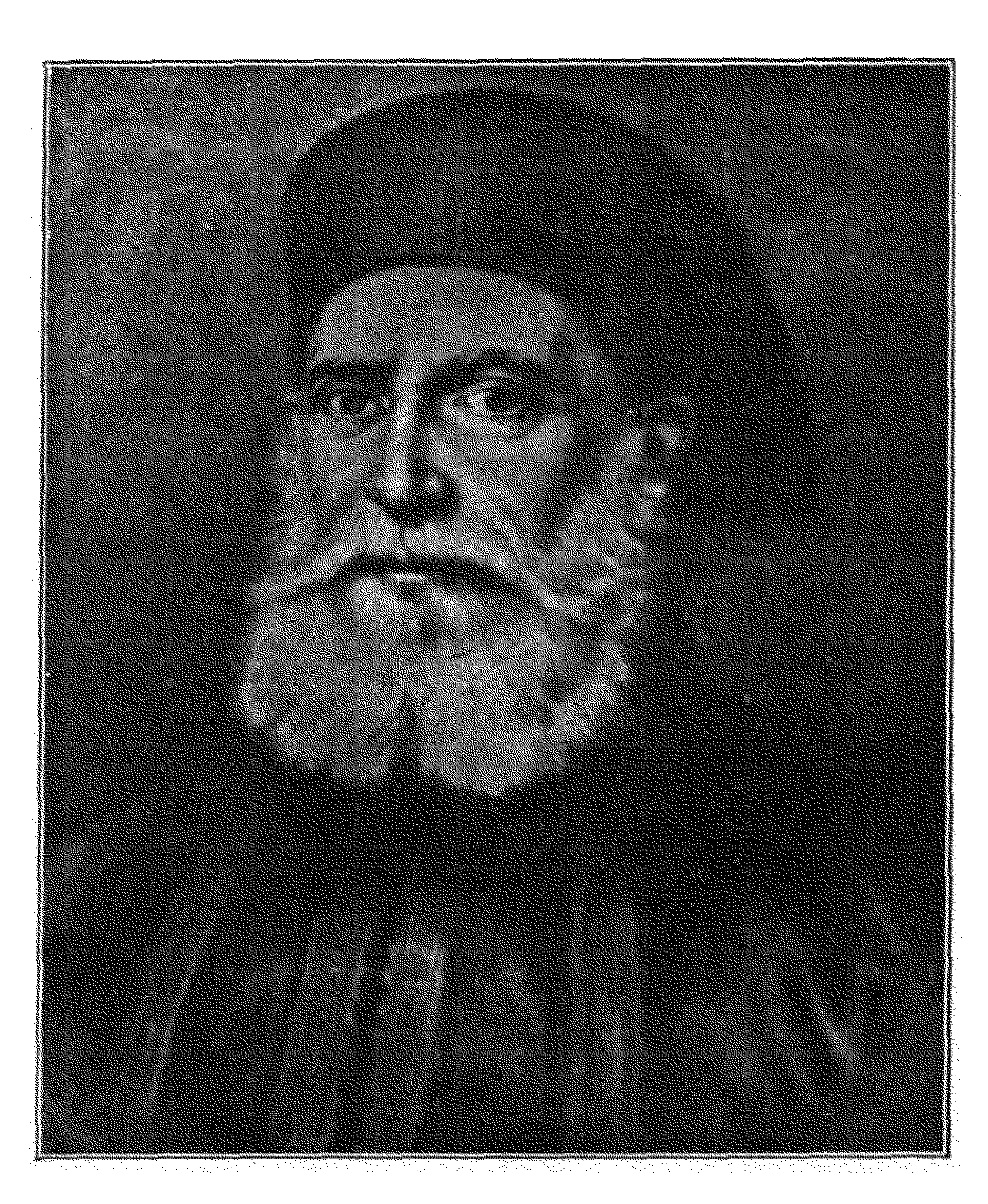
وكانت الدولة العليـة فى هذا الوقت فى منتهى الضعف والانحلال، اذ كان على باشا والى يانينة قد أنهك قواها كما سبق ذكره. هذا الى ان السلطان محموداً الثانى لما رأى ما عليهِ جيشهُ من سوء النظام والاختلال اجتهد فى اصلاحه وتنظيمه على الطرق الحديثة الغربيـة، فثار الجنود بهِ وتألبوا، وأبوا ادخال النظام الجديد (كما حصل فى عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) لمحمد على حينما أراد اصلاح جيشه)؛ فاحتال على قتل العساكر الانكشارية، رأس كل فتنة وسبب كل نكبة نُكبت بها الدولة، فتم له ذلك عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م). فكان قضاؤه عليهم وقت ان كانت الدولة فى حاجة الى جندى واحد، وبذلك أصبح بلا جيش تقريباً

ولما شبت نار الثورة اليونانية، وتفاقم خطبهـا، وكادت تنتهى باستقلال اليونان

بدون مساعدة الدول الأخرى لها ، رأى السلطان محمود الثانى أن يستنجد بمحمد على على قمع الفتنة فى البلاد اليونانية

فنى عام ١٢٣٩ ﻫ (١٨٢٣ م) عيَّن الباب العالى محمد على والياً على جزيرة اقريطش ، فوق ولايته لمصر ، وأصدر اليه الأوامر باخماد الثورة هناك ، فأرسل ابنه ابرهيم باشا ، فهزَم الثوّار فى صيف ذلك العام توليته على اقريطش

وفى سلخ هذا العام (١٨٢٤ م) جعله السلطان والياً على بلاد المورة لإخضاعها . فجهز لذلك جيشاً مؤلفاً من ١٧,٠٠٠ مقاتل بامرة ابرهيم باشا ، وأقلع الجيش من ميناء الاسكندرية فى ذى القعدة سنة ١٢٣٩ ﻫ (يوليه ١٨٢٤ م) . فالتقى الاسطول التركى الذى كان بقيادة خسرو باشا بالعمارة البحرية المصرية فى جزيرة رودس ، الاَّ توليته على المورة



ابراهيم باشا

خروج ابراهيم اليها

أن فوز القائد « بياوليس » اليونانى أجبر العمارتين على الانزواء فى جزيرة اقريطش عدة شهور . ثم تحيَّن ابرهيم باشا الفرص وأفلت من المدمرات اليونانية ، ونزل فى «مُودِن» بالقرب من «نَوارِين» ، * فى شعبان سنة ١٢٤٠ هـ (فبراير ١٨٢٥ م) .

اخضاع المورة

وبعد أشهر قلائل أخضع كل بلاد المورة ، واستولى على أُمهات المدن فيها الاّ « نوبليا » . وكان أهم وقائع هذه الحرب الاستيلاء على « تريبولِتزا » ، اذ فتحها ابرهيم باشا عنوة بعد جهاد عظيم

غزو شمالى اليونان

ولما أمدَّه والده بمدد جديد انتقل الى شمالى بلاد اليونان ليساعد رشيد باشا فى حصار «مِسْوُلُونجى»، وكان هذا يحاصرها من عدة شهور بدون فائدة . فعبر ابراهيم خليج « كورِنْثة » ومعهُ ١٠,٠٠٠ جندى ، واستولى على الجزائر الواقعة عند مدخل ميناء المدينة ، وبنى فيها قلاعاً حصينة ، فأغلق بذلك الميناء . وأتمّ الحصار براً وبحراً حتى لم يعد من الممكن وصولُ المدد اليها بأيّة طريقة ، فسلّمت فى رمضان ١٢٤١ هـ (ابريل سنة ١٨٢٦ م) ، بعد أن خسر الجيش المصرى عليها ٦٠٠٠ جندى ، وخسر الترك ٢٠,٠٠٠

حصار مسولونجى

اسرى اليونان

وفى أثناء ذلك قامت نار الثورة فى بلاد المورة ثانيةً ، فرجع ابراهيم باشا لاطفائها . الاّ أنهُ عامل الأسرى اليونان بالقسوة ، وأرسل ما يقرب من ٥٠٠٠ أسير الى مصر يبعوا بها (على ما قيل) بيع الرقيق

فتح أثينا

وكان رشيد باشا أثنـاء تلك الفترة يحاصر « أثينا » ، وفتحها عنوة بعد المقاومة الشديدة . ثم وجَّه السلطان محمود الثانى ومحمد على جل جهدهما الى تدمير الاسطول اليونانى الراسى عند « هيدرا » ، وكان لا يزال قوياً

استياء انجلترة وفرنسا

ولما علمت الأمة الانجليزية والأمة الفرنسية بما فعله ابراهيم باشا فى بلاد المورة : من تخريب البلاد واستعباد نسائها وأطفالها ، حنقتا عليه . وانتهزت الروسيا هذه الفرصة فبدأت تفاوضهما فى أمر التدخل ، فعُقد لذلك مؤتمر فى لندن فى ٢٩ ذى القعدة

* على الشاطئ الغربى من شبه جزيرة مورة

مؤتمر لندن يقرر التدخل

سنة ١٢٤١ هـ (يوليه سنة ١٨٢٦ م) قرّر ارسال عمارة بحرية من قِبَل الدول الثلاث ، تكون القيادة العامة فيها للقائد الانجليزى (كُـدْرِنجتون)

وكانت انجلترة وفرنسا لا تزالان تحذران ازدياد النفوذ الروسى فى شبه جزيرة البلقان ، فأمرت الحكومة الانجليزية القائد «كُدْرِنجتون» بأن يتجنب محاربة الترك ما أمكنه ذلك ، وان يعمل طاقته لإبرام اتفاق أساسه أن يمنح الخليفة اليونان استقلالاً داخلياً مع بقائها جزءًا من أملاك الدولة العثمانية

مدد جديد للاسطول المصرى

وفى أثناء هذه المفاوضات أرسل محمد على عمارة بحرية لتساعد العمارة التى كانت فى المياه التركية على تحطيم الأسطول اليونانى الذى كان يتوقف عليهِ مصير الحرب . وعند ما وصلت هذه العمارة الى المياه التركية كان القائد «كدرنجتون» قد تمكن من إبرام هدنة مع ابراهيم باشا فى مصلحة اليونان ، وفى أثنائها كانت المفاوضات دائرة بين السلطان و بينه للنظر فى منح اليونان استقلالاً داخلياً كما قدمنا ، فلم يتعرض كدرنجتون لدخول العمارة التركية المصرية فى خليج «نوارين»

عمل اساطيل الحلفاء

وفى اليوم التالى أخبر ابراهيم باشا القائد «كدرنجتون» ان أحد زعماء اليونان (كوكرين) ومن تبعه من مواطنيه يهاجمون «بَتْراس» ، وانه مضطر الى الذهاب الى تخليصها من أيديهم ، فلم يقبل «كدرنجتون» مبارحته خليج نوارين . الاّ أنهُ تمكن من الافلات ببعض سفنه ، وحاولت بقية العمارة اتباعه ، فلم يمكنها ، واضطرت الى الانزواء فى الخليج

ابتداء المناوشات البحرية

عند ذلك أصدر كدرنجتون أوامره الى أسطول المتحالفين بالدخول فى خليج نوارين ، وأن ترسو سفنه على مقربة من العمارة التركية المصرية ، فأراد الترك أن يمنعوه من الدخول فلم يفلحوا . فلما دخلت أساطيل المتحالفين وجدت الأسطول التركى المصرى مصفوفاً داخل الميناء على شكل نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة «سفاكتيرى» عند مدخل الميناء ، وكان يحمل ما لا يقل عن ١٩,٠٠٠ جندى و ٢٠٨٢ مدفعاً تقريباً

واقعة نوارين

ولما رست الأساطيل المحالفة فى الميناء اقتربت احدى الحرّاقات التركية من احدى البوارج الانجليزية ، فأرسلت هذه لها زورقاً يأمرها بالابتعاد ، فكان الجواب ان صوّبت على الزورق ناراً حامية أتت على كل من فيه . فانتشب حينئذٍ القتال ، وتكاثف الدخان حتى أصبح من الصعب الوقوف على ما حصل . الاّ أن « محرم بك » قائد الأسطول المصرى أخبر كدرنجتون أنه لا يريد القتال ، فأخلى له السبيل . لكنه عدل عن فكره الأول وصوّب مدافعه على السفينة الانجليزية « آسيا » ، فاستؤنف

تدمير الاسطول المصرى

القتال ، ولم يمكث طويلاً حتى دمرت سفينته . وظلت الحرب مشتعلة مدة ثلاث ساعات ، فأسفرت النتيجة عن تدمير معظم العمارة المصرية التركية

موقف انجلترة

وتقول الحكومة الانجليزية انها لم تكن تقصد الحرب ، وانها عادت باللائمة على كدرنجتون ، اذ كان غرضها الوحيد من هذه المظاهرة البحرية اجبار الدولة العلية على منح اليونان استقلالاً داخلياً وايقاف القتال بأى حال

أما ابراهيم باشا فلم يكن حاضراً تلك النكبة بل كان فى بلاد المورة يهدىء الأحوال بها ، وقد أصبحت كلها فى قبضته . فلما سمع بهذا الخبر أبرق وأرعد ، فلم يُجْدِه ذلك نفعاً . ولما ثاب الى رشده اختار خطة الدفاع ، فكان حاله فى بلاد المورة كحال نابليون بونابرت فى مصر بعد موقعة بوقير البحرية ، اذ انقطعت بينه و بين أبيه طرق المواصلات

ولم تكن موقعة « نوارين » هذه كافية لاستقلال اليونان ، ولذلك أصبح من المحتم على الحلفاء التدخل فى أمرها . الاّ أنهُ ظهر لانجلترا وفرنسا ان كل تدخل من قبلهما يخفض من شأن الدولة العلية و يزيد النفوذ الروسى ، فاقترح « بالمرستون » وزير خارجية انجلترا فى ذلك الوقت أن يحتل بلاد المورة ستة آلاف من الجنود

فرنسا تحتل المورة

الانجليزية ومثلها من الفرنسيين ، حتى يمنح الباب العالى تلك البلاد استقلالها الداخلى . فأبى البرلمان الانجليزى ذلك ، فقامت فرنسا بالأمر وحدها وأرسلت ١٥,٠٠٠ جندى لتحتل المورة (صفر سنة ١٢٤٤ هـ : اغسطس سنة ١٨٢٨ م)

وعند ذلك ظهر « كدرنجتون » فى المياه المصرية عند الاسكندرية ، وأرجع

بعض السفن التي كانت ذاهبة لمساعدة ابراهيم، ثم ارسل الى محمد على باشا انذاراً نهائياً بتخريب الاسكندرية اذا لم يسرع باستدعاء ابراهيم واخلاء المورة. وبمساعى المستر «بَرْكر» السفير الانجليزى فى مصر تم الاتفاق مع محمد على على اخلاء بلاد المورة بشروط أهمها: —

الانجليز يهددون محمد على

«أن يطلق محمد على سراح الأسرى اليونانيين الذين بيعوا فى مصر، وأن تتخلى الجيوش المصرية عن «المورة» فى أقرب وقت بحيث ينقلهم محمد على على سفنه، وأن يخفر الأسطول الانجليزى السفن المصرية فى ذهابها وايابها، وأن يتعهد «كدرنجتون» بارجاع أسرى المصريين وسفنهم التى أخذت منهم أثناء الحرب»

شروط جلاء الجيوش المصرية

ويقال ان محمد على وافق على هذه الشروط بدون معارضة كبيرة، خصوصاً لما وصله من الأخبار أن الباب العالى أراد أن يقبض على جنوده، اذ أصدر الأوامر الى قائد الأسطول التركى أن يدعو الجنود المصرية الى النزول فى سفنه بدعوى أنهُ يريد نقلهم الى الاسكندرية (وهو مأمور سرًّا أن يرسلهم الى الدردنيل). والسبب فى نصب هذه الأحبولة التى فطن لها ابراهيم باشا وتجنبها أن الباب العالى هاله نجاح محمد على فى «المورة» برًّا، فخشى بأسه وخاف على مُلكه

ارتياب محمد على من الدولة

فأخلى ابراهيم باشا بلاد «المورة» فى ربيع الأول سنة ١٢٤٤ هـ (أكتوبر سنة ١٨٢٨ م). ولما كان السلطان محمود الثانى لا يزال مصمماً على رفض تحرير بلاد اليونان أعلنت عليه الروسيا الحرب سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وهزمت جيوشه فى عدة مواقع فاصلة. فلما رأى السلطان ذلك اضطر الى إِبرام معاهدة «أَدِرْنَة» فى السنة نفسها، وكان من أهم شروطها تحرير بلاد اليونان واستقلالها استقلالاً تاماً

اخلاء المورة

معاهدة ادرنة

٦ — ﴿ حرب الشآم ﴾

بعد أن وضعت حرب اليونان أوزارها، ورجعت الجنود المصرية الى بلادها، طلب محمد على من الباب العالى أن يوليه على عكاء علاوة على ولاية مصر مكافأة له على

اسباب الحرب

١ . عدم مكافأة محمد على — مساعدته فى هذه الحرب ، كما وعده بذلك من قبل ، فرفض طلبه . فلما أعلنت الروسيا الحرب على الدولة فى عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) لم يهتم محمد على باجابة طلب السلطان أن يمد الدولة بجيش مؤلف من ٢٠،٠٠٠ مقاتل و بعمارته البحرية ، اذ رأى أن لا فائدة تعود عليهِ وعلى بلاده من افناء ثروتها ورجالها فى مساعدة دولة تضن بمكافأته على جليل خدماته

٢ . ضعف الدولة — ولاحظ محمد على حينئذٍ ان الأحوال ملائمة لأن ينال بحدّ السيف ما منّاه بهِ الباب العالى ، وانّ هذه أحسن فرصة لديه : اذ كانت الدولة فى هذه الفترة فى منتهى الضعف والانحلال ، لتشتيت السلطان محمود شمل العساكر الانكشارية وفتكه بهم جملةً فى عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) على يد حسين باشا كما قدّمنا ، ولتضعضع الجيوش التركية لما حل بها من الانهزام الأخير على يد الروس فى حرب عام ١٨٢٩ م

ولم يكن أمام محمد على اذ ذاك معارض من دول أوربا العظام ، اذ كان كل منها مشتغلاً بما فى بلاده من الاضطراب والفتن : فكانت فرنسا منهمكةً فى إطفاء نار « ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ » وانجلترا مغلولة اليدين من جرّاء الاضطرابات التى قامت من أجل قانون الاصلاح ، وكانت الثورة مشتعلة فى بلجيكا واسبانيا والبرتغال . أما الروسيا فكانت مشغولة أيضاً باخضاع ثورة « بولندة »

٣ . خسرو باشا — ومما ساعد فى فساد العلائق بين محمد على والدولة ان خسرو باشا كان حينئذٍ اكبر رجال الدولة نفوذاً، اذ كان هو المدبّر للخليفة وقطب السياسة فى القصر السلطانى، ولا يخفى ما فى صدره من الحقد والبغضاء لمحمد على من يوم خلعه عن ولاية الديار المصرية عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) كما سبق آنفاً . فصار همّهُ الوحيد طول حياته ايغار صدر الخليفة على محمد على والعمل على ثل عرشه . وكان له فى ذلك غرضان : الأول أن ينتقم لنفسه منهُ ، والثانى أن يحظى هو بولاية مصر . ولذلك لما نُصّب خسرو أمير البحر للعمارة التركية فى حرب اليونان لم يساعد ابراهيم باشا تمام المساعدة ، بل عمل جهده على إِفناء الجيش المصرى بعد الحرب بالمكيدة التى لم تفلح، كما ذكرنا

٤ . النزاع مع والى عكاء

وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس ، إذ أثقل عاتقه محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع وتجنيده تجنيداً اجبارياً . وقد أثرت هذه العوامل فيه تأثيراً سيئاً ، فكان يهلك من المصريين الآلاف فى حفر الترع وتحت تعذيب محصّلى الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى الى بلاد الشآم هرباً من مظالم الحكام . ورجا محمد على من « عبد الله الجزار » والى عكاء ارجاع كل من هاجر الى مصر ثانية ، فحرضهُ خسرو باشا على ألاّ يجيب طلبه . ولما لم تجدِ مساعى محمد على عند والى عكاء هدّده باعلان الحرب عليهِ . وزيادة على ما سبق كان عبد الله الجزار قد شجع المصريين على نقل حاصلات الوجه القبلى بطريق صحراء سورية بدلاً من تصديرها عن طريق الاسكندرية ، فكان ذلك مضراً بمصالح محمد على

عند ذلك لجأ عبد الله الجزار الى الباب العالى ليوقف محمد على عند حدوده ، وأن لا يتدخل فى شؤون ولاية عكاء . فأرسل الباب العالى الى محمد على بأن المصريين ليسوا عبيده ، بل هم أحرار يسكنون أنّى شاءوا ، وفى أى جزء من أجزاء الدولة أرادوا

٥ . تدخل محمد على فى الجزائر

وفى هذه الآونة جرت مفاوضات بين رئيس الوزارة الفرنسية ومحمد على بشأن غزو بلاد الجزائر بأسطول فرنسى مصرى ، فاقترح محمد على على فرنسا أن تسلمه أسطولها ليكون بقيادته ويتعهد هو باخضاع «داى» الجزائر ، فلم تقبل فرنسا ذلك . وخاف أيضاً محمد على من أن تفتح فرنسا الجزائر ، فتمتد الفتوح الفرنسية شرقاً وتكون خطراً على مصر . هذا الى أن ولنجتون الانجليزى أعلنهُ أن أى تدخل منهُ فى أمر بلاد الجزائر يكون مدعاة الى خلعه . ولما علم الباب العالى بذلك حضّ محمد على أيضاً على عدم التدخل فى هذا الأمر ، وهدده بالخلع ، ثم عَلِمَ محمد على بعد ذلك أن السلطان على وشك أن يخلعه لما سبق ، فأعلن الحرب عليهِ خوفاً على ضياع ملكه

اعداد الحملة

ابتدأ محمد على فى أعداد الحملة لذلك فى أواخر سنة ١٢٤٦ هـ ، الاّ أنها تأخرت

الى جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ (نوفمبر ١٨٣١ م) لتفشى الهيضة (الكلرا) فى مصر وفتكها بالناس فتكاً ذريعاً

خروجها فسار الجيش البرى من الطريق القديم مجتازاً الصحراء الى العريش ، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين والأربعين ألف مقاتل . وكان مؤلفاً من ست فرق من المشاة وأربع من الخيالة وقوة كافية من المدفعية . أما الأسطول فانهُ كان يحمل المدافع الضخمة والذخيرة ويقل ابراهيم باشا وأركان حربه ، وبينهم البطل العظيم « سليمان باشا الفرنسى »

فتح غزة ويافا زحف الجيش البرى فى أوائل شهر نوفمبر ، فاستولى على غزة ويافا بدون أدنى مقاومة . وفى هذا الميناء اجتمع الجيش بالأسطول ، ثم تولى ابراهيم باشا قيادة الجيش وزحف على عكاء ، حيث اجتمعت جموع عبد الله الجزار . وكان غرض هذا أن يقهر ابرهيم ويرده على عقبيه كما فعل ذلك من قبل « احمد باشا الجزار » مع نابليون ، ولكن فاتهُ ان احمد باشا الجزار كان يساعده أسطول السير سدنى سمث من جهة البحر . ومع عظم جيش ابراهيم وحسن استعداده قد دافع عبد الله الجزار عن المدينة دفاعاً شديداً مدة ستة أشهر حاول فى خلالها عثمان باشا والى حلب أن يُخلص حامية

فتح عكاء عكاء ، الاّ أن ابراهيم باشا داهمهُ فى الطريق وهزمهُ هزيمة منكرة . وبعد ذلك سقطت عكاء فى يده فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (مايو ١٨٣٢ م) ، وأُسر عبد الله الجزار ومَنْ معهُ وأرسلوا الى الاسكندرية

عزل محمد على وفى أثناء حصار عكاء أصدر الباب العالى أمراً فى أول ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (٢ مايو سنة ١٨٣٢م) يقضى بعزل محمد على عن الديار المصرية وجزيرة اقريطش (كريد) ، وتولية حسين باشا (مبيد الانكشارية) عليها ، وتسليمه قيادة الجيش الذى سيَّره على محمد على . الاّ ان ذلك كان على غير رغبة خسرو باشا اذ كان غرضه

خيانة خسرو من عزل محمد على أن يكون هو خلفه . على أنه قد نظّم الجيش على الطريقة الغربية عدة سنوات ليكون هو القائد له فى ساحة القتال ، وبذل جل طاقته ليحصل على

قصده، فلم يصغ له الباب العالى . فلما خابت كل أمانيهِ عزم على أن يعرقل مساعى حسين باشا ويفسد عليه كل خططه ، وساعده على ذلك أنه كان وزيراً للحربية فى هذه الآونة . فلما اجتمعت الجيوش فى «أذَنَة» (أطَنَة) ، وكان عددهم ٤٥,٠٠٠ أبوا الاذعان لأوامر حسين باشا (بتحريض من خسرو) ونبذوا كل نظام أراده

فتح دمشق — وبعد سقوط عكاء سار ابراهيم باشا بجيشه الى «دمشق» ، فسلّمت اليهِ بدون مقاومة ، وكان ذلك فى ١٦ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ (١٥ يونيه سنة ١٨٣٢ م)

وحمص — ثم زحف على «حمص» حيث التقى بمحمد باشا والى طرابلس يقود نحواً من ٣٠,٠٠٠ مقاتل (وكانوا مقدمة الجيش التركى) ، وذلك فى ٩ صفر سنة ١٢٤٨ هـ (٨ يوليه سنة ١٨٣٢م) فلم ينتظر محمد باشا لسوء تدبيره تلاحق الجيش التركى الذى يقوده حسين باشا شمالى هذه النقطة بنحو ٥٠ ميلاً ، بل هاجم جيش ابراهيم ، فهزمهُ ابراهيم شرّ هزيمة وأخذ منه كل ما لديهِ من الذخيرة والميرة وألفى أسير وستة وثلاثين مدفعا . وبذلك أصبحت جلّ بلاد الشام فى يد ابراهيم . ولما علمت القبائل المجاورة بانتصارات ابراهيم باشا أرسلت اليهِ وفود المهنئين ، ووعدته بالمساعدة

مساعدة القبائل لابراهيم

فتح حلب — أما حسين باشا فانهُ كان قاصداً حلب ، فلما علم أهل البلدة بهزيمة الجيش العثمانى أغلقوا أبوابها فى وجهه ، فاضطر الى التقهقر الى اسكندرونة حيث يرسو الأسطول العثمانى . أما ابراهيم باشا فانهُ دخل حلب بدون عنـاء ولا مقاومة فى ١٨ صفر (١٧ يوليه) ثم اقتفى أثر الجيش التركى ، فوجده محتمياً فى مضيق «بيلان» (بين حلب والاسكندرونة) ، فهاجمه وشتّت شمله . وذلك فى أول ربيع الأول (٢٩ يوليه) . وكانت نتيجـة هذه الهزيمة أن غادر الأسطول العثمانى الاسكندرونة

واقعة بيلان

فتح أذنة — وفى الحال أرسل ابراهيم باشا ابن أخيهِ عباساً ليحتل بلدة أذَنة خلف «جبال طوروس» ، وبذلك استولى ابراهيم باشا فى مدة لا تتجاوز سبعة أشهر على كل بلاد سورية

قدر ابراهيم باشا وسليمان باشا — وقد عدَّ ابراهيم باشا فى الطبقة الأولى من قوّاد ذلك العصر بما أظهره من الحذق

والدراية بالفنون الحربية . ولا يفوتنا أن نعطى سليمان باشا الفرنسى (رئيس أركان حربه) نصيبه من الفخر فى هذه الحروب . اذ كان فى هذه الوقائع سيفه القاطع وعضده المتين



سليمان باشا الفرنساوى فى حضرة محمد على باشا وابراهيم باشا

أما حسين باشا فانه نُفى الى نهر الطونة بعد أن ألقى خسرو باشا كل اللوم على عاتقه . وطلب خسرو ثانية من الباب العالى أن يوليه قيادة الجيش و يمنحه ولاية مصر ،

فأبى السلطان عليه ذلك وعهد بقيادة الجيش الى «رشيد محمد باشا» وهو أحد رجال الدولة العظام : اشترك مع ابراهيم باشا فى حرب « المورة » وخاصة فى حصار «مسولونجى» واشتهر بعدها بمحاربة مصطفى باشا والى أشقودرة عند خروجه على الدولة . فعزم خسرو على احباط مساعى مُناظره الجديد كما قضى على حسين باشا وجيشه من قَبل رشيد باشا

ويظهر أن خسرو كان يعتقد ان من مصالح دول أوربا المحافظة على كيان الدولة العلية ، فكان لا يهمه هزيمة جيش حسين باشا أو القضاء على جنود رشيد باشا أمام جيش محمد على ، اذ كان على يقين أن الدول العظام لا تسمح لمحمد على أن يجنى ثمار انتصاراته . ولا غرابة ، فقد أحس محمد على بخطر تدخل الدول ، ورحّب بالصلح عند ما كان جيش ابراهيم فى أطنة ، غير انه طلب من السلطان ولاية سورية فلم يقبل

وفى هذه الأثناء طلب ابراهيم باشا من والده المدد ، فسيّر له جيشاً مؤلفاً من ٥٠،٠٠٠ مقاتل ، وأمره بمواصلة القتال والزحف ، فتقدم فى زحفه حتى وصل الى « قونية » . وفى خلال ذلك جمع رشيد باشا جموعه عند « اخشير » (شمالى قونية) مدد جديد لابراهيم

وكانت الدولة وعدته أن تمده بعساكر البشناقيين هناك ، فخندق عند اخشير وعزم على انتظار هجوم المصريين فى هذا المكان ، غير أن خسرو باشا لم يرسل له المدد واستبقاه فى القسطنطينية ، محتجاً بأن ما لديهِ من الجند كاف للتنكيل بجيش محمد على ، ثم سعى فى ارسال الأوامر الى رشيد بالإسراع فى مهاجمة المصريين خوفاً من تدخل الروسيا . فأمر السلطان رشيد باشا بالهجوم على المصريين فحاول رشيد باشا اقناع السلطان أنه ليس لديهِ مئونة فى اخشير ، وأن الجيش فى حالة يرثى لها قلة استعداد رشيد باشا

وفى أثناء هذه الأزمة وصل « الكونت مورافييف » الروسى الى القسطنطينية فى خدمة خاصة ، فساعد خسرو فى آرائه ، فكانت النتيجة ان رشيد باشا لم يُجَب الى طلبه وتُرِكَ للقضاء والقدر

على أن الجيش المصرى كان فى حالة صعبة جداً لما كان يقاسيهِ من البرد ، ولو انتظر رشيد باشا قليلاً لاضطر ابراهيم الى التقهقر ، ولكنه عجل بمناجزته حسب تعجيل رشيد بالقتال

أوامر السلطان . وكان جيش ابراهيم حينئذٍ لا يتجاوز الثلاثين ألف مقاتل

واقعة قونية

وبعد أن تأهب الجيشان تقدم الجيش العثمانى الى الأمام ، أما الجيش المصرى فمكث فى مكانه لا يبدى حراكاً ، وكان الضباب الكثيف الكثير الانتشار فى بلاد الأناضول وفى مثل هذا الشهر خاصة ، سادلاً أستاره على الجيشين ومخفياً كلاً منهما عن عين الآخر ، ولذلك لم يبدأ ابراهيم باشا بالضرب كى لا يعرف العدو مكانه . أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة ٤٠٠ متر ابتدأ باطلاق النار ، فعلم ابراهيم باشا وسليمان باشا ترتيب الجيش العثمانى ، وتفريق مدفعيتهم . ثم شاهد أيضاً سليمان باشا أن المشاة العثمانية انفصلت بسبب الضباب عن الفرسان ، فأمر المشاة المصرية بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما ورجوعهما الى ما كانا عليهِ من الالتئام . ولقد أوقعت هذه الحركة الرعب والفزع فى قلوب الترك ، وأخذتهم الدهشة ، الى أن فاجأتهم الفرسان المصرية ، واعملت فى فرسانهم السيف فبددت شملهم ، ووجهت المدفعية المصرية نارها على مشاة الترك فحصدتها حصداً . ولما رأى رشيد باشا أن لا مناص من الهزيمة اجتهد ان يستجمع جناح جيشه الأيسر فلم يفلح ، ووقع اسيراً فى يد المصريين ، فجاءوا بهِ الى ابراهيم باشا . ولما علم الجيش بأسر قائدهم ولوا الادبار ، وبذلك انتهت واقعة « قونية » الفاصلة (٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨هـ: ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ م)

فتح اكثر الأناضول

وقد فرح سكان آسيا الصغرى فرحاً عظيماً بانتصارات ابراهيم . أما هو فتقدم بجيشه الى « كوتاهية » غربى « اخشير » وهدد « بروسة » ، فى الوقت الذى كان فيه بعض جنوده وعماله قد أخضعوا اكثر بلاد الأناضول . وأصبح اسمه ذا تأثير عظيم فى قلوب القوم ، حتى ان اربعة من جنده وضابطاً واحداً استولوا على مدينة « أزمير » العظيمة *

---

* ثم عادت الجنود العثمانية فاحتلتها لعدم ارسال ابراهيم باشا ما يكفى من الجند للاحتفاظ بها . وقد ذكرنا الحادثة ايضاحاً لمقدار تأثير صيت ابراهيم باشا

ولما وصلت أخبار هذه الهزيمة الى الاستانة حنق الباب العالى وخاف من ضياع ملكه ، لأن بلاد آسيا الصغرى تُعتبر قلب الدولة وحصنها المكين

فزع الباب العالى

عند ذلك مدَّت الروسيا يد المساعدة للدولة العثمانية ، فطلبت من الباب العالى أن يسمح لهـا أن ترسل له قوة بحرية وأخرى برية لمساعدته ، الاّ أن السلطان محموداً الثانى توانى فى قبول ذلك ، وفاوض محمد على فى شروط الصلح ، فلم يرض الاّ بكل بلاد سورية وولاية « أذَنَة » (أطنة) . وفى هذا الحين أرسلت الروسيا القائد « مورافْييف » يلتمس من محمد على بكل وداد واحترام ايقاف ابراهيم عن الزحف على الاستانة

روسيا تمد يد المساعدة

وأما بقية الدول العظام فقد أزعجها تدخُّل الروسيا ، فاستفسر « الكونت بروكِش أومْتين » سفير النمسا فى مصر من محمد على عن أغراضه ، واجتهدت انجلترة وفرنسا فى ايقاف زحف ابراهيم ، ونصحتا للباب العالى أن يتنازل عن صيداء وعكاء ونابلس وبيت المقدس الى محمد على . الاّ أن هذا أبى الاّ كل بلاد سورية وأذنة ، وأمر ابراهيم بالزحف على الاستانة . وذلك بتحريض من فرنسا ، لأنها رغم اتفاق سفيرها مع السفير الانجليزى فى الاستانة كانت تعمل فى الخفـاء مع محمد على ، وتشجّعه بتوسط سفيرها فى القاهرة ؛ رغبة فى ازدياد نفوذها فى البلاد المصرية

خوف الدول من روسيا

فلما احتل ابراهيم باشا « كوتاهية » (فبراير سنة ١٨٣٣ م) اضطر الباب العالى الى طلب المساعدة من الروسيا رسمياً ، فأرسلت له جيشاً مؤلفاً من ١٢,٠٠٠ مقاتل تساعده عمارة بحرية ، وعسكر الجيش على الشاطئ الأسيوى عند « أنكيار سكلِسى » « هُنكار إسكِلَة سى » على البسفور . فأقلق تدخل الروسيا بال فرنسا وانجلترة ، فشدّدتا على الباب العالى فى الاتفاق مع محمد على ، فأبرم معه اتفاق « كوتاهية » فى ذى الحجة سنة ١٢٤٨ هـ (مايو سنة ١٨٣٣ م) . وبهِ ولّى الباب العالى محمد على بلاد سورية ، وجعل ابراهيم باشا مُحصّلاً لولاية أذنة وعلى ذلك تمّ الصلح واطمأن خاطر انجلترة وفرنسا من جهة روسيا

المدد الروسى

تدخل الدول

معاهدة كوتاهية

معاهدة هنكار اسكله سي

أما قيصر روسيا فانه لم يقف عند ذلك الحد ، بل اجتهد فى اقناع السلطان ان كيان دولته يتوقف على مساعدة الروسيا لها ومحالفتها اياها . فاقتنع بذلك لما رآه من خذل الدول الغربية له ، وأبرم معاهدة هجومية دفاعية مع الروسيا تُعرف بمعاهدة «انكيار سكلسى» (هنكار اسكله سى) فى صفر سنة ١٢٤٩ هـ (يونيه ١٨٣٣ م) . وأهم شروطها أن تتعهد روسيا بحماية البلاد العثمانية من إغارة أى دولة ، وفى مقابل ذلك تتعهد الترك باغلاق الدردنيل فى وجه أساطيل جميع الدول . وكان إبرام هذه المعاهدة سراً بدون علم الدول الأخرى

حكومة محمد على فى بلاد الشام وغزوته الثانية لها

اتفاق كوتاهية غير دائم

لم يكن اتفاق كوتاهية حلاً نهائياً للنزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على ، اذ كان هذا من جهة يعتقد ان حكمه فى كل الولايات التى تحت سلطته لم يكن الا لأجل محدود ، وكان على يقين أن الباب العالى لا بد أن ينزعها من يده متى سمحت له قوته وساعدته الأحوال ، وان ما امتلكه بحد السيف لا بد له أن يعمل جهده ليحافظ على كيانه بحد السيف أيضاً . فأفلح فى إثارة نار الفتنة فى بلاد البانيا ، وكان يدس الدسائس فى الاستانة لخلع محمود الثانى وتولية ابنه عبد المجيد مكانه . ومن جهة اخرى كانت الاشاعات تتواتر ان السلطان يريد الاستفادة من معاهدة « انكيار سكلسى » بإعلان الحرب على محمد على . وكانت الفرص مساعدة للسلطان ، إذ تألب معظم أهل الشام على ابرهيم باشا ، وثاروا فى وجهه ،

وابتدأ تذمرهم منهُ فى ربيع عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م)

تذمر السوريين من ابراهيم

والسبب فى ذلك يرجع الى عسف حكومته وظلمها ، اذ اتضح جلياً لأهل الشام أن حكومة الباب العالى كانت أقل ظلماً واحسن حالاً من حكومة محمد على . وقد ذكرنا آنفاً أنهُ لما دخل ابراهيم باشا بلادالشام قابله الأهالى بالتهلل والاستبشار والتفوا حوله ، وانما كان ذلك يرجع الى أمرين :

سرورهم منه في أول الأمر

الأول عدم ميل الأهالى الى السلطان محمود الثانى من جراء المصائب التى انصبّت على الدولة العثمانية فى مدته ولا سيما ابرامه لمعاهدة « أدرنة » التى اعتبرتها الأمة من أعظم النكبات التى انتابت الدولة

والثانى قسوة الأحكام التركية منذ فارقها الفرنسيون سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م)، لأنها قبل حملة نابليون عليها كانت تتمتع بشبه استقلال، ولكن بعد الحملة قررت الدولة عليها الضرائب الفادحة، وأبقت الجنود التى أرسلتها لطرد الفرنسيين فى البلاد يعيثون فيها فساداً

اصلاحات ابراهيم باشا فى الشام

فلا غرابة بعدئذٍ أن يستقبل أهلُ الشام ابراهيم باشا بكل فرح وابتهاج، لأنهُ أدخل بعض اصلاحات فى بادئ الأمر كانت مفيدة له وللبلاد. اذ صرف معظم السنتين الأوليين فى درس أحوال الشام، وفى توطيد عرى التحالف بينهُ وبين القبائل القوية التى يُنتظر أن يركن اليها عند الحاجة فى تنظيم قوَّة حربية يعتمد عليها فى اخماد نار الفتن الداخلية، أو صد هجمات الدولة حال اعلانها الحرب عليهِ. وقد جعل الحاكم العام على البلاد الشاميــة « شريف باشا » أحد أقربائه، وكان ذا أخلاق فاضلة وخبرة فى الأمور السياسية: وجعل « حنا بحرى » أحــد السوريين مساعداً له فى ادارة الشؤون المالية، وكان ذا حذق ومهارة فى ذلك. ثم ساوى بين كل الديانات أمام القانون: لا فرق بين المسلم والمسيحى، وعقد فى كل بلدة من أمهات البلاد مجلساً كانت تُنتخب أعضاؤه من المسلمين والمسيحيين على السواء. وكل هذه المجالس كانت تحت سيطرة « مجلس المشاورة » فى عكاء، اذ كان بمثابة محكمة عليا: تتسلم دخل البلاد، وتولّى الحكام، وتخابر الحكومة الرئيسية فى مصر

اسباب تذمر السوريين

وبعد أن وضع ابراهيم هذه الأنظمة رأى أن لا بد لضمان سير الأحوال على ما يروم من جيش عظيم يعوّل عليهِ، وأن يكون له موارد للثروة يستقى منها. فأول عمل قام بهِ للحصول على المال أن احتكر جميع أصناف الحرير وبعض المواد الأخرى، وسخر الأهالى واكرههم على زرع الحاصلات التى لا غنى للبلاد عنها كالحبوب، وعلى

غرس النباتات التى تلائم طبيعتها . فكان من نتائج ذلك مهاجرة الأهلين الى بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى ، كما هاجر أهل مصر عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وكان سبباً من أسباب حربه الأولى مع الدولة

ثلاثة أوامر شديدة

وفى أثناء سير الأحوال فى البلاد الشامية أصدر محمد على باشا ثلاثة أوامر لابنهِ ابراهيم وهى : (١) أن يضرب الجزية (الفرضة) على كل فرد بدون تمييز بين الجنسية والديانة (٢) أن يجنّد جيشاً من البلاد بالإجبار ، وأن يأخذ كل ما يحتاج اليهِ هذا الجيش من الحيوان (٣) أن ينزع السلاح من كل السكان

ومن الغريب أن هذه الأوامر كلها صدرت دفعة واحدة ، فكانت النتيجة أن تذمّر الأهالى وثاروا فى عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٥م) وأحدثوا فتنة تفاقم خطبُها وامتد لهيبها فى طول البلاد وعرضها . وكان أهم ما دعاهم الى العصيان نزع السلاح منهم ، غير أن ابراهيم باشا استطاع أن يخضع العصاة فى دمشق وحلب وما جاورهما من البلاد بدون عناء

سفر محمد على الى الشام

أما فى طرابلس وعكاء وجبال لبنان ونابُلُس (التابعة لولاية دمشق) فقد قاومه الثائرون فيها مقاومة عنيفة ، حتى أن محمد على لما علم بحرج مركز ابراهيم باشا أعدَّ كل ما يمكن جمعه من الجند والذخيرة وسار بنفسه الى مساعدته . فنزل فى يافا ، وبحذقه ومهارته تمكن من ضم سبعة من رءوس الثوّار اليه فى مدة وجيزة ، ثم حارب اهالى نابلس ، ودخل بلدهم دخول المنتصر وفى هذه الأثناء ثارت طائفة النُصَيريّة (١) فأخضعها المصريون سريعاً ، إلاَّ أن الدروز ، والمارونية (٢) استمروا فى مقاومة الجنود

اطفاء الفتنة

المصرية حتى رجب سنة ١٢٥٢ هـ (اكتوبر سنة ١٨٣٦ م) اذ تمكن فيهِ ابراهيم باشا ومحالفهُ الأمير بشير الشهابى (٣) والى لبنان من اخضاعهم ونزع السلاح منهم ، فى أقل من ستة عشر شهراً

---

(١) طائفة قريبة من الاسماعيلية فى المذهب تقطن الجبل بين لبنان ونهر العاصى

(٢) طائفة مسيحية تقطن لبنان تابعة لكنيسة رومية ظاهراً لكنها محافظة على تقاليدها القومية

(٣) هو رأس بيت عربى يزعم انتماءه الى قريش ، وقد تنصر بشير هذا وتبعه بعض أهل بيته ليتولى زعامة نصارى لبنان (وهم اكثر قطانه)

ومن ذلك الحين ابتدأ الأهالى فى الشام ينفرون من محمد على ، وينظرون اليهِ بعين العداوة والبغضاء ، ولا سيما بعد ان بدَّل بالحكام الملكيين غيرهم من الجيش ، ونشَر عساكره فى جميع أنحاء البلاد

ولا يفوتنا أن نذكر ان إخضاع الثورات الداخلية فى الشام (التى تبلغ مساحتها أربعة أمثال مساحة مصر الزراعية) ، وجلْب الجنود اليها وما يلزمهم من البلاد المصرية ، كل ذلك أثقل عاتق الحكومة المصرية وسبّب ازمة مالية سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م)

الدول ضد المعتدى

وفى أثناء هذه الفتن الداخلية فى بلاد الشام كان السلطان محمود الثانى يريد منازلة محمد على ، آملاً استرجاع ما فقد ، ففى سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٤ م) احتج على دول اوربا العِظام التى كانت تمنعه عن الدخول فى الحرب مع خصمه محمد على لتخليص رعاياه من ظلمه . فلما علم محمد على بنية الباب العالى أعلن للدول انهُ اذا ظهر الاسطول العثمانى فى جنوب جزيرة رودس فانهُ لا يرى مندوحة من مهاجمته واعلان عدم الطاعة والاذعان للخليفة . فصرحت الدول العظام بأنها ستكون ضد المعتدى ، ولذلك خاف كل من الفريقين ، وأُجّل اعلان الحرب مدة ست سنوات . ولكن بالرغم من كل ذلك بقى كلا الجانبين يستعد للحرب

خوف روسيا من الدول

أما الروسيا التى كان الباب العالى يعتمد على مساعدتها فإنها أحجمت عن الخوض فى هذا المشروع الذى لم تتحقق من حسن عواقبه ، لأن قيصر الروس ابتدأ يدرك انهُ اذا شرع فى انفاذ شروط معاهدة هنكار اسكله‌سى قامت فى وجهه دول أوربا وأخضعتهُ بحد السيف . فان دول اوربا الكبرى وخاصة انجلترة وفرنسا والنمسا كانت تحذر تدخل الروسيا ، وأخذت على عاتقها أن تمنع استنجاد الدولة العلية بها ، سواء أكان الاعتداء من السلطان على محمد على أم من محمد على عليهِ

الدولة تريد الحرب

ومما شجع الباب العالى الأخبار التى كانت تأتيهِ عن تمرد أهل الشام وعدم رضاهم بحكم ابراهيم باشا ، وعن انهزام المصريين شر هزيمة أمام عرب « حوران » فى سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) ، ولذلك ابتدأ فى استعداده البرى والبحرى بهمة جديدة

وكان محمد على فى هذه الأثناء فى رحلته الى بلاد السودان (١٢٥٤ هـ : ١٨٣٨م) ليقف على حقيقة كنوز الذهب التى كان يمنّى نفسه أن يستعين بهـا على شن الغارة على السلطان اذا اضطره الحال الى ذلك

خوف الدول

وفى ذى القعدة سنة ١٢٥٤ هـ (يناير سنة ١٨٣٩ م) عقد الباب العالى مجلساً حربياً قرر فيهِ تجهيز ٨٠،٠٠٠ جندى بقيادة حافظ باشا . فلما علم سفراء الدول بذلك اضطربوا وخافوا من ضياع الدولة ، لأن فرنسا وانجلترة والنمسا كانت لا تزال تخاف من تدخل الروسيا تنفيذاً لمعاهدة هنكار اسكله سى

الدولة تقرر الحرب

وفى ٢٢ يناير عقد الباب العالى مجلساً آخر لتقرير الحرب أو السلم انتهى بتقرير محمود الثانى أخيراً اعلان الحرب ، وذلك لأن حافظ باشا كان يمنّيه بالنصر ، ورشيد باشا (الذى كان فى هذه الآونة قائماً بتأدية مأمورية خاصة فى باريس ولندن) صرح للباب العالى خطأً أن كلاً من انجلترة وفرنسا لا تتعرضان للسلطان اذا هو هاجم محمد على

منشور محمد على الى سفراء الدول

قفل محمد على راجعاً من سنار عند ما علم من عباس بن طوسون (وكان نائباً عنهُ فى مصر) بالاستعدادات الحربية التى كانت قائمة على قدم وساق فى القسطنطينية ، ولما وصل الى القاهرة كتب منشوراً وأرسله الى جميع سفراء الدول معلناً فيهِ انهُ برىء من كل هذه المشاكل ، وان لا بد له من مقابلة القوة بالقوة . ولما وصل هذا المنشور الى يد السلطان احتدم غيظاً وشدد فى الإسراع بتجديد الحملة ، ومن فرط حنقه قال : « انى أفضل الموت على التراخى فى اخضاع هذا العاصى »

انجلترة تنذر محمد على

أما محمد على فانهُ أراد أن يداهم الدولة قبل ان تتم اعداد جيشها الذى كان يقوم بأمر تنظيمه القائد « فون مُلتِك » وضباط آخرون من الالمان . وحدث ان الحكومة الانجليزية أبرمت مع الدولة فى ذلك الحين معاهدة تجارية تتعلق بجميع ممالك الدولة ، فكانت ضربة قاضية على آمال محمد على التجارية لأنهُ كان محتكراً كل التجـارة المصرية كما سبق . فلما علم بذلك محمد على هَدَّدَ الدولة باعلان استقلاله . ولو تمّ له

ذلك لكان الضربة القاضية على الباب العالى، اذ كان فى ذلك نزعُ سيادته الاسمية والفعلية حتى من بلاد الحجاز مصدر زعامته الدينية. الاَّ ان الحكومة الانجليزية أنذرت محمد على بواسطة سفيرها فى مصر المستر «كَمْبِل» انهُ إِذا شرع فى ذلك كانت انجلترة خصمه

وتحذر الدولة

وحذرت انجلترة الباب العالى ايضاً، وأظهرت له انهـا لا تساعده اذا كان هو المعتدى، ولا تتحمل شيئاً من نتائج هذه الحرب. أما اذا اعتدى محمد على فإِنهـا تأخذ بناصر الدولة. ولذلك خاف كل منهما أن يبتدئ بالعداء. الاَّ أن شدة بغض محمود الثانى لمحمد على جعلتهُ يهاجمهُ أولاً، ولذلك عند ما طالب محمد على أن يكون لخلفه حق الوراثة لجميع الولايات التى تحت سلطته من بعده أعلن السلطان ان محمد على خائن للخليفة، وأرسل الجيش لاخضاعه

الدولة تعلن الحرب

واقعة نصيبين

تجمع الجيش التركى عنـد «سيواس» بقيادة حافظ باشا، ثم زحف الى جهة الجنوب حتى وصل نهر الفرات عند بلدة صغيرة تسمى «بيرجِك» على الضفة اليسرى منهُ، ثم وصلت الأوامر الى حافظ باشا بأن يجتاز النهر وينتقل الى الشاطئ الأيمن

فلما وصل هذا الخبر الى ابراهيم باشا أرسل الى والده يخبره بذلك، فأمدَّه بالذخيرة وجيش بقيادة احمد باشا «المنكلى» ناظر الحربية المصرية. وكان ابراهيم باشا فى هذا الحين بمدينة حَلَب لقُربها من الحدود الشمالية، ووفرة المؤونة فيها، ثم سار من هذه البلدة قاصداً «نَصِيبِين» (بلدة على نهر الفرات)، وكان قد علم ان الجيش التركى عسكر فيها، وانهُ حصلت بعض مناوشات بين الباش بزق السلطانية وبين فرسان العرب عند «تل باشر» جعلت سليمان باشا الفرنسى يهتدى أثناءهـا الى التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيبين، وتبيَّن له انهُ يتعذر مهاجمتها من هذه الجهة، ففكر ابراهيم باشا وسليمان باشا فى الدوران حول نصيبين ليهاجموها من الجهة التى لم يحصنها الترك

عند ذلك أشار القائد «ملتك» ومن معهُ من الضباط الالمان على حافظ باشا

انهزام الترك

أن يهاجم المصريين أثناء سيرهم غير متأهبين للحرب ، فلم يقبل حافظ باشا ذلك ، فدار ابراهيم باشا بجيشه وهاجم الجيش التركى . وبالرغم من محاولة بعض الفرق الشامية من جيش ابراهيم الانضمام الى جيش الترك شتت الجيش المصرى شملهُ فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ هـ (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ م) . وكانت خسائر الترك فادحة جداً حتى أصبح السلطان فى الحقيقة بلا جيش ، ومن حسن حظ الخليفة محمود انهُ مات قبل أن يصل خبر هذه الهزيمة الى القسطنطينية بعدة أيام . وهكذا أصبحت الدولة العلية للمرة الثانية تحت رحمة محمد على

تولية السلطان عبد المجيد

ولما تولى الخلافة السلطان «عبد المجيد» كان سنه اذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة ، فتسلم خسرو باشا منصب الصدارة العظمى ، وكان قبل ذلك مغضوباً عليهِ . ولما علم بذلك احمد باشا فوزى أمير البحر التركي (وكان خسرو باشا من أشد أعدائه) حزن حزناً شديداً وصمم على تسليم العمارة البحرية الى محمد على ، بدعوى انهُ خائف على حياته من خسرو ، وانهُ ربما اغتاله كما اغتال السلطان محموداً الثانى (حسب اعتقاده) ، وأظهر أن لا بد من عزله لسلامة الدولة ، وقد صرح برأيه هذا الى القبودان «ووكر» الانجليزى مساعده

خسرو يتولى الصدارة

فأقلع بأسطوله من الدردنيل ، وكانت مأموريته فى هذا الحين أن يساعد حافظ باشا من جهة البحر ، فالتقى فى أثناء سيره بالأسطول الفرنسى ، وأخبر قائده «لالند» بما أخبر بهِ الأميرال «ووكر» : من ان الحزب الروسى (أى حزب خسرو) سمّ السلطان ، وانهُ متوجه بالأسطول الى اقريطش ، فأخبره «لالند» ان اقريطش فى يد محمد على ، وان معنى الذهاب اليها تسليم العمارة البحرية له . وبعد ذلك بأيام قلائل وصل الأسطول التركى الى المياه المصرية ، وانضم الى الأسطول المصرى . فلما علم الضباط بنية أميرهم همّوا بالتألب عليهِ ، فاستمالهم محمد على

خيانة الأسطول العثمانى

ذهابه الى جانب محمد على

رسا الأسطول التركي فى الميناء الغربى بالاسكندرية على بُعد ستة أميال من الشاطئ ، وكان مؤلفاً من ٢٠ بارجة تحمل ٢١ ألف جندى بحرى ، ثم نَزَلَ الضباط

وقابلوا محمد على . الا ان القائد « ووكر » لم يرجع ثانية الى الأسطول ، محتجاً بأن الحكومة الانجليزية لم تخوّل له الخدمة تحت إمرة محمد على

بقاؤه بالمياه المصرية

ولما علم سفراء الدول بهذا الحادث استولى عليهم الهلع ، وأظهروا لمحمد على استياءهم من خيانة أمير البحر ، وانهم لا يريدون أن يكون شريكاً له فى هذه الجريمة ، ونصحوا له أن يُرجع الأسطول التركي الى الاستانة . فغضب لذلك محمد على ، وقال ان الحرب تبيح لأحد الفريقين أن يقبل الفارّين من الفريق الآخر . وكانت حالة الدولة فى هذا الحين فى منتهى التعس والاضمحلال ، حتى ان خسرو باشا طلب من امير البحر ان يرجع مع العفو التام من الخليفة ، فأجابهُ هذا انهُ ليس خارجاً على الباب العالى ، وإنما يخشى غدره وخيانته ، وانهُ لن يبرح المياه المصرية ما دام هو المحرك لسكّان سياسة الدولة ، والقابض على زمامها

تدخل دول أوربا

خوف الدول من روسيا

كان أول همّ لدى الدول الكبرى منع الروسيا من انفاذ شروط معاهدة «هنكار اسكله سى » والانتفاع بها ، ولذلك كان من المحتم عليها ان تعمل جميعها للوصول الى ذلك . الا ان الباب العالى ، لمنع زحف ابراهيم باشا على القسطنطينية ، قرر إعطاء مصر لمحمد على وذريته من بعده واعطاء الشام لابراهيم الى ان يخلف والده على مصر . وكان هذا الاتفاق على رغبة من الروسيا لأنهُ يخلصها من اتفاق هنكار اسكله سى ولا يحط من سلطتها فى القسطنطينية . فرأت الدول الكبرى ان الأمر أشد خطورة من ان يفصل فيهِ الباب العالى وحده ، ولذلك كتبت اليهِ تعلمه ألاّ يفاوض محمد على فى شيء ، ولا يتفق معهُ الاّ بواسطة الدول . فلما فطنت الروسيا لغرضهم لم تعارض فى الأمر ، وبذلك ظهرت الدول الكبرى بمظهر المشجع للباب العالى على معارضته لمحمد على ورفضه لمطالبه

الدول تلغى قرارات تركية

فرنسا وانجلترة

الى هذا الحد كانت فرنسا وانجلترة متفقتين ، لأنهما اجتهدتا معاً فِي ايقاف النفوذ

وقوع الخلاف بينهما

الروسى فى البلاد العثمانية ، ورأتا أن أحسن حل للمشكل القائم بين محمد على والدولة وضع الدولة تحت حماية الدول الكبرى جميعاً . ثم ابتدأ الخلاف ، لأن «بالمرستون» وزير خارجية انجلترة كان يعتقد أن الدولة العليـة لا تصير فى أمان الآ اذا كانت صحراء سيناء الحد الفاصل بينها وبين محمد على . والرأى العام فى فرنسا من جهة أخرى كان ميالاً لمحمد على ، إذ كان يرى فيه حليفاً يعتمد عليه فى منازعة الدولة البرطانية فى البحر الأبيض المتوسط

مؤازرة فرنسا لمحمد على

لذلك عرضت فرنسا على انجلترة أن يُمنح محمد على وذريته من بعده كل الولايات التى تحت يده . فلم يوافق على ذلك بالمرستون مع شدة ميله الى استجلاب مودة فرنسا . غير أنه عرض عليها فى شعبان سنة ١٢٥٥هـ (أكتوبر سنة ١٨٣٩م) أن تكون مصر وراثية لأسرة محمد على ، وأن يتولى محمد على أيضاً ولاية عكاء الى طرابلس ودمشق . وبعد مفاوضات طويلة أعلن « تِيِيرْس » رئيس الوزارة الفرنسية فى مايو سنة ١٨٤٠ أن فرنسا لا تقبل ذلك ، بدعوى ان هذه الشروط لا توافق محمد على وانه اذا أُعلن بها اندفع فى زحفه على آسيا الصغرى ، وان أساطيل الدول لا يمكنها أن تقوم بعمل ما ضده (اللهم الآ امتلاك بعض البلاد على الساحل) ، وليس فى قدرتها طرده من بلاد الشام . وكان تييرس فى هذه الأثناء يخابر محمد على والباب العالى سرًّا فى ابرام اتفاق لمنح محمد على كل بلاد سورية ، فلما علم بالمرستون بذلك قطع كل رجاء فى مؤازرة فرنسا له

روسيا تتفق مع انجلترة

وفى أثناء ذلك أرادت الروسيا أن تتفق مع انجلترة فى حل المسألة التركية المصرية ، فأرسلت سفيراً عرض على الحكومة الانجليزية أن الروسيا مستعدة أن لا تتدخل فى المسألة التركية وحدها ، وانهـا تبادر الى النزول عن شروط معاهدة هنكار اسكله سى ، وفى مقابل ذلك يُقْفَلُ الدردنيل والبسفور فى وجه كل السفن ويُسمح للروسيا وحدها أن تمر منهما لحماية الدولة العلية وقت الخطر

فابتدأت الدول الأربع (الروسيا وبروسيا والنمسا وانجلترة) تفاوض محمد على

الدول تعمل من غير فرنسا

بواسطة « الكولونيل هُدْجِس » السفير الانجليزى بمصر (وكان قد عُين بدلاً من الكولونيل « كَمْبِل » للقيام بهذه المهمة خاصةً). فلم يصغِ محمد على لكل تهديدات « هدجس » ووعيده ، مرتكناً على ما كانت تعده بهِ فرنسا من المساعدة ، ولذلك رفض كل مفاوضات الدول الأخرى . فلما يئست الدول الأربع منهُ أبرمت مع الدولة العثمانية « معاهدة لندن » فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ (١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ م) بدون علم فرنسا . وقررت فى هذا المجتمع أيضاً الطرق التى يجب اتخاذها لاخضاع محمد على . وأهم شروط هذه المعاهدة ما يأتى : —

معاهدة لندن

(١) الزام محمد على بارجاع ما فتحهُ من بلاد الدولة العلية وان يحفظ لنفسه الجزء الجنوبى من الشام الشامل مدينة عكاء

(٢) أن يكون لانجلترة الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ، ومساعدة كل من أراد الهجرة من أملاك محمد على والرجوع الى الدولة

(٣) أن يكون لسفن الروسيا والنمسا وانجلترة معاً حق الدخول فى البسفور والدردنيل لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها ، وأن لا تدخلها سفن ما دامت الدولة غير مهددة بخطر

وفى مادة خاصة اشترطت الدول انهُ اذا خضع محمد على لرأى الدول فى مدة عشرة أيام أعطتهُ ولاية مصر وراثية وجنوبى بلاد الشام الشامل لولاية عكا مدة حياتهِ ، واذا أصر على عصيانه الى ما بعد هذه المدة أعطتهُ ولاية مصر فقط ، واذا لم يخضع فى مدة عشرة أيام أخرى عادت الدول الى النظر فى الأمر من جديد

حنق فرنسا

ولما وصل خبر هذه المعاهدة الى فرنسا هاج الرأى العام ، وقامت الاستعدادات الحربية على قدم وساق . فنصحت الحكومة الانجليزية لملك فرنسا «لويس فليب» بواسطة ملك البلجيك أن يتبصر فى عواقب هذه الاستعدادات الحربية . ففطن لذلك الملك وعزَلَ « تيبرس » رئيس الوزارة وعيّن بدله « جيزُوت » . الاَّ انهُ لم يتمكن من ايقاف الاستعدادات الحربية لهياج الرأى العام

عدم خضوع محمد على

أما محمد على فقد مضت عليه المدة المعينة ، ولم يقبل شيئاً من هذه الشروط ، فأعلن الباب العالى خلعه وحصر الشواطئ المصرية والشامية . وكان محمد على من جهة لا يزال مؤملاً مساعدة فرنسا له ومرتكناً على قوة جيش ابنه ابراهيم . ومن جهة أخرى كانت فرنسا تعتقد فى عظم جيوش محمد على وانهُ يمكنهُ أن يقاوم الدول حتى تجهز هى جيشها . ولكن الحوادث أظهرت غير ذلك ، فأحجمت فرنسا عن مساعدة محمد على بعد سقوط وزارة « تييرس » وتلاشى جيش ابراهيم امام قوى الدول المتحدة كما سيأتى . وسهل عليها الأمر نزول انجلترة عن الاصرار على حرمان محمد على من مصر ذاتها

خلعه

الحملة الأخيرة

تدابيره فى الشام

لما جاء الى سليمان باشا الفرنسى والى بيروت نبأ ما قرره الباب العالى بدأ فى الاستعداد الحربى ، وأبلغ سفراء الدول ان بلاد الشام فى حالة حرب . وكان ابراهيم فى ذاك الوقت فى دمشق بجيشه المؤلف من اربعين ألف كاملى العدة : وهو الجيش الذى كسر الترك فى واقعة نصيبين وقونية من قبلها

وكان محمد على فى أعظم سطوته و بأسه ، إذ قد بلغ عدد جيشه فى هذا الوقت ربع مليون جندى منها ١٣٠,٠٠٠ من الجنود النظامية و ٤٠,٠٠٠ من رجال البحرية

فأول عمل قام به مناصباً الدولة أن اعلن :

١ — ان الفرنسيين آتون لمساعدته

٢ — انه حامى الاسلام ضد الكفار

٣ — تحذيره المارونية من الانجليز وقال انهم يقصدون بتدخلهم فى الأمر نصرة الدروز على كاثوليك لبنان

خروج الشام على ابراهيم

الآ ان ذلك لم يُجدِ نفعاً ، لأن اهالى الشام كانوا قد سئموا حكمه ، فثاروا على ابراهيم باشا بمساعى « رِتشرْدوُود » احد رجال السفارة الانجليزية ، فانه جمع رؤساء

القبائل واوضح لهم عاقبة الحالة حتى افلح فى اثارة خواطرهم على ابراهيم . وربما كان هذا اكبر سبب فى هزيمة الجيش المصرى ، اذ بمجرد ظهور اسطول المتحالفين فى المياه الشامية قامت الثورة فى لبنان ، فكان تأثيرها فى القضاء على ملك محمد على فى الشام اكثر من أساطيل الحلفاء وجيوشهم

تأثير ثوران لبنان

ابتدأت المناوشات عندما وصلت أساطيل الحلفاء أمام بيروت بقيادة «ستُبْفُورْد» و « نِبْيِير » الانجليزيين ، ومعها جيش عثمانى مؤلف من ٤٠٠٠ جندى . فشرعت الأساطيل فى اطلاق قنابلها على بيروت (رجب سنة ١٢٥٦ هـ : سبتمبر ١٨٤٠ م) ، ونزل الجيش العثمانى بالقرب من المدينة . الاّ انها لم تفلح فى الاستيلاء عليها لحسن دفاع سليمان باشا عنها ، ولما وصل الخبر الى ابراهيم فى دمشق سيّر مدداً الى بيروت ، هُزم فى الطريق عند قرية « برُومانة » فى رجب سنة ١٢٥٦ هـ (سبتمبر سنة ١٨٤٠ م) . ثم أنزل الحلفاء قوة أخرى عند صيداء فاستولت عليها عنوة قبل أن يصل اليها ابراهيم باشا الزاحف لتخليصها ، فاشتبك مع الحلفاء فى ٨ اكتوبر فى موقعة فاصلة عند « قلعة ميدان » كانت الدائرة فيها عليه ، وقد قال شاهد عيان ان ابراهيم باشا نجا مع ثلة صغيرة من الفرسان بكل مشقة راجعاً الى دمشق . ولما سمع سليمان باشا بذلك أخلى بيروت ، وانضم الى ابراهيم . ثم استولت أساطيل الحلفاء على « عكاء » ، وكانت فيها حامية مصرية عظيمة ، فلم تقوَ على المقاومة اكثر من ثلاثة أيام

اساطيل الحلفاء امام بيروت

عجز ابراهيم عن انقاذ المدينة

انهزاماته

سقوط عكاء

فلما علم محمد على بسقوط هذه المدينة حزن حزناً شديداً ، ثم أرسل بعدها بزمن يسير الى ابراهيم يأمره بإخلاء كل بلاد الشام ، لأن مركزه أصبح حرجاً جداً . ولم يتمكن من ارسال النجدات براً ، لأن ما لديه من الجند كان يحرس بحّارة الأسطول التركي الذين تألبوا على احمد باشا فوزى قائدهم ، وأنكروا عليه ما أتى به من العصيان ، فاضطر محمد على الى انزالهم الى الشاطئ وحراستهم . ولم يمكنه ارسال المدد أيضاً من جهة البحر خوفاً من أسطول الحلفاء الذى كان يتجوّل فى تلك المياه

اخلاء الشام

صعوبة الاخلاء

ولما وصل الخبر الى ابراهيم باخلاء بلاد الشام أخذ فى اخلائها . وقد أظهر من المهارة والحذق هو وسليمان باشا فى تقهقر جيشه فى وسط صحراء سورية ما شهدت بِهِ الأعداء ، وقام كل ضابط من رجاله بواجبه وحافظ على النظام الى آخر لحظة من حياته

التقهقر

ابتدأ ذلك التقهقر من مدينة دمشق فى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٦ ﻫ (٢٩ ديسمبر سنة ١٨٤٠م) وكان عدد الجيش ٦٢,٠٠٠ جندى ، يتبعهم عشرون ألفاً من الاطفال والنساء . وقد لاقى الجيش فى سيره عناءً شديداً ، اذ كانت الأعراب تتخطفه من أطرافه وأهل البلاد يناوشونهُ ، حتى كان يضطر الى محاربتهم من آن لآخر . وبعد اسبوع وصل الى بلدة « المزاريب » ، ومن ثم سيّر ابراهيم باشا سليمان باشا بالمدافع والخيل من طريق الصحراء الى العقبة وسار هو ومن معهُ الى ان وصل الى « غزة ». وكان قد هالك أثناء هذا التقهقر ثلثا من معهُ من الجند وكثير من المستخدمين الملكيين . فكتب الى والده يخبره بقدومه ، ويطلب منهُ ارسال ما يلزم من السفن لنقل الجند الى الاسكندرية وما يلزمهم من المئونة . فأرسل له أسطولاً مكوناً من ثمانى سفن

نبير يحمل محمد على على الخضوع

وبعد سقوط « عكاء » أبحر « نبيير » بأسطول الحلفاء الى الاسكندرية وقابل محمد على وأخبره انهُ اذا خضع للخليفة أخذت دول التحالف على عاتقها أن تتوسط لدى الباب العالى ليعطيه مصر وراثة . اما اذا استمر على عدم الاذعان فانهُ يضطر الى ضرب الاسكندرية وتخريب قصر رأس التين نفسه . فقبل ذلك محمد على بعد أن يئس من مساعدة فرنسا له ، وردّ الأسطول العثمانى الى القسطنطينية

توسط الدول

اما الباب العالى فلم يقبل هذا الاتفاق . الاّ ان « بالمرستون » أشار على دول التحالف أن تنصح له بالقبول ، فطالبت الدول أولاً من محمد على ان يخضع للباب العالى خضوعاً تاماً بلا قيد ولا شرط . فامتثل لذلك وأرسل فى ذى القعدة ١٢٥٦ ﻫ (يناير ١٨٤١ م) رقعة يظهر فيها خضوعه ويعترف بسيادة الباب العالى



بالمرستون
(زعيم ساسة اوربا فى المسألة التركية المصرية)

تقليد الولاية فبراير سنة ١٨٤١

ولما وصلت هذه الرسالة الى البـاب العالى عاد « بالمرستون » فأوعز الى الدول المتحالفة أن يطلبوا الى الباب العالى أن يمنح محمد على ولاية مصر وراثية ، فتم ذلك بتقليد (فرمان) فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ هـ (١٣فبراير سنة ١٨٤١م) هذا مؤداه :

أولاً — ان الولاية تكون لمن يختاره الباب العالى من أولاد محمد على باشا الذكور ، ثم لأولاد أولاده الذكور ، وهلم جراً ، بحيث لا يكون لأولاد البنات الحق فى الحكم مطلقاً

ثانياً — يجب على من يختاره السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه الى القسطنطينية لتسلُّم تقليد التولية بيده

ثالثاً — ان الذى يُنتخب والياً لمصر يُعتبر كأحد وزراء الدولة فى مخاطباته مع الباب العالى وفى المقابلات السلطانية ، بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الوجهة مطلقاً

رابعاً — ان والى مصر يكون ملزماً باتباع أمر التنظيمات العالى الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته ، وكل ما اصدره او يصدره الباب العالى من القوانين واللوائح . ويكون الوالى ملزماً ايضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المُبْرَمة او التى تبْرَم بين الباب العالى والدول الأجنبية اياً كانت بلا تغيير ولا تبديل ، اذ الحكومة المصرية لم تخرج عن كونها ولاية عثمانية كباقى الولايات

خامساً — ان سائر الضرائب على اختلاف انواعها يكون تحصيلها باسم الجناب السلطانى ، ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية

سادساً — ان ربع المتحصل يدفع للخزانة الشاهانية ، والثلاثة الأرباع الباقية يُصرف منها ما يلزم لنفقات الادارة وجباية الأموال ، وما يلزم ايضاً للوالى واسرته ، وثمن البُر الذى يرسل سنوياً الى مدينتى مكة والمدينة المنورة

سابعاً — ان هذه الضرائب تُدفع بقيمة واحدة مدة خمس سنين تبتدىء من سنة ١٢٥٧ هجرية ، وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها اما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهالى

ثامناً — انه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعيّن لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية ، ويُنظر فى تعيينها بعد كما تقتضيه الارادة الشاهانية

تاسعاً — يكون لمصر الحق فى ضرب العملة : من فضية وذهبية ونحاسية ، بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم ، وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار

عاشراً — عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً فى مدة السلم ،

وأما فى أيام الحرب فيزاد هذا المقدار الى الحد الذى تقرره الدولة ، اذ أن العساكر المصرية تكون ملزمة حينئذ بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية

حادى عشر — ان مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة ، ومن حيث ان الجيش المصرى يبلغ (فى ذاك الوقت) زهاء ثمانين ألفاً ، يؤخذ منهم عشرون ألفاً ويُرجَع الباقى الى بلادهم ، ويُرسل أيضاً من هذا المقدار ألفان الى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر الاّ الثمانية عشر ألفاً المقررة

ثانى عشر — من حيث ان مدة الخدمة العسكرية خمس سنين يؤخذ سنوياً من أفراد القرعة أربعة آلاف شاب ، يرسل منهم الى دار الخلافة أربعمائة ويبقى الباقون فى مصر

ثالث عشر — ان من أدى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود الى بلده ، ولا يجوز ادخاله فى الجيش مرة أخرى

رابع عشر — ان ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية

خامس عشر — كذلك ملابس البحّارة وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية

سادس عشر — لا يكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية الاّ لغاية « صاغ قول أغاسى » (بدخول الغاية)

سابع عشر — لا يكون لوالى مصر الحق فى انشاء سفن حربية الاّ بعد الحصول على اذن صريح من الدولة العلية

ثامن عشر — من حيث ان حق الوراثة على ولاية مصر لم يُمنح لمحمد على باشا وأسرته الاّ بهذه الشروط ، فلو أخلّوا بأحدها سقط حقهم ، وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية مَنْ يشاء

ومنح البـاب العالى محمد على أيضاً ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدة حياته ، بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر ، بمقتضى تقليد شاهانى أصدر فى اليوم الذى أصدر فيه التقليد الأول ، أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م . وكلفهُ أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً الى دار الخلافة العظمى ، وأن يمنع ما كان متبعاً فى السودان من إغارة الجند على قرى الأهالى ، وخطف بناتهم وصبيانهم . وأن يمنع جملةً عادة خصى بعض هؤلاء التعساء الحظ لاستخدامهم فى القصور حرساً على الحريم (أغاوات) ، وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ، ويرسل الى الباب العالى قائمة بأسمائهم : من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسى فما فوق ، ليصدر أمراً بتثبيتهم فى وظائفهم

تخفيف الشروط السالفة

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط وان لم يكن ذلك عن رضى ، ثم طلب من الدول أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير بعضها الآخر . فقبلت الدول ملتمسه وأرسلت الى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٢٥٧ هـ (١٣ مارس سنة ١٨٤١ م) تطلب منه ذلك . فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى تقليد آخر تاريخه صفر ١٢٥٧هـ (ابريل سنة ١٨٤١ م) بتعديل تقليدها الصادر فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م) ، وهاك أهم ما فيه من الشروط المعدلة :

تقليد جديد ابريل سنة ١٨٤١

أولاً — ان حق الوراثة يكون للأكبر سناً بين أولاده الذكور ، مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهـذه الكيفية بالسفر الى مقر دار الخلافة العظمى لتسلمه التقليد بيده

ثانياً — أن ماتدفعهُ الحكومة المصرية للدولة العلية (صاحبة السيادة) من الخراج لا يكون ربع دخل الحكومة قبل أخذ نفقات الجباية والإدارة ، بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية

ثالثاً — أن يكون للوالى حق فى منح الرتب لغاية « أميرألاى » (بدخول الغاية) أما ما فوق ذلك فلا يكون إلاّ باذن من الباب العالى

تأييده

ولما أقرت الدول هذا التعديل أصدرت الحضرة الشاهانيــة تقليداً آخر فى ١١

ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ هـ (أول يونيه سنة ١٨٤١ م) مؤيداً لما فى التقليد السابق

وفى غرة جمادى الأولى سنة ١٢٥٧ هـ (٢٠ يونيه سنة ١٨٤١ م) صدر تقليد آخر بجعل مقدار ما تدفعه الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنوياً ثمانية آلاف كيساً آخر تقليد يونيه سنة ١٨٤١

٧ — شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم

بعد أن انكمش محمد على فى ولاية مصر، وحرمته الدول من فتوحاته التى اكتسبها بحد السيف وأريقت من أجلها دماء المصريين، لم يكن فى قدرته النهوض بها الى الدرجة التى كانت تصبو اليها نفسه. والسبب فى ذلك يرجع الى أمرين: الأول تقدمه فى السن واضمحلال قواه العقلية والجثمانية، والثانى أن حالة البلاد الداخلية كانت قد انحطت دفعةً واحدة، لِما حلّ بأهلها من المصائب من جراء كل هذه الحروب التى قاموا باعبائها وأنفقوا عليها من دمائهم وأموالهم، حتى أصبحت البلاد فى حالة يُرثى لها تضعضع مصر

ومع ذلك ابتدأ محمد على يحصن مدينة الاسكندرية على يد مهندسين فرنسيين، وذلك حينما أجبرته الدولة على تنقيص جيشه الى ثمانية عشر ألف جندى. وأرسل حفيده عباس باشا الى الباب العالى يلتمس منه أن يمنحه تقليداً أوسع نطاقاً من الأخير، فأرضاه الباب العالى بأن منحه لقب الصدارة العظمى من غير أن يجيبه الى طلبه

ولكن شاءت المقادير الا معاكسة محمد على، ففى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) انتشر طاعون الماشية فى البلاد، وتبعه هبوط النيل، فأصبحت البلاد على حافة الخراب. وفى العام نفسه اجتاح الجراد زراعة البلاد فتركها قاعاً صفصفاً، وبذلك وقف دولاب الحكومة، واستولى الرعب والوجل على قلوب حكام البلاد، فاجتمع مجلس فى القاهرة وكتب تقريراً عن سير الأحوال فى البلاد، وما آلت اليه من كوارث أخرى

الانحطاط . الاّ أنهم لاقوا صعوبة عظيمة فى تبليغ هذا التقرير الى الباشا ، ولما وصل اليه استشاط غضباً . وكان يخاف أن يخلعه ابنه ابراهيم ، ففكر فى التخلى عن الملك والذهاب الى مكة ليقضى باقى أيامه فيها ، فتوسط سفراء الدول وأزالوا ما فى نفسه نحو ابنه البار

اضمحلال صحة ابراهيم

وابتدأت بعد ذلك الأحوال تتحسن شيئاً فشيئاً فى السنتين التاليتين . الاّ ان صحة ابراهيم فى هذه الأثناء اضمحلت دفعة واحدة ، فأشار عليهِ الأطباء بالسفر الى أوربا . فعمل بذلك ، وبعد ان طاف فى كثير من البلدان ، خصوصاً ايطاليا وفرنسا وانجلترة ، رجع الى الديار المصرية وعلامات الصحة بادية عليهِ . فلم يجد والده هناك ، بل علم أنهُ سافر الى مقرّ الخلافة (رجب سنة ١٢٦٢ هـ : يونيه سنة ١٨٤٦ م) ليحظى بالمثول بين يدى الخليفة ويقدم له ولاءه وطاعته

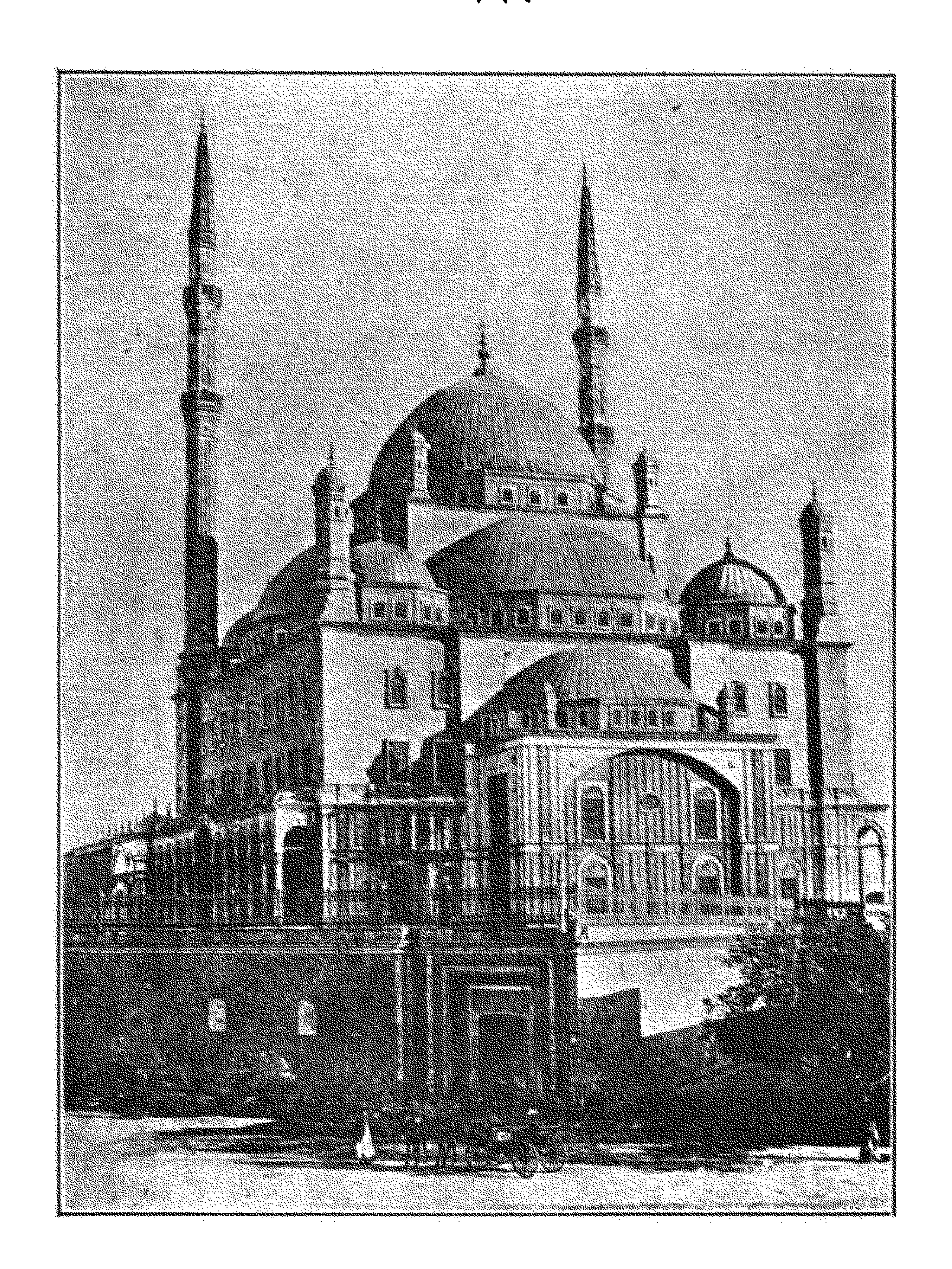
محمد على فى الاستانة

وقد قوبل محمد على من الخليفة بكل حفاوة واكرام ، وهنا تقابل مع أشد أعدائه خسرو فتعانقا طويلاً واتفقا على تناسى الماضى . ولما طالت مدة إقامة محمد على فى دار الخلافة ابتدأ رجال القصر يعاملونه معاملة قاسية ، فأثّر ذلك فى صحته تأثيراً سيئاً ، فلما رجع الى مصر فى أواخر ذلك العام كان أشبه بالشبح منهُ بالانسان

وفى أثناء عودته زار مسقط رأسه « قَوَلَة » التى تركها منذ عام ١٢١٤هـ(١٧٩٩م)، وبعد ذلك ترك مقاليد الأمور لحفيده عباس باشا الأول ، لأن حالة ابراهيم الصحية لم تمكنه من القيام بأعباء الأمور فى البلاد . وكانت خاتمة أعمال محمد على وضع أول حجر أساسى للقناطر الخيرية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ هـ (ابريل سنة ١٨٤٧م) بين جم غفير من المشاهدين

سفره الى اوربا

ثم أشار الأطباء ثانياً على ابرهيم بالسفر الى أوربا . وفى مدة غيابه ذهب والده الى نابلى فى ايطاليا ، حيث سمع بخلع « لويس فِليب » ملك فرنسا ، فتذكر خدماته له فى الأزمة الأخيرة ، وعزم على تجريد حملة لارجاعه الى عرشه . فلما علم بذلك ابراهيم قفل راجعاً الى مصر



جامع محمد على
(بالقلعة)

تولية ابراهيم باشا

وفى شعبان سنة ١٢٦٤ هـ (يوليه سنة ١٨٤٨ م) أصدر البـــاب العالى تقليداً بتولية ابراهيم باشا على الديار المصرية ، فذهب لتقديم ولائه الى الباب العالى فى القسطنطينية . و بعد عودتهِ بزمن يسير جداً ، عاوده المرض الذى أضنى صحته منذ سنين عديدة ، فقضى على ذلك الرجل العظيم فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) ودفن بالقرافة ، وبموته رجع عبـــاس باشا من مكة ، فتقلد الأمور فى البلاد . ثم سافر توًّا الى القسطنطينية ليتسلم تقليد التولية

وفاته

أما محمد على فلم يمكث بعد تولية عباس الاّ أشهراً قلائل ، كان فى أثنائها منحط

القوى العقلية والجثمانية جملة لكبر سنه، الى ان فاضت روحه بالاسكندرية في ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ (٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م)، وبذا انتهت حياة عظيم من اكبر رجال الشرق

وفاة محمد على

ونقلت جثته الى القاهرة حيث دفنت بمسجده الذى شيّده بالقلعة (سنة ١٢٤٦ هـ : ١٨٣١ م)، وهو من أجمل المبانى التى شيدت بمصر على الطراز التركى الحديث

جامع محمد على

الفصل الثالث

الطريق البرى بين الهند وأوربا

الطريق القديمة وهجرها

كان من أهم موارد الثروة فى مصر فى عهد المماليك الضرائب التى كانت تجبى على البضائع والسلع المتبادلة بين أوربا والهند على طريق مصر. وقد ظلت هذه الطريق مسلوكة حتى كشف البرتقال طريق الرجاء الصالح كما سبق، فتحولت التجارة اليها منذ ذلك العهد، وهُجرت طريق مصر لسهولة الأولى وقلة نفقاتها وصون البضائع وقلة الخطر فيها، خصوصاً ان البحر الأبيض المتوسط كان يهدّد تجارته فى ذلك العهد لصوص البحر من الترك وغيرهم. وكانت القوافل التى تحمل التجارة من السويس الى الاسكندرية تسطو عليها قبائل الاعراب وقطاع الطريق

الاسباب الجديدة لاحيائها

بقيت طريق الرجاء الصالح متبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر عند ما فكر بعض رجال انجلترة فى احياء طريق مصر. ولا غرابة، فان نفوذ الدولة البرطانيـة كان قد اتسع فى بلاد الهند، واصبح من الضرورى لها اتخاذ طريق اقصر للمواصلة بينها وبين هذه المستعمرة العظيمة من طريق الرأس، التى كانت تستغرق زمناً طويلاً

واول من عُنى باحياء هذا المشروع « جورج بُلدوِين » سفير انجلترة فى مصر فى

عهد الثورة الفرنسية ، واول عمل قام به للوصول الى غرضه انه حصل على اذن من الباب العالى يخول له الملاحة فى البحر الأحمر . ثم أحضر سفينة من لندن الى الاسكندرية ، وأخرى من « كلكتة » الى ميناء السويس ، ثم صعد الهرم الأكبر يرافقه ثلة من اصدقائه ، ومعه ثلاث زجاجات مُلئت بالماء : احداها من النيل ، والثانية من نهر التاميس ، والأخيرة من ماء الكنج . ثم شربوا من مزيج الثلاث على ذكر اتحاد الثلاثة الأنهار واتساع نطاق التجارة البرطانية على طريق الديار المصرية . غير ان الباب العالى لم يلبث ان ألغى الإذن

مشروع جورج بلدوين

هجره

وبعدئذٍ أظهر أحد التجار الانجليز بمدينة الاسكندرية وهو « المستر بِرِجْز » لمحمد على الفوائد المادية التى تعود على البلاد من اتصال التجارة بين مصر والهند ، وذلك أثناء حربه مع الوهابيين . فصادف هوًى فى نفس الوالى ، وأرسل بعض السفن الى مياه بمباى ، ولكن المشروع لم يفلح طويلاً

مشروع برجز وهجره

ولما ابتدأ احتكار محمد على للتجارة فى الديار المصرية تلهى الفرنسيون النازلون بمصر بالوظائف الأميرية عن سواها من الأعمال . وكان نظير ذلك لرجال الانجليز الحظ الأوفر فى التجارة المصرية ، فكانوا يَتَغَنَّون بمدح محمد على فى بلادهم ، ويذكرون له الأيادى البيضاء فى تشجيع التجارة . فلما سمع بذلك « توماس وَجْهُورْن » أحد رجال الأسطول الانجليزى الموظفين فى « شركة الهند الشرقية » أخذ يعمل بكل قواه العقلية والجثمانية لإحياء هذه الطريق ، خصوصاً بعد ان توطدت دعائم الأمن العام فى مصر بفضل اصلاحات محمد على ، وصار استعمال البخار فى تسيير السفن من اكبر المشجعات أيضاً على الدأب وراء انفاذ فكرته . فقدَّم اقتراحه فى أول مرة الى شركته فى سنة ١٢٣٨ — ٣٩ هـ (١٨٢٣ م) ، فلم توافق عليهِ بالرغم من مساعدة « بَرْكَر » سفير انجلترة فى مصر ، ظناً منها انهُ من الامور الصعبة التنفيذ

الانجليز والتجارة المصرية

مشروع وجهورن

صعوبة تنفيذه

ولكن المشروع لم يندثر نهائياً ، ففى سنة ١٢٤٤ — ٤٥ هـ (١٨٢٩ م) أرسل السير « جون مَلْكُم » حاكم بمباى باخرة الى السويس لنقل التجارة ، فلم تواصل

معاضدة الحكومة الانجليزية له

رحلاتها الأ زمناً يسيراً لكثرة نفقات الفحم. الآ ان « بركر » ما زال بفكرة « وجهورن » يحمدها ويعضدها حتى طلبت منه الحكومة الانجليزية تقريراً رسمياً فى هذا الصدد . فاقتنعت انجلترة بالتقرير ، وما جاء شهر رمضان سنة ١٢٤٦ ﻫ (فبراير ١٨٣٠ م) حتى أصبح نجاح مشروع « وجهورن » من المحقق

معاضدة محمد على له

وفى أثناء هذا الجهاد الطويل كان محمد على من اكبر المشجعين لوجهورن ، حتى انهُ من شدة ميله لمحمد على قدّم رسالة الى البرلمان الانجليزى يرجوه فيها ان ينظر الى مصر بعين الرعاية والشفقة ، وأن لا يجعلها فى حوزة تركيا . ولا شك أن محمد على خدم الأمة الانجليزية من هذه الوجهة ، ولذلك يعترف بعض الانجليز بأن بريطانيا العظمى مدينة له فى إحياء هذه الطريق

نجاح جهاد وجهورن

اما وجهورن فقد جنى ثمرة جهاده بعد ان لاقى أهوالاً وقاسى شدائد جمة مدة عشرين عاماً . ففى ٢٧ رمضان سنة ١٢٦١ ﻫ (اول اكتوبر سنة ١٨٤٥ م) ابحرت باخرة من بمباى تحمل بريداً ، فوصلت السويس بعد ١٩ يوماً . ثم نُقل البريد براً الى الاسكندرية ، فبلغها فى اليوم التالى ومنها نقل على طريق تريست ونهر الرّين والبلجيك ، فوصل لندن فى صبيحة يوم الواحد والثلاثين من شهر اكتوبر ، أى

بين الهند وانجلترة فى شهر

انه لم يستغرق فى طريقه اكثر من شهر*. ولقد بذلت الحكومة الفرنسية جهدها لإثبات ان الطريق من فرنسا آمن وأقصر ، فاتخذت أخيراً شركة البواخر الشرقية

شركة البواخر الشرقية

التى أسست سنة ١٢٥٥ — ٥٦ ﻫ (١٨٤٠ م) ميناء مرسيليا مركزاً عاماً للبريد الأوربى

تأثير ترعة المحمودية

وقد زاد فى سهولة هذه الطريق انهُ قبل ممات محمد على أُسست شركة سفن تجارية تجرى فى ترعة المحمودية والنيل بين مصر والاسكندرية ، فكان متوسط

* كان البريد ينقل بين السويس والقاهرة على الجمال بطريق الصحراء . وكان بعض رجال الانجليز قد عرض على محمد على انشاء خط حديدى على هذا الطريق ، فوافق على هذا الرأى، وأحضرت بعض المواد اللازمة لانشاء الخط بالفعل . الا ان محمد على ارتاب فيما بعد فى عاقبة الامر وأحجم عن المشروع

المسافرين على طريق مصر بين عامى ١٢٥٨ — ١٢٦٥ هـ (١٨٤٢ — ١٨٤٩ م) يبلغ ١٥,٠٠٠ فى العام الواحد

فضل وجهورن

وتوفى « وجهورن » عام ١٢٦٦ — ٦٧ هـ (١٨٥٠ م)، وكان لا يزال يعترف الى آخر لحظة من حياته ان السبب فى نجاحه يُعزى الى كرم وتشجيع محمد على، صاحب الأيادى البيضاء عليهِ. ولا يزال اسم « وجهورن » مقروناً بالتبجيل، وله تمثال منصوب فى ميناء السويس. ويمتاز وجهورن على « ديلسبس » بأنهُ لم يستنفد أموال الخزينة المصرية، ولم يحوّل المشروع الذى قام بهِ ضد مصلحة من أحسن اليهِ، كما فعل الآخر. وقد اعترف بعض رجال الأمة الانجليزية بفضل محمد على

اعتراف الانجليز بمساعدة محمد على

فأهدوه فى عام ١٢٥٥ — ٥٦ هـ (١٨٤٠ م) وساماً، زُيّن أحد وجهيهِ برسم محمد على، ونُقشت على الثانى العبارة الآتية :

« الى مشجع العلم والتجارة والنظام، الحامى لرعايا وأموال الممالك المتضادّة، والفاتح للطريق البرى الى الهند »

ملخص لأهم الحوادث التاريخية فى الباب الثانى

	هـ		م	
أولاً — ﴿ الحملة الفرنسية ﴾	١٢١٢ — ١٢١٦		١٧٩٨ — ١٨٠١م	
تجريد نابليون حملة على مصر		١٢١٢		١٧٩٨
اقلاعه بجيشه الى البلاد المصرية	٢ ذى الحجة	١٢١٢	١٩ مايو	١٧٩٨
وصول نلسن أمير البحر الانجليزى بأسطوله الى الاسكندرية مقتفياً أثر الاسطول الفرنسى فلم يعثر عليه	٨ المحرم	١٢١٣	٢١ يونيه	١٧٩٨
وصول العمارة الفرنسية أمام الاسكندرية	١٨ المحرم	»	١ يوليه	»
زحف نابليون على القاهرة من طريق الصحراء بعد اخضاع الاسكندرية	٢٢ »	»	٧ »	»
الاستيلاء على رشيد		»		»
انهزام مراد بك أمام نابليون عند شبراخيت وتقهقره الى القاهرة	٢٩ »	»	١٤ »	»
انهزام المماليك فى واقعة انبابة (الاهرام)	٧ صفر	»	٢١ »	»
اجتماع العلماء بعد الموقعة وتقريرهم التسليم لنابليون	٨ »	»	٢٢ »	»
دخول نابليون القاهرة	١١ »	»	٢٥ »	»
اصلاحات نابليون فى القاهرة		»		»
تدمير العمارة الفرنسية فى موقعة بوقير البحرية على يد نلسن	١٧ ربيع ١	»	أغسطس	»
خروج سكان القاهرة على الفرنسيس خروجاً عاماً واخماد الثورة على يد نابليون	١٠ جمادى الاولى	»	٢٢ اكتوبر	»
تجريد نابليون حملة على بلاد الشام لصد غارة الترك على مصر		»		١٧٩٩
وصول الحملة الى يافا	٢٥ رمضان	»	٣ مارس	»
حصار نابليون لعكاء ورجوعه عنها لمناعتها		»		»
انتصار نابليون على الترك فى واقعة بوقير البرية	٩ المحرم	١٢١٤	١٣ يونيه	»

	هـ	م
مغادرة نابليون مصر قاصداً فرنسا وعهده بالقيادة لكليبر	١٩ ربيع ١ ١٢١٤	٢٢ أغسطس ١٧٩٩
مهادنة الفرنسيين المماليك بعد تغلب الآخرين على معظم الصعيد	»	»
ادراك كليبر صعوبة مركزه وابرامه معاهدة العريش مع سدنى سمث	شعبان »	يناير ١٨٠٠
عدم موافقة الحكومة الانجليزية على هذه المعاهدة	»	»
دخول الترك مصر بعد المعاهدة ووقوع الثورة فيها واخمادها على يد الفرنسيس وعودة النفوذ لهم فيها	»	»
مقتل القائد كليبر	٢٠ المحرم ١٢١٥	١٤ يونيه ١٨٠٠
وصول الحملة الانجليزية بقيادة السير رلف ابركرومبي لطرد الفرنسيس	شوال »	فبراير ١٨٠١
انهزام الفرنسيس عند كانوب وموت ابركرومبي وتولى هتشنسن مكانه	»	»
جلاء الفرنسيس عن مصر بعد تسليم بليار بالقاهرة ومينو بالاسكندرية	١٠ جمادى ١ ١٢١٦	١٨ سبتمبر »
طبع الحكومة الفرنسية أعمال البحث العلمى فى مؤلف يدعى وصف مصر	١٢١٧	١٨٠٢
ثانياً — * محمد على باشا *	١١٨٣ — ١٢٦٥	١٧٦٩ — ١٨٤٩
١ — نشأته ونهوضه	١١٨٣ — ١٢٢٠	١٧٦٩ — ١٨٠٥
مولد محمد على فى قولة	١١٨٣	١٧٦٩
قدومه الى مصر فى واقعة بوقير البرية	١٢١٣	١٧٩٩
قدومه الى مصر وقت حملة ابركرومبي	١٢١٥	١٨٠١
تولية خسرو على مصر من قبل الباب العالى	١٢١٦	١٨٠١
نزاع بين خسرو والمماليك وبينه وبين الجنود		

		هـ		م
العثمانية يظهر فيه محمد على تدريجاً وينتهى بهروب خسرو الى دمياط				
الاهالى يختارون طاهر باشا خلفاً لخسرو		١٢١٨		١٨٠٣
مقتله بعد ٢٢ يوماً				
محمد على يصبح رئيس الجنود الالبانية فى مصر				
اتحاده مع البرديسى على خسرو — مداخلة والى ينبع — أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة				
تولية على باشا الجزائرى	ربيع الاول	«	يوليه	«
البرديسى يحتال حتى يقتله	شوال	«	يناير	١٨٠٤
وصول الالفى بعد ان مكث بانجلترة سنتين				
اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى — فرار الالفى الى سورية				
تظاهر محمد على بالخضوع للدولة وتأليبه الاهالى على البرديسى ومهاجمته اياه وطرده هو وابراهيم بك الى الشام				
تولية خورشيد باشا — ضعفه وتمرد الجند عليه والتجاء الاهالى الى محمد على				
بقاء محمد على بمصر رغم ارادة الدولة — اتفاقه مع الدلاة				
محاصرته خورشيد باشا بالقلعة (برغبة الاهالى)	صفر	١٢٢٠	مايو	١٨ ٥
اختيار الاهالى محمد على والياً على مصر				
موافقة الباب العالى على ذلك	ربيع الثانى	١٢٢٠	يوليه	١٨٠٥
٢ — توطيد سلطته فى مصر		١٢٢٠ — ١٢٢٦		١٨٠٥ — ١٨١١
أول فتك بالمماليك	جمادى الثانية	١٢٢٠	أغسطس	١٨٠٥
الباب العالى يحاول ابعاد محمد على عن مصر — تظلم الاهالى ووصول عهد بتأييده فى الولاية	شعبان	١٢٢١	نوفمبر	١٨٠٦

		هـ		م
اتحاد البرديسى والالفى عليه				
موت البرديسى		١٢٢١		١٨٠٦
موت الالفى		١٢٢١		١٨٠٧
وصول الحملة الانجليزية الى مصر لتأييد سلطة المماليك	أول المحرم	١٢٢٢	مارس	١٨٠٧
استيلاء الحملة على الاسكندرية — رجوع محمدعلى من مطاردة المماليك بالصعيد وهزمه الانجليز عند الحماد — عقد شروط الصلح مع محمد على وترك الانجليز البلاد	رجب	١٢٢٢	سبتمبر	١٨٠٧
رضاء الباب العالى عن محمدعلى والانعام عليه وفك عقال ابراهيم ابنه				
خوف محمد على من المماليك والعمل على الفتك بهم — هزمه لهم عند أسيوط — انتشارهم فى طول البلاد وعرضها				
استرضاء محمد على للماليك وعقد مهادنة معهم		١٢٢٥		١٨١٠
تدبير المماليك الكيد لمحمد على وهو راجع من السويس ووقوف محمد على على ذلك — فتك محمد على بالمماليك فى مذبحة القلعة	صفر	١٢٢٦	فبراير	١٨١١
٣ — الحروب الوهابية		١٢٢٦ — ١٢٣٥		١٨١١ — ١٨١٩
مولد ابن عبدالوهاب صاحب المذهب الوهابى بالعيينة من اقليم العارض (مذهب الوهابيين يوافق مذهب اهل السنة الصحيحة)				
حماية محمد بن سعود لابن عبد الوهاب وتشجيعه على نشر مذهبه				
وفاة ابن عبد الوهاب		١٢٠١		١٧٨٧
امتداد سلطان أولاد سعود على جميع بلاد نجد		١١٥٩ — ١٢٠٦		١٧٤٦ — ١٧٩١

	هـ	م
قلق شريف مكة من انتشار المذهب الوهابى وتجريده حملة على عبد العزيز	١٢١٣	١٧٩٨
فشل الحملة والعمل على نشر المذهب فى وادى الفرات — هزم والى بغداد لعبد العزيز بن سعود		
مهاجمة ابن سعود كربلاء وتخريبها	١٢١٦	١٨٠١
دخول عبدالعزيز مكة فى العام التالى بدون معارضة الشريف		
قتل عبدالعزيز وتولية سعود الثانى وهو أعظم رجال هذه الاسرة		
تشديد سعود الثانى فى جمع الضرائب حتى أضربت الناس عن الحج	١٢٢١	١٨٠٦
تجريد محمد على حملة على الوهابيين بأمر الباب العالى	١٢٢٦	١٨١١
وصول طوسون الى ينبع وانهزامه عند الجديدة وهرب جنده		
وصول المدد الى طوسون وفتحه المدينة وارسال مفاتيح الكعبة والحجرة النبوية الى والده	١٢٢٧	١٨١٢
مطاردة طوسون الوهابيين وانهزامه عند طربة		
سفر محمد على الى الاقطار الحجازية عند سماعه بهذه النكبة لتولية القيادة بنفسه		
وفاة سعود الثانى وتضعضع الوهابيين	١٢٢٩	١٨١٤
انهزام خلفه عبد الله سعود عند بيصل		
عودة محمد على لوقوع قلاقل داخلية فى مصر — عودة طوسون عند سماعه بتلك القلاقل — موته فجأة	١٢٣٠	١٨١٥
نقض الوهابيين شروط الصلح التى عقدها معهم طوسون قبل عودته		

	هـ		م	
تجريد حملة الى بلاد العرب بقيادة ابرهيم باشا للقضاء على الوهابيين	شوال	١٢٣١		١٨١٦
هزيمة ابراهيم عند الريس		١٢٣٢		١٨١٧
حصاره الدرعية وتسليم عبدالله وأمره بتخريب البلد	ذى القعدة	١٢٣٣		١٨١٨
مقتل عبد الله بالاستانة				
٤ — فتح السودان	١٢٣٥ — ١٢٣٩		١٨٢٠ — ١٨٢٣	
عزم محمد على على فتح السودان لاسباب مادية وسياسية				
تجريده حملة للاستيلاء على سيوة	جمادى ١	١٢٣٥	فبراير	١٨٢٠
مسير حملة السودان من القاهرة بقيادة اسماعيل	شوال	١٢٣٥	يوليه	١٨٢٠
فرار المماليك من دنقلة وتشتتهم عند ما سمعوا بمجيء اسماعيل				
سحق اسماعيل عرب الشيخية فى كرتى				
فتحه بربر	جمادى ٢	١٢٣٦	مارس	١٨٢١
فتح شندى وسنار ومرض الجيش أثناء اقامة اسماعيل بسنار				
وصول المدد الى اسماعيل بقيادة اخيه ابراهيم — تقسيم القيادة بينهما				
وصول اسماعيل فى زحفه الى تومات وعودة ابراهيم الى مصر لمرضه بعد أن وصل الى جبل دنكا				
وصول مدد بقيادة محمد بك الدفتردار لغزو كردفان		١٢٣٧		١٨٢٢
هزمه بعض القبائل عند بارا واستيلاؤه على الابيض				
انتقام الدفتردار من نمر لحرقه اسماعيل بحرق شندى				
بناء الخرطوم وجعلها حاضرة للبلاد السوادنية		١٢٣٨		١٨٢٣
٥ — حرب اليونان	١٢٣٩ — ١٢٤٥		١٨٢٣ — ١٨٢٩	
شبوب نار الثورة فى جنوبى ايطاليا واسبانيا و بلاد اليونان	١٢٣٥ — ١٢٣٦		١٨٢٠ — ١٨٢١	

	هـ		م	
اعلان اليونان الحرب على الترك لنيل استقلالها وعدم مساعدة الدول لها				
انتصار اليونان فى بادىء الامر واستنجاد السلطان بمحمد على على قمع الفتنة				
تولية محمد على على جزيرة اقريطش		١٢٣٩		١٨٢٣
تولية محمد على على بلاد المورة		١٢٣٩		١٨٢٤
اقلاع الجيش المصرى من الاسكندرية الى بلاد اليونان	ذى القعدة	١٢٣٩	يوليه	١٨٢٤
نزول الجيش المصرى فى مودن	شعبان	١٢٤٠	فبراير	١٨٢٥
اخضاع بلاد المورة واستيلاء ابراهيم على أمهات المدن فيها				
حصار مسولونجى وتسليمها	رمضان	١٢٤١	ابريل	١٨٢٦
قيام الثورة فى بلاد المورة ثانيا واخضاعها				
فتح رشيد باشا مدينة أثينا				
استياء دول أوربا العظمى من فظائع ابراهيم وعقدهم مؤتمراً لذلك فى لندن	ذى القعدة	١٢٤١	يوليه	١٨٢٦
اقرار المؤتمر على ارسال عمارة بحرية تعهد القيادة العامة فيها لكدر نجتون				
اشتباك العمارة المصرية التركية مع أساطيل الحلفاء فى خليج نوارين وتدمير العمارة المصرية التركية	المحرم	١٢٤٣	اغسطس	١٨٢٧
احتلال فرنسا لبلاد المورة بعد رفض البرلمان الانجليزى الاشتراك معها	صفر	١٢٤٤	أغسطس	١٨٢٨
ظهور الاسطول الانجليزى فى المياه المصرية وتهديده محمد على				
اتفاق محمد على مع الانجليز على اخلاء بلاد المورة				
اخلاء ابراهيم بلاد المورة	ربيع الاول	١٢٤٤	اكتوبر	١٨٢٨

	هـ		م	
تصميم السلطان محمود على رفض تحرير اليونان واعلان الروسيا الحرب عليه لذلك		١٢٤٥		١٨٢٩
انهزام الترك أمام الروس واضطرارهم لعقد معاهدة أدرنة واقرارهم فيها على تحرير اليونان		١٢٤٥		١٨٢٩
٦ — حرب الشام		١٢٤٧ — ١٢٥٦		١٨٣٢ — ١٨٤١
استياء محمد على من الباب العالى لعدم مكافأته على مساعدته فى حرب المورة ولاسباب أخرى		١٢٤٥		١٨٢٩
ابتداء استعداد محمد على للحملة على الشام				
خروج الحملة بعد تأخرها بسبب الهيضة	جمادى ١	١٢٤٧	مايو	١٨٣٢
زحف الجيش البرى واستيلاؤه على غزه ويافا				
حصار عكاء وسقوطها فى يد ابراهيم	ذى الحجة	١٢٤٧	مايو	١٨٣٢
اصدار الباب العالى امرا بخلع محمد على أثناء حصار عكاء	» »	»	»	»
فتح دمشق	١٦ المحرم	١٢٤٨	١٥ يونيه	١٨٢٢
انهزام محمد باشا والى طرابلس عند حمص	٩ صفر	١٢٤٨	٨ يوليه	١٨٣٢
استيلاء ابراهيم على حلب	١٨ صفر	»	١٧ »	»
هزيمة حسين باشا فى مضيق بيلان	١ ربيع ١	»	٢٩ »	»
هزيمة رشيد باشا فى واقعة قونية	٢٧ جمادى ٢	»	٢١ نوفبر	»
احتلال كوتاهية	شوال	»	فبراير	١٨٣٣
معاهدة »	ذى الحجة	»	مايو	»
معاهدة هنكار اسكله سى	صفر	١٢٤٩	يونيه	»
ابتداء خروج أهل الشام على ابراهيم باشا		١٢٥٠		١٨٣٤
استفحال الثورة فى الشام — سفر محمد على باشا الى الشام لاطفائها		١٢٥٢		١٨٣٥
انهزام المصريين فى الشام أمام عرب حوران		١٢٥٤		١٨٣٨
تقرير الباب العالى اعلان الحرب على محمد على				

		ﻫ		م
اتهازاً لفرصة خروج الشام	ذى القعدة	١٢٥٤	يناير	١٨٣٩
رجوع محمد على من السودان لما علم بذلك	»	»	»	»
هزيمة الجيش التركى بقيادة حافظ باشا عند نصيبين	١١ ربيع ٢	١٢٥٥	٢٤ يونيه	»
مجيء الاسطول العثمانى الى مصر وانضمامه الى محمد على		»		»
ابتداء تدخل دول أوربا فى المسألة المصرية التركية		»		»
انفراد فرنسا بمؤازرة محمد على		»		»
معاهدة لندن لاخضاع محمد على	١٥ جمادى ١	١٢٥٦	١٥ يوليه	١٨٤٠
اعلان الباب العالى خلع محمد على عن الشام	٥ رجب	»	٢ سبتمبر	»
عدم خضوع محمد على وشروع الدول فى اخضاعه بالقوة		»		»
ضرب أساطيل الحلفاء ميناء بيروت	رجب	»	٢ سبتمبر	»
هزيمة ابراهيم باشا فى برومانه ثم فى قلعة ميدان واخلاء بيروت واستيلاء الحلفاء على عكاء		»		»
ابتداء اخلاء الشام	٥ ذى القعدة	»	٢٩ ديسمبر	»
خضوع محمد على للسلطان	ذى القعدة	»	يناير	١٨٤١
صدور تقليد من السلطان بمنح محمد على ولاية مصر وراثية	٢١ ذى الحجة	»	١٣ فبراير	١٨٤١
تخفيف شروط هذا التقليد بتقليد آخر	صفر	١٢٥٧	ابريل	١٨٤١
تأييد هذا التقليد بآخر	١١ ربيع ٢	»	١ يونيه	١٨٤١
٧ — شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم				
انتشار طاعون الماشية بمصر وهبوط النيل واجتياح الجراد الزراعة		١٢٥٩		١٨٤٣
سفر محمد على باشا الى الاستانة	رجب	١٦٦٢	يوليه	١٨٤٦
وضع محمد على باشا اول حجر من اساس القناطر الخيرية	٢٢ ربيع ٢	١٢٦٣	ابريل	١٨٤٧
تقليد ابراهيم باشا ولاية مصر	شعبان	١٢٦٤	يوليه	١٨٤٨
اشتداد المرض على ابراهيم ووفاته	١٣ ذى الحجة	»	نوفبر	»
وفاة محمد على باشا	١٣ رمضان	١٢٦٥	٢ أغسطس	»

الباب الثالث

تاريخ مصر

بعد عهد محمد على باشا

الفصل الأول

عباس باشا الاول وسعيد باشا

﴿ ١ — عباس باشا الأول ﴾

(١٢٦٥ — ١٢٧٠ ﻫ : ١٨٤٩ — ١٨٥٤ م)

بعد موت محمد على كادت مصر تكون نسياً منسياً ، لا أهمية لها فى نظر أوربا ، لولا مرور تجارة الهند عن طريق مصر . وذلك لأن من خلفه من ذريته لم ينالوا تلك الصفات التى ميزته وجعلته فى مصاف عظماء الرجال فى عصره تدهور مصر

تولى الملك عباس باشا الأول (ابن طوسون بن محمد على) فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ ﻫ : (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) ، وكان اذ ذاك يناهز السادسة والثلاثين من عمره ، فكان أول عمل قام به أن هدم كل ما أفنى فيه جدُّه العظيم زهرة حياته ، غير مفرّق بين النافع والضار . فكما قضى على احتكار التجارة المجحف بحق الفلاح ، أنقص الجيش الى تسعة آلاف ، وأغلق المعامل والمدارس ، واستغنى عن كثير من الموظفين الغربيين وأظهر ميله الى العادات والأنظمة التركية والبلدية عباس يهدم اعمال سلفه



عباس باشا الأول

مضى عباس باشا معظم حكمه بمعزل عن الناس ، متهاوناً فى شؤون الملك ، غير مكترث بما فى ذلك من الضرر . ولعل له عذراً فى ذلك ، إذ أنهُ لمَّا شاهد فشل حروب الشام بقيادة ابراهيم باشا ، ورأى سقوط جده الكبير والقضاء على كل آماله ، رأى أنهُ من العبث مقاومة أوربا ، وأدرك أن البلاد فى حاجة الى السكينة والراحة ، وأن لا داعى الى المظاهر الأوربية الكاذبة التى كان يعتقد أنها تسربت الى مصر قبل ميعادها تلك كانت خطته . ولما رأى أنهُ يحيط بهِ قطيع من الذئاب الغربيـة وطائفة من

عزلة عباس

الموظفين المتملقين، الذين لا همّ لهم إلاّ جمع الثروة من حوله، اعتزل جميعهم إلاّ نفراً قليلاً من سفراء الدول وخدمه الخاصة، فكانت حياته سراً غامضاً. وقد ذمه كثيرون من أجل ذلك، ولكن كفاه فخراً أنهُ خلص الأمة من نهب الأجانب فى مدة حكمه: ولم يُثقل كاهلها بشيء من الديون كما فعل غيره من بعده عيوبه ومحاسنه

وفى أيامه أنشىء أول خط حديدى فى مصر بل فى ممالك الشرق بأجمعها، وذلك هو الخط الممتد بين الاسكندرية والقاهرة. وقد قام بهذا المشروع «رُبَرْت استيفِنْسُن» مخترع القُطُر البخارية، اذ أخذ على عاتقه جلب كل المهمات اللازمة لمدِّه، وابتدأ العمل سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥٢ م) وتممه فى عام ١٢٧٢هـ (١٨٥٦م). وكان الموعز لمدّ هذه السكة الحكومة الانجليزية، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين الهند وأوربا عن طريق مصر. وقد عارضت فى الأمر الحكومة الفرنسية، فسبب ذلك بعض التأخير فى انجاز المشروع الخط الحديدى بين مصر والاسكندرية

وكان عباس باشا يريد حرمان عمه «سعيد» من الملك بعده ليكون لابنه «الهامى». فأتت المقادير على عكس ما أراد، اذ قُتل فجأة فى قصره فى بِنْها، وكان ابنه الهامى غائباً عن الديار المصرية، فورث الملك سعيد باشا بدون أدنى معارضة وذلك فى ذى الحجة سنة ١٢٧٠ هـ (١٢ يوليه سنة ١٨٥٤ م) وراثة الملك

ولقد كثرت الاشاعات عن سبب مقتل عباس باشا الأول. فالمتداول على الألسن ان خصيين قتلاه خنقاً وهو نائم فى فراشه. وقال آخرون انهُ قُتل بايعاز بعض اقربائه الذين كانوا يريدون نزعه من ولاية الملك. وهناك فريق آخر يعزى سبب قتله الى أسباب سياسية. وكتم خبر موته عدة أيام، ثم نُقلت جثته من بنها الى قصره بالعباسية *، ومنها نقلت الى مقرها الأخير بقرافة الامام الشافعى بالقاهرة مقتله

---

* سميت صحراء الريدانية «العباسية» منذ عهد عباس باشا الأول لاتخاذ قصره بها

٢ — سعيد باشا

١٢٧٠ — ١٢٧٩ هـ : (١٨٥٤ — ١٨٦٣ م)

تربية سعيد

كان سعيد باشا فى حداثته محبوباً من والده محمد على ، فربّاه تربية عالية فى مدارس فرنسا أهلته لتولى زمام الملك . وقليل من الأمراء من نال نصيباً وافراً من العناية



سعيد باشا

حالة مصر عند توليته

كسعيد . قبض على زمام الأمور والبلاد فى حالة حسنة : اذ كانت خالية من الديون الأجنبية ، وكان دخلها السنوى البالغ ثلاثة آلاف الف من الجنيهات كافياً لسد كل حاجاتها ، وكانت التجارة متقدمة والأراضى الزراعية آخذة فى الازدياد . فلم يك ينقص البلاد الاّ شىء من الحزم فى حاكمها يستطيع بِهِ السير فى سبيل المحافظة على مصالح

الأمة حسب ما تقتضيه الأحوال ، الاَّ أنه من سوء حظ البلاد لم تتوافر هذه الصفة في سعيد . تولى الملك وهو نشيط بطبعه محب للعمل ، فكان مبدأ حكمه يبشر بحسن مستقبل مصر . ولكنه ما لبث ان أخذ مقاليد الأمور كلها فى يده ولم يثق بأحد من الوطنيين ليشركه معه فى ادارة شؤون الملك . فقضى على المجلس الخصوصى (مجلس النظار) ، ولم يدرّب أحداً من أبناء الأمة على شؤون الادارة حتى يكون له عوناً . ولم يتبع طريقة عباس باشا فى عزلته ، بل كان يقابل الأجانب ويحادثهم ويكرم مثواهم ، وبالغ فى ذلك حتى ضاعت هيبته فلم يفلح فى حكم البلاد . ذلك الى أنهُ أصبح بديناً منغمساً فى اللذات ، لا يقوى على مزاولة العمل بالجد والنشاط اللذين عهدا فيه من قبل ، فاعتل نظام الحكومة ودب فيه روح الفساد وسوء الادارة — عيوبه

وكان شغله الشاغل مدة حكمه تنظيم الجيش ، لاعتقاده انه ماهر فى الفنون الحربية . فكان يغيّر فى نظامه ويبدّل من حين لآخر ، فتراه طوراً يجنّد جيشاً يربو على ٥٠,٠٠٠ ، وطوراً ينقصه الى نصف ذلك العدد ، متبعاً فى ذلك ما تمليه عليه أهواؤه وميوله . وقد اختار نقطة القناطر الخيرية فجعلها معسكراً لجيشه ، لاعتقاده أنها مركز حربى هام لصدّ غارات المغيرين ، كما كان يقيم بجيشه كثيراً فى صحراء مريوط — غرامه بالجيش

ومع ضعفه الأخلاقى كان مخلصاً فى اهتمامه بتحسين حالة البلاد التى كان يعتبرها كضيعته الخاصة ، فعمل جهده فى مد السكك الحديدية وحفر الترع وغرس الأشجار وتحسين حالة الفلاَّح . فأصدر قانون الأراضى الشهير فى عام ١٢٧٤ﻫ (١٨٥٨م) الذى به أصبح الفلاح لأول مرة المالك الحقيقى لما يفلحه من الأرض . ثم محا بعض الشيء من الاحتكارات المجحفة بحق الفلاح . وهو أول من وضع نظام الضرائب المتبع الآن بدلاً من الاحتكار والعشرية وغيرها من المكوس التى كانت فى عصر محمد على — محبته لمصر — قانون الأراضى

غير أنهُ لم يشجع العلم وأهله ، لأنه كان يعتقد ان فتح المدارس ينبه عقول عامة الناس ، فيجعل قيادتهم أمراً عسيراً

وأهم الحوادث التى حدثت فى أيامه ، بل أهم الأغلاط التى ارتكبها فى مدة حكمه

من الوجهة المصرية ، اثنتان : الأولى فتح باب استدانة الحكومة ، والثانية اذنه
أول دين أجنبي
لفردناند «ديلسبس» بحفر ترعة السويس لتوصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . ففى عام ١٢٧٨هـ (١٨٦٢م) أمضى عقد قرض فى لندن مع « فرهلنج غوشن » بمبلغ ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه ، فلما توفى فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٣ م) كان على البلاد ديون أجنبية قدرها ثلاثة آلاف ألف ، وعليه هو ما يربو على ضعفي ذلك ، فكان ما تركه من الدَّين خلفه يبلغ عشرة آلاف ألف من الجنيهات تقريباً

وأما اذنه بحفر ترعة السويس فانه عاد على البلاد وأهلها بالويلات ، ونَضَب من أجلها مَعِينُ ثروتها ورجالها . وقد حصل على هذا الاذن المسيو « ديلسبس » بما كان له من المكانة العالية عند سعيد قبل توليته وبما كان يعده بهِ من الفوائد التى تنجم من ذلك المشروع الخطير مع قلة النفقات ، بدعوى ان كل ما يحتاج اليهِ من المال
قناة السويس
لحفر الترعة ، سيكون من فرنسا . وسيتضح لنا فى الفصل التالى ان كل وعود ديلسبس كانت أضغاث أحلام وأوهاماً كاذبة ، وان معظم نفقات القناة كان من دماء الفلاّح المصرى

الفصل الثانى

قناة السويس

المشروعات القديمة
تدل الآثار القديمة على ان فكرة توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر سنحت فى عالم الوجود منذ أزمان غابرة ، وانهُ كان يوجد فى عهد «سيتى الأول» (١٣٨٠ ق.م) ترعة واصلة بين البحرين بطريق النيل : تخرج منهُ عند « بوبسطة » وتصب فى البحر الأحمر مخترقةً وادى الطميلات . وهى المسماة عند قدماء المؤرخين بترعة « سيزُستريس »

ترعة سيزستريس
ثم اهملت هذه الترعة وبقيت كذلك الى أيام « نِخاو » (٦٠٩ ق . م) ، فهمّ

باعادة حفرها ، وبعد ان هلك فى ذلك ما يقرب من ١٢٠,٠٠٠ من فلاحى مصر أوقف العمل فجأة توهماً منه ان الآلهة أنذرتهُ عاقبة العمل لمصلحة الأجانب . فكأنَّ الاعتقادَ بأن حفر الترعة ليس الاّ عملاً قاصراً على نفع الأجانب كان يجول فى خَلَد الأقدمين كما جال فى خَلَد محمد على باشا حين تردد فى انفاذ مشروع قناة السويس عندما عُرض عليهِ كما ذكرنا آنفاً

عمل نخاو

ولما استولى الفرس على مصر شرع «دارا» (٥٢٠ ق . م) فى كَرْى هذه الترعة القديمة ، فلم يتسنَّ له اتمام العمل ، وبقيت الترعة مهملة حتى جاء «بطليموس الثانى» فأتم حفرها وكَرْيَها عام ٢٧٧ ق . م . غير انها أُهملت بعدُ ، ولم يقم الرومان فيهـا باصلاح يُذكر

دارا

بطليموس الثانى

فلما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) واستأمره الخليفـة عمر بن الخطاب عام قحط الحجاز المسمى عام الرَّمادة استأذنه فى توصيل البحرين ، فأذن له بكرى الترعة القديمة ، فأعادها وسمَّاها « خليج أمير المؤمنين » . وجرت بها سفن الميرة الى الحجاز ، ولبثت مسلوكة حتى عهد « أبى جعفر المنصور » العباسى ، فأمر بردمها عام ١٤٥ هـ (٧٧٠ م) حتى لا تُنقل فيهـا الميرة الى محمد بن عبد الله ابن الحسن الخارج عليهِ بالحجاز

عمرو بن العاص

هذه هى المشروعات القديمة ، وكلهـا ترمى الى توصيل البحرين بطريق النيل . فلما قدم نابليون الى مصر فى غارته المشهورة فكّر فى اعادة توصيل البحرين بحفر ترعة بينهما من مائهما كما أشرنا قبل ، ثم امتنع عن انفاذ مشروعه لتوهم « لابير » مهندس الحملة ان سطح البحر الأحمر يعلو على سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار . وبقيت هذه الغلطة شائعة الى ان أُصلحت نهائياً فى عهد محمد على باشا ، اذ حضر الى مصر فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) بعث من اوربا ليفحصوا المشروع ، فاشترك معهم لينان باشا مهندس الحكومة المصرية العظيم ، فأقرّ الجميع بفساد رأى لابير وأثبتوا ان البحرين فى مستوى واحد . على ان محمد على كان يشك فى نجاح المشروع ويخشى

المشروعات الحديثة

مشروع نابليون

فى عهد محمد على

عاقبته ، الاّ أنهُ لم يألُ جهداً فى مساعدة رجال البعث فى بحثهم لئلا يظهر بمظهر المعرقل لمسعاهم .

مشروع ديلسبس

وظل بعد ذلك المشروع موقوفاً حتى تولى سعيد ، فنال منهُ المسيو « فردناند ديلسبس » سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) اذناً ابتدائياً بحفر القناة . وقد كان ديلسبس سفيراً لفرنسا فى مصر فى عهد محمد على ، وكانت تتوق نفسه الى تأليف شركة لحفر القناة ، فوعده سعيد باشا حينئذٍ بأن يساعده عندما يتولى أريكة مصر . فلما تولاها طلب اليهِ ديلسبس الوفاء بوعده ، فنال منهُ الاذن المذكور وتلاه اذن آخر فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٢ هـ (يناير ١٨٥٦ م) يُلخص أهم شروطه فيما يأتى :

شروط شركة القناة

« حق تمتع الشركة بفوائد القناة مدة تسع وتسعين سنة من سنة فتحها ، وان يحفر المسيو ديلسبس ترعة تستمد ماءها من النيل من مصر الى الاسماعيلية ، ويُمنح فى مقابل ذلك كل الأراضى اللازمة للأبنية والأعمال بدون مقابل خاليةً من كل الضرائب ، وان يكون له الحق فى أخذ أجر من الملاّك الذين ينتفعون بالماء العذب الذى يؤخذ من هذه الترعة ، وان يكون للشركة الحق أيضاً فى تعدين كل مناجم الحكومة ومحاجرها بدون ثمن أو ضرائب ، وأن تُعفَى من كل المكوس على الواردات التى تُجلب لها ، وان يتم القيام بهذا المشروع فى مدة لا تتجاوز ست سنوات الاّ اذا حصلت عوائق لا يمكن تلافيها ، وان يكون أربعة أخماس الفعلة العاملين فى حفر الترعة من الفلاحين . وقد وُضعت شروط خاصة بعدد الفعلة الذين يتناوبون العمل فى كل ثلاثة أشهر . ثم حُددت رسوم المرور فى القناة باعتبار عشرة فرنكات على كل مسافر ومثلها على كل طن من حمولة السفن ، وان تكون الشركة مصرية بحيث يسرى عليها قانون البلاد ، وان تقسم الأرباح (بعد أن يخصم منها فائدة لأموال المساهمين بنسبة ٥ ٪ ومثلها للمال الاحتياطى) على الترتيب الآتى : ١٥ ٪ للحكومة المصرية ، ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة ، ٧٥ ٪ للمساهمين والمديرين والعمال . وبعد انتهاء المدة المقررة تصير القناة وكل مشتملاتها ملكاً للحكومة المصرية »

انجلترة والقناة

وقبل ان يأذن سعيد باشا لديلسبس استشار سفير انجلترة هل يصادف رفضه لهذا المشروع ارتياحاً من انجلترة . فلم يكن فى قدرة السفير ان يعطيه تصريحاً رسمياً عن هذا السؤال ، لأن انجلترة وفرنسا كانتا حليفتين فى حرب القرم . الاّ ان ديلسبس ألحّ فى طلبه ، واقتفى أثر سعيد أينما حلّ وحيثما ذهب ، حتى أمضى عقد الاتفاق فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٢ هـ (يناير سنة ١٨٥٦ م)

الباب العالى والقناة

ولما كان من الواجب قبل الشروع فى العمل الحصول على اذن من الباب العالى ذهب ديلسبس الى القسطنطينية للسعى فى ذلك ، فوجد من أولى الشأن بها معارضة عظيمة يرجع السبب الاكبر فيها الى تأثير ساسة الانجليز . والسبب فى معارضة انجلترة فى المشروع هو انهـا كانت ترى بلادها من الوجهة التجارية والحربية أقرب الى الهند من أى مملكة أخرى فى اوربا ، عدا أسبانيا والبرتقال وكلاهما ليس بشىء فى نظرها . فاذا فُتح طريق قناة السويس أصبحت كل شواطئ البحرين الأبيض والأسود أقرب من انجلترة الى الهند ، ولذلك كان غرض نابليون عندما فكر فى حفر هذه الترعة الاضرار بانجلترة فى الهند نفسها ، اذ ان مهاجمتها فيها قبل حفر القناة صعبة جداً اعظم بعدها .

معارضة انجلترة

أما اذا فتحت القناة أصبحت المسافة بين مرسيليـا وبمباى لا تزيد على ٤٦٠٠ ميل

ديلسبس فى لندن

فلما علم ديلسبس بتأثير الساسة الانجليز فى القسطنطينية ذهب الى لندن وقابل اللورد بالمرستون ، فوجد منهُ معارضة أيضاً اذ قال له ان حفر القناة يضر بمصالح انجلترة ويذهب بسيادتها البحرية ، وانهُ وسيلة تريد



فردناند ديلسبس

فرنسا التوصل بها الى التدخل فى الشرق

مساعى ديلسبس
فلم يثنِ كل ذلك من عزم ديلسبس ، وما زال يواصل سعيه فى اوربا مستعيناً بقرابته من الامبراطورة « يوجين » (زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا) حتى

فتح الاشتراك
وافق الباب العالى على المشروع عام ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨م) . وفى هذا العام فتح ديلسبس باب الاشتراك فى شراء أسهم شركة القناة مقدّراً رأس مال الشركة بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وهو مكوَّن من ٤٠٠,٠٠٠ سهم ثمن السهم ٥٠٠ فرنك . فأقبل الناس على شراء الأسهم حتى جُمع معظم رأس المال فى أقل

المساهمون
من شهر واحد . وكان معظم المساهمين من فرنسا ، وجزء منهم من ممالك الدولة العثمانية ، واشترت مصر من الأسهم ٨٥,٥٠٦* . أما انجلترا فأحجمت حينئذٍ عن شراء شيء منها

ابتداء العمل
وابتدأ العمل فى حفر القناة قريباً من موقع مدينة بور سعيد الحالية فى رمضان سنة ١٢٧٥ هـ (ابريل سنة ١٨٥٩ م) فكان سيره فى أول الأمر غاية فى البطء لما

صعوباته
يحيط بهِ من الصعوبات . وأهم ذلك قلة تدرب عمّال السخرة على العمل ، وصعوبة الحصول على الماء الذى يستقون منه قبل أن يتم حفر الترعة العذبة . ولما كانت الشركة فقيرة (بالنسبة لعظم المشروع) استعان ديلسبس على هذه الصعوبات بالسعى فى حمل سعيد باشا على الاكثار من العمال المسخرين بدون مراعاة للاتفاق الأصلى . فصارت تساق الآلاف من الفلاّحين يحرسهم الجنود الى الترعة ، حيث يشتغلون طول اليوم تحت مراقبة حرَّاس مسلّحين بالسياط . وكان عدد الذين يشتغلون فى حفر الترعة لا يقل عن ٢٥,٠٠٠ عامل بدون أجر ، وينوب عنهم مثلهم فى كل ثلاثة

سوء حالة عمال السخرة
أشهر ، وكانوا يعيشون على الشظف . وقد أودى بحياة الكثيرين منهم ما كانوا يقاسونه من الجوع والظمأ والعرى وحرّ الصيف وقرّ الشتاء واجهاد الجسم والبؤس .

* هذه جزء من الاسهم التى اشترتها انجلترة عام ١٨٧٥ م من اسماعيل باشا بمشورة « اللورد بيكونسفيلد » . وكان عددها ١٧٦٦٠٢ بيعت بمبلغ ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيه

وكان كلما هلك منهم أحد أتى بغيره من الفلاحين ، ولو تم مشروع حفر الترعة على حسب الاتفاق الأصلى لسبَّب نقصاً عظيماً فى تعداد سكان البلاد

انجلترة تعلن استياءها

شاع هذا الأمر وأصبح من الفضائح حتى فى مصر ، وتناولتهُ ألسنة المعارضين لحفر الترعة وخاصة انجلترا . وكان اللورد بالمرستون رئيس الوزارة الانجليزية فى ذاك الحين يعارض فى أمر تسخير الفلاحين ، لأنهُ من جهة يعتبره ضرباً من الاسترقاق ، ولأنهُ من جهة أخرى كان لا يريد أن يرى النفوذ الفرنسى يسود فى مصر . لذلك أوعز الى السفير الانجليزى فى القسطنطينية أن يحتج على تسخير الأهالى فى الأراضى العثمانية لفائدة شركة أجنبية

اسماعيل يسعى فى انقاص الامتيازات

وبقى الحال كذلك الى أن تولى الخديوى اسماعيل باشا فى رجب سنة ١٢٧٩ هـ (يناير ١٨٦٣ م) ، ولم يكن للشركة لديهِ تلك الحظوة التى كانت لها عند سعيد ، فرأى أن ما نالته من الامتيازات مجحف بحقهِ وحق مصر ، وشرع يعمل على الغاء شيء منها ، ولكى لا يكون سبباً فى افلاس الشركة واغضاب الشعب الفرنسى وأمبراطورهم نابليون الثالث أمدَّ الشركة بمعونة مالية ، بأن دفع لها مبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كان مستحقاً على سعيد باشا ثمناً لأسهم اشتراها عددها ١٧٧,٦٤٢ . الاّ أنهُ بقى مصمماً على حرمان الشركة من بعض مزاياها حتى طلب من الباب العالى فى صفر سنة ١٢٨٠هـ (يونيه ١٨٦٣ م) الموافقة على انقاص عدد العمال الذين يسخرون فى حفر القناة وعلى أن تردَّ الشركة للحكومة المصرية ما منحهُ اياها سعيد باشا من الأراضى عام ١٨٥٦م ، فصادف الاقتراح ارتياحاً من الباب العالى ولا سيما أن انجلترة كانت تسعى لديهِ فى انفاذه . فوافق عليهِ وهدَّد الشركة بتوقيف العمل ان لم ترض بهِ

موافقة الباب العالى

وقد كاد يكون فى ذلك القضاء المبرم على المشروع ، لأن الشركة كانت تعلّق كل آمالها على جلب العمال من مصر بدون أجر ، وكان العمل لا يزال فى مبدئهِ ، والشركة لم يكن فى مقدورها أن تقترض مالاً جديداً . ولولا ما بذله المسيو ديلسبس من الهمة والحزم لخاب المشروع : فانهُ تمكن بمساعدة الامبراطورة يوجين وبميل الشعب

مساعى ديلسبس

تحكيم نابليون الثالث

الفرنسى الى مشروعه من استجلاب مساعدة الحكومة الفرنسية ، ناسباً سعى انجلترة فى ايقاف عمل السخرة فى مصر الى حسدها فرنسا ، فمالت اليه قادة السياسة الفرنسية ، وانتهى الأمر بتحكيم الطرفين « الأمبراطورَ نابليونَ الثالثَ » فى حل هذا المشكل

فناط الامبراطور الفصل فى هذه المسألة بجماعة من رجال بلاده طبعاً ، فجاء الاتفاق فوق ما كانت تأمل الشركة ، اذ ألزمت اللجنة المحكَّمة اسماعيل باشا أن يدفع للشركة غرامة قدرها ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه نظير اخلاله بشروط الاتفاق الأصلى بشأن أعمال السخرة وغيرها . فمن هذا المبلغ ١٫٥٦٠٫٠٠٠ جنيه نظيرَ منعه الفعلة المصريين المسخرين من حفر الترعة ، و ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه لاسترجاعه الأراضى التى على ضفتى القناة ما عدا ما عَرْضُهُ ٢٠٠ متر على كلا الجانبين ، و ٦٤٠٫٠٠٠ جنيه فى مقابل حفر ترعة الاسماعيلية . وقد تم دفع كل ذلك فى عام ١٨٦٩ م

غرامة مصر

بهذا الحل وباستبدال عمال مدربين بعمال السخرة أصبح مركز الشركة المالى ثابت الأركان لا يُخشى معه على المشروع من أى عطلة تعترضه كما حصل ذلك من قبل

اقبال الخديوى على المشروع

ومن هذا الحين أقبل الخديوى على المشروع : يعضده بكل نفوذه الأدبى ، ويفتخر بأنهُ القائم بأكبر مشروع ظهر فى القرن التاسع عشر

وعند ما قرب انتهاء العمل استعد اسماعيل باشا استعداداً عظيماً للاحتفال بفتح الترعة فى شعبان سنة ١٢٨٦ هـ (نوفمبر سنة ١٨٦٩ م) ، فكان اكبر وأفخم احتفال حدث فى الأزمنة الحديثة . وسنتكلم عليه فى موضعه عند الكلام على اسماعيل باشا

بعض ما انفقته مصر

على أن معونة مصر المالية لم تقف عند هذا الحد . فان الشركة حصلت منها عام ١٨٦٦ م على مبلغ يربو على ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه لنزولها لهـا عن أراضى الطميلات ، وكانت قد اشترتها قبل ذلك بخمسة أعوام بنحو ٧٤٫٠٠٠ جنيه . وفى عام ١٨٦٨ م أخذت الشركة من الحكومة المصرية مبلغا آخر يقرب من ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه لنزولها عن بعض المبانى التى أقامتها فى منطقة القناة

مجموع النفقات

أما نفقات حفر القناة فقد بلغت حسب المدون فى دفاتر الشركة ٤٣٢٫٨٠٧٫٨٨٢

فرنكاً ، أى نحو ١٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه . وقد قُدّر مجموع ما أنفقته الحكومة المصرية فى ذلك بنحو ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

قلة الربح فى اول الأمر

على أن المشروع لم يثمر ربحاً عقيب حفر الترعــة . اذ كانت فائدته قاصرة على السفن الشراعية دون البخارية ، لأنهُ كان يتعذر على السفن البخارية العادية فضلاً عن بواخر البريد الكبرى أن تسافر الى الهند ، لعظم مقدار ما كانت تحتاج اليهِ من الفحم فى ذلك الوقت . ولكن هذه الصعوبة ما لبثت أن تلاشت ، اذ اختُرعت فى ذلك الحين الآلات المركبة التى جعلت البواخر لا تحرق من الفحم إلاّ نصف ما كانت تحرقه قبل اختراعها . فسهل على هذه السفن الانتفاع بالقناة ، فاتسع نطاق التجارة المارة بالترعة ، وزادت قيمتها زيادة عظيمة

تأثير الالات المركبة

زيادة الرسوم

ومع كل ذلك أيضاً لم يأت المشروع بالربح الكافى ، لقلة قيمة الرسوم التى كانت تجبيها الشركة (وكانت فئتها حينئذٍ ١٠ جنيهات على كل طن) ، وكثرة ما تنفقه على اصلاح القناة . فانحطت قيمة سهام الشركة سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ — ١٨٧٢ م) من ٢٠ جنيهاً الى ٧ جنيهات لكل سهم ، وتوقفت عن دفع أرباح المساهمين . فعُقد لتلافى ذلك مؤتمر دولى بالقسطنطينيــة عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) نظر فى الأمر وخوّل الشركة زيادة الرسوم التى تجبيها من السفن بقدر ٤٠ ٪ الى أن تصلح حالتها المالية . فحسن بذلك حال الشركة وأخذت فى النجاح المطرد والتقدم المستمر

عدم استفادة مصر

ومما يؤسف له ان مصر لم تستفد من نجاح ترعة السويس مطلقاً ، فانهُ فوق خسارتها القناطير المقنطرة من الأموال وارهاقها الفلاحين المصريين ارهاقاً عظيماً ، وفضلاً عن تحوُّل التجارة المارة بين اوربا والهند من داخل مصر الى طريق القناة مما أحدث نقصاً كبيراً فى دخل سكك حديد الحكومة المصرية ، تنازلت لشركة فرنسية فى سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) عما كان يخصها من أرباح الشركة وقدره ١٥ ٪ ، فى مقابل مبلغ حقير قدره ٧٠٠,٠٠٠ جنيــه كانت الحكومة قد اقترضته من تلك الشركة ولم تقدر على سداده ، فحرمت بذلك مصر من مصدر

دخل عظيم . ولم يتم لوُلاة مصر من انشاء الترعة شيء مما كان يمنيهم بهِ ديلسبس من توطيد دعامة حكمهم واتساع جاههم وسلطانهم . فترى مما تقدم كله انهُ لم يخسر من وراء انشاء هذه الترعة الاَّ الأسرة المحمدية العلوية ومصر والفلاحون . والى سعيد واسمعيل وكثرة بذلهما وسخائهما يرجع نجاح مشروع ديلسبس وايجاد تلك الفوائد الجليلة التي عادت على فرنسا و برطانيا العظمى وغيرهما من البلاد

حياد القناة — وكان تعدد مصالح الدول الاوربية فيالترعة مدعاة لجعلها على الحياد ، ولكن الدول أدخلت على الاتفاق الأصلي عدة تعديلات منذ ابرامه ، وربما عادت الى النظر في أمر القناة بعد زماننا هذا

الفصل الثالث

اسماعيل باشا

١٢٧٩ — ١٢٩٦ هـ (١٨٦٣ — ١٨٧٩ م)

يعتبر اسماعيل باشا (ابن ابراهيم باشا) المتممَ الحقيقي لأعمال محمد على والسائر باصلاحاته في الطريق التي ابلغت مصر الغاية التي هي عليها الآن

مكانة اسماعيل في تاريخ مصر — تولى اسماعيل عرش مصر ومدارسها مغلقة ومشروعات محمد على مهملة ، فكان عمله في كل شيء عمل المنشيء من جديد . ولو نظرنا الى مجموع ما تم في عهده من الاصلاحات والأعمال الهامة لعلمنا مقدار ما كان عليهِ من الذكاء والنبوغ وما كان يرمي اليهِ من النهوض بمصر حتى يجعلها في مستوى أرقى الدول الأوربية

تربيته — ومع أنهُ لم ينل حظاً وافراً من التعلم في نشأته كان ما حصّله من المعارف ، مضافاً الى ما فُطر عليهِ من الذكاء وقوة الملاحظة ، كافلاً أن يقوم بعبء المشروعات الخطيرة التي أقدم عليها . وكل ما يُعلم عن تعلمه انهُ أُرسل الى باريس في الخامسة عشرة من



اسماعيل باشا

(رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

عمره ، فتعلم بها اللغة الفرنسية حتى صار يتكلمها بطلاقة . وفى أثناء اقامته ساح كثيراً فى اوربا ، و بقوة ملاحظته وقف على كثير من الأمور الاجتماعية وغيرها من أسباب الحضارة الأوربية . ولم يُربَّ تربية خاصة تؤهله لتولى الملك (كما تربى سعيد من قبله) اذ لم يكن يخطر بالبال حينئذٍ انهُ سيتولى عرش مصر يوماً ما ، لأن ولاية العهد كانت لأخيهِ احمد اكبر أمراء الأسرة ، ولذلك بقى اسماعيل مشتغلاً بمزارعه بعيداً عن

اشتغاله بالزراعة

حاشية سعيد حتى مات أخوه فى حادثة كفر الزيات* ولم يغيّر كثيراً من خطته بعد مماته

كفاءته وآماله

جلس اسماعيل على أريكة مصر فى ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ هـ (١٨ ينساير سنة ١٨٦٣ م) وكان عمره اذ ذاك ٣٢ سنة ، فلم يلبث ان ظهرت فيه كفاءة عظيمة ورغبة شديدة الى رفع شأن البلاد وترقيتها بادخال كل الاصلاح الذى يراه مؤدياً الى ذلك . ومع الاعتراف بأن السرعة التى سار بها فى سبيل هذا الاصلاح والانفاق عن سعة فى كل شىء أديا الى استداناته من اوربا القناطير المقنطرة من الذهب التى تضاعفت هى وفوائدها حتى وصلت فى أواخر أيامه الى عبء ثقيل لا حول ولا قوة للبلاد على احتماله مما أوجب تدخل الدول الأوربية فى شؤون مصر ، قد يُغتفر له ذلك اذا راعينا مقدار ما قام به من الاصلاح ، ولاحظنا ان سعيداً قد فتح له من قبل باب الاستدانة المشئوم ، إذ مات وهو مدين بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

اهم اعماله

وتتلخص أهم أعمال اسماعيل فى مصر فيما يأتى :

(١) الفصل فى أمر وراثة العرش وحصرها فى أكبر أولاد الوالى والحصول على لقب خديوى

(٢) الاصلاحات الادارية وتأييد الاستقلال الداخلى

(٣) الاصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون المدنى المختلط

(٤) التعليم العام

(٥) منع الرقيق

(٦) القاء المؤاخذة (المسئولية) على النظار وتشكيل مجلس شورى النوّاب

(٧) توسيع منابع الثروة للبلاد بتنمية الزراعة وبالمشروعات العامة

(٨) توسيع نطاق الأملاك المصرية

(٩) اتمام مشروع ترعة السويس (أفاد العالم فى مجموعه وان أضر بمصر فى ذاتها)

* غرق قطر السكة الحديدية عند قنطرة كفر الزيات وكان يقل الامير احمد وغيره من امراء الاسرة من الاسكندرية الى القاهرة

١ — ﴿ وراثة العرش ﴾

بعد أن تولى اسماعيل ببضعة أسابيع زار مصر السلطان « عبد العزيز » ، فكان أول من زارها من سلاطين آل عثمان من عهد سليم الأول . فاحتفل به اسماعيل باشا احتفالاً كبيراً ، واجتهد فى أن تكون هذه المقابلة فاتحةً لعلاقات ودّية بينهُ و بين الباب العالى . و بعد أن عاد السلطان الى الاستانة أخذ اسماعيل باشا يسعى سرًّا للحصول على أغراض يرمى اليها لتعزيز ملكه ، واستعان على نيلها بالمال كلما وجد الى ذلك سبيلاً . فسعى لدى الباب العالى فى شأن تغيير القانون الصادر بهِ تقليد سنة ١٨٤١ م بشأن وراثة عرش مصر . وهذا القانون يقضى بأن يؤول العرش لأكبر فرد فى الأسرة بشرط موافقة الباب العالى

السلطان عبد العزيز فى مصر

فلما رأى اسماعيل أن ذلك ربما يُحدث فتناً بين أفراد الأسرة من أجل العرش، بالسعى لدى الباب العالى ، أو بقتل بعضهم بعضاً ، طلب الى الباب العالى أن يجعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بلا شرط ولا قيد ، ليحسم كل نزاع بين أفراد الاسرة فى هذا الشأن . فلم يقبل الباب العالى ذلك فى أول الأمر ، لعلمه أنه ينقص من نفوذه فى مصر ، فان هذه المزية لم تتمتع بها الاسرة المالكة فى تركيا نفسها وزار اسماعيل القسطنطينية وسعى بنفسه فى الأمر فلم يفلح ، ولكن عزيمته لم تفتر ، وذهب اليها فى زيارة أخرى أجزل فيها العطاء فنال مرادَه ، وأصدر الباب العالى عهداً بجعل الوراثة فى اكبر أنجال الخديوى فى ١٢ المحرم سنة ١٢٨٣ هـ (٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ م) ، وذلك فى مقابل زيادة الجزية التي تدفعها مصر من ٣٢٠,٠٠٠ الى ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

سعى اسماعيل فى تغيير تقليد الوراثة

فوزه

وسعى أيضاً اسماعيل باشا لدى الباب العالى ليمنحه لقباً أرقى من « الباشا » المعتاد وكان غرضه من ذلك تثبيتَ امتياز مصر عن باقى ولايات الدولة ، وهو ذلك الامتياز الذى حصّله محمد على بتقليد سنة ١٨٤١ م . فمنحه السلطان لقب « خديوى » فى

نيل لقب خديوى

ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ (يوليه سنة ١٨٦٧ م) . وهو لفظ فارسى الأصل معناه الأمير العظيم ، وكان يمنحه الفرس لحاكم الهند فى عهد حكمهم لها . وبعد فما زال الخديوى يسعى لدى الباب العالى فى اكتساب امتيازات جديدة بفضل ما كان يبذله من المال ، حتى أصدر الباب العالى فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) عهداً مثبتاً كل الحقوق التى منحها للخديوى بمقتضى العهود السابقة . وبهذا العهد أيضاً اعترف الباب العالى باستقلال الخديوى استقلالاً تاماً بشؤون مصر الداخلية ، وأذن له بأن يعمل بدون استشارته فى قرض الديون وعقد المحالفات التجارية وغيرها مع الدول الأجنبية ، ما دامت تلك المحالفات لا تناقض مصلحة الدولة ولا محالفاتها السياسية مع الدول ، وان يزيد جيشه حسب ما يراه صالحاً ، على شرط أن لا يكون فى أسطوله مدرعات . وقد زادت الجزية المصرية فى مقابل ذلك الى ٦٦٥،٠٠٠ جنيه

مزايا التقليد الجديد

ولا شك أن مثل هذا العهد كان من الممكن أن يعود على مصر بأعظم الفوائد ، اذ يكون من اكبر الدواعى التى تحمل كل خديوى لمصر على أن يسهر على ما فيه صالح البلاد ، كى يترك وراءه ملكاً منظماً ثابت الأركان

٢ — ﴿ الاستقلال الداخلى والإدارة ﴾

لم يكن هم اسماعيل باشا قاصراً على الوصول الى جعل الوراثة لأكبر أنجال الخديوى ، بل كان يبذل همته فى أن يمنح استقلالاً إدارياً يتصرف به فى شؤون البلاد الداخلية ، اذ كان أعظم غرض له فى الحياة أن يوثق عرا الارتباط بين مصر وممالك الغرب المتمدينة . والوصول الى ذلك محال ما دام الباب العالى صاحب النفوذ والسلطان فى البلاد ، اذ كان يخشى ان يعترضه فيما يقدم عليه من المشروعات. وأى فائدة تجنيها البلاد وأى عمل عظيم يمكن لأقدر حاكم أن يقوم به اذا كانت يده مغلولة فى شؤون البلاد الداخلية ؟

مزايا الاستقلال الداخلى

سعى اسماعيل

لذلك قضى اسماعيل سنوات عديدة من حياته يبذل فى أثنائها المال الوفير للوصول

الى ضالته المنشودة ، حتى منحه الباب العــالى استقلالاً داخلياً فى عام ١٢٩٠ ﻫ (١٧٧٣ م) بمقتضى العهد السابق الذكر

نيل الاستقلال الداخلى

ولما أصبح اسماعيل صاحب النفوذ والسلطان فى مصر أخذ ينظّم ادارتها الداخلية. فأدخل فى البلاد جملة اصلاحات لم يأتِ بها والٍ تولى الشؤون المصرية قبله . فأعاد نظام الادارة الذى وضعه محمد على وأُهمل فى عصر عباس باشا الأول بعد ان أدخل فيهِ بعض الاصلاحات ، ثم رتب نظام المكوس ترتيباً متقناً ، واشترى ادارة البريد المصرى من شركة ووضعها تحت سيطرة أحد مهرة الغربيين (كما سيأتى ذكره بعد) ، وقسم القطر الى أربع عشرة مديرية ، وحسَّن طرق الاتصال والقضاء وغير ذلك مما ستتكلم عليهِ فيما بعد

اصلاح الادارة

٣ — ﴿ الاصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون ﴾

كان أهم مشروع داخلى وجه اليهِ اسماعيل باشا عنايته اصلاح القضاء وجعله مستقلاً عن الادارة ، ونشر العدل وكان من قبل معدوماً ، لأن القانون الذى وُضع فى عهد محمد على لم يغير من النظام القديم شيئاً وكان حبراً على ورق . فأراد اسماعيل باشا أن يؤسس المحاكم المختلطة ليتساوى الجميع أمام القانون ويكون الأجنبى والوطنى فى مستوى واحد . وكان غرضه أن يقضى على المحاكم (القنصلية) والامتيازات الأجنبية ، بشرط أن يتكفل للأجانب بكل ما يضمن راحتهم

عناية اسماعيل باصلاح القضاء

ولم تكن هذه الفكرة بنت يومها ، بل كانت مختمرة عند الخديوى قبل أن يتولى عرش مصر ، فلما مات أخوه احمد فى حادثة كفر الزيات ، وأصبح هو الوارث للملك تفرغ لدرس الاصلاحات القضائية . ورأى أثناء ذلك ما كان للأجانب من الامتيازات ، فعزم على أن يغيّر ذلك تغييراً تاماً ، فيكون أول من خطا خطوة فى سبيل المساواة ، ونشر العدالة بين رعاياه

رغبته فى المساواة بين رعاياه

فلما تولى الملك لم تساعده الأحوال فى أول أيام حكمه على تخليص البلاد من هذا

النظام الردىء، اذ كان منصرفاً بكل قواه الى تحصيل عهد الوراثة والاستقلال الداخلى من الباب العالى

استشارة فرنسا

ولما سنحت له الفرص فى عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) فاتح الوزارة الفرنسية فى هذا الصدد، ففاوض نوبار باشا « المسيو موسير » وزير خارجية فرنسا فى هذا المشروع حسب ارادة الخديوى. فعُقدت لجنة فى باريس كان الغرض منهـا فحص التغيير الذى يريد نوبار ادخاله فى القانون. فكانت هذه أول خطوة فى سبيل انشاء المحاكم المختلطة

معارضة الدول

وقد ساعد الخديوى أيضاً فى تحقيق أمنيته هذه بعض وزرائه، وأولاهم بالذكر شريف باشا ورياض باشا ونوبار باشا، غير ان معظم نجاح المشروع يرجع الى الأخير* اذ قضى سبعة أعوام من حياته فى كفاح مع دول أوربا حتى أفلح أخيراً فى تأسيس هذه المحاكم التى مع ظهور بعض الفائدة منها لم تأتِ بكل ما كان مؤملاً فيها

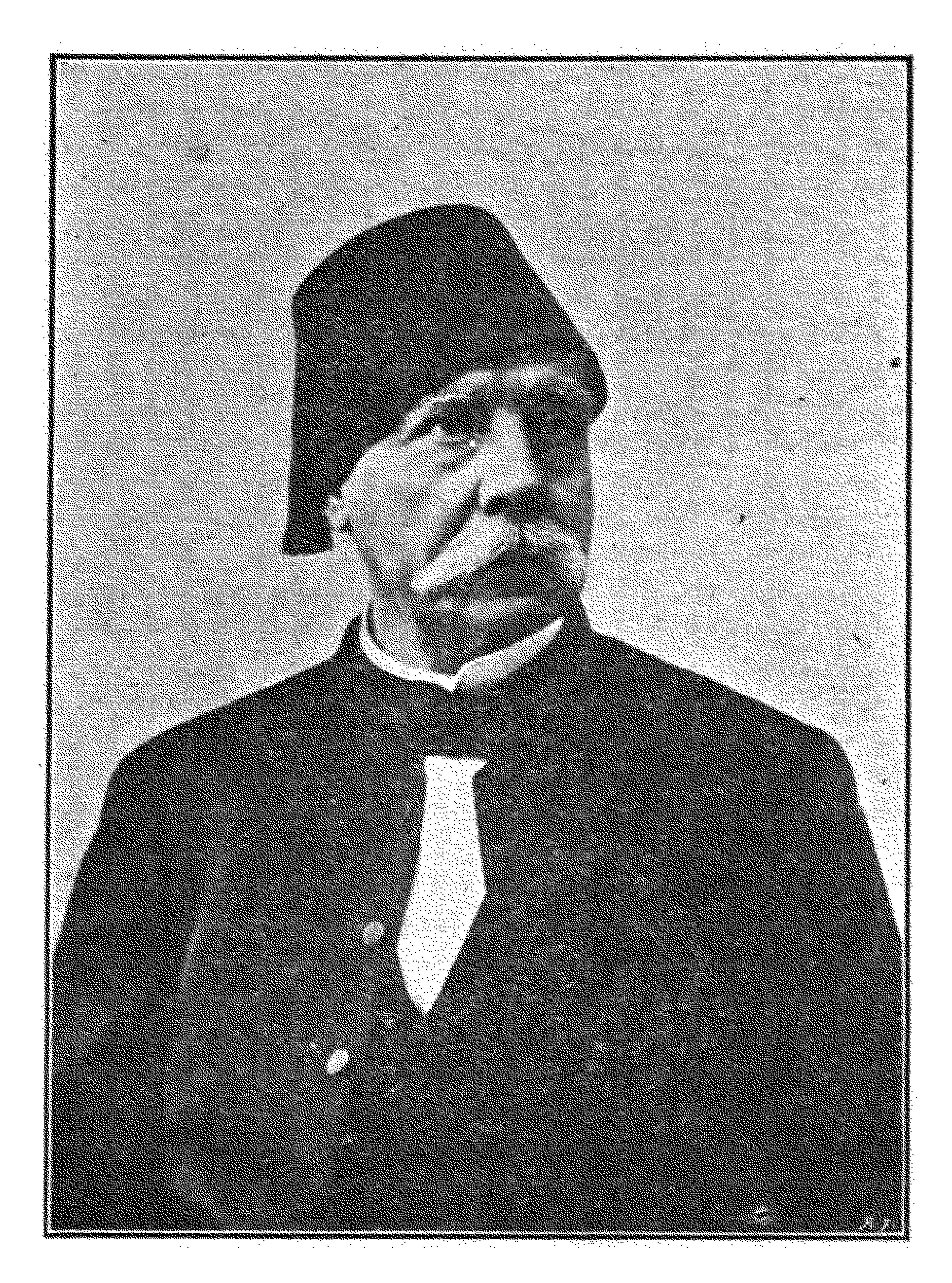
تأثير المحاكم المختلطة

وانّا نشك فى ان اسماعيل باشا كان يعرف كل النتائج التى تنجم من هذا التغيير، فانهُ كان يريد بالمحاكم المختلطة القضاء على نفوذ محاكم السفارات التى كان يظهر انهـا ستقضى على شىء من سلطته الفردية، لا عليها كلها كما فعلت هذه المحاكم وبرهنت عليهِ الحوادث، اذ اتضح له أخيراً ان سلطة هذه المحاكم تعلو سلطته، لأنها أصبحت تفصل فى كل القضايا حتى التى على الحكومة وعلى شخصه نفسه، بل كانت من اكبر العوامل على عزله. ومع ما كان فيها وقت انشائها من النقائص كانت اكثر فائدة من محاكم الأقسام التى كان يفصل حينئذٍ فى قضاياها المدير أو ناظر القسم : يدلك على ذلك ان كثيراً من الأهالى كانوا يفضّلون الفصل فى قضاياهم أمام المحاكم المختلطة

---

* كان نوبار باشا من أنجب رجال عصره : رباه قريبه بغوص باشا من مستشارى محمد على تربية سياسية فكان يحسن معظم لغات اوربا قراءة وكتابة ويلم بكل الاحوال الاوربية ومع كونه ارمنياً مسيحيا استطاع أن يخدم ثلاثة من ولاة مصر مدة عشرين عاماً حائزاً لكل رضاهم الى ان غضب عليه اسماعيل باشا . وكانت خاتمة اصلاحاته تأسيس المحاكم المختلطة التى نحن بصددها

على محاكم الأقسام التي كان كل من المدير وناظر القسم يستعمل السوط فى تحقيق قضاياها ثم لا يفلح فى تحقيق قضية واحدة من بين خمسين



نوبار باشا

وقد لاقى نوبار باشا الصعوبات الجمة فى ارضاء كل من الأهالى والأجانب ، وخصوصاً سفراء الدول الذين رأوا ان تأسيس هذه المحاكم يكون من ورائه محو سلطتهم فى البلاد . وكانت فرنسا اكبر معارض لانشاء هذه المحاكم على حسب التغييرات التى اقترحها نوبار باشا . فى حين ان انجلترة كانت اكبر عضد له فيها ، إذ رأت ان النظام المتبع حينئذٍ مضرّ بكل من الأهالى والأجانب ، ولذلك كانت تصرح دائماً بأنهـــا مستعدة لمعاضدته . أما الباب العالى فانهُ رغم معاضدة انجلترة

مساعى نوبار

رأى الدول

رأى الباب العالى والعلماء

المشروع ورغبة معظم الدول الأوربية فيهِ ، وضع العقبات فى سبيل انفاذه بعلة انهُ مخالف للشرع . فأبى السلطان والعلماء فى القاهرة ادخال هذا الاصلاح الذى يعد افتياتاً على حقوقهم ، وأعلن العلماء فى القاهرة ان مثل هذا التغيير لا يتفق مع الدين الحنيف . فعزل اسماعيل باشا المفتى الذى أفتى بذلك ، واستبدل بهِ آخر وافق على انشائها . ومن هذه اللحظة لم تجئ أى معارضة من هذه الناحية

تشكيل المحاكم المختلطة

وبعد ان انتهى من معظم المعارضات شكّل هذه المحاكم فى ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ (أول يناير سنة ١٨٧٥ م) الاّ انها لم تفتح أبوابها الاّ فى شهر المحرم سنة ١٢٩٣ هـ (فبراير سنة ١٨٧٦ م) ، وذلك للعراقيل التى كانت تضعها فرنسا

وقد أُسس من هذا النوع ثلاث محاكم من الدرجة الأولى: فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة ، ثم محكمة استئناف عليا بالاسكندرية

اختصاصها

وهذه المحاكم تفصل فى القضايا المدنية وبعض المخالفات التى يكون فيها أحد الخصمين أو كلاهما من الأوربيين أو الامريكانيين المختلفى الجنسية . أما اذا كان الخصوم من الأجانب المتحدى الجنسية فالمحكمة لا تفصل فى النزاع الاّ اذا كان موضوعه عقاراً . وهى مستقلة تماماً عن الحكومة ، وتُعيّن القضاةَ بها اثنتا عشرة دولة من دول اوربا والولايات المتحدة ، ويجدد هذا النظام فى كل خمسة أعوام مرة . وهى فى مصر أشبه فى الحقيقة بمملكة صغيرة . ولقضاتها الحق فى شرح القانون وتقرير ما لهم

سعة نفوذها

من السلطة . ولا توجد هيئة تشريعية معتبرة يُرجع اليها اذا تعدت هذه المحاكم حدود اختصاصها . وغاية ما تستطيع الحكومة المصرية عمله فى هذا الصدد ان تفاوض الدول ، حتى اذا اتفقنَ جميعاً على رأى عمِدْنَ الى تعديل القانون

٤ — « التربية والتعليم »

مساعى محمد على واسماعيل

رأى اسماعيل باشا كما رأى جده العظيم محمد على من قبله انهُ لا يتسنى له القيام باصلاحاته ومشروعاته الخطيرة فى البلاد الا بتعليم أبناء الأمة ، وان اختلفت أغراض

كل من الرجلين . فكان الغرض الأول لمحمد على من التعليم أن يكوّن عدداً عظيماً من الضباط والموظفين ليساعدوه فى ادارة شؤون البلاد ، أما اسماعيل فقد غرست فيه تربيته الأوربية مبادئ حب العلم والتعليم ، فأراد أن ينشر العلم لذاته بين جميع طبقات الأمة . لذلك وجَّه شطراً عظيماً من عنايته الى هذه الوجهة . وكانت الأحوال مساعدة له ، لخصب مدارك المصرى وقوة حافظته التى لا تضارَع فى اكثر الشعوب ، ولِمَا له من المجد الأثيل والباع الطويل والميل القديم للعلوم والمعارف : يشهد بذلك جامعة الاسكندرية فى عصر البطالسة ، والجامع الأزهر الذى يؤمه آلاف الطلاب من جميع بقاع العالم الاسلامى

الفرق بينهما

وقد ساعد الحظ اسماعيل ، اذ وجد فى خدمته نخبة من أكابر الغربيين ، نهضوا بالتعليم ورقوه ، ونؤثر بالذكر منهم « دور بك » و « كلوت بك » و «رُوجَرْز بك» . وكان لبعض نظار الحكومة فضل عظيم فى هذه النهضة ، وبخاصة « شريف باشا » و «رياض باشا» و «على مبارك باشا» الذى سار بالتعليم شوطاً بعيداً ، وكان له القدح المعلى فى نهضة البلاد الحديثة

بعض اعوان اسماعيل

ولا يفوتنا ان الفضل كل الفضل راجع طبعاً الى رئيسهم الاكبر الخديوى اسماعيل . فأول عمل قام بهِ انهُ أصدر قانوناً فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) كان الغرض منه وضع أساس منهج قويم للتعليم فى جميع أنحاء القطر . وقد ظهرت فائدته ، اذ زاد عدد التلاميذ فى مدة وجيزة الى ٥٢,٠٠٠ تلميذ يتعلمون فى ١٣٠١ معهد ، ثم ازداد بعدها عدد التلاميذ الى ١٤٠,٩٧٧ وعدد المدارس الى ٤٨١٧ ، وكان فى القاهرة وحدها ما يزيد على ٢٩٥ مدرسة بلغ عدد تلاميذها ١٠,٠٠٠ تلميذ . عدا طلبة الأزهر الشريف والمعاهد الأجنبية والمعاهد التابعة للأوقاف والمدارس الحربية لتعليم الجيش الذى كان يبلغ اذ ذاك ثلاثين ألفاً *

قانون رجب سنة ١٢٨٤ هـ

اتساع نطاق التعليم

---

* وقد قارن المستر (ادون دى ليون) فى كتابه عن الخديوى عدد المتعلمين فى مصر من الشبان الذين فى سن التعليم بنظرائهم فى اوربا فى ذلك الحين فقال : « ان نسبة المتعلمين فى مصر تبلغ ٢٣ ٪ ، على حين انها تبلغ فى الدولة العثمانية ١٠ ٪ وفى الروسيا ٣ ٪ وفى ايطاليا لم تتجاوز ٣١ ٪ »



على مبارك باشا

اهم المدارس الخصوصية والعالية

وأهم مدارسه العالية والخصوصية مدرسة الهندسة ، ومدرسة الطب والولادة ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة الفنون والصنائع ، ومدرسة اللغة المصرية القديمة ، ومدرسة الألسن والمعلمين (قلم الترجمة) ومدرسة دار العلوم (المعلمين الناصرية) . وكان التعليم فى كل هذه المدارس بالرغبة ، لا بالاكراه كما كان فى عصر محمد على

ولا يتسرَّب الى ذهن القارئ ان كل هذه المدارس أسسها اسماعيل باشا ، بل وضع الحجر الأساسى للكثير منها محمد على باشا ، كمدرسة الطب التى شيدها فى عام ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) كما أسلفنا من قبل . غير ان الفضل يرجع الى الخديوى فى تنظيم هذه

زيادة ميزانية المعارف

المدارس وزيادة ميزانية نظارة المعارف ورفعها أولاً من ستة آلاف جنيه فى عهد سعيد الى أربعين ألف جنيه . ثم وقف عليها أراضى الوادى بعد ان اشتراها ثانية من شركة قناة السويس

انواع الدراسة فى المدارس المختلفة

وكان غرض اسماعيل باشا من قانون رجب سنة ١٢٨٤ هـ نشر التعليم وتوحيد نظامه فى جميع أنحاء البلاد مع مراعاة ما يلائم كل طور من أطوار الدراسة . فكان لا يجهد عقول التلاميذ فى الطور الأول بالمواد التى لا فائدة لهم منها ، بأن جعل التعليم فى المدارس الابتدائية قاصراً على مبادئ الكتابة والقراءة ، وخص المدارس التجهيزية بمن كان يريد التقدم فى مضمار التعليم . أما المدارس العالية والخصوصية فكان يتعلم فيها الطلاب كل العلوم الدراسية وفيها اللغات . وكان يُترك لهم الحرية فى اختيار اللغة التى يتعلمونها بشرط أن يتعلموا اللغتين العربية والتركية . وكان طلاب المدارس الخاصة على قسمين : قسم يتعلم على نفقته الخاصة ، والآخر على نفقة الحكومة ، ولذلك كان يتحتم على هؤلاء أن يخدموا فى وظائف الحكومة مدة معينة . وكان ينتخب أحسن الطلاب لمدرسة الهندسة ومدرسة الطب ، وحثالة التلاميذ تذهب الى المدارس الحربية . وفى ذلك اجحاف عظيم بالمجتهدين من الطلبة ، لأن معظم الترقية كانت فى الجيش

العقبات فى طريق الاصلاح

ولا شك ان هذا القانون الذى يشمل أربعين مادة وضع أساساً متيناً للتعليم فى البلاد ، الا ان الحاجة الى المال والرجال كانتا حجر عثرة فى طريق تنفيذه ، اذ أخذت الحكومة على عاتقها عدة أعباء ثقيلة ، فكانت تعلم التلاميذ مجاناً ، وتتكفل بطعامهم وملبسهم ، وتعطيهم رواتب شهرية ، ولذلك كان الآباء أحياناً يمنعون أبناءهم من الذهاب الى المدرسة اذا قصَّر أولو الأمر فى شىء من النفقة . وربما كان للفلاح عذر فى ذلك ، فان حالته الأدبية كانت منحطة ، وربما كان غير قادر على دفع نفقات التعليم لما كان يعانيه من دفع الضرائب الفادحة والسخرة

وقد شجع الخديوى أعيان الأمة على تعليم أولادهم ، فوضع لهم مثالاً ليحذوا حذوه

الخديوى يضع مثالا للأمة

بأن عُنى بتربية أنجاله وأمراء أسرته . فانه عند توليته نقل مدرسة « المَنْيَل » الى قصر عابدين بعد ان كانت بجزيرة الروضة ، وكان يتعلم بها مع الأمراء ستون تلميذاً من أبناء الأهالى ، فلم يفرق فى المعاملة بين الفريقين ، وكان من المحتم على الأمراء تمضية الامتحانات كغيرهم من التلاميذ*

مدرسة للبنات

ولم تقف همته عند تعليم الشبان من أبناء الأمة ، بل وجّه عنايته الى تعليم البنات أيضاً . فأسس مدرسة لذلك الغرض تحت رعاية احدى زوجاته على نفقتها الخاصة . وكان الغرض منها تعليم البنات المصريات الواجبات المنزلية ، حتى يستغنين عن الإماء والعبيد ، فكانت هذه أول مدرسة من نوعها فى كل بقاع الدولة العثمانية

اوجه نقص التعليم

غير انهُ كان فى هذه المدارس بعض العيوب : فمنهــا قلة الأساتذة الأوربيين الذين يحسنون العربية ، اذ لا يخفى ما فى القاء المحاضرات بواسطة مترجم من النقص. ومنها ان المعلمين الوطنيين كان ينقصهم أشياء كثيرة أخصها معرفة طرق التعليم ، فكان لا همّ لهم الا إنمــاء حافظة التلاميذ ، وهذه بلا شك طريقة عقيمة تذهب بكثير من ثمرات التعليم

دار الكتب

عظم مشتملات دار الكتب

ولا يفوتنا عند الكلام على التعليم أن نذكر ان الفضل فى انشاء دار الكتب الحالية يرجع الى همة الخديوى اسماعيل اذ جمع لها كل ما وصلت اليه يده من الكتب المنسوخة باليد والمصاحف المزخرفة التى كانت مبعثرة فى جميع أنحاء البلاد ، ولا ريب ان هذه المجموعة لا تقل فى بابها عن مجاميع لندن وباريس وتورين. على ان المجموعة الفارسية التى فيها لا يوجد لها نظير فى العالم بأسره

---

* وبعد فترة ألحقت هذه المدرسة بمدارس العباسية التى تمت فى عهد شريف باشا ناظر المعارف فى ذلك الحين حتى صار بها قسم ابتدائى يبلغ عدد تلاميذه ١٢٠٠ وقسم تجهيزى بلغ عدد تلاميذه ٧٠٠ بينهم أمراء الاسرة الخديوية . عدا ثلاث مدارس أخرى ومدرسة للهندسة ومدرسة المعلمين . وكان يجمع الجميع بناء واحد ضخم

مجموعة الأمير مصطفى فاضل

واشترى اسماعيل باشا مجموعة الكتب التى كانت عند أخيه الأمير مصطفى باشا فاضل بعد مماته بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه وأهداها الى دار الكتب

فاسماعيل باشا يُعتبر بما قام بهِ ، وبما تم فى عصره من التعليم والنهوض بالأمة ، من أعظم المشجعين للنهضة الحديثة بالديار المصرية

دار الآثار المصرية

اهمال الآثار المصرية

لا يكاد يوجد فى العالم أرض تضارع مصر فى كثرة آثارها القديمة ونفاستهـا ، الاَّ أن هذه الآثار كانت الى أواخر أيام محمد على باشا مهملة : لا يهتم بها ملوك مصر ، ولا يفتر قناصل الدول الأجنبية وتجارها عن تبديدها وتهريب ما وصلت اليهِ أيديهم منهـا الى بلادهم . فلما قدم شمبليون مصر لدرس النقوش الهيروغليفية عرض على محمد على باشا عام ١٨٣٠ م انشاء مصلحة لحفظ العاديات المصرية ، ولكن الباشا لم يعمل بنصيحته وقتئذٍ ، بتحريض قناصل الدول وتصويرهم مشروع شمبليون بأشنع صورة لأغراضهم الشخصية

مشروع شمبليون

دار الآثار بالازبكية ١٨٣٥م

غير ان نصيحة شمبليون تركت أثراً فى نفس محمد على ، فأصدر أمراً بعد ذلك بخمس سنوات بمنع تصدير الآثار واقامة حراس عليها . وفى ربيع الثانى سنة ١٢٥١ ﻫ (اغسطس سنة ١٨٣٥ م) أنشأ مصلحة للآثار أمام بركة الأزبكية للمحافظة على العاديات والبحث عنها فى أنحاء البلاد . ولم تكن أعمال هذه المصلحة منتظمة فى أول أمرها ، وبقيت كذلك الى سنة ١٢٦٥ ﻫ (١٨٤٩ م) اذ أصدرت نظارة المعارف (التى كانت المصلحة تابعة لها حينئذٍ) أمراً الى «لينان بك» بعمل فهرست للآثار وجمعها فى مكان واحد . الاَّ ان ذلك لم يضرب على أيدى السرقة والمبددين ، حتى انهُ لما نقلت الآثار الى القلعة لم تشغل بها الاَّ حجرة واحدة

بالقلعة

وفى سنة ١٢٦٦ ﻫ (١٨٥٠ م) قدم الى مصر رجل من أذكياء الفرنسيين المشتغلين بالآثار يدعى « المسيو مرِيت » (مريت باشا فيما بعد) أوفدته حكومته

اول قدوم مريت الى وادى النيل لمشترى مخطوطات قبطية ، فعدل عن ذلك وعكف على درس آثار سقارة حتى كشف بها السرابيوم . ولم تكن له علاقة رسمية بمصلحة الآثار وقتئذٍ ، ولكنه لشغفه بالآثار والمحافظة عليها ساعد الحكومة كثيراً حتى زادت محتويات دار العاديات زيادة عظيمة بين سنتى ١٨٥٣ — ٥٤ . ولكن ما لبثت أعماله ان ذهبت أدراج الرياح ، اذ زار مصر فى عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٥ م) « الأرشدوق مَكْسِمِلْيان » النمسوى ، فطلب من عباس باشا الأول أن يهديه شيئاً من العاديات المصرية فسمح له بأن يأخذ كل ما أراد من القلعة ! واذا شاء أحد أن يعرف ما كانت تحويه دار عاديات القلعة فما عليه الاّ أن يذهب اليوم الى فينا

معونته لسعيد باشا أما المسيو «مريت» فانهُ بقى مشتغلاً بالآثار المصرية ، باذلاً وسعه فى أن تكون له صفة رسمية فيها حتى يضمن ثمرة أتعابه ، فتمّ له ذلك فى ذى القعدة سنة ١٢٧٤ هـ (يوليه سنة ١٨٥٨ م) ، اذ جعله سعيد باشا بتوسط المسيو ديلسبس مأموراً لأعمال العاديات بمصر

اعماله وهو مأمور الآثار وقد لاقى فى أول الأمر مصاعب جمة فى تنظيم الآثار وادارة حركتها ، لقلة المال ولعدم ثبات سعيد باشا على مؤازرته ، اذ كان أحياناً يأمر بتوقيف أعماله . ولكنَّ مريت بقى مثابراً على بحثه ، متنقلاً طول النهار بين المصانع والطلال ، حتى أخذت دار العاديات تمتلىء بسرعة ، وسمح له سعيد باشا بنقلها الى مخازن أُعدت لها فى بولاق

معاضدة اسماعيل للمشروع ثم مات سعيد باشا ومشروع مريت فى نشأته ، فحزن كثيراً وخشى أن لا يلقى من اسماعيل باشا ما لاقاه من سعيد من المؤازرة ، ولكنهُ ما لبث ان وجد من اسماعيل باشا اكبر عضد لمشروعه ، فأمر فى الحال باصلاح مخازن بولاق وتوسيعها

افتتاح محل بولاق رسميا وافتتحها بحفلة رسمية فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ هـ (١٨ اكتوبر ١٨٦٣ م)

ثم بقيت دار العاديات سائرة فى طريق التقدم بفضل معاضدة اسماعيل باشا ومثابرة مريت ، ولما أقيم معرض باريز عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) نُقل أجمل ما فيها الى

فى معرض باريز فرنسا لعرضه بالمعرض فكان موضوع اعجاب الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين .

لذلك طلبت « الامبراطورة يوجينى » من اسماعيل باشا أن يبقى العاديات بباريز لاهدائها لفرنسا ، فكاد يجيب طلبها لولا مقاومة مريت باشا

العسر المالى وفيضان النيل

أفلتت العاديات من هذه الأزمة فوقعت بعدها فى ضيق شديد للعسر المالى الذى أخذ بخناق الحكومة فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٢٩٥ ﻫ (١٨٧٨م) فاض النيل على أماكن بولاق وكاد يغرق الآثار . فعُنى مريت بحفظها فى صناديق وبقى محافظاً عليها حتى أعيد افتتاح الدار بعد هبوط النيل

مثابرة مريت

وبقى مريت مثابراً على تنظيم دار العاديات المصرية واصلاحها حتى مات فى



مريت باشا

صفر سنة ١٢٩٨ ﻫ (يناير ١٨٨١ م) وهى تضارع أعظم دور العاديات الأوربية

بالجيزة ثم قصر النيل — وفى عام ١٣٠٨ﻫ (١٨٩١ م) نقلت دار الآثار الى الجيزة ، فبقيت بها الى عام ١٣٢٠ ﻫ (١٩٠٢) اذ نُقلت الى مكانها الحالى قرب قصر النيل

ودفن مريت باشا بناووس فى دار الآثار المصرية لا يزال الى الآن بها يستقبل القادم عليها

٥ ﴿ منع تجارة الرقيق ﴾

بعد ان بذل اسماعيل باشا جهده فى تأمين الأمة على نفسها ومالها ، وساوى بين أفرادها أمام القانون ، وبذل جل طاقته فى رفع شأن الأهالى بالتعليم ، رأى ان من الكرامة والرحمة ان لا يتغاضى عن تجارة الرقيق فى داخل بلاده . فلم يكتفِ بمنعها على الورق كما فعل من قبله محمد على باشا وسعيد باشا ، بل عزم عزماً اكيداً على اقتلاع أصول هذه المهنة والقضاء عليها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولما كانت هذه المهنة عادة متأصلة فى كل البلاد ، وكان الدين الاسلامى بل كل الشرائع السماوية لا تمنع بيع الرقيق بشروط خاصة ، صادف اسماعيل باشا صعوبات جمة فى سبيل تحقيق أمنيته وتنفيذ عزمه

صعوبة منع بيع الرقيق

المستكشفون الانجليز — وكان أول من لفت نظر الأمم المتمدينة الى الفظائع التى تُرتكب فى أواسط افريقية من جراء هذه المهنة كبار المستكشفين من الانجليز ، نخص بالذكر منهم « لفنجستون » و « بيكر » و « استانلى » ، اذ كانوا يروون عن ذلك الحكايات التى تفتت الاكباد وتدمى القلوب ، لما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من الذل والهوان وأنواع العذاب . ومهما بالغ الانسان فى وصف هذه الفظائع فانهُ لا يمكنهُ أن يفهم حالة العبيد والاتجار فيها الا اذا قرأ كتاب « الاسماعيلية » أو كتاب « ألبرت نيانزا » اللذين وضعهما « السير صمويل بيكر » فى هذا الصدد . ويكفى أن نقول هنا ان

فظائع تجار الرقيق

جلابي العبيد خرّبوا بلاد السودان ، بصيدهم ما لا يقل عن خمسين ألف زنجي في كل عام تحت ستر الاتجار في العاج

تخريب السودان

وأول من فكر في القضاء على هذه الحرفة المشؤومة بالفعل ولى عهد انجلترة في ذلك الوقت ، اذ عرض على الخديوى أن ينوط بالسير صمويل بيكر محو الاتجار بالرقيق على النيل الأبيض وتوطيد النظام في السودان . فرحب الخديوى بهذا الاصلاح ، وعزم على ان يضرب بسهم صائب في احشاء هذه السلعة بالرغم من معارضة رعيته وعدم ميلهم لذلك

اسماعيل يعمل بمشورة ولى عهد انجلترة

ولا شك ان تحريم الاتجار في الرقيق صادف قبولاً حسناً في نظر دول اوربا العظام ، الاّ أنهُ أثقل عاتق الحكومة المصرية بما كلفها من النفقات ، اذ أنفق بيكر وحده في هذا السبيل نحو ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . ولم يجد اسماعيل باشا معضداً له من بين رعيته الاّ شريف باشا ونوبار باشا والأنجال والأمراء . أما باقى الرعية فكانوا ينظرون الى المشروع شزراً

كثرة النفقات وقلة الاعوان

وأول أعمال السير صمويل بيكر في هذا السبيل ان الخديوى عهد اليه سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩ م) بالاستكشاف عن الجهات التي قُرب منابع النيل الأبيض وضمّها الى الحكومة المصرية ، فخرج بحملة مصرية الى اقاليم خط الاستواء ، ثم زحف بها حتى بلغ بلدة « جنْدُوكورو » والبلاد الواقعة على بعد درجتين شمالى خط الاستواء ، وأعلن رسمياً إلحاق المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) وكان أينما حل يؤسس باسم مصر نقطاً عسكرية لمنع تجارة الرقيق ، أهمها نقطة « التوفيقية » . وكان بالسودان في ذلك الوقت عدة بيوت تجارية كبيرة لنقل البضائع من أطراف السودان الى مصر ، فجمع أصحابها رجالاً مسلحة من الزنوج وشيدوا لهم معاقل حصينة ليستعينوا بها على الاتجار فيما يريدون ، وخصوصاً تجارة الرقيق لما فيها لهم من الأرباح الطائلة . واستفحل أمرهم في هذه التجارة حتى ان « بيكر » لما عاد من سياحته الأولى وصف للخديوى مبلغ نفوذهم العظيم في القاصية

استكشافات بيكر

قوة تجار الرقيق

مقاومتهم بزعامة الزبير

فأرسل الخديوى الى « حكمدار » السودان أن يتفق مع أصحاب تلك المعاقل على تسليمها للحكومة بمقابل تعويض يدفع لهم ابتغاء منع تجارة الرقيق . فقبل بعضهم ، وامتنع بعضهم الآخر بزعامة « الزبير »

تنصيب الزبير مديراً لبحر الغزال

ومن ذلك الحين صار للزبير شأن كبير فى هذه الحرفة ، وصار رئيس تجار الرقيق. وبنى لنفسه فى « شكا » قصراً يضارع قصور الملوك ، ونظم له جيشاً مسلحا لاقتناص الرقيق ، وبعد مكافحة طويلة بينه وبين الحكومة طلب العفو من الخديوى فجعله مديراً لبحر الغزال دفعاً لتفاقم الشر

تنصيب بيكر حاكماً عاماً

أما السير « صموئيل بيكر » فانه ذهب فى رحلة ثانية الى مديرية بحر الغزال ، ووصل فى سفره الى بحيرة « فكتوريا نيانزا » فرتّب المقاطعات الاستوائية ، وأنشأ فيها نقطاً عسكرية . ولما أخلص النصح فى خدمة مصر لقبه الخديوى حاكماً عاماً على هذه المقاطعات ، فبقى عليها حتى استقال فى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) بعد أن ترك خلفه حكومة مبنية على أساس متين وطرد صيادى الرقيق من هذه الجهات

أعمال غردون

وقام بأعباء العمل بعده الكولونيل « غُرْدون » . وكل من يعرف ما فُطر عليهِ هذا الرجل من شدة البأس والمثابرة على العمل يعلم أنه أتى كل ما يمكن لانسان أن يفعله فى سبيل القضاء على طائفة الجلابين . الاّ انه بمجرد تركه لهذه الأصقاع النائية عادت هذه المهنة الى ما كانت عليهِ ، بل زادت فى الانتشار حتى انه فى أيام قيامهِ بهذه الخدمة فى السودان كان يُجلب الرقيق الى الحدود المصرية ويتجر فيه . وسنتكلم على غردون عند الكلام على السودان

دلا سلا

وكان ثالث رجل قام بهذه الخدمة رئيس جمعية تحريم الاتجار فى الرقيق « كمت دَلاّ سلاّ » ، وكان لا يقل عن سابقه فى النشاط والقوة ، فطارده بجميع قواه فى الوجه القبلى الى الجنادل الثانية (الشلال الثانى) ، فنجح نجاحاً باهراً حتى لم تتمكن قافلة واحدة من قوافل الرقيق من الوصول الى أسيوط

ومع ما بذل كل هؤلاء الثلاثة فى سبيل منع الرقيق لم يتمكن أحد منهم الا

نسكين هذه الرذيلة مدة وسدّ بعض الطرق فى وجهها. وقد صرح الثلاثة ان من المستحيل محو هذه المهنة دفعة واحدة. ولاشك أن الصعوبات أمامهم كانت عظيمة، ولا سيما أن شيخ الجامع الأزهر فى ذلك العصر أوعز الى الخديوى أن تحريم الرقيق جملةً مخالف للشرع. الاّ أن الخديوى رغم ذلك، ورَغْمَ عدم مساعدة الدول له مساعدة جدية، أمضى معاهدة مع برطانيا العظمى لمنع بيع الرقيق فى ٢٤ رجب سنة ١٢٩٤ هـ (٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م) وأخرى فى المحرم سنة ١٢٩٥هـ (يناير سنة ١٨٧٨م) وهذا منتهى ما يمكن لانسان أن يأتى بهِ. وفى الحقيقة لم يَغْلُ « اللورد ابريدين » الانجليزى حين قال: « انهُ لا يتسنَّى لأى حاكم شرقى أو أوربى أن يعمل على محو الرقيق وتحسين حالة رعيته فى زمن قصير كما فعل حاكم مصر الحالى » (يعنى اسماعيل)

صعوبة العمل

معاهدتان مع انجلترة

٦ — ﴿ منح السلطة للنظار وانشاء مجلس شورى النواب ﴾

كان أول من سار بالبلاد فى سبيل الحكم الدستورى محمد على باشا، اذ رأى ضرورة اشراك الرعية معه فى تدبير شؤون مصر. فألف من كبار رجال حكومته مجلساً يسمى « المجلس المخصوص » ليعاونه فى ادارة شؤون البلاد، ويمكن اعتبـاره الأساس لمجلس الوزراء الحالى. وأنشأ أيضاً مجلساً للشورى (مجلس المشاورة الملكى) ألّفه من العلماء والأعيان

مجلسان فى عهد محمد على

وقد مُحى هذان المجلسان بعد وفاة محمد على، وبقيا كذلك الى أن جاء اسماعيل باشا فأعاد المجلس المخصوص وناط بهِ فحص جميع المشروعات التى يريد ادخالها وكان يرأس جلساته بنفسه فى الغالب، وزاد من اختصاصه حتى صار شبيهاً بمجلس الوزراء الآن. غير أنهُ بقى هو صاحب النفوذ المطلق لا يعمل نظّاره إلاّ برأيه. فلما تدخلت الدول الأوربية فى شؤون مصر طلبت اليهِ أن يمنح أعضاء المجلس سلطة فعّالة بحيث يكونون هم المسئولين عن قراراته. فشكّل وزارة مؤاخذَة برياسة نوبار باشا سنة ١٢٩٥هـ (اغسطس سنة ١٨٧٨م) كان ضمن أعضائها اثنان من الأجانب (كما سيأتى مفصلاً

اسماعيل يعيدهما

مجلس النظار

عند الكلام على المسائل المالية) فكان ذلك أول مجلس نظار أنشيء بالديار المصرية

مجلس الشورى — وأعاد اسماعيل باشا أيضاً مجلس الشورى وسماه « مجلس شورى النواب » وافتتحه فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٣ هـ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦) ، وهذه من أهم الخطوات فى سبيل الحكم النيابى فى جميع ممالك الشرق بأسرها . وكان انتخاب هؤلاء الأعضاء

طريقة الانتخاب — بأغلبية الأصوات فى جميع البلاد ، إلاّ أن عيبهـا الكبير هو أن المدير كانت له اليد الفعالة فى انتخاب الأعضاء ، ولذلك كان معظمهم يُنتخب من أغنياء المديريات من غير نظر الى علمهم ومداركهم ، وكان أغلبهم يأبى أن يكون منتخباً مخافة أن يُغضب المديرَ أو الحكومة فى أمر من الأمور ، حتى أن الحكومة كانت تضطر فى أغلب الأحيان الى انتخاب الأعضاء بالقوة الجبرية . ويقال ان اسماعيل باشا لم يكن غرضه من هذا المجلس أن يتدخل معهُ فى أمور البلاد بل ليشاركه اعضاؤه فى المؤاخذة . وكانت وظيفة هذا المجلس أن يناقش الحكومة ويبدى لها رأيه فى كل التغيرات المالية ، وفى المشروعات العامة الجديدة ، وكل ما يتعلق بصالح البلاد من الأمور التى تعرضها عليه الحكومة . وكان يجتمع فى كل عام مدة شهرين فتعرض عليهِ الحكومة التقرير السنوى عن ادارة البلاد أثناء العام

جهل الاعضاء — وكان أعضاء هذا المجلس لا يدرون فى أول الأمر شيئاً من أعمال المجالس النيابية ونظامها . فلما همّ شريف باشا بتعليمهم واجباتهم وطريقة السير فى العمل ظهر من جهلهم وغرارتهم ما يضحك

٧ — ﴿ التقدم المادى والأعمال العامة ﴾

يجدر بنا الآن بعد أن تناولنا الكلام على الاصلاحات الاجتماعية والأدبية فى عصر الخديوى اسماعيل باشا أن نذكر شيئاً من اصلاحاته المادية التى لا تزال آثارها تدل على عظمته وعلى ما كان يطمح اليه فى سبيل رقى البلاد وفلاحها

وان كثيراً من أعداء اسماعيل يدّعون انه لم يفد البلاد ، ولم يقم فيها بعمل يذكر ،

الا ما شيّد من القصور العديدة والمبانى الضخمة ، والبذل عن سعة فى ملاذه وأغراضه حتى استنفد أموال البلاد وتركها تنوء تحت عبء ثقيل من الديون ، ولكننا سنظهر هنا بالبراهين القاطعة ، مستشهدين بكلام مشاهير عصره ، ان أكثر أقوالهم غير مطابق للواقع ، وأن اسماعيل باشا أفاد البلاد ورقاها ، وان ما قام بهِ وتم فى عصره من الاصلاحات والمشروعات العامة لا يضارَع ولا يتسنى لأى حاكم آخر فى موضعه أن يأتى بمثله . إلاّ أن خطأه الوحيد يرجع الى السرعة وتعدد المشروعات وعدم الحيطة فى الانفاق على أعماله

الزراعـة

كان اسماعيل يعلم أن ثروة البلاد فى زراعتها ، لذلك وجّه جانباً عظيماً من عنايتهِ الى تحسين حالها . فكان أول عمل قام بهِ أن حفر أكثر من مائتى ترعة ، ورصف مسافات طويلة من شواطئ النيل ، وأنشأ آلاف الأميال من الطرق الزراعية فى جميع أنحاء القطر ، وأقام عليها ما لا يقل عن ٥٠٠ قنطرة : من أهمها قنطرة الجزيرة (كبرى قصر النيل) التى تعتبر من أعظم الأعمال الهندسية فى القطر المصرى . ثم أصلح ما لا تقل مساحته عن ١,٥٠٠,٠٠٠ من الفدادين ، فزاد بذلك الأراضى المزروعة فى القطر بنسبة ٣٠ ٪ . وان لم يكن لاسماعيل باشا حسنة أو اصلاح فى البلاد غير هذه لكفى

اصلاح الرى

زيادة الاراضى المزروعة

وفى أوائل حكمه اشتعلت نار الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة ، فحصرت ولاياتُ الشمال تجارةَ الولايات الجنوبية ومنعت صدورها الى أسواق أوربا ، وفى ذلك القطن الذى لا غنى لانجلترة وفرنسا عنه ، فارتفعت بذلك أسعار القطن فى مصر ارتفاعاً لا مثيل له . فانتهز الخديوى هذه الفرصة وأكثر من زرع هذا المحصول ، وشاركه فى ذلك الأهلون من تلقاء أنفسهم ، حتى صار المال يتدفق الى مصر تدفقاً ، وزادت قيمة الصادرات المصرية من ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) الى

الحرب الاهلية الامريكية والقطن المصرى

١٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤م) . ولكن ما لبثت الحرب الامريكية أن انتهت ، وعادت أثمان القطن الى حالتها الاولى

قصب السكر

فوجه الخديوى عنايته الى زرع قصب السكر ، فكان ذلك شغله الشاغل ، وأنفق عليه الأموال الطائلة ، وسخر الاهالى فى زرعه ، وأنشأ من أجله خطاً حديدياً من القاهرة الى أسيوط . وقد احتكر زراعته فى أملاكه الخاصة على الضفة اليسرى من النيل بين القاهرة وأسيوط ، واشترى لصنعه من الخارج الآلات الكافية لتشييد أربعة وعشرين معملاً أقيم بعضها وأهمل بعضها الآخر . وقد أنفق اسماعيل على هذه المعامل وما يلزمها سبعة آلاف ألف جنيه ، عدا نفقات الترعة البراهيمية التى حفرها لرىّ هذه الاراضى ، وسخر فى حفرها عدداً عظيماً من أهالى القطر ، وبعد أن أتم حفرها نصب عليها الآلات الرافعة . وهذه الترعة من أكبر الترع التى أنشئت فى مصر وأعظمها فائدة وأكثرها نفقة

وكان معظم العمال الذين يشتغلون فى معامل السكر يُجبرون على العمل ويتقاضون أجورهم اما من السكر أو العسل

التجـارة

بناء ١٥ منارة

ووجّه اسماعيل همه أيضاً نحو تحسين حال التجارة ، لعلمه ان مصر كانت من قديم الزمان مركزاً عظيماً للتجارة . فبنى خمس عشرة منـارة فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، لترشد السفن التجارية القادمة الى مصر ، فأنفق عليها ما لا يقل عن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، ثم شرع فى بناء مرافئ ميناء الاسكندرية وميناء السويس ، فناط اصلاح ميناء السويس بشركة فرنسية ، وبلغت نفقاته ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . أما ميناء الاسكندرية فانه عهد أمر اصلاحه الى شركة انجليزية عقدت معه اتفاقاً على ألفى ألف وخمسمائة ألف جنيه . وقد اعترف « السير رِفَرْز وِلْسُن » أحد الموظفين فى الحكومة المصرية فى عهد اسماعيل ان هذا الاتفاق كان مجحفاً بمصر ، وان الميناء لم

مرافئ الاسكندرية والسويس

ينفق عليهِ اكثر من خمسمائة الف والف الف . فخُدع اسماعيل فى هذا العقد كما خُدع قبله سعيد باشا فى عقد قناة السويس . وهذا فى الحقيقة مثَل من كثير من أنواع الاتفاقات التى كان يُخدع فيها اسماعيل ويُضيع من جرائها الأموال الطائلة

الاسطول التجارى

وبنى أيضاً أسطولاً تجارياً ليحمل المتاجر والبريد بين مصر والدولة العلية وبلاد اليونان وغيرها ، وأنفق عليهِ خمسمائة ألف وألف ألف من الجنيهات

الأعمال العامة

قام اسماعيل باشا بعدة مشروعات وأعمال عامة تمت فى عصره فأفادت البلاد وجعلتها تضارع البلاد الأوربية فى المدنية والحضارة

السكك الحديدية

ومن بين هذه المشروعات مد السكك الحديدية فى جميع أنحاء البلاد ، وقد أنفق عليها الأموال الطائلة . وكان طول ما أُنشئ من السكك الحديدية قبل توليته لا يزيد عن ٣٣٠ ميل ، فازدادت فى مدته حتى بلغت ١٣٣٠ ميل ، أنفق عليها ما يقرب من عشرة آلاف ألف من الجنيهات

وقد شرع فى مدته أيضاً فى مد خط حديدى يخترق أواسط افريقية مبتدئاً من دنقلة ، فكان تصميمه أن يبلغ ١١٠٠ ميل . الاّ أن العمل أوقف لقلة المال بعد ان دُفع من نفقاته ٤٠٠,٠٠٠ جنيه . على ان هذا الخط لو تم لأتى بنفقاته فى مدة سنين قلائل ، لمروره فى وسط سهول فيها الأنواع الكثيرة من الحيوان مما يكفى لسد حاجات مصر بل كل جنوبى اوربا ، كما أثبت ذلك القائد « استون » رئيس أركان حرب الجيش المصرى حينما كان يستكشف عن أواسط افريقية ، اذ قال : « ان محصول الحيوان فى هذه الجهة لا ينفد »

الاسلاك البرقية والبريد

وأنشأ اسماعيل باشا أيضاً ما لا يقل عن ٥,٢٠٠ ميل من خطوط الأسلاك البرقية ، واشترى مصلحة البريد من أحد الغربيين المدعو المسيو « شينى » فى عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) ، وبذلك أصبحت تحت ادارة الحكومة ونفوذها . وأسس ما

يزيد على ٢١٠ من مكاتب البريد فى طول البلاد وعرضها، فكان مقدار ما وُزع من الخطابات فى عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) يبلغ ٢,٥٠٠,٠٠٠

الغاز والمياه والشوارع

وأنار أيضاً امهات المدن كالاسكندرية والقاهرة بالغاز، ومدّ بهما أنابيب المياه وأنشأ الشوارع الفسيحة بالقاهرة والاسكندرية والسويس وزيّنها على النمط الغربى الحديث، وقد بلغ ما أنفقه عليها ما يقرب من ثلاثة آلاف ألف من الجنيهات

وان أكبر دليل قاطع على تقدم البلاد المادى ازديادُ صادراتها ووارداتها فى ذلك العصر ازدياداً مُطّرداً

٨ — ✱ حروب اسماعيل باشا والفتوح التى تمت فى عصره ✱*

تنظيم الجيش

لم يكن اسماعيل باشا ميالاً للحروب كجده الاكبر محمد على، الاّ أنهُ رغم ذلك كان يُعنى بجيشه عناية كبيرة، اذ أحضر له كبار الضباط من الممالك الأوربية وأمريكا لتدريبه، نخص بالذكر منهم «استون باشا» الأمريكى رئيس أركان حربهِ

عدده

وقد بلغ أقصى عدد الجيش النظامى فى عصره ستين ألف مقاتل مسلحة بنحو ١٤٤ مدفعاً، عدا ثلاثين الف مستحفظ وستين ألف جندى غير نظامى

آمال الخديوى فى افريقية

وكان من أهم أغراض اسماعيل باشا توسيع نطاق ملكه فى افريقية وضم كل ما يمكن كشفه أو فتحه من أراضيها الى مصر. فمن ذلك انهُ عهد الى السير صَمْويل بيكر بالاستكشاف عن الجهات التى قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى الحكومة المصرية (١٢٨٦ هـ : ١٨٧٠ م) كما سبق ذكره عند الكلام على منع الرقيق

منزنجر فى مصوع

وفى عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) ولى «مُنزِنجَر» السويسرى محافظاً على «مصوّع»، وكان الخديوى قد اشتراها هى وسواكن من الباب العالى فى عام ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) فى مقابل ضريبة سنوية قدرها ٣٠,٠٠٠ جنيه. وقد اهتم «منزنجر» هذا بتوسيع أملاك مصر فى السودان الشرقى فألحق بها «بلاد البوغوس» و «بركة القضارف»

* انظر خريطة السودان المصرى

غردون فى خط الاستواء

أما فى وادى النيل فقد طلب الخديوى من الحكومة الانجليزية بارشاد ولى عهد انجلترة أن تمنحهُ تنصيب القائد « غردون » مديراً لمقاطعة خط الاستواء . فوصل الى مصر ونصبهُ الخديوى « حكمداراً » لخط الاستواء فى ذى الحجة سنة ١٢٩٠ ﻫ (يناير سنة ١٢٧٤ م) . ومن ذلك الحين اهتم الخديوى بأمر السودان اهتماماً عظيماً ، فقسم بلاده الجنوبية الى قسمين : أولهما السودان الحقيقى (وآخرُ حدوده «فاشودة» جنوباً) ، وجعل ادارته لحاكم السودان العام . والثانى اقليم خط الاستواء وهو ما كان جنوبى فاشودة ، وجعله تحت ادارة غردون . فبسط غردون نفوذ الحكومة المصرية على تلك الجهات ، وأسس النقط العسكرية لضبط السفن التى تتجر بالرقيق

بسطه نفوذ مصر هناك

فتح دارفور

اقتراح الزبير

وفى عام ١٢٩٠ ﻫ (١٨٧٣ م) حسّن « الزبير » للخديوى أمر فتح بلاد دارفور ، وكانت مملكة مستقلة ، فعضدته الحكومة المصرية ، وتلاقى الزبير بجيش سلطان دارفور المؤلف من ٢٠ الف مقاتل ، فهزمه مراراً وانتهى الأمر بفتح هذه البلاد ، وصارت تابعة للحكومة المصرية .

فتحه دارفور

فعهدت الحكومة الى الزبير ادارة الجهات الجنوبية من دارفور ، ومنحهُ الخديوى رتبة باشا . ثم شكا الزبير كثيراً من ثقل الضرائب على الأهالى ، وطلب أن يتشرف بمقابلة الخديوى ، فأذن له بذلك ، فسافر

تنصيبه مديراً لها

الزبير باشا

قدومه مصر

ابقاؤه بها

الى القاهرة وأناب عنه قبل سفره اليها ابنه سليمان . ولما لم يزل الزبير مطالبه عند قدومه الى القاهرة لم تأذن له الحكومة المصرية بالرجوع الى السودان، وأبقته فى القاهرة مخافة أن يثور بالسودان عند عودته

فتح هَرَر

تنازل تركيا عن زيلع

فى سنة ١٢٩٢ ﻫ (١٨٧٥ م) تنازلت الدولة العلية للحكومة الخديوية عن مدينة « زَيْلَع » وملحقاتها فى مقابل مبلغ تدفعه سنوياً قدره ١٣٫٣٦٥ جنيه مصرى وبعد أن ضُمت زيلع الى الأملاك المصرية أخذت الجنود المصرية تستطلع أحوال « هَرَر » وتتعرف مسالكها . ولما تم لها ذلك سارت فرقة بقيادة « محمد رؤوف باشا»

ضم هرر

فى شعبان سنة ١٢٩٢ ﻫ (سبتمبر ١٨٧٥ م) فوصلت بعد قليل الى مدينة هرر، واحتلتها بدون مقاومة تذكر ، ورفعت العلَم المصرى فوق قصر أميرها

حملة نهر جوبا وجهات قِسْمايو

حملة ما كيلوب باشا فى الصومال الجنوبية

ولما أن تم للخديوى توسيع الأملاك السودانية من الجهة الجنوبية عزم على ارسال حملة الى بلاد الصومال الجنوبية لضم البلاد الواقعة على نهر جوبا الى مصر حتى يتسنّى له إيصال أملاكها فى تلك الاصقاع بما لها فى جهات خط الاستواء . فجهز لذلك حملة بقيادة «ما كيلوب باشا» من طريق البحر فى شهر المحرم سنة ١٢٩٢ ﻫ (فبراير ١٨٧٥م) فلما وصلت الى بلدة « براوة » الواقعة شرقى نهر « الجُب » خضعت بعض القبائل للحكومة المصرية . ثم ترك فيها ما كيلوب باشا محافظاً وحامية وتقدم الى « قِسْمايو »

حنق زنجبار وانجلترة

عند مصب نهر جوبا . ولما لم تتمكن الجنود من السير فيه بالقوارب رجعوا الى « قسمايو » ونزلوا الى البر، وأخذت الحملة تستكشف عن النهر . ولكن الحكومة رأت أن تستدعى ما كيلوب باشا وحملته خوفاً من وقوع المشاكل بينها و بين حكومة زنجبار التى

رجوع الحملة

كانت تحت حماية انجلترة، هذا الى نشوب الحرب وقتئذٍ بين مصر والحبشة

حرب الحبشة

مشكلة الحدود بين مصر والحبشة

علمنا فيما سبق أن الحكومة المصرية ضمت الى أملاكها فى السودان الشرقى بلاد البوغوس وبركة القضارف على يد « منزنجر باشا » والى مصوع . ثم أرادت أن تعيّن الحدود بينها وبين الحبشة من تلك الناحية ، وأن تستولى على بعض مقاطعات تتمكن بها من مدّ طريق حديدى بين مصوع والخرطوم على طريق كسلة « والتاكة » . فجردت لذلك حملة بقيادة « أرندروب بك »

حملة ارندروب بك

فلما وصلت هذه الحملة الى بلدة «سعد زجه» ورأى النجاشى توغل الجنود المصرية فى بلاده أخذ يتقهقر أمام القوات المصرية خديعةً منه . حتى اذا وصلت الجنود المصرية الى بلدة « عدخالة » أرسل القائد « ارندروب بك » الى ملك الحبشة « يوحنا » يطلب منهُ جعل نهر « خور الجاش » الحد الفاصل بين الأملاك المصرية والحبشة ، فلم يقبل . وكان « ارندروب » قد بلغه أن ملك الحبشة يستعد للهجوم عليه من ثلاث جهات ، فعزم على أن يبدأه بالهجوم ، فتقدم نحو « جونديت » واشتبك مع العدو وكان جيشه أضعاف الجيش المصرى يقوده النجاشى نفسه ، فكانت الدائرة على الجيش المصرى ، وفنى معظمه وقتل قائده العام . وتقهقرت فلوله الى الحدود الأصلية بين الحبشة ومصر

الحبشة ترفض طلبه

هزيمة الجيش المصرى

فشل حملة منزنجر

وكان الخديوى فى هذه المدة أمر منزنجر باشا حاكم السودان الشرقى والبحر الأحمر أن يجرد حملة على بلاد الحبشة ويذهب بها من طريق « غندار » (عام ١٨٧٥ م) فخرج عليهِ بعض القبائل فى الطريق ، فاغتاله وفتكت بجيشه

ولما ذاعت أخبار هذه الهزيمة غضب الخديوى وعزم على الفتك بالحبشة محافظةً على شرف الجيش المصرى، فأخذ يجهز لذلك جيشاً عظيماً نصّب عليهِ «راتب باشا» قائداً عاماً والجنرال « لورنج باشا » الأمريكى رئيس أركان الحرب له

جيش عظيم للفتك بالحبشة

وبعد ان تمت كل المعدات أخذت السفن تنقل الجيوش من السويس الى

وصول راتب باشا الى قرع

مصوع . وكان الخديوى قد أصدر أمراً لثالث أنجاله «الأمير حسن باشا» بمرافقة الحملة تشجيعاً للجنود وتدريباً له . وبعد ان نزلت كل الجنود فى مصوع أخذ الجيش يزحف على بلاد الحبشة ، فاستمر فى التوغل حتى وصل الى «قرع» فى ٣ المحرم سنة ١٢٩٣ هـ (يناير سنة ١٨٧٦ م) بعد ان ترك وراءه بعض الجنود لحفظ خط الرجعة بين مصوع والحبشة . ولما عسكر الجيش فى قرع وأقام الاستحكامات رأت القبائل المجاورة قوته ، فأخذت تنضم اليه وتذعن له بالطاعة

اما الأحباش فانهم لما رأوا ذلك جمعوا جيشاً عظيماً بقيادة النجاشى وقصدوا المصريين أولاً فى «قياخور» ، وكانت تحميها قوة مصرية بقيادة «عثمان رفقى باشا» ، فلم يفلحوا فى مهاجمتها لمناعة الاستحكامات المصرية ، فقصدوا جيش القائد العام وأخذوا فى مهاجمته عند قرع ، وبعد معركة لم تدم طويلاً تشتت شمل الجيش المصرى بعد ان هزم شر هزيمة وقتل منهُ عدد عظيم ، منهم «محمد على باشا الحكيم» الطبيب الشهير ، وقد نجا القائد العام والأمير حسن بعد ان رأيا الهلاك عياناً . أما الأحباش فكانت خسارتهم أيضاً فى هذه الحروب جسيمة

القتال بالجيش المصرى

الصلح

ثم ابتدأت المفاوضات فى أمر الصلح ، فقبلت الحكومة المصرية المهادنة بشرط ان ترد الحبشة ما أخذته من الأسلحة المصرية ، وان تكون التجارة متبادلة بين المملكتين . فامتنع ملك الحبشة من رد السلاح معتذراً بأن جيشه ليس منظماً حتى يتسنى له جمع كل الأسلحة . وبعد مدة وجيزة تقرر الصلح واذن ملك الحبشة بعودة الأسرى (٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ : ابريل سنة ١٨٧٦ م) . ثم عاد القائد العام والأمير حسن وفلول الجيش المصرى

رجوع غردون الى الحكومة المصرية

غردون حاكماً عاماً للسودان

وفى عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م) دعا الخديوى «غردون باشا» للخدمة فى الحكومة المصرية ، فاشترط عليهِ أن يجعله الحاكم العام على جميع الأقطار السودانية ، فقبل منهُ

ذلك . ولما تولى الأمر فى هذه الأصقاع الواسعة رأى عدم استطاعته الانفراد بالحكم فيها وادارة شؤونها وحده ، فقسم المديريات الاستوائية الى قسمين : سمى الأول منهما «مديرية خط الاستواء» وجعل مقرها « لادو » ، وجعل الحاكم عليها امين باشا (الدكتور شنتزر) ، اما القسم الثانى فانهُ سماه « مديرية بحر الغزال » وجعل المدير لشؤونها المسيو « جِسّى » الطليانى

تنظيمه السودان

وكان للمسيو جسى اليد الطولى فى كشف جميع مجاهل هذه المديرية ، وقد أحسن معاملة الأهالى فيها وعودهم الأعمال العسكرية وشجعهم على انشاء السفن للاتجار ، فكان ذلك مدعاة لحنق الجلابين ، لأن فيـه كساداً لتجارتهم . فأرادوا أن يخرجوا عليهِ ، فتجمعوا بقيـادة « سليمان بن الزبير » الشديد الحنق على الحكومة المصرية لمنعها والده من العودة الى بلاده

جسى فى بحر الغزال

فلما علم غردون بذلك وجّه اليهِ بعض الجنود تحت امرة «جسى» ، فتقاتلا قتالاً شديداً كان النصر فيهِ حليف الجيش المصرى . وقُتل سليمان فى هذه الموقعة . وقد وجد «جسى» معهُ رسائل من والده « الزبير باشا » تدل على انهُ كان هو المحرض على هذا العصيان

قهر ابن الزبير وقتله

وبقى غردون يدير شؤون السودان ويكافح تجارة الرقيق فيهِ حتى استقال فى أوائل حكم توفيق باشا

استقالة غردون

٩ — ﴿ اتمام قناة السويس ﴾

سبق ان أفردنا فصلاً فى هذا الكتاب للكلام على ترعة السويس أوضحنا فيهِ مشروع حفرها وأتينا بشىء من تاريخ هذا المشروع منذ أزمان غابرة . ولا بدّ لنا من كلمة هنا على افتتاح هـذه الترعة ، لأن ذكرها مقرون دائماً باسم اسماعيل ، اذ له العمل الأكبر فى نجاح مشروعها واليد القوية فى انجازه بعد ان دخل فى طور احتضار وكاد يذهب ادراج الرياح

اسماعيل بطل المشروع

حفلة افتتاح القناة

عزَّ على اسماعيل باشا أن يقف هذا المشروع الخطير بعد أن قارب الانتهاء ، فأقبل عليهِ يعضده بكل الوسائل ، حتى اذا قرب أجل افتتاح الترعة أخذ على عاتقه أن يتكفل باقامة حفلة الافتتاح على نفقاته الخاصة ، غير مدّخر وسعاً فى جعلها على حال من العظمة والفخام بحيث تلائم ذلك المشروع الخطير

بعض الزائرين

أقام اسماعيل باشا حفلة الافتتاح بالاسماعيلية ، فكانت غاية فى الإبداع : دعا اليها ملوك أوربا وامراءها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ، فأجاب الدعوة منهم عدد عظيم ، وفى مقدمتهم « الامبراطورة يوجينى » (زوجة امبراطور فرنسا نابليون الثالث) ، ثم امبراطور النمسا « فرنسيس يوسف » ، والأمير فردريك ولى عهد ألمانيا

عظم الاستعداد

ثم اخذ اسماعيل باشا يعد المعدات ويقيم الزينات ، غير ضانّ بما يحمّله ذلك من المال ، ظاناً ان فى ذلك ارضاءً لزوّاره الاوربيين ووسيلة الى رفع قدره وقدر مصر فى أعينهم . ومن أهم ما أعده لتلك الحفلة أن شيّد بالاسماعيلية قصراً بديعاً على شواطئ بحيرة التمساح ، لتقام فيهِ حفلة راقصة احتفاءً بالامبراطورة يوجينى ، لِما كان لها من المكانة فى هذا الاحتفال ، إذ كانت هى النائبة فيـهِ عن فرنسا صاحبة المشروع .. وأقام السرادقات الفخمة المزينة بجميع أنواع الزينة ، لتُمدّ فيها الأسمطة للزائرين ايام الاحتفال

قصر الاسماعيلية

انشاء طريق الهرم

ولما علم أن الامبراطورة يوجينى ربما تود أثناء اقامتها فى مصر أن تزور الاهرام أمر أن يُنشأ على وجه السرعة طريق يصلح لسير العجلات (العربات) من القاهرة الى قاعدة الهرم الأكبر . فجدّ فى انشائهِ نحو ١٠,٠٠٠ عامل حتى تم فى أقل من ستة أسابيع . ومن المبانى التى شيّدها سريعاً بمناسبة هذا الاحتفال ايضاً ما هى « الأوبرا » بالقاهرة

اما ما لاقاه الزائرون فى مصر من انواع الكرم والحفاوة فلا يكاد يدخل تحت وصف ، إذ كان قدومهم من أوربا وعودتهم اليها على نفقة مصر ، وسُمح لهم بالسفر مجاناً فى جميع خطوط السكك الحديدية ، وأمرت الحكومة موظفيها أن لا يدّخروا وسعاً فى مساعدتهم وارشادهم أثناء وجودهم بمصر ، وأعدت لهم العجلات والدواب والتراجمة بدون مقابل . وفى الجملة لا نكون مغالين اذا قلنا انهُ كان فى استطاعة كل

اكرام الزائرين

منظر افتتاح قناة السويس بالاسماعيلية

زائر أن يقضى بمصر نحو شهرين من غير أن يصرف درهماً واحداً من ماله . وقد بلغ مجموع ما أنفق على هذا الاحتفال نحو ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه — نفقات الحفلة

وكانت الحفلة فى شعبان سنة ١٢٨٦هـ (نوفمبر سنة ١٨٦٩ م) ، وبها ابتدأ طور جديد فى تاريخ الملاحة . فصارت السفن التى تجرى بين الشرق والغرب تسير بطريق ترعة السويس بعد ان كانت تعانى اعباء الرحلة الطويلة حول جنوبى افريقية . وقد كان لابتداء هذا الطور وقع عظيم فى أنحاء العالم المتمدين ، ولم يأت ذكره فى ناد من الأندية أو دائرة من الدوائر الا كان مقروناً باسم بطله الأكبر « اسماعيل باشا خديوى مصر » — طور جديد فى الملاحة

الفصل الرابع

المسألة المالية وانتهاء حكم اسماعيل باشا

لو نظرنا الى مقدار ما قام بهِ « اسماعيل باشا » من المشروعات والأعمال العامة فى أنحاء البلاد ، وراعينا ما كان فى قصوره وحفلاته من أنواع البذخ والأبهة مما ضارع بهِ اكبر ملوك الأرض ، علمنا ان ذلك كان يتطلب نفقات جمة تضيق خزائن مصر عن تحملها . فكان رحمه الله يستعين على ذلك بانجاز بعض أعماله من غير أن يدفع أجرها نقداً فيبقى عليهِ ديناً (وهو ما يسمى بالدَّين السائر) ، ويقترض ديوناً من الدول الأوربية لتسديد نفقات بعضها الآخر (وهذه تسمى ديوناً ثابتة) . وكانت الديون الثابتة لا تعطى الاَّ اذا قُدِّمَ لأصحابها ما يضمن سدادها ، مثل دخل بعض مصالح الحكومة ، والأموال المجبية من بعض المديريات . فاذا تعذر عليهِ الحصول على ما يفى من الدول الأوربية لجئ الى جمع ما يطلبه من المال من أهل البلاد : سواء أكان ذلك بزيادة الضرائب أم باقتراض ديون أهلية — كثرة النفقات — انواع الديون

ومن أشهر ما جمعهُ بهذه الطريقة الأخيرة المبالغ التى جباهـا بمقتضى القانون

قانون المقابلة — المعروف بقانون « المقابلة » . أُعدّ هذا القانون بمشورة ناظر المالية الشهير « اسماعيل باشا صِدِّيق المفتش » ، الذى يعرف اسمه كل فلاح عاش فى هذا العهد ، والذى كانت له المقدرة العظيمة فى جباية الضرائب من الفلاحين . ومؤدّاه ان كل مالك من ملاّك الأرض يمكنهُ أن يصبح مُعْفى على الدوام من دفع نصف ما عليهِ من الضريبة السنوية ، اذا دفع للحكومة ما يعادل تلك الضريبة ستة أعوام ، وله أن يدفع هذا المبلغ جملةً أو على ستة أقساط سنوية (وفى هذه الحالة تُدفع ايضاً الضريبة الأصلية حتى يتم تسديد الأقساط)[١]

صعوبة القرض — ولما كثرت الديون الأوربية على مصر ، وأوشكت موارد الضمان التى يمكن تقديمها عنها أن تنفد ، أصبح من الصعب اقتراض ديون جديدة ، وما أمكن اقتراضه منها كان بأرباح باهظة جداً لم يسبق لها مثيل . من ذلك ان اسماعيل باشا استقرض فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٠هـ (يونيه سنة ١٨٧٣م) ديناً قدره ٣٢،٠٠٠،٠٠٠ جنيهاً ليسدد بهِ جميع الديون السائرة ، فلم يتمكن من عقد القرض الاّ فى شهر مايو سنة ١٨٧٤ فكان مجموع ما قبضته الحكومة بالفعل من هذا الدين بعد طرح جميع أنواع النفقات والخصم و(السمسرة) يبلغ ٢٠،٠٦٢،٠٠٠ جنيهاً فقط ، أى بنقص ٣٧ ٪ عن مقدار ما حُسب ديناً على الحكومة ، فضلاً عن ان المبلغ الذى قبضته الحكومة لم يدفع كله نقداً بل كان منه ٩،٠٠٠،٠٠٠ جنيه من سندات الخزانة المصرية[٢]

الرزنامة — وتعهد اسماعيل باشا فى عقد هذا القرض أن لا يقترض ديوناً أخرى مدة سنتين ثم اشتدت حاجته الى المال ، فلجئ الى جمع قرض من الأهلين يعرف بدين « الرُزْنامة » . وشروطه ان كل من يدفع للحكومة مبلغاً يأخذ نظيره دُفَعاً سنوية على الدوام قدر كل منها ٩ ٪ من أصل ما دفعه . فجمعت الحكومة بهذه الطريقة

---

(١) كل من له المام بالرياضة يعلم ان هذه الطريقة فيها غبن فاحش للحكومة

(٢) معنى ذلك ان الحكومة نظير حصولها على ١١،٠٠٠،٠٠٠ جنيهاً نقداً فقط زادت دينها بقدر ٢٣،٠٠٠،٠٠٠ جنيهاً (الفرق بين ٣٢،٠٠٠،٠٠٠ و ٩،٠٠٠،٠٠٠)

٣،٤٢٠،٠٠٠ جنيهاً ، ولكنها لم تدفع من الدُفع السنوية المذكورة الآ جزءاً من دفعة السنة الأولى فقط

اشتداد الازمة

وفى سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ازدادت أزمة الخديوى المالية ، وصار يصدر سندات على خزائن الحكومة بقيمة تقل كثيراً عن قيمتها الاسمية . ولما اشتدت الأزمة على الحكومة عرضت ما لها من أسهم القناة للبيع ، (وكان عددها ١٧٦٦٠٢) فاشترتها الحكومة الانجليزية بثمن بخس يقل عن ٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . فلم يفرج ذلك شيئاً يذكر من الأزمة ، وصار يُخشى كل يوم من تدخل الدول الأوربية فى شؤون مصر محافظةً على الأموال التى أقرضتها رعاياها الحكومة المصرية

وفد كيف

وفى رمضان سنة ١٢٩٢ هـ (اكتوبر سنة ١٨٧٥م) حدث ما يمكن اعتباره مبدأ التدخل الأوربى فى الشؤون المصرية . وذلك ان «الخديوى اسماعيل باشا» طلب الى الحكومة الانجليزية أن تبعث الى مصر موظفاً انجليزياً ذا المام بالشؤون المالية ليساعده على اصلاح مالية مصر . فاختارت انجلترة لذلك «المستر كيف» . فحضر وفحص الأمور مستعيناً فى عمله بما أمكنه الوقوف عليه من المعلومات ، ثم قدم تقريراً بما يلزم عمله لتسوية الديون المصرية . ولكن الخديوى لم يعمل باقتراحه ، فلم يكن لبعثه الى مصر أثر يذكر*

ابتداء التدخل الاوربى

وفى ١١ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ (١٨ ابريل سنة ١٨٧٦ م) توقف الخديوى عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية ، فكان ذلك اليوم المبدأ الحقيق للمشكلة المالية المصرية ولتدخل أوربا فى شؤون مصر

---

* يقدر مجموع الديون المصرية في ذلك الحين من سائرة وغير سائرة بنحو ٩٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . فلو راعينا ان مجموع دخل الحكومة المصرية زاد على نفقاتها في مجموع المدة التى حكمها «اسماعيل باشا» بمبلغ ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه وان نصيب مصر من أسهم القناة بيع بمبلغ ٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه كان مجموع ما صرفه اسماعيل باشا وسعيد باشا في غير شؤون الادارة العادية يساوى ١٣٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . من ذلك ١٦،٠٠٠،٠٠٠ جنيه أنفقت على قناة السويس و ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه على السكك الحديدية واصلاح الاراضى وغير ذلك من الاشغال العامة . ونحو ٥٢،٠٠٠،٠٠٠ جنيه في تسوية الديون واستبدالها ودفع أرباحها وأقساطها . فيكون الباقى حينئذ نحو ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ لا تعرف الأوجه التى صرف فيها

صندوق الدين

عند ذلك تذعرت دول أوربا ، فاهتمّ الخديوى بتأمينها على أموال رعاياها ، وسعى الى ذلك بكل الوسائل ، الى أن أصدر أمراً فى يوم ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣ هـ (٢ مايو سنة ١٨٧٦ م) بانشاء لجنة يقال لها « صندوق الدين » تُشكَّل من مندوبى الدول ويُعهد اليها ادارة شؤون الدين المصرى وتدبير ما يجب لانتظام تسديده . ثم أصدر أمراً آخر فى ٧ مايو بتوحيد جميع الديون المصرية من سائرة وغير سائرة وجعلها دينا واحداً قدره ٩١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وربحه ٧ ٪ وينتهى تسديده فى ٦٥ سنة . ولم تقبل الحكومة الانجليزية إرسال مندوب يمثلها فى صندوق الدين أسوة بباقى الدول ولكن أضيف الى لجنة الصندوق فيما بعد عضو انجليزى بدون مؤاخذة انجلترة وهو « السير إِفِلِن بيرنج » الذى مُنح فيما بعد لقب « لورد » وصار يعرف « باللورد كرومر » وسنعود الى ذكره فى هذا الكتاب

توحيد الدين

مايو ١٨٧٦

عدم موافقة انجلترة

على أن توحيد الديون المصرية على هذا الوجه لم يُرض انجلترة ، لأن معظم الدائنين الانجليز كانوا حملة سندات مضمونة بموارد ثابتة ، وغير الانجليز كان معظم أموالهم ديوناً سائرة . فلم يرَ الانجليز من الانصاف أن يعامل الفريقان بطريقة واحدة . لذلك أرسلت كل من انجلترة وفرنسا مندوباً للنظر فى تعديل هذا الاتفاق ، فاختارت انجلترة « المستر غوشِن » « اللورد غوشن فيما بعد » واختارت فرنسا « المسيو جوبَر » ، فحصا الحالة المالية وقدما اقتراحاً بما يلزم ، وأصدر الخديوى بهِ أمراً عالياً فى غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ (١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ م) حَذَف بهِ من الدين الموحد ما يأتى : —

بعث غوشن وجوبر

انقاص الدين الموحد نوفمبر ٧٦

(ا) ٤,٢٩٣,٠٠٠ جنيه قيمة الديون التى اقترضت فى سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م ، أى قبل اشتداد الأزمة المالية . واعتُبر ذلك الدين نوعاً قائماً بذاتهِ ، ويسدد من أقساط المقابلة

(ب) ١٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه قيمة سندات جديدة أطلق عليها اسم « الدين الممتاز » ، وجُعل سعرها ٥ ٪ وجعل الضامن لسدادها دخل السكك الحديدية وميناء

الاسكندرية* ترغيباً فى شرائها ليصرف ثمنها فى تسديد الديون السائرة

(ح) ٨٫٨١٥٫٠٠٠ جنيه قيمة دين الدائرة السنية . واعتبر هذا الدين قائماً بذاته ويسدد من دخل تلك الدائرة

وبذلك نقص الدين الموحد الى ٥٩٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وجعل سعره ٦ ٪ واتفق على أن يسدد ١ ٪ من أصله سنوياً

السعى فى الاصلاح

واقترح اللورد غوشن على الخديوى عدة اصلاحات لتوطيد مركز الحالة المالية وتسهيل السير بانتظام فى دفع أرباح الدين وأقساطه

فشرع الخديوى فى انفاذ هذه الاقتراحات، وأدخل بحكومته عدة موظفين أوربيين من أصحاب الكفاءة الكبيرة للقيام بذلك الاصلاح

ابتداء المراقبة الثنائية

من ذلك أنه وافق على تعيين مراقبَين عموميين لحساب الحكومة : أحدهما انجليزى لمراقبة الدخل وهو « السير رِفرز وِلْسُن » ، والثانى فرنسى لمراقبة المصروفات وهو « المسيو بلِنْيِير »

قلة نجاحها

على أن الخديوى لم يلبث أن رأى ذلك يُنقص من نفوذه ، فلم يطلق للمراقبين كل الحرية فى العمل . فلم يكن لذلك الاصلاح الأثر المطلوب ، ولم تُوفَّق الحكومة الى أن تجمع قبل الميعاد المحدود لدفع أرباح الدين ما يكفى من المال لتسديدها ، فاتُبِعَت كل طريقة فى جمع الضرائب قبل ميعادها حتى تَيَسَّر جمع المال المطلوب فَسُلِّمَ لصندوق الدين فى آخر لحظة أى قبل الميعاد المحدود ببضع ساعات

دلت هذه الحالة السيئة على أن شؤون الحكومة لم تزل فى حاجة الى الاصلاح ، وأحست لجنة صندوق الدين ان اتفاق سنة ١٨٧٦ م بشأن تسديد الدين ربما كانت شروطه شديدة . فطلبوا الى الخديوى أن يأمر بتشكيل لجنة تحقيق تفحص الشؤون المالية فحصاً شاملاً حتى تقف على أسباب ذلك العجز فى مورد الحكومة . فلم يرض الخديوى فى أول الأمر بمنح اللجنة كل هذه الحقوق الكبيرة ، ورأى

لجنة التحقيق

(*) وجعلت هاتان المصلحتان تحت مراقبة لجنة من مندوبى الدول

أن تكتفى اللجنة المراد انشاؤها باعادة النظر فى المقدار الحقيق للدخل . ولكن الدول تمسكت بطلب لجنة صندوق الدين ، وفى غرة ربيع الثانى ١٢٩٥ هـ (٤ ابريل سنة ١٨٧٨ م) أصدر اسماعيل باشا أمراً عالياً بتشكيل لجنة التحقيق (*) لها الحق المطلق فى اجراء كل ما تريد من التحريات والتحقيقات ، وعُهدت رياسة اللجنة الى « المسيو ديلسبس » ، وجُعل رياض باشا والسير رفرز ولسن وكيلين لها ، وجعل مندبو الدين أعضاء فيها

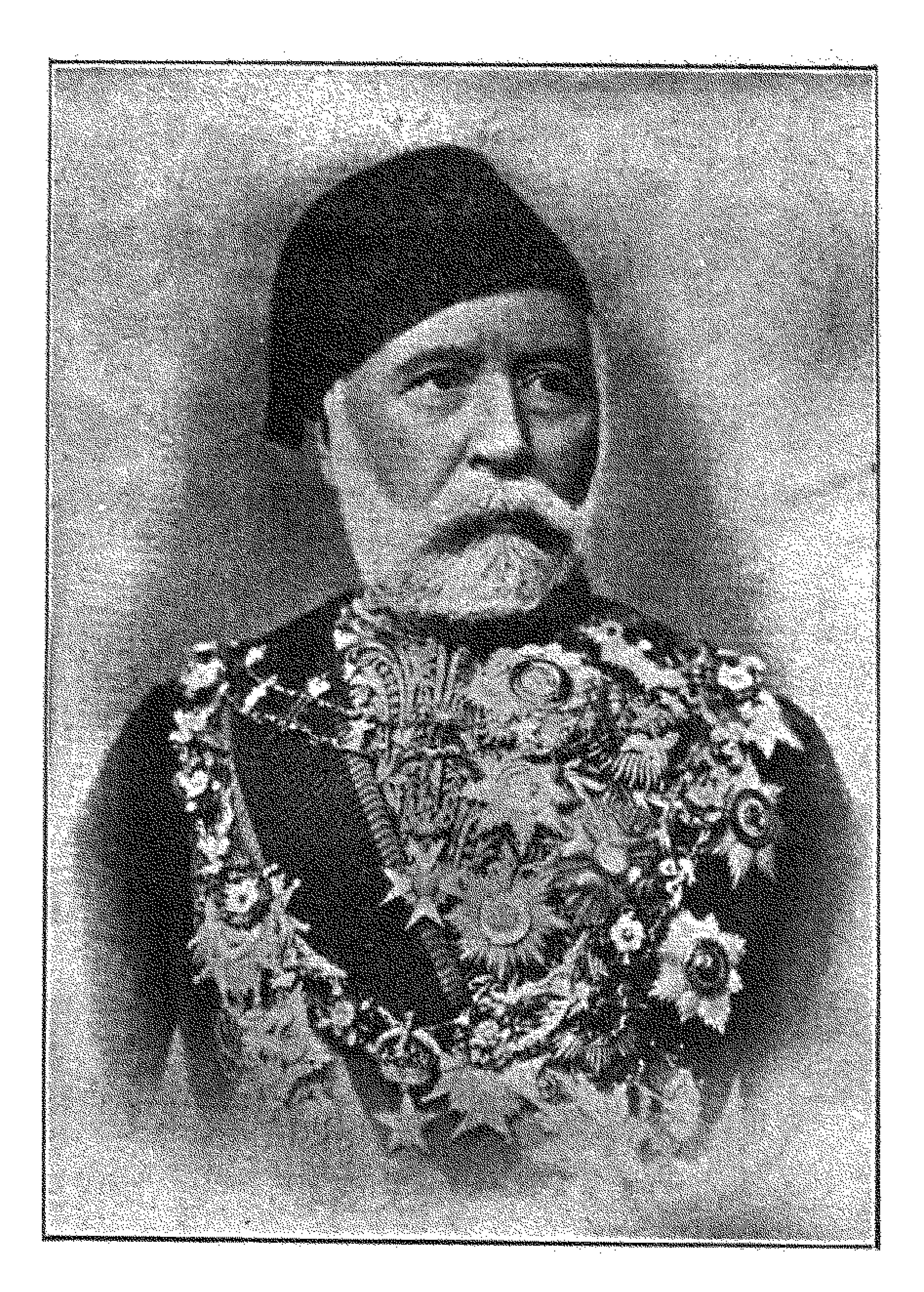
شروع اللجنة فى العمل

فشرعت اللجنة فى فحص كل شىء يختص بالمالية المصرية : من النظر فى الانظمة الادارية والضرائب وأنواع الديون المطالَب بها وأصلها وغير ذلك . ولم يكد الأعضاء يشرعون فى انجاز مهمتهم حتى اعترضهم حادث وقّف العمل فترة ، وذلك أنهُ لما كان قد خُوّل لهم حق الاستفسار من أى موظف فى الحكومة عن أى شىء استدعوا « شريف باشا » (ناظر الحقانية وأعظم الوزراء اذ ذاك) للحضور أمامهم للاجابة عن استعلاماتهم ، فلم يرضَ « شريف باشا » بالحضور أمامهم محافظة على كرامته ، وقال انهُ مستعد للاجابة عن أسئلة اللجنة كتابةً ، فأصرت اللجنة على استحضاره فاضطر الى الاستعفاء . وبعد مضى هذه الحادثة التى اعترضت السير فى التحقيق عادت اللجنة الى مباحثها وانكب أعضاؤها على العمل يومياً حتى وقفوا على مواضع الخلل فى المالية فكشفوا بذلك عيوباً خطيرة مما لم يكن على بال ، من أهمها عدم التفريق بين المطلوب من الحكومة والمطلوب من الأسرة الخديوية ، والاسراف فى شراء لوازم الجيش وغيره لمجرد الرغبة فى اقتناء كل شىء جديد أو اختراع ظريف يعرضه الأوربيون على الخديوى ويبالغون لهُ فى محاسنهِ ، وزيادة أجور الأعمال التى يقوم بها المتعهدون الأوربيون ونحوهم زيادة فاحشة عما تستحق (من ذلك أن نفقات اصلاح ميناء الاسكندرية بلغت ٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه مع أنها لم تعادل أكثر من ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه) ، واقتراض الاموال بأرباح باهظة لم يسمع بمثلها

استقالة شريف باشا

مباحث اللجنة

(*) كانت تسمى ديوان التحقيق



شريف باشا

بحوث لجنة التحقيق

ولاحظت اللجنة أن الحكومة فضلاً عن اثقالها كاهل الأهلين بجميع أنواع الضرائب قد جبت منهم مبلغين بشروط لا يمكن الاستمرار على العمل بها : أولهما ما أُخذ منهم بمقتضى قانون «المقابلة» ، وثانيهما دين «الرزنامة» ، فعولت على مراعاة ذلك عند تسوية الحالة المالية . ورأت أيضاً ان الدائنين لم ينحصروا فى أصحاب المصارف والمقاولين بل منهم طائفة كبيرة من أصحاب المهنات الحقيرة كالحمارين والجمالين والحلاقين ، وان كثيراً منهم لم تكن بأيديهم من الحجج القوية ما يكفى لتبرير دفع مطالبهم

وقفت اللجنة على كل ذلك ، وقررت الحيْطة العامة التى يجب اتخاذها لتلافى هذا

مقترحات اللجنة

المرض ، ولكنها رأت قبل التعرض للتفصيلات الواجب اتباعها فى حل المشكلة المالية ان تطلب الى الخديوى اصلاحات لا يتسنى بدونها السير بمقتضى اقتراحاتها فطلبت من سموه أمرين : الأول أن يتنازل عن جميع أملاكه للحكومة ، ويُجعل له نظير ذلك راتب سنوى يفى بحاجاتهِ اذا راعى جانب الاعتدال ، والثانى أن لا يستقل بادارة شؤون البلاد ، بأن يُشرك معه وزراء مؤاخذين على أعمالهم ، حتى لا يتم عمل الآ بعد مراعاة مصلحة البلاد

وأرسلت اللجنة الى سموه تقريراً بذلك فى أوائل شعبان سنة ١٢٩٥ هـ (اغسطس سنة ١٨٧٨م) ، وبعد أن نظر فى مطالبهم عوّل على اجابتها ، وأمر بتشكيل

تشكيل وزارة مؤاخذة

وزارة مستقلة برياسة نوبار باشا بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٥هـ (٢٣ اغسطس ١٨٧٨) وادخل فى عدادها السير رفرز ولسن والمسيو دى بلنير ، فصار للأور بيين وزيران فى الحكومة بعد ان كان لهم مراقبان محدودا النفوذ ، وفى ١٩ شوال (اكتوبر)

التنازل عن الدومين

أصدر أمراً عالياً بالتنازل عن معظم املاك الأسرة الخديوية للحكومة ، وجُعلت هذه الأملاك « الدومين » ضمانةً لدين جديد قدره ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه للاستعانة بهِ فى عدة شؤون ، منها تسديد الديون الثابتة (ذات السندات) . وهذا الدين هو الذى

دين روتشيلد

عرف بدين « روتشيلد* » نسبة الى أصحاب البيت الذين اقرضوه الحكومة . وقد تمَّ تسديده فى سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م) فأُلغيت اذ ذاك مصلحة الدومين التى كانت تدير الاملاك الضامنة لهذا الدين ، ودخلت هـذه الأملاك من ذلك الحين ضمن الأملاك الأميرية العادية

صعوبة مهمة اللجنة

واستمرت اللجنة فى فحص الشؤون المالية وادخال الاصلاحات الجديدة تمهيداً لتسوية الدين بطريقة نهائيـة . وكانت بالطبع تتبع فيما يختص بدفع أرباح الدين واقساطه النظام الذى سُن بموافقة صندوق الدين فى سنة ١٨٧٦ م (نتيجة بعث غوشن) ، ريثما تفرغ من وضع نظامها الجديد . ولا يخفى أن ذلك النظام لم يكن بحيث

* بيت روتشيلد من اكبر البيوت المالية بانجلترا

تقوى موارد البلاد على القيام بشروطه ، فعانى الوزراء مصاعب جمة فى جمع الأموال اللازمة ، ولم يعاونهم الخديوى بنفوذه الأدبى ، فظن الأوربيون انه يعرقل مساعى الاصلاح الذى يريدونه لما فيه من سلبه بعض نفوذه ، وساعدهم على هذا الاعتقاد أن ثار الجند لعدم قيام الوزارة الجديدة بدفع ما تأخر لهم من الرواتب ، فتجمهروا أمام وزارة المالية وقبضوا على « نوبار باشا » و « السير رفرز ولسن » وأهانوهما ، ولم ينصرفوا الآ بعد أن حضر الخديوى وأمرهم بالانصراف فانصرفوا سريعاً . فكان ذلك سبباً فى الظن بأنهم ثاروا بايعاز منه

ثوران الجند

وعند ذلك أعلن الخديوى أعضاء اللجنة انهُ لا يعدّ نفسه مؤاخذاً عما يحدث من الخلل أو الاضطراب بالبلاد ، ما لم يكن له نصيب فعّال فى حكمها . وبعد أن تداول معهم فى هذا الشأن أُقيل « نوبار باشا » من رياسة الوزارة ، فخافت الدول أن يعود الخديوى الى الاستبداد بالسلطة ، ففاوضوه فى الأمر . ثم أقرّ الخديوى على ان يعهد برياسة الوزارة الجديدة لولى العهد ابنه « الأمير توفيق » ، بشرط أن لا يتدخل هو فى قرارات مجلس النظار ، وان يكون للناظرَين الأوربيين جميع الحقوق المخولة لباقى النظار

اقالة نوبار وتنصيب الأمير توفيق

فشرعت الوزارة الجديدة فى العمل بالاتفاق مع أعضاء صندوق الدين ولجنة التحقيق حسب العادة ، وكانت أرباح بعض الدين تستحق الدفع فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ هـ (أول ابريل سنة ١٨٧٩ م) ، فلم يتوافر لدى صندوق الدين المبلغ اللازم لدفعها فى حينها ، فقرر أعضاؤه بالاتفاق مع لجنة التحقيق والوزارة تأجيل الدفع الى أول مايو ، فأظهر الخديوى استياءه من ذلك ، وقال انهُ عار على مصر ، وعدَّه دليلاً على ان كل هذا التدخل الأوربى لم يأتِ بالنتيجة المطلوبة . وكان تقرير لجنة التحقيق قد قارب الانتهـاء وعُرف جل ما فيهِ . وعلم الخديوى ان التقرير سيعلن رسمياً إفلاس الحكومة المصرية ، فانتهز فرصة حدوث كل ذلك ، وعمل على استرجاع نفوذه وخلع الوزارة التى بها عضوان من الفرنج وكل أعمالها باشارتهما

تقرير تأجيل الدفع

وقام هو باعداد مشروع لتسوية الأمور المالية مخالف لمشروع اللجنة ولا يقتضى

عدم رضاء الخديوى

خلع الوزارة التى بها اوربيان

اعلان الافلاس وكان قد استمال الأعيان والعلماء، فقدموا اليهِ معروضاً أظهروا فيهِ بالنيابة عن الأمة استياءهم من الحالة الحاضرة ومن عزم الفرنج على اعلان افلاس الحكومة، وطلبوا اليهِ تشكيل وزارة مصرية محضة تكون مؤاخذة أمام مجلس الأعيان، فعزل الخديوى الوزارة وشكل غيرها برياسة «شريف باشا» اختار جميع أعضائها من المصريين، وعوّل أيضاً على رفض المشروع الذى ستقدمه لجنة التحقيق لحل المسائل المالية، وعزم على العمل بموجب المشروع الذى حضّره هو بمعونة أتباعه

التأهب لرفض اقتراح اللجنة

فأثارت كل هذه الأمور غضب الدول الأوربية وعلموا انهُ لا يمكن انجاز أى عمل لتسوية المالية المصرية وتثبيت حقوق رعاياها، ما دام اسماعيل باشا خديوياً على مصر، إذ ظهر انهُ يأبى الاّ أن يكون هو صاحب السلطة فى البلاد، وأن يتصرف فى شؤونها ومالها كيف شاء، وبعد ان تفاوضت فيما بينها قررت عزله من خديوية مصر، فعرضت عليهِ أن يستقيل، فلم يقبل وأحال الأمر على السلطان. فما زالت الدول تستعمل النفوذ والتهديد لدى الباب العالى حتى استصدروا منهُ أمراً بعزل

عزل اسماعيل باشا

اسماعيل باشا، فجاء منهُ الى مصر نبأ برقى بذلك فى ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ (٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ م)، فلم يبدِ اسماعيل باشا مقاومة أخرى وعهد بأمر البلاد الى ابنه «توفيق باشا» (وكان قد ورد اليهِ نبأ برقى آخر بتوليته على مصر)

وخرج اسماعيل باشا من مصر فى ١٠ رجب (٣٠ يونيه) وأبحر من الاسكندرية على سفينته «المحروسة» الى ايطاليا

الفصل الخامس

أوائل حكم توفيق باشا

١٢٩٦ — ١٢٩٨ ﻫ (١٨٧٩ — ١٨٨١ م)

المصاعب عند تولية توفيق

تولى توفيق باشا أريكة مصر (١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ ﻫ : ٨ اغسطس ١٨٧٩ م) والمصاعب تحيط بالبلاد من كل جانب : فالخزانة خالية والجيش معتل النظام ، والأهلون ساخطون — الفقراء منهم لما نالهم من الجور ، والأغنياء مخافة أن يفقدوا ما نالوه من



توفيق باشا

المزايا فى عهد اسماعيل — والأوربيون ناقمون ، لأن أموالهم لم تُدفع اليهم ولأن الاضطرابات السائدة جعلت التجارة فى كساد فقلّت بذلك أرباحهم . ولم يكن لتوفيق باشا رحمهُ الله من الدهاء والعزم ما يجعله خير مكافح لكل هذه الخطوب ، الاّ انهُ كان محباً للبلاد شديد الميل الى ما فيهِ راحتها ، فلم يدخر وسعاً فى العمل على إسعادها وإنقاذها مما حلّ بها من العناء بادخال كل ما يمكنه من الاصلاح

٤ امور للفصل فيها — وقبل ان يسير هذا الاصلاح فى مجراه اقتضت الأحوالُ الفصلَ فى أربعة أمور هامة : أولها تحديد مقدار نفوذ الخديوى فى حكم البلاد ، والثانى تقرير العلاقة بين الخديوى والدولة العلية ، والثالث تعيين نوع الإشراف الذى يكون للأوربيين على شؤون مصر ، والرابع الفصل فى المسائل المالية بطريقة تكفل الاتفاق بين الحكومة المصرية ودائنيها الأوربيين

١ . الخديوى والوزارة — ففى المسألة الأولى عوّل الخديوى على اشراك وزرائه معهُ فى حكم البلاد وعدم الاستئثار بالسلطة ، فعهد الى «شريف باشا» بتشكيل وزارة . فقدَّم اليهِ هذا مشروعاً يقتضى جعل الحكومة نيابية محضة ، فلم يوافق عليهِ الخديوى لاعتقاده ان البلاد لا تستطيع أن تخطو دفعة واحدة من حكومة استبدادية مطلقة الى حكومة نيابية محضة ، فاضطر شريف باشا الى الاستقالة (٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ : ١٨ اغسطس سنة ١٨٧٩ م) . فعزم الخديوى على ترؤُّس مجلس الوزراء بنفسه ، الاّ أن هذه الطريقة لم تدم طويلاً ، وفى ٤ شوال (٢٢ سبتمبر) استدعى «رياض باشا» وكافه لتشكيل وزارة . وحفظ الخديوى لنفسه الحق فى ترؤُّس مجلس الوزراء متى رأى حاجة الى ذلك ، الاّ انهُ جعل للوزراء نفوذاً حقيقياً فى ادارة شؤون البلاد . فحُلّت بذلك المسألة حلاً مرضياً وشرعت وزارة رياض باشا فى مباشرة أعمالها على أساس ثابت

وزارة رياض باشا

٢ . مصر والدولة — أما مسألة علاقة مصر بالدولة فكان الباب العالى يريد بمناسبة عزل اسماعيل باشا أن يزيد من سيادة الدولة على مصر ويلغى الامتيازات التى منحها لاسماعيل . وكان عند اصدارِ الأمر بعزله أصدر معه أمراً سلطانياً بالغاء تقليد سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) .



رياض باشا

ولما كانت تولية الخديوى الجديد تقتضى اصدار تقليد آخر عوّل الباب العالى على أن يكون هذا سالباً للامتيازات الأولى ، فعارضت دولتا فرنسا وانجلترا فى الأمر وطلبتا الاطلاع على صورة التقليد قبل اصداره

ميزات تقليد سنة ١٨٧٣

وقد علمنا فيما سبق ان تقليد سنة ١٨٧٣ م يتضمن الميزات الأربع الآتية : —

(١) جعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بدلاً من جعلها لأكبر فرد فى الأسرة (٢) منح مصر الحق فى عقد معاهدات تجارية مع الدول (٣) تخويل الخديوى حق اقتراض المال من الدول الأجنبية (٤) تخويل حق زيادة الجيش الى أى عدد أراد

فعارضت فرنسا فى الغاء هذه الامتيازات كل المعارضة ، لأنها كانت تعمل فى ذلك الحين على تقويض أملاك الدولة ونزعها من يدها ، فلا ترضى بأن يرجع اليها

فى مصر نفوذ كان قد ضاع منها . أما انجلترة فلم يكن من سياستها اذ ذاك العمل على اضعاف الدولة ، فلم تعارض فيما يريده الباب العالى الا فى مسألة الوراثة ، فانها رأت بقاءها فى أكبر اولاد الخديوى أضمن للسكينة فى مصر . ولكن فرنسا تمسكت كل التمسك بأمر آخر وهو عدم الغاء الامتياز الخاص بعقد المعاهدات التجارية . وبعد أخذ

ابقاء ميزتين

وردّ أذعن الباب العالى لهذين الطلبين واكتفى فى التقليد الجديد بتعديل ما جاء فى تقليد سنة ١٨٧٣ م بشأن الجيش واقتراض الديون من الدول الأجنبية ، فاشترط أن لا يزيد الخديوى الجيش على ١٨,٠٠٠ فى وقت السلم (وفى وقت الحرب يكون الأمر للدولة) ، وأن لا يعقد قروضاً جديدة « الا بالاتفاق مع الدائنين الحاضرين أو وكلائهم ويكون ذلك منحصراً فى تسوية أحوال المالية الحاضرة »

٣ ـ الاشراف الاوربى

أما المسألة الثالثة وهى تعيين نوع اشراف الأوربيين على شؤون الحكومة فقد تم الاتفاق بين الخديوى وبين الدول الأوربية على أن تُجدد « المراقبة الثنائية » التى كانت فى عهد اسماعيل ، بشرط أن تقتصر أعمال المراقبين على الفحص والتحقيق ، وان لا تتعداهما الى التدخل فى شؤون الادارة . فعيّن « السير إفلين بيرنج » مراقباً

المراقبة الثنائية

من قبل انجلترة ، و « المسيو دى بلنيير » مراقباً من قبل فرنسا (ذى الحجة سنة ١٢٩٦ هـ : نوفمبر سنة ١٨٧٩ م) ، واشترطت حكومتاهما أن لا يُعزل أحدهما من منصبه الا بعد موافقة دولته . فتسلم المراقبان أعمالهما ، ولم يقسما اختصاصهما بل عملا سوياً بالتكافل ، وعولّا فى مهمتهما على السير مع رجال الحكومة المصرية بالحزم والمجاملة كى يكسبا ثقتها ، فيتيسر لهما اجراء ما يلزم من الاصلاح فى مالية البلاد وشؤونها بدون مقاومة منها . وبالفعل حازا ثقة الحكومة فأُذن لهما بحضور جلسات مجلس النظار . وأعدّا مشروعات كثيرة نافعة كان لها الأثر الاكبر فى تسوية الديون المصرية تسوية نهائية ، وفى كثير من الاصلاح الذى تم بالبلاد عقب الاحتلال البرطانى

٤ ـ الدين المصرى

وأما المسألة الأخيرة وهى الفصل بين الحكومة المصرية ودائنيها فتقرر بشأنها تشكيل لجنة شبيهة بلجنة التحقيق التى سبق ذكرها يقال لها «لجنة التصفية» ، الغرض

منها عمل حل نهائى للمشاكل التى بين الحكومة ودائنيها ، بحيث لا يُغبن أحد الطرفين أكثر من الآخر . فشكلت اللجنة من أعضاء ممثلين للدول الأوربية العظمى ، وفيهم أعضاء لجنة صندوق الدين ، برياسة « السير رِفَرز وِلسُن » ، واتفقت الدول على ان ترضى بما تقرره اللجنة فى هذا الشأن . ولم يكن المراقبان من بين أعضاء هذه اللجنة ، بل بقيا فى جانب الحكومة ليدفعا عنها من الغبن ما عسى أن يطمع فيهِ أعضاء اللجنة

لجنة التصفية

وفى أثناء اشتغال اللجنة بالفحص والمناقشة فى أمر تصفية الدين انصرف المراقبان الى عمل كل اصلاح فيهِ التسهيل لسير أعمال الحكومة فى المستقبل على أساس متين وقاما من تلقاء نفسهما بتحضير مشروع لتصفية الديون رجاء أن تدعمه اللجنة ان لم تُوفَّق هى الى عمل مشروع من عندها (لوقوع الخلاف يومئذٍ بين بعض أعضائها) . وأهم ما جاء فى هذا المشروع ان يُنقص ربح الدين الموحَّد من ٧ ٪ الى ٤ ٪ ، وان يصرف النظر عن جميع الأرباح المتأخرة التى لم تدفع فى الماضى . ومن الاصلاحات التى قام بها المراقبان انهما سهرا على العمل بما اقترحته لجنة التحقيق من الاصلاح : فأُلغى قانون المقابلة نهائياً ، وانقص الفرق بين الأراضى العُشْرية والخراجية بزيادة ضريبة اضافية على الأراضى العشرية قدرها ١٥٠,٠٠٠ جنيهاً ، وألغى معظم الضرائب الدنيئة مثل العوائد الشخصية ورسوم القبانة والصرافة ورسوم الأرضية فى أسواق الريف . ومن أهم هذا الاصلاح تعيين مواعيد محدودة لجمع ضريبة الأراضى بحيث تُدفع الأقساط فى أوقات تناسب المزارعين . ولا يخفى ما كان يلاقيهِ هؤلاء من قبل من جراء مطالبتهم بها فى غير موعد وبدون انذار

مشروع المراقبين للتصفية

اصلاحات المراقبين

وأما مسألة تصفية الدين فلم يقدّم اعضاء اللجنة عنها تقريراً ، وانما تمّ الاتفاق على حل للمسألة (ربما استُمِدَّ أكثره من اقتراحات المراقبين) ، وصدر بذلك أمر عال فى ٨ شعبان سنة ١٢٩٧ هـ (١٧ يوليه سنة ١٨٨٠ م) يُعرف « بقانون التصفية » . ويُلخّص فيما يأتى :

الموافقة على المشروع

قانون التصفية

(١) يخفض ربح الدين الموحد الى ٤ ٪ ويكون الضمان لذلك الدين دخل المكوس (الجمارك) بما فيها رسوم الدخان، ودخل مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة، وتدفع هذه الأموال الى صندوق الدين مباشرة

(٢) يدخل فى الدين الموحد الباقى من الديون القصيرة الأجل التى اقترضت فى سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م بنقص ٢٠ ٪ من قيمتها

(٣) يُستصدر قرض ممتاز جديد بمبلغ ٨٫٧٤٣٫٨٠٠ جنيه لدفع الديون السائرة التى لم تسدد بعد

(٤) تدير « الدائرةَ السنية » ادارةٌ تشرف عليها هيئة من مندوبى الدول، ويكون ربح القرض المستصدر عليها ٤ ٪ حتماً و ٥ ٪ اذا كفت غلة أراضى الدائرة لذلك (لم تكف الغلة قط لدفع ٥ ٪)

(٥) تدفع الديون السائرة جزئياً أو بالكامل، وبالنقد أو بسندات مالية من السندات الممتازة، حسب أهمية المستندات التى بأيدى أصحاب هذه الديون

(٦) يُصرف مبلغ ١٥٠٫٠٠٠ جنيه سنوياً لمدة ٥٠ سنة للذين دفعوا أموال « المقابلة »، اذ أن الضرائب المفروضة على أرضهم لن تخفض كما كانوا ينتظرون

(٧) يقسم دخل الحكومة الى قسمين: قسم خاص بنفقات ادارة البلاد لا يزيد بحال من الأحوال على ٤٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه، وقسم لسد أرباح الدين وأقساطه وهو الباقى من الدخل (البالغ فى تلك السنة ٨٫٤١٢٫٠٠٠ جنيه)

حل المسألة المالية نهائياً

هذه هى الأنظمة النهائية التى حُلّت بها مسألة المالية المصرية وأقرتها الدول. ويلاحظ أنه بمقتضاها نقص مقدار الدين المصرى وأرباحه عما كان عليه بمقتضى الأنظمة السالفة

أما بيان اجزاء الدين عند صدور قانون التصفية فيمكن تلخيصهُ فيما يأتى :

الدين وقت صدور قانون التصفية

الدين الموحد	الدين الممتاز	دين الدائرة السنية	دين الدومين (روتشيلد)	الجملة	جملة الأرباح سنوياً
بسعر ٤ ٪	بسعر ٥ ٪	بسعر ٤ ٪	بسعر ٥ ٪		
٥٧,٧٧٦,٢٤٠	٢٢,٥٨١,٨٠٠	٩,٥١٢,٩٠٠	٨,٤٩٩,٦٢٠	٩٨,٢٧٦,٦٦٠	٣,٩٧٢,٣٨٧

وبعد الفصل فى مسألة الدين تفرغت المراقبة الثنائية والوزارة المصرية لإدخال كثير من الاصلاح. وكان من أهم ذلك ان شُكلت لجنة علمية للنظر فى أمر التعليم برياسة على ابراهيم باشا ناظر المعارف فى ٧ جمادى سنة ١٢٩٧هـ (٢٧مايو ١٨٨٠م) فاجتمعت مراراً وعدّلت مناهج التعليم ووسعت نطاقه فى البلاد. ثم قدمت تقريراً بما تراه من الاصلاح، فأقرّته الحكومة وأبلغت ميزانية المعارف الى ضعفى ما كانت عليه. واهتمت الحكومة ايضاً بطرق الرى وانشاء الترع والقناطر والجسور وغير ذلك من أسباب زيادة الثروة. وبالاختصار دخلت البلاد فى طور اصلاح جديد كان يُرجَى منه خير كبير لولا ان داهمتها تلك الحوادث المشئومة المعروفة بالثورة العرابية.

الاصلاحات الداخلية

الفصل السادس

الحوادث العرابية

١٢٩٨ — ١٢٩٩هـ (١٨٨١ — ١٨٨٢ م)

تذمر الضباط

عند ما كانت الاصلاحات التى ذكرناها سائرة فى طريق تقدم البلاد كان روح الاستياء يتفشى فى الجيش يوماً بعد يوم. ذلك لأن معظم الترقى بين ضباطه كان قاصراً على الأتراك منهم والشراكسة، وقلّما وُجد وطنى متقلداً احدى الرتب والألقاب السامية. وكان الضباط المصريون يتوقعون أن ينال الجيش شىء من الاصلاح العام الذى دخل البلاد فلم يحظوا بأمنيتهم، فحقدوا على الحكومة. وازداد

سبب سخطهم

سخطهم حينما أصدر « عثمان رفقي باشا » الشركسي الأصل ناظر الحربية قانون القرعة القاضي بمنع الترقي من « تحت السلاح » ، اذ جُعلت فيه مدة الخدمة العسكرية في الجيش العامل أربع سنوات فقط ، يذهب الجندي بعدها الى بلده ويبقى « رديفاً » خمس سنوات و « احتياطياً » ست سنوات . والمدة الأولى غير كافية للحصول على معلومات عسكرية تؤهل الجند للترقي

اتفاقهم على ارسال معروض

عند ذلك تذمر بعض الضباط المصريين بزعامة «علي فهمي» و«احمد عرابي» و«عبد العال حلمي» من أمراء (الآلايات) ، وقرروا الاحتجاج على ذلك بارسال معروض الى رياض باشا رئيس النظار يطلبون فيه : — أولاً عزل «رفقي باشا» من وزارة الحربية ، وثانياً اجراء تحقيق في كفاءة من فازوا بالترقي حديثاً بدون استحقاق . وكان المعروض شديد اللهجة فأدى الى سلوك الحكومة مسلكاً جعل هذه الحادثة فاتحة لغيرها من الحوادث التي سُميت بالثورة العرابية

منزلة عرابي وسبب ظهوره

ولم يكن احمد عرابي المحرك الأول لهذه الثورة ، وانما كان المحرك لها «علي فهمي بك» لأنهُ أمير (الآلاى) المعهود اليه حراسة القصر الخديوى ، وكان قد أوقع به رفقي باشا عند الخديوى لأمر في نفسه ، فحقد «علي فهمي» عليه ذلك وعمل على النكاية به . أما اطلاق لفظ « عرابية » على هذه الحوادث فلأنّ احمد عرابي هو الذى بعد انضمامه الى أصحاب الحركة الأولين ظهر عليهم حتى صار هو المحرك لكل شيء فيما بعد . وسبب ظهوره على غيره انهُ كان قبل الانضمام الى الجيش يطلب العلم بالأزهر الشريف ، فكانت له مقدرة متوسطة في الخطابة لم تكن عند غيره من الضباط ، فضلاً عن أن انتماءه للبيت العلوى الشريف يرشحه لاكبر زعامة اسلامية ، فأصبح بكل هذا صاحب المقام الاكبر في الثورة . واعتقد الناس في اخلاصه ، لأنهم لم يروا له غرضاً خاصاً مما كان يُظن في غيره من أصحاب هذه الحركة

تقديم المعروض

أما المعروض الآنف الذكر فقدمه الى رياض باشا احمد عرابي وعلي فهمي بأنفسهما (١٣ صفر سنة ١٢٩٨ هـ : ١٥ يناير ١٨٨١ م) . فألح عليهما أن يسترجعاه ، وهو

في نظير ذلك يبذل غاية وسعه في تلبية مطالبهما . فلما لم يذعن الضابطان لنصحه ، وسمع الخديوى بالأمر ، استشاط غضباً ، وأمر بتأديب هؤلاء العصاة وقمع روح الفتنة في الجيش . وفي يوم ٢٨ صفر (٣٠ يناير) عقد مجلس النظار برياسة الخديوى (ولم يصرح للمراقبين الأوربيين بحضور الجلسة) ، وقرر القبض أولاً على الضابطين المشار اليهما ومحاكمتهما أمام مجلس حربي ، ثم النظر في مظالمهما

رياض باشا يرجوهم استرجاعه

عزم الخديوى على محاكمتهم

وفي غرة ربيع الأول (فبراير) استدعى الضابطان الى وزارة الحربية دون أن يخبرا بأن ذلك لمحاكمتهما . ولكن قرار مجلس النظار كان قد بلغهما سراً ، فاتفقا مع ضباط فرقهما ورجالها على ان هؤلاء ان وجدوا ان رئيسيهما لم يعودا بعد ساعتين ذهبوا لانقاذهما بالقوة . ولما بلغ الضابطان نظارة الحربية (قصر النيل) قبض عليهما وأحيلا في الحال على مجلس عسكرى للمحاكمة . فبينا هذا المجلس مجتمع اذ هجم ضباط (الألايين) ورجالها وأخرجوا رئيسيهما من حجرة اجتماع المجلس بعد ان عبثوا بأثاثها وأهانوا ناظر الحربية . ثم سار احمد عرابي وعلى فهمى بجندهما الى قصر عابدين وطلبا الى الخديوى عزل ناظر الحربية . وبعد ان نظر الخديوى في حرج الأمر لم ير بداً من اجابة طلبهما ، فصرف عثمان رفقي باشا بمحمود باشا سامى البارودى . ففرح الثوار ، وطلب فهمى بك وعرابي بك العفو من الخديوى بعد ان أعربا له عن رغبتهما في الولاء لسموه

انقاذهم اثناء المحاكمة

تنصيب البارودى على الحربية

هذه هي ثاني مرة ثار فيها رجال الجيش : ثاروا في عهد اسماعيل فلم يصبهم أذى ، وعزل نوبار باشا من رياسة الوزراء عقب ثورانهم ، وثاروا هذه المرة فغلبوا الوزارة والخديوى على أمرهم ، وفازوا في الحال بعزل رفقي باشا موضوع كراهتهم وأصل تمردهم . فعلموا من ذلك ان لا شيء يقف في سبيل مطالبهم وان الفوز في ثباتهم وتمسكهم برأيهم

روح الفتنة في الجيش

وبعد ان عزل الخديوى ناظر الحربيـة أمر بتشكيل لجنة للنظر في مظالم رجال الجيش ورفع رواتب الضباط والجند المصريين ، وأعلن انهم سيكونون في مستوى واحد مع غيرهم من الأتراك والجراكسة . وبالاختصار هدأت الأحوال قليلاً ، وكان

النظر في مظالم الجيش

يُظن ان الخطب انتهى عند هذا الحد

خوف رجال الجيش

على أن رجال الجيش لم يهدأ روعهم وعاشوا فى خوف من الخديوى ، خشية ان يكيد لهم كيداً ، عقاباً لهم على ثورانهم ، وكانوا يرون كل يوم من الشبهات ما زاد اضطرابهم ، خصوصاً ان ناظر الحربية الجديد « محمود سامى باشا » عُزل ونُصب مكانهُ « داود باشا » ابن أخى الخديوى . وفى مساء ١٣ شوال (٨ سبتمبر) ذهب الى بيت عرابى بك رجل غير معروف ، فلم يسمح له بالدخول . فراب عرابى بك أمره ، وذهب فى الحال ليقص ذلك على زملائهِ من الضباط ، وإذا بهم قد حدث لهم ذلك الأمر بعينه ! فأيقنوا ان هناك مكيدة لاغتيالهم

مظاهرة عابدين

وازداد اعتقادهم يقيناً عند ما أصبحوا فرأوا ان الأوامر صدرت (للآلاى) الثالث (من الرجالة) بالسفر الى الاسكندرية . فهاجوا وماجوا ، وسار عرابى بك بقسم من الجيش يبلغ ٢٫٥٠٠ رجل معهم ١٨ مدفعاً الى ميدان عابدين ، واصطفوا أمام قصر الخديوى فى عصر ١٥ شوال (٩ سبتمبر) يريدون مطالب جديدة

الخديوى يستشير اوكلند كلفن

فهال الخديوى الأمر وطلب « السير أوكْلَنْد كُلفِن » المراقب الانجليزى * ليستشيره فيما يجب عمله . فحضر هذا وسار مع الخديوى الى قصر عابدين ، ونصح له بالظهور بالثبات ، وان لا ينس أنه مليك البلاد ، وأن له هيبة تَصغُر أمامها كل شجاعة لعرابى ورجاله

عرابى يخاطب الخديوى

فنزل الخديوى الى الميدان ، فتقدم اليهِ عرابى بك ليعرْض مطالبه ، وكان ممتطياً جواده و بيده حسامه . فناداه الخديوى أن « تَرجَّل واغمد سيفك » . ففعل ذلك بالامتثال الواجب للملوك . ثم سأله الخديوى عما يقصد من عمله هذا فقال : « يا مولاى للأمة ثلاثة مطالب قد أتى الجيش الى هنا للحصول عليها بالنيابة عن الأمة ، ولن ينصرف حتى يحظى بها »

عند ذلك أشار « السير أوكلند كلفن » على الخديوى ان لا يناقش الجند فى

---

* وكان هذا قد نصب مكان السير اڤلن بيرنج الذى نقل الى منصب آخر بالهند

هذه الأمور ، حفظاً لكرامته ، وأن يدخل القصر ويترك له أمر المفاوضة معهم فيما يريدون فخاطب السير اوكلند كلفن الجيش ، وشرح لهم حرج الحالة ، ونصح لهم بالانصراف قبل أن يتفاقم الخطب. فتمسك الثائرون بمطالبهم وهي : نصيحة اوكلند كلفن للجيش مطالب العرابيين

(١) عزل جميع النظار وتشكيل وزارة جديدة

(٢) تشكيل مجلس نيابي للأمة

(٣) زيادة عدد الجيش الى ١٨٫٠٠٠

وبعد المداولة رضي الخديوى بعزل النظار مع إرجاء الفصل في الطلبين الآخرين الى ان يؤخذ رأى الباب العالى منح المطلب الاول

فقبل عرابى ذلك ، وانصرف الجيش داعياً للخديوى بطول البقاء. وطلب عرابى الى الخديوى ان يصفح عنه ، فكان له ذلك انصراف الجيش

وكانت شوكة عرابى قد عظمت ، ونفذت كلمته فى الجيش ، ثم تعدته الى الكثير من العمد والأعيان والعلماء ، بما ينشره بينهم من الأقوال الجاذبة من « انقاذ الوطن » وغير ذلك من الزخارف الباطلة التى كان لها أسوأ عاقبة فى البلاد . وسهّل انقياد بعض الأهلين له ما رأوه من تدخل الأجانب فى شؤون مصر ، واجحافهم بحقوق الوطنيين عند اعداد قانون التصفية . ثم داخل « عرابياً » الغرورُ ، فبالغ فى ادعاء ما ليس من حقه . من ذلك انه أصدر فى ٩ سبتمبر منشوراً لقناصل الدول يطمئنهم فيه على رعايا دولهم ويخبرهم انه المؤاخَذ على حفظ النظام ! وهو حق غريب استباحه لنفسه ، وكان الأجدر تركه لأمير البلاد أو لأحد وزرائه اتساع نفوذ عرابى منشور عرابى للقناصل

ولما انقضت مظاهرة عابدين طلب الخديوى من شريف باشا أن يشكل وزارة جديدة ، فتردد أولاً لعلمه انه سيكون ألعوبة فى يد الحزب العسكرى ، اذ كانوا هم العاملين على اسقاط مَنْ قبلَه . ثم ألحّ عليه الأعيان ورجال الجيش ، فقبلها على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكرى بالامتثال للأوامر ، فقبلوا ذلك ، وشُكلت الوزارة فى ٢٠ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م) وزارة شريف باشا



أحمد عرابى

ابعاد عرابى وعبد العال

ورأى شريف باشا تهدئة للأفكار ان يُبعد رؤساء الحزب العسكرى عن العاصمة، فأشار على عرابى بالذهاب مع (آلايهِ) الى رأس الوادى ، وعلى عبد العال بالذهاب مع آلايهِ الى دمياط ، فامتثلا . وصادف غيابهما عن القاهرة حضور وفد من قِبل الباب العالى للنظر فيما سمعته الدولة من المشاكل الجارية فى مصر ، فوجد ظاهر الأمور هادئاً فأعلم الدولة بذلك

تشكيل مجلس الشورى

وبعد سفر الوفد أصدر الخديوى أمراً فى ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٩ هـ (١٨ ديسمبر ١٨٨١ م) بتنصيب « محمد سلطان باشا » رئيساً لمجلس شورى النواب ، فاجتمعت أعضاؤه وشُكلت منهم لجنة لمراجعة قانون المجلس. فأقرّت اللجنة أكثر مواده، الاَّ ما تعلق منها بميزانية الحكومة ، فان اللجنة رأت أن للمجلس الحق فى مراجعتها، مع

ان شريف باشا قد شرّع فى القانون عدم جواز ذلك للمجلس، عملاً برغبة المراقبين والدول الأوربية ، لأنهم كانوا يخشون تسرّب الاضطراب ثانيةً الى الشؤون المالية مما يؤدى الى نقض أحكام قانون التصفية

رفض مطالب الاعضاء

وكانت عُرى الاتفاق بين الأعيان ورجال الجيش قد وثقت، ثم قوى جانب الجميع بثبوت قدم الحزب العسكرى وتنصيب عرابى باشا فى ربيع الأول سنة ١٢٩٩هـ (يناير ١٨٨٢م) وكيلاً لنظارة الحربية ارضاء لذلك الحزب. فتمسكت اللجنة برأيها، ولم يرَ شريف باشا وسيلة الى اجابة طلبها لعلمه ان الدول لا تسمح بذلك مطلقاً

تمسكهم بمطالبهم

وكانت الحكومة الفرنسية منذ مظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م ترى وجوب بسط انجلترة وفرنسا شيئاً من الإشراف على الديار المصرية. فلما رأس الوزارة الفرنسية المسيو « غَمْبتّا » فى شهر ديسمبر عمل بكل قواه على تنفيذ هذه السياسة، وعرض الفكرة على اللورد « غرِنْفِل » وزير الخارجية البرطانية، موضحاً له ان الحوادث الجارية بمصر تستدعى التدخل فى شؤون تلك البلاد محافظةً على الأموال والمصالح الأوربية

اغراض فرنسا

تاهبها لانتهاز الفرصة

ولم يكن من سياسة برطانيا العظمى فى ذلك الحين مشاركة فرنسا فى بسط شىء من النفوذ على مصر، ولكن دَفعتهـــا الرغبة فى ارضاء تلك الدولة (لما بينهما من التحالف) الى اظهار شىء من الموافقة على رأى المسيو غمبتّا. على ان هذا الوزير طالما عرض عليهِ اللورد غرنفل أن يطلب من الباب العالى أن يتدخل هو فى أمر مصر ويحتلها بجنوده ان اقتضى الأمر ذلك، فكان دائماً يقابل ذلك بالرفض

سياسة انجلترة

ثم وجد المسيو غمبتا من عزم مجلس شورى النواب المصرى على طلب فحص الميزانية فرصةً للشروع فى انفاذ ما يرمى اليهِ. فعرض على اللورد غرنفل أن ترسل حكومتا انجلترة وفرنسا بالاشتراك مذكرة الى معتمديهما بمصر ليخبرا الخديوى «برغبة دولتيهما فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى، وان الدولتين على وفاق تام فيما يختص بمصر،

اقتراح فرنسا على انجلترة

خصوصاً بعد ما حدث من الحوادث الأخيرة التي من أهمها اجتماع مجلس شورى النواب »

مذكرة انجلترة وفرنسا الى الخديوى

فوافق اللورد غرنفل على ارسال المذكرة بعد تردد واشترط فى جوابه ان موافقة الحكومة البرطانية على ذلك لا يقيدها بالقيام بأى عمل فى المستقبل للتدخل فى مصر ان اقتضى الأمر ذلك. فرضيت الحكومة الفرنسية بالشرط، وأُرسلت المذكرة وبُلّغت رسمياً للخديوى فى ١٩ صفر سنة ١٢٩٩ ﻫ (٨ يناير ١٨٨٢ م)، فقابلها الخديوى بالشكر والامتنان

اثر المذكرة السيئ فى مصر

على ان المذكرة وقعت على غير الخديوى وقوع الصاعقة، وارتاب جميع الطبقات فى نيات الدولتين. واعتقد أعضاء مجلس الشورى انهم المقصودون بذلك، وان الدولتين تريدان تقويض سلطة مجلسهم. فزاد اتحادهم مع رجال الجيش وتمسكوا بأذيال عرابى وحزبه. أما الباب العالى فثار خاطره أيضاً لهذا العمل الذى فيهِ افتيات على حقوقه، اذ هو صاحب السيادة فى مصر، وكان هو الأولى بالتدخل فى شؤونها

اقتراح ارسال مذكرة ايضاحية

فلما رأى شريف باشا ما كان للمذكرة من الأثر السيئ طلب الى الدولتين أن ترسلا مذكرة ايضاحية تفسر الأولى وتبيّن ان الدولتين لا ترميان الى غرض سيئ. فوافقت الحكومة الانجليزية على هذا الرأى، ولكن المسيو غمبتا عارض أشد المعارضة وقال انهُ يذهب بهيبة الدولتين، فعملت الحكومة الانجليزية هذه المرة أيضاً برأيه على غير رغبتها

اسقاط وزارة شريف باشا

وفى هذه الأثناء كان يزداد سخط أعضاء مجلس الشورى، وازدادوا تمسكاً برأيهم فى أمر الميزانية. ولما رأوا ان شريف باشا يعارضهم طلبوا الى الخديوى اقالته فاستقال. ثم شكّل الخديوى وزارة جديدة فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ ﻫ

وزارة البارودى

(١٥ فبراير سنة ١٨٨٢) برياسة « محمود سامى باشا البارودى » طبقاً لرغبة أعضاء المجلس، وجُعل أيضاً عرابى باشا وزير الحربية فيها

على ان اذعان الخديوى لرغبة الأعيان بهذه الصفة لم يُقصد بهِ الا حلّ عاجل



محمود باشا سامى البارودى

حل وقتى

للمشكلة ريثما يتم الاتفاق على من يوكل اليهِ قمع هؤلاء الثوار بالقوة ، لأنهُ يستحيل حكم البلاد بوزارة رأسها من المنتمين للحزب الثائر ، ووزير الحربية فيها عرابى نفسه ، وهو اكبر عامل فى الثورة

ازدياد نفوذ الحزب العسكرى

وبمجرد تشكيل الوزارة الجديدة أخذ نفوذ الحزب العسكرى فى الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى امتد الى جميع أعمال الحكومة ، وفى يوم ٢٠ فبراير كتب « السير إِدْوَرْدْ مَلِتْ » المعتمد البرطانى بمصر الى حكومته يخبرها بأن المراقبة الثنائيـة أصبحت اسمية فقط

الخلاف بين الخديوى ووزرائه

ثم زادتِ الوزارة الجديدة من عدد الجيش ، ورفعت رواتب رجاله ، بلا اكتراث بما يصيب الميزانية من جراء ذلك ، ورقّت كثيراً من الضباط بدون اختبار ، فجرّ كل ذلك الى اشتداد الخلاف بين الخديوى ووزرائه ، وتفاقم الخطب حتى كان يُظن

ان العرابيين يرمون الى عزل الخديوى وتنصيب محمود باشا سامى مكانه

تحريك الدول — كل هذه الأعمال حرّكت همة الدول الأوربية من جديد . وكانت وزارة المسيو غمبتا فى فرنسا قد سقطت وخلفه المسيو « دى فريسينيه » . ولم يكن هذا شديد

غمبتا وفريسنيه — الإصرار على التدخل فى مصر كما كان سلفه ، الا أنه رأى ان فرصة عدم التدخل قد فاتت ، وان الحال فى مصر وصلت الى حد يستحيل معه السكوت ، اذ ظهرت كل معالم الثورة فى أنحاء البلاد

احتجاج الباب العالى على المذكرة — وكان الباب العالى قد احتجّ على ارسال مذكرة انجلترة وفرنسا ، فرأت هاتان عرض المسألة على باقى الدول الأوربية للنظر فى الطريقـة التى يجب بها الفصل فى

سكوت الدول — الأمر . فلم تُبد الدول معارضة فى النظر فى الأمر ، ولكنها لم تفعل شيئاً فعّالاً للوصول الى نتيجة . فبادرت الحكومة الفرنسية بمفاوضة الحكومة الانجليزية فى الأمر ، فأقرّ قرارهما على ارسال أسطول من قبل الدولتين الى مياه الاسكندرية وتكليف الوزارة

انجلترة وفرنسا تقرران استعمال القوة — المصرية الاستقالة . ورأت الحكومة الانجليزية فوق ذلك أن يُطالب الى الباب العالى أن يصدر أمراً الى مصر يعضد به الخديوى ، ويستدعى زعماء الثورة الى الاستانة للاجابة عن عملهم ، فوافقت على ذلك الحكومة الفرنسية بعد تردد

وفى ٨ رجب (٢٦ مايو) قدّم معتمدا انجلترة وفرنسا مذكرة الى رئيس مجلس النظار طلبا فيها استقالته من الوزارة ، وإبعاد عرابى باشا عن القطر المصرى مؤقتاً مع

اقالة وزارة البارودى — حفظ راتبه وألقابه ، وأن يقيم عبد العال باشا وعلى فهمى باشا فى الأرياف ، ولهما أيضاً رواتبهما وأوسمتهما . فاستقالت الوزارة ، ولكن لم يسافر أحد ممن ذكروا فى المذكرة

أما الأسطول الانجليزى الفرنسى فقد وصل الى ميـاه الاسكندرية حسب

الاسطول الانجليزى بالاسكندرية — الاتفاق . وكان قائد السفن الانجليزية « السير بوشمب سيمور » ، فلما وصل وجد ان النفوذ كله فى المدينة بيد الحزب العسكرى ، وان الأحوال فى هيج واضطراب ، فأخبر دولته بذلك . وكانت الوفود من الأعيان والعلماء وغيرهم تذهب الى الخديوى يرجونه ارجاع عرابى الى منصبه ، فلم يقبل منهم

الدولة تنوى ارسال سفير الى مصر

أما الباب العالى فانه لما بلغه رجاء انجلترة وفرنسا أراد أن يظهر بمظهر صاحب السيادة فى البلاد ، وقال انه سيرسل سفيراً من قبله لفحص المسئلة ، وانه لا داعى لبقاء أساطيلهما بالاسكندرية . فلم توافق الدولتان على استرجاع أساطيلهما ، ورأت أن مجرد بقاءها بالمياه المصرية يكفى لارهاب الثائرين وإلقاء الرعب فى قلوبهم

مؤتمر القسطنطينية

ولما لم يُجْدِ هذا التأثير الأدبى نفعاً ، وازدادت الحالة خطورة يوماً بعد يوم ، دعت انجلترة وفرنسا الدول الأوربية الى مؤتمر بالاستانة للنظر فى المسألة المصرية ، ودُعى اليه الباب العالى ، فلم يرض بارسال مندوب من قبله اعتقاداً ان حلّ المسألة المصرية من شأنه هو ، لا من شأن مؤتمر يعقده غيره من الدول. ثم اسرع الى ارسال المشير مصطفى درويش باشا مبعوثاً من قبله الى مصر لتفقّد أحوال العسكرية. ومن الغريب ان الباشا المذكور قال فى تقريره الى الحضرة السلطانية ان العسكر محافظة على الطاعة والنظام ، وطلب لضباط الجيش نحو ٢٠٠ وسام منها الوسام المجيدى من الطبقة الأولى لعرابى نفسه !

مندوب الباب العالى فى مصر

استعداد الحزب العسكرى

ثم اشتد غلو الحزب العسكرى ، وأخذ يجمع الجيوش ويعدّ العدة ، فزاد خوف الأوربيين المقيمين بالبلاد ، حتى ان سكان الاسكندرية منهم تأهبوا للدفاع عن أرواحهم عند الحاجة ، وبقيت الاحوال تزداد صعوبة واضطراباً حتى جاءت تلك الحادثة المشئومة الشهيرة بحادثة ١١ يونيه أو « واقعة الأحد »

حادثة ١١ يونيه (واقعة الاحد)

وأصل هذه الحادثة انه فى يوم ٢٤ رجب سنة ١٢٩٩هـ (١١ يونيه سنة ١٨٨٢م) تشاجر رجل مالطى مع مكار مصرى فى الاسكندرية لامتناع المالطى عن اعطاء الأجر الكافى نظير ركوب حمار المكارى . وكان المالطى ثملاً بالخمر ، فطعن المكارى بمدية ، فانتصر لكل منهما قوم من ابناء ملّته ، فتذمر بعض الرعاع من الوطنيين وأرادوا أن يثأروا من الأوربيين ، ولا سيما ان حوادث الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض ، وابتدأ الأوربيون يطلقون النيران من نوافذ بيوتهم على كل مار من الوطنيين . فازداد غضب المتجمهرين ، وتضاعف

الخطب . ولم يوجد مَنْ يزجر الرعاع أو يشرح لهم ضرر فعلتهم مع تمادى الأوربيين المتحصنين فى بيوتهم فى اطلاق النار حتى عظم القتال بين الفريقين ونُهب كثير من مخازن المدينة . ثم صدرت الأوامر للجند بتفريق المتجمهرين ، فلم يأت الغروب الاَّ

سكون الاضطراب

وقد هدأت الاحوال وسكن الاضطراب . وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بهذه الثورة

أثر الحادثة فى أوربا

وقد كان لهذه الحادثة المحزنة أثر سيئ لدى الدول الأوربية ، وقللت من عطفهم على مصر والقائمين بالحركة العرابية فيها ، وقالوا ان هذه الحركة يصحبها شيء من التعصب الذميم . وقد كان ذلك من اكبر المؤثرات فيما قرروه فى المؤتمر الذى عقد فى الاستانة للنظر فى شؤون مصر

أعمال المؤتمر

أما ما كان من أمر هـذا المؤتمر فانهُ عُقد بالاستانة فى ٦ شعبان (٢٣ يونيه) وشرع أعضاؤه فى التفاوض فى الأمر ، ولكن مفاوضاتهم سارت بغاية البطء لاختلاف مشارب الدول الأوربية فى أمر مصر ، وخوف كل منها من تحمّل المؤاخذة ، بالرغم من اعتقادهم جميعاً بأن الحالة فى مصر أصبحت تدعو الى التدخل بالقوة . وبقى الباب العالى محجماً عن ارسال مندوب من قِبله الى المؤتمر . ثم عرض عليهِ المؤتمر فى ٦ يوليه ان يرسل قوة الى مصر بشروط معينة لتثبيت عرش الخديوى بمقتضى التقاليد

الباب العالى يرسل مندوباً

السابقة فأخذ يرجئ ويماطل الى ان أعلن فى يوم ٢١ شعبان (١٠ يوليه) انه سيرسل مندوباً الى المؤتمر فى اليوم الثانى

ولكن بعد فوات الفرصة

على ان الفصل فى أمر مصر كان فى الحقيقة قد أفلت من يد الباب العالى والمؤتمر باعلان قائد الاسطول الانجليزى بالاسكندرية فى فجر ١٠ يوليه المذكور انهُ سيضرب قلاع المدينة ان لم تسلّم له فى مدة أربع وعشرين ساعة

تحصين قلاع الاسكندرية

وذلك انهُ منذ قدومه الى المياه المصرية كان يلاحظ الهيج يزداد فى المدينة يوماً بعد يوم ، ثم بلغه ان عرابى باشا يأمر بزيادة تحصين قلاع الثغر ليضرب منها الاسطول الانجليزى . فطلب ابطال هذا التحصين ، فأخبره عرابى انهُ ليس بالقلاع أدنى حركة

تحصين جديدة، وان ليس بها الاّ المدافع القديمة العهد. ولكن « سيمور » أبصر بعد ذلك ان الاستعداد فى القلاع قائم على قدم وساق، فأصدر بلاغاً الى قناصل الدول بالاسكندرية فى فجر ١٠ يوليه بأنهُ سيضرب المدينة ان لم تسلّم اليهِ قلاعها

اعلان سيمور أنه سيضرب الاسكندرية

وكانت الحكومة الانجليزية قد عرضت على الحكومة الفرنسية ان تشترك أسطولها مع الأسطول الانجليزى فى ضرب المدينـة ان اقتضى الأمر ذلك، فامتنع المسيو « فريسنيه » بعلة ان حكومته تأبى أن تتحمل تبعة هـذا العمل. فعزم الأسطول الانجليزى على الانفراد بالعمل، وفى الساعة السابعة من صباح ٢٢ شعبان ١٢٩٩هـ (١١ يوليه سنة ١٨٨٢ م) أطلقت العمارة الانجليزية (وعددها ١٤ سفينة بين مدرعة ومدفعية) مدافعها على قلاع الاسكندرية، فجاوبتهـا قلاع الاسكندرية بعد ١٥ طلقة، واستمر تبادل النار بين الفريقين ١٠ ساعات انتهت بدك تلك القلاع الضعيفة دكاً من غير أن يصيب السفن الانجليزية أذى يُذكر

انفراد الاسطول الانجليزى

ضرب الاسكندرية

وفى اليوم التالى تراجعت حامية المدينة الى الداخل، وعند خروجها من الاسكندرية أمر أحد أمراء (الألايات) المدعو « سليمان داود » (بغير علم عرابى) ان تُحرَق المدينة، فاشتعلت فيها النيران، ونهبهـا الرعاع. وفى يومى ٢٤ و ٢٥ شعبان أنزل الأسطول الانجليزى بعض الجنود، فاحتلوا المدينة، فعاد اليها الأمن وأخذ الأهلون يرجعون اليها بعد أيام قلائل

احراق الاسكندرية

ثم أخذت الجيوش الانجليزية والهندية تفد الى الاسكندرية لمحاربة عرابى. بقيادة « جارنِت وُلسِلى ». وكان عرابى قد عسكر بجهة « كفر الدوَّار » على بعد بضعة أميال من الاسكندرية، فلما وجد الانجليز ان موقعه هناك حصيناً رأوا أن يدخلوا البلاد من الشرق من جهة قناة السويس. وعلم بذلك عرابى، فعزم على ردم القناة كى لا تمرّ منها السفن الانجليزية. ولكن المسيو ديلسبس حمله على الكف عن هدم هذا العمل الخطير، وقال انهُ يمنع بحق حياد القناة مرور أى سفن حربية منها. فخُدع عرابى بأقواله، ولم يقدر ديلسبس طبعاً على انجاز وعده، ونزلت الجنود

معسكر كفر الدوار

عزم عرابى على ردم قناة السويس

نزول الانجليز من طريق القناة

الانجليزية من طريق القناة . فاستعد العرابيون للقائهم بجهة «التل الكبير» . وكانت أهالى القطر تمد جيش عرابى بحاجاته طوعاً أو كرهاً ، حتى اجتمع له من الخيل والبغال شيء كثير

الباب العالى والدول

وكان الباب العالى طول هذه المدة يتباطأ فى الفصل فى أمر مصر ، وأخيراً اشترك فى مفاوضات مؤتمر الاستانة بارساله مندوبين من قبله فى ٢٠ يوليه . ثم أعرب لرجال المؤتمر أنه مستعد لارسال جيش لاخماد الثورة المصرية ، فاشترطت عليه الدول شروطاً خاصة مؤداها أن لا يغير علاقة الدولة بمصر عما تقضى به التقاليد السابقة . وكانت فى مقدمتهم فى ذلك انجلترة ، لانها أصبحت منذ ضرب الاسكندرية اكبر الدول ارتباطاً بالشؤون المصرية . ولم تُبد لها احدى الدول شيئاً من المعارضة لعلمها بوجوب قيام احدى الدول باطفاء الثورة

انجلترة والباب العالى

فاشترطت انجلترة على الباب العالى أن لا يرسل جندياً واحداً الى مصر الا بعد أن يصدر منشوراً بأن عرابى باشا عاص للسلطان ، وبعد ابرام اتفاق حربى مع انجلترة بشأن اعمال الجيش التركى والانجليزى بمصر

منشور السلطان

فأخذ الباب العالى يعرض عدة صور بما يصدره فى المنشور على انجلترة (فتشير هذه بتعديلها حسب ما تراه موافقاً للأحوال) ثم كتب صورة نهائية ونشرها قبل أن يطلع مندوب انجلترة عليها ٢٢ شوال (٦ سبتمبر) . فغضبت لذلك انجلترة وامتنعت عن توقيع الاتفاق الحربى . عند ذلك شرع الباب العالي يفاوض انجلترة بشأن توقيع الاتفاق بالرغم مما حصل ، وكادت الحكومة الانجليزية تقبل ذلك فى

انجلترة تستغنى عن الباب العالى

٢٩ شوال (١٣ سبتمبر) لولا أن جاءت الانباء فى ذلك اليوم بأن الجيوش الانجليزية بددت شمل جيش عرابى فى صبيحة ذلك اليوم عند التل الكبير ، وبذلك زالت الاسباب الداعية الى مفاوضة الباب العالي فى هذا الشأن

موقعة التل الكبير

أما موقعة التل الكبير فكانت فى السحر فى الساعة الرابعة من صباح ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢م) . وكان عدد الجيش الانجليزى فيها يبلغ

١٧,٤٠٠ مقاتل . وجيش عرابى نحو ٢٧ ألف جندى ما بين نظامى وغير نظامى . فلم يُجد هذا الفرق شيئاً أمام العلم وحسن النظام ، ولم تدم الواقعة أكثر من عشرين دقيقة انتهت بتبديد الانجليز لجيش عرابى . وفرّ عرابى نفسه الى القاهرة بعد أن بذل جهده عبثاً فى رد المنهزمين من جيوشه الى اماكنهم . وأراد عرابى الوقوف للانجليز فى طريق القاهرة فخذله الناس وانكسرت نفوس مساعديه

هزيمة العرابيين

فسار الانجليز الى القاهرة فدخلوها بلا مقاومة ، وتسلموا القلعة وباقى الثكنات العسكرية فى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، وبذلك ابتدأ احتلالهم للقطر المصرى

دخول الانجليز القاهرة

ثم سلّم عرابى نفسه وقبض الانجليز على معظم زعماء الثورة

الفصل السابع

عهد الاحتلال البرطانى

١ — ﴿ قدوم اللورد دُفرين الى مصر ﴾

دخلت مصر منذ عام ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م) فى طور جديد ، وهو الاسترشاد بدولة أوربية عظيمة فى السير فى سبيل تهدئة أحوالها وتنظيم ادراتها . وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التى دعت برطانيا العظمى الى ارسال جيش لاحتلال مصر ، والآن نبين كيف امتد هذا الاحتلال الى اليوم ، مع ذكر أهم الأعمال العامة التى تمت فى عهده

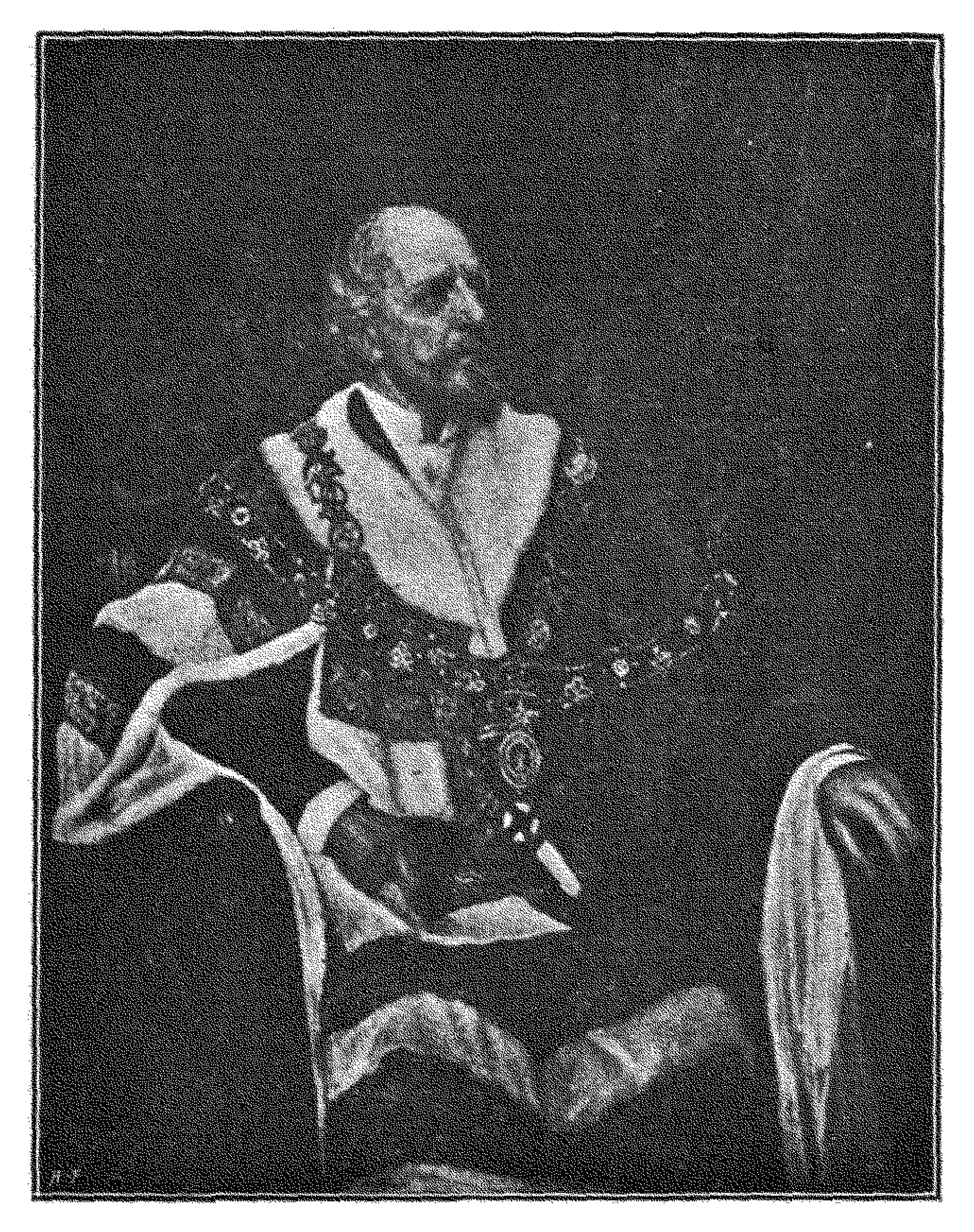
طور جديد

بعد أن أُودع عرابى السجن وأُخمدت نار الثورة كان أول واجب إعمال التدبير لتهدئة أحوال البلاد ومنع حدوث مثل هذه الفتنة فى المستقبل . لذلك أمرت الحكومة البرطانية اللورد « دُفرين » (سفيرها فى الاستانة) أن يسافر الى مصر ويبدى للحكومة الخديوية ما يراه من المشورة والنصح ، لاتخاذ الحيطة الكافلة بتثبيت عرش

مهمة اللورد دفرين

العفو عن صغار الضباط

سمو الخديوى وإسعاد جميع طبقات الأمة . وكانت الحكومة قد سجنت ، غيرَ زعماء الثورة ، عدداً كبيراً من الأهالى والعلماء لشبهات يسيرة . فلما حضر اللورد « دفرين » الى مصر نصح للحكومة بالنظر فى أمرهم ، فعملت بمشورته ، ثم أصدر الخديوى أمراً بالعفو عن جميع الضباط الذين تقل رتبتهم عن (البكباشى) ، مع تجريدهم من رتبهم وحرمانهم من معاشهم



اللورد دفرين

محاكمة زعماء العرابيين

ثم عُيّنت « لجنة تحقيق » للنظر فى أمر عرابى ومحمود سامى وعبد العال وطلبة وعلى فهمى ، فأقرّت محاكمتهم أمام مجلس عسكرى بتهمة ثورانهم على الحكومة . فأثبت المجلس إدانتهم وحُكم عليهم بالاعدام ، ثم أُبدل بالحكم أخف منه وهو النفى المؤبد الى جزيرة « سَرَنْديب » (سيلان) بالهند

الغاء المراقبة الثنائية

بعد أن دخلت الجنود الانجليزية مصر واحتلتهـا لم يكن هنالك داع للمراقبة الثنائية ، اذ فى انجلترة وحدها الكفاية للمحافظة على الأموال الأوربية ، وفى بقاء المراقبة احتمالُ لفساد العلائق بين فرنسا وانجلترة ، لتوقُّع الخلاف بينهما فى الرأى . على أن الحكومة المصرية نفسها طالما وجدت المراقبة الثنائية حجرَ عثرة فى سبيل أعمالها ، ولذلك اقترح شريف باشا الغاءها . فأيدته الحكومة الانجليزية فى رأيهِ وساعدته على انفاذ رغبته بالرغم من احتجاج فرنسا وتشنيع الصحف الفرنسية عبثاً ، وفى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٠٠ هـ (١٨ يناير سنة ١٨٨٣ م) أصدر الخديوى أمراً عالياً بالغائها . فغادر المراقب الفرنسى مصر بحجة قيامه بأجازة ، وعُيّن المراقب الانجليزى مستشاراً مالياً للحكومة المصرية

مقترحات اللورد دفرين

ونظر اللورد دفرين أثناء اقامته بمصر فى عدة أمور لإصلاح البلاد . فمن أهم ذلك انشاء جيش مصرى جديد ، لأن القديم قد حُلّ لقيامه بالثورة ، ولأن انجلترة كانت فى ذلك الوقت تنوى استرجاع جيوشها من مصر فى أقرب فرصة ، فيحل الجيش الجديد محل الجيوش البرطانية . ولما لم يجد اللورد دفرين العدد الكافى من المصريين اللائقين لأن يكونوا ضباطاً فى الجيش اقترح أن ينصّبَ عليهِ قائد انجليزى ويضمّ اليه بعض كبار الضباط من الانجليز . فوقع الاختيار على «السير افلن وُود» ، فنُصّب (سرداراً) للجيش المصرى فى أوائل سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) وأخذ فى القيام بتنظيم الجيش

جيش جديد

الشرطة

واقترح اللورد دفرين اصلاح الشرطة ، فعُهد بأمرها الى «الجنرال بيكر» وألحقت ادارتها بوزارة الداخلية

مجلس الشورى والجمعية العمومية

ونظر أيضاً فى تشكيل هيئات نيـابية تساعد الحكومة فى ادارة شؤون البلاد ، فاقترح انشاء مجلس شورى لسنّ القوانين يؤلف من ٢٦ عضواً ، يكون بمثابة مرشد لمجلس النظار ، وتشكيل جمعية عموميـة مكوّنة من ٤٦ من الأعيان تجتمع كل سنتين مرة يسترشد بهم كل من مجلس النظار والشورى فى الوقوف على رغبات أهل

البلاد . على ان هذا النظام لم يمكن انفاذه دفعة واحدة لعدم تدرب البلاد على الحكومة النيابية ، ورأت انجلترة ارجاءه الى ان يتم هذا التدرب

امد الاحتلال

على ان انجلترة لم تقصد بقاءها بمصر أمداً طويلاً ، بل كانت على العكس من ذلك عازمة على الجلاء عنها بعد ان ترسخ قدم الاصلاح فيها وتخرج من الأزمة التى كانت سبباً فى نزول الجيش البرطانى الديار المصرية : يدل على ذلك ما جاء فى خطاب الملكة فكتوريا يوم افتتحت البرلمان البرطانى فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٠٠ ﻫ (١٥ فبراير سنة ١٨٨٣ م) وتصريحات اللورد دفرين فى التقرير الذى رفعه للحكومة البرطانية عن حالة مصر

الامور التى عاقت تقدم مصر

غير انهُ حدثت أمور ومشاكل عاقت تقدم مصر على الوجه الذى تريده انجلترة ، فاضطرت للبقاء فيها الى هذا اليوم . ومن أعظم هذه المشاكل قيام الفتن والحروب فى السودان ، فإنها ، فضلاً عن جعلها البلاد فى خطر اذا أجلت عنها الجيوش البرطانية ، عاقت سير الاصلاحات العديدة التى اقترحها اللورد دفرين ، وهى تتناول أموراً كثيرة أهمها الجيش والشرطة والهيئات النيابية والتعليم والمحاكم والرى ومسح الأراضى وتخفيض الضرائب واصلاح حال الفلاح وغير ذلك

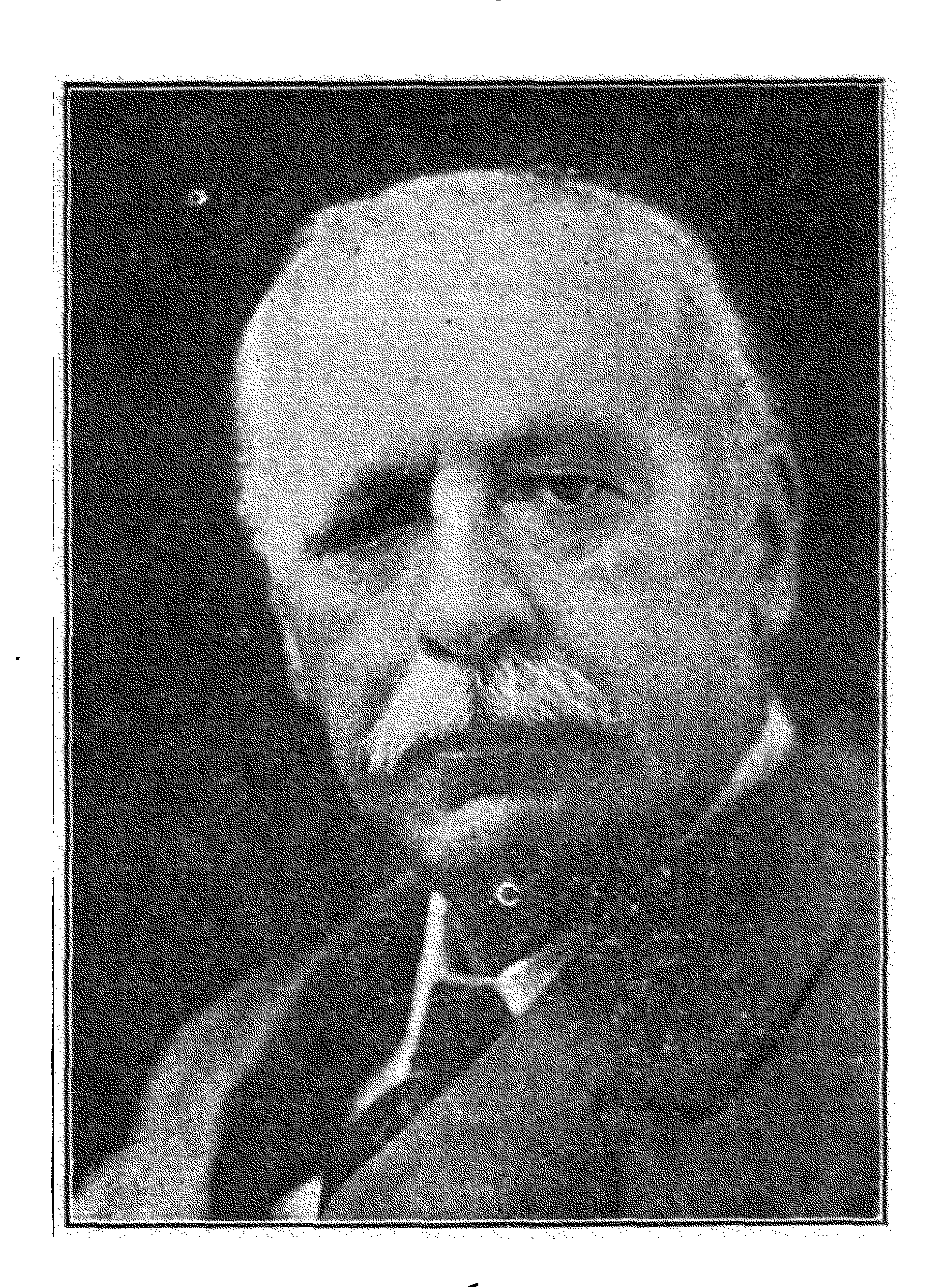
عودة دفرين الى الاستانة

وبعد ان وضع اللورد دفرين الخطة للاصلاح الذى يريده فى مصر عاد الى مقره بالاستانة ، وعُهد بانفاذ هذا الاصلاح الى معتمد برطانيا العظمى فى مصر بحيث يكون مركزه فى ذلك مركز الناصح والمرشد للحكومة المصرية ووزرائها

اللورد كرومر معتمد برطانيا

ثم اختير لهذا المنصب « السير افلين بيرنج » . (اللورد كرومر فيما بعد) فوصل الى مصر فى ٩ ذى القعدة سنة ١٣٠١ ﻫ (١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣ م) ، أى بعد مغادرة اللورد دفرين بأربعة أشهر ، فبقى فيها يواصل هذا العمل الى ان استقال من منصبه فى صيف عام ١٣٢٥ ﻫ (١٩٠٧ م) .

ولما كان للحروب السودانية الأثر الأكبر فى تأخير سير هذه الاصلاحات حسُن بنا ان نأتى على ذكرها أولاً ثم نعود الى الكلام على الاصلاحات التى لم نشرحها بعد



اللورد كرومر

٢ — ﴿ حروب السودان ﴾

استولى محمد على باشا على السودان سنة ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) ، ولكنه لم يوطد فيهِ نفوذ مصر ، فبقيت سلطة الحكومة عليهِ ضئيلة منذ هذه المدة . وكاد يكون الحل والعقد فيه بأيدى الباشوات الترك وجباة الضرائب من البشبزق وغيرهم ، ممن لم يكن لهم همٌّ سوى جمع الثروة وابتزاز الأموال من أبناء السودان التِعاس . وكان الشغل الشاغل لكل حاكم عام ولى السودان فى هذه المدة اطفاء الثورات التى لم تخمد نارها قط فى أنحاء البلاد ، وصد هجمات الحبشة على الحدود السودانية

اضطراب السودان

وقد استتب النظام نوعاً فى المقاطعات الاستوائية فى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م)

اسباب الثورة في السودان

على يد وال انجليزى هو « الجنرال غُردون » ، ولكنهُ ما لبث ان غادر البلاد فى سنة ١٢٩٣ ﻫ (١٨٧٦ م) فعاد باشوات الأتراك الى ظلمهم القديم ، و بعد قليل قامت ثورة فى السودان استفحل أمرها وانتهت بزوال حكم المصريين من تلك البلاد

ومن أهم الأسباب التى أفضت الى قيام هذه الفتنة :

أولاً — ظلم جباة الضرائب وحبهم للرشوة

ثانياً — وقوف الحكومة المصرية فى وجه تجارة الرقيق

ثالثاً — مؤازرة بعض رجال الجيش المصرى للثائرين و إطماعهم فى النجاح اذا ثاروا على الحكومة . فقد قيل ان «عرابيًّا» كان يرسل اشارات برقية الى أهل السودان يحرضهم على مقاومة سلطة الخديوى

ومما سهل الأمر على الثائرين جلاء الجنود المصرية عن السودان لاطفاء الثورة العرابيـــة

المهدى

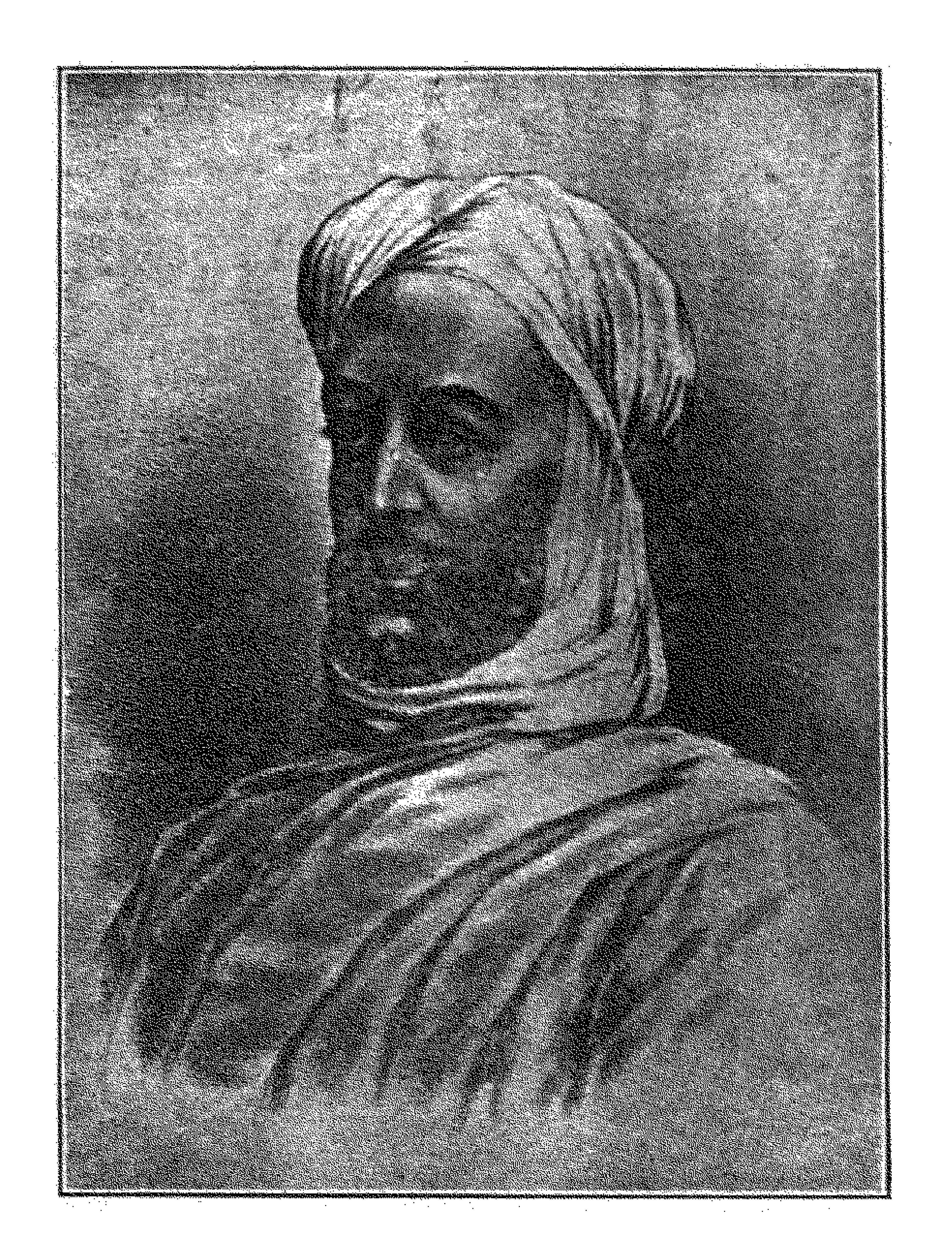
ثم استفحلت الثورة بزعامة رجل يدعى محمد احمد ظهر فى السودان وادعى انهُ « المهدى » المنتَظِر ولذلك لقب بالمهدى

نشأته

وُلد «المهدى» فى مدينة دنقلة عام ١٢٥٩ ﻫ (١٨٤٣م)، واشتغل فى صباه مع عمه فى صنع السفن بجزيرة أمام « سنار » . ثم ضربه عمه ذات يوم ففر منه والتحق باحد معاهد التعليم العربية التى كان يتعلم فيها الدراويش ، فدرس بها الدين مدة ، ثم ذهب الى « بربر » ومنها الى « كانا » على النيل الأبيض، فتقلد بها منصب«فقير» (شيخ) فى سنة ١٢٨٧ ﻫ (١٨٧٠ م) واستوطن بجزيرة « أبَا » بالقرب من كانا المذكورة

نهوضه ودعوته

ثم أخذ صيته فى الازدياد ، فجمع ثروة طائلة ، والتفّت حوله التلاميذ ، وتزوج بينات أعاظم رؤساء قبائل البقّارة ، فعظمت بذلك عصبيته بين قبائل تلك الجهة — وفى سنة ١٢٩٨ ﻫ (١٨٨١ م) أخذ يكتب الرسائل الى فقهاء السودان يخبرهم أنه هو المهدى المنتظر ، وان كل من لم يؤمن به هالك لا محالة ، سواء أكان وثنياً أم



المهدى

مسيحياً أم مسلماً . فشاع ذكره فى السودان ، حتى بلغ أمره مسامع الحاكم العام رؤوف باشا فى أوائل رمضان سنة ١٢٩٨ هـ (يوليه سنة ١٨٨١) . ولم يكد يسمع العلماء بأمره حتى أفتوا بأنه دجال ، وكاد السودانيون أنفسهم ينفضّون من حوله ، بالرغم من جهلهم وتخريفهم ، ولولا استياؤهم من الحكومة فى ذلك الوقت ، ما اندفعوا معه فى مقاومتها

اتحاد السودان معه على الحكومة

فاستدعاه رؤوف باشا الى الخرطوم ليحضر فى مجمع من العلماء ويقيم الحجة على دعواه ، فأبى المهدى الحضور . وخرج رؤوف باشا ليقبض عليه ، فانقض عليه أتباع المهدى فى الطريق وفتكوا بمن معه وقتلوه

المهدى ورؤوف باشا

فلما خلفه « عبد القادر باشا حلمى » فى ولاية السودان انتصر على أتباع المهدى

(الدراويش) فى بضع مواقع صغيرة . غير ان ذلك لم يذهب بقوتهم ، وأخذت ثورتهم تتضاعف يوماً فيوماً حتى اتضح للحكومة المصرية المتباطئة فى أمره ، انها ليست بالأمر اليسير ، بعد أن أهملت المهدى حتى انقض على مدينة « الأبيّض » فى أوائل سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) واستولى عليها

استيلاؤه على الابيض

على ان مركز الحكومة المصرية لمزاء هذا الحادث كان فى شدة الحرج ، لعدم وجود جيش مدرب لديها تمدّ به والى السودان ، الذى لم يعدل منذ نشوب الفتنة عن استصراخها واستنجادها . وقد كان لانجلترة جيش احتلال فى مصر ، لكنها لم ترغب اذ ذاك فى التدخل فى الأمر ، كى لا تضطر الى تجريد حملة على السودان كالتي جردتها على مصر . فأخبرت الحكومة انها اذا أرادت إخماد الفتنة فى السودان فليكن ذلك بالجيوش المصرية

انجلترة تحجم عن محاربته

وفى ربيع سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) استخدمت الحكومة المصرية عدداً من الضباط الانجليز فى الجيش المصرى المؤلف لانقاذ السودان وعلى رأسهم « هِكس باشا » . فتقلد قيادة الجيوش السودانية فى رمضان (يوليه) ، وجعل وكيله « علاء الدين باشا » التركى . غير ان جيوشه لم تكن على مايرام من التدرب ومعظمهم (من جنود وضباط) كان من جيش عرابى المنحلّ وممن نبذهم « الجنرال وود » لعـدم لياقتهم لجيشه الجديد . ذلك الى قلة وسائل النقل ، وعدم توافر الأموال الكافية للانفاق على الحملة

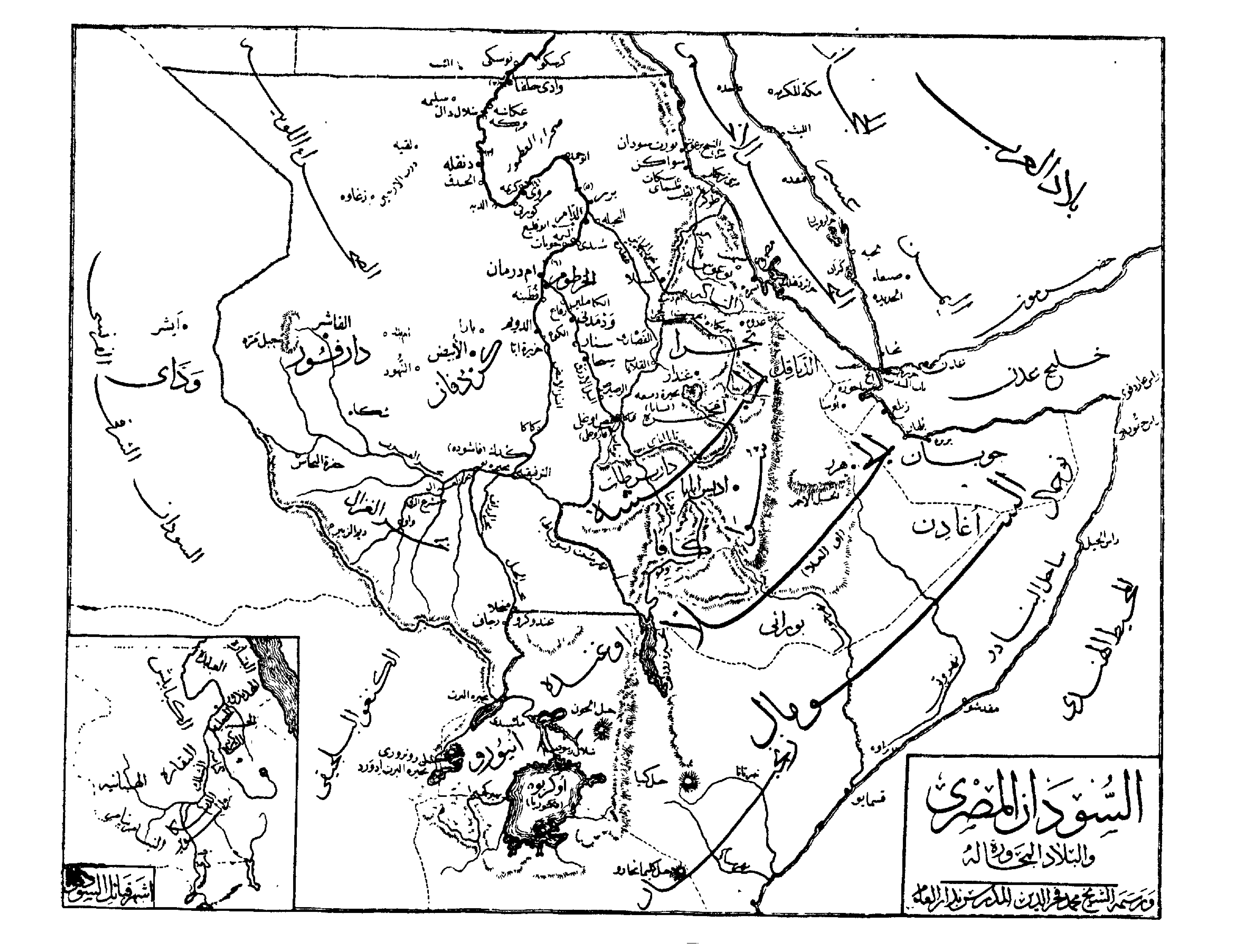
حملة هكس باشا

خرج هكس باشا بجيشه المختلط من الخرطوم فى ذى القعدة سنة ١٣٠٠ هـ (سبتمبر سنة ١٨٨٣ م) يريد استرداد « الأبيّض » . فوصل الى « الدويم » دون أن يلقى أحداً من الأعداء ، وقد أخذ التعب والظماء يفعلان بجيشه اكثر مما تفعله النيران . وبينا هم بين الدويم والأبيض اذ خرج عليهم الدراويش من كمين فى الطريق وأفنوهم عن آخرهم

انهزامها بين الدويم والابيض

وصل خبر هذه الفاجعة الى القاهرة فى المحرم سنة ١٣٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٨٨٣ م) فكان وقعه كالصاعقة فى نفوس أولى الشأن ، اذ به انقطع كل أمل فى القضاء على المهدى عاجلاً ، وخشى الناس أنه عما قريب يأخذ « الخرطوم » نفسها

هول الفاجعة فى مصر


السودان المصري
والبلاد المجاورة له
بلاد العرب
اليمن
خليج عدن
جوبان
أغادن
ساحل البنادر
المحيط الهندي
الصومال
كردفان
دارفور
وداي
الكنغو البلجيكي
أنيورو
أوكريوه
الخرطوم
ام درمان
الأبيض
الفاشر
دنقله
وادي حلفا
سواكن
مكة المكرمة
عدن
هرر
بوراني
مقدشو

إخلاء السودان

مشورة انجلترة باخلاء السودان

وكانت الحكومة الانجليزية لا تزال مصرة على عدم ارسال جيش من قِبَلها الى السودان ، ورأت أن الجيوش القليلة التي يتسنى للحكومة المصرية ارسالها لا تفيد بشيء ، بل ربما أدّى ارسالها الى زيادة الويلات . فنصحت للحكومة المصرية باخلاء السودان : من خط الاستواء الى جنوبي وادى حلفا ، ريثما تتحسن الأحوال ويقوى مركز مصر ذاتها فتعود الى فتح السودان من جديد . فلم يوافق « شريف باشا » رئيس الوزارة على اخلاء السودان بحجة انه المورد الحيَويّ لمصر ، ولأن الاقرار بسلخه عنها مُسقط لحقوقها عليهِ فيصبح نَهباً للدول ، فاعتزل منصبه وخلفه فى رياسة الوزارة « نوبار باشا » فوافق على سلخه من مصر

شريف باشا لا يوافق ويستقيل

موافقة نوبار

وكان فى النية أولاً ارسال عبد القادر باشا الى الخرطوم لتولى استرجاع الجنود المصرية من السودان ، ولكن قرّ الأمر أخيراً على ارسال غردون باشا (الجنرال غردون) الانجليزى فى هذه المهمة ، لما له من النفوذ والمحبة عند أهل السودان ، فيكون ذلك اكبر عون فى هذا العمل الشاق الذى ان لم تُراعَ فيه الحكمة ورباطة الجأش استخف السودان بالحكومة المصرية وفتكوا بجيشها قبل أن يجلوَ عنهم ، وكان يُظن أن « غردون » يستطيع بما له من المكانة المذكورة أن يطيّب خاطر القبائل فلا تنتشر الثورة أثناء جلاء الجيش المصرى . وفى ربيع الأول سنة ١٣٠١هـ (يناير ١٨٨٤م) أُرسل غردون فى هذه المهمة وجعل وكيله « الكولونيل استيوارت » وكان من أحذق الضباط الانجليز

اختيار غردون لاخلاء السودان

عثمان دقنة فى السودان الشرقى

وفى أثناء ذلك كان أمرُ المهدى قد استفحل ، وأخذت دعوته تنتشر فى أنحاء السودان حتى لحقت السودان الشرقى . ففى شوال سنة ١٣٠١ هـ (اغسطس سنة ١٨٨٣ م) وصلت رسل المهدى الى تلك الجهة بالقرب من «سِنكات» وأخذوا يثيرون القبائل على الحكومة . وكان زعيم هذه الحركة رجل من سلالة تركية قديمة

يدعى « عثمان دِقْنَه » أصله تاجر رقيق جهة سواكن ، ولما كسدت تجارته بتضييق الحكومة على الرقيق تألّب عليها وانضم الى المهدى ، فلقّبهُ أميراً من امرائهِ ، ولم يلبث ان انضمت اليه جميع قبائل السودان الشرقى ، فلم يبق تحت نفوذ الحكومة المصرية الآ حاميات « سنكات » و « طوكر » و « سواكن » و « تِرِنْكِتات » على البحر الأحمر .

حملة بيكر لانقاذ حاميتى طوكر وسنكات

ورأت الحكومة المصرية ان ترسل لانقاذ حاميتى طوكر وسنكات « الجنرال بيكر » مع رجال الشرطة الذين عُهد اليهِ تدريبهم . وربما كان هؤلاء الرجال فى الجملة خيراً ممن خرج بهم « هكس باشا » ، وان لم يكونوا على ما يُرام من النظـام والتدرب ، اذ أن بعضهم لم يفق فى تعلمه رجال الشرطة العاديين ، وكثير منهم كان قريب العهد بمبادئ الحركات النظامية . خرجت هذه القوة لانقاذ غرضها ، فالتقت بالدراويش

هزيمتها عند الطيب

عند « الطيب » فى جمادى الأولى سنة ١٠٣١ هـ (فبراير سنة ١٨٨٤ م) ، فانهزمت شرّ هزيمة ، اذ كانت الجنود ترمى سلاحها وتلوذ بالفرار لقلة تدربهم على الحرب . وقد كان عدد رجال هذه الحملة ٣٫٧٠٠ فلم ينج منهم سوى ١٫٣٠٠ رجل

عند ذلك اضطرت الحكومة الانجليزية بعد ابادة الجيوش المصرية القديمة والجديدة الى فعل ما لم ترضَ بهِ من قبل ، وهو ارسال حملة الى السودان . فأمرت

حملة هيوت البحرية

القائد البحرى « هيوِت » بإنزال قوة فى « سواكن » ، وأرسلت الى « ترنكتات » قسماً من جيش الاحتلال بمصر بقيادة « السير جيمس جراهام » ، وكانت حاميتا طوكر وسنكات قد اضطرتا الى التسليم قبل ان تصلهما النجدة ، فخرج « جراهام » الى الطيب حيث هُزم بيكر من قبل ، فكسر الأعداء كسرة شنيعة . ثم جدَّ فى اقتفاء

جراهام يهزم الدراويش عند الطيب

« عثمان دقنة » فالتقى بهِ بجهة « طماى » ، ففتك بجيشه من قبل وأحرق معسكره ، ولكنهُ لم يقدر على القبض عليهِ

وبعد ان ألحق هاتين الهزيمتين بالدراويش اكتفى بالرجوع الى سواكن ، وباتت هذه المدينة هى وترنكتات فى مأمن من العدو . ثم استُدعى جراهام الى مصر فى

أواخر جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ (مارس سنة ١٨٨٤ م)

غردون في الخرطوم

أما غردون باشا فانهُ بلغ الخرطوم في ١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هـ (فبراير ١٨٨٤ م) فنُصِّب حاكماً عاماً على السودان . وقد كان لقدومه في أول الأمر وقع حسن في نفوس القبائل ، واستتبت السكينة في الخرطوم . غير انهُ لم يشرع توًّا في



غردون باشا

توانيه في اخلاء السودان

إخلاء السودان حسبما كان معهوداً اليهِ ، بل أخذ يضيع الوقت في مخابرة أُولي الشأن بالقاهرة في الطريقة التي يجب أن يُحكَم بها السودان بعد اخلائه ، وعرض عليهم من ذلك عدة خطط ومشروعات ، مندفعاً في ذلك بخوفهِ على الأهلين من ثورة المهدي ومن الفوضى التي لا بد أن تنتشر في طول البلاد وعرضها عقب جلاء الجيش المصري . ومما اقترحهُ في هذا الشأن ان يُرسَل اليهِ « الزبير باشا » ليساعده في الجلاء ، و بعد

ذلك تعهد اليه ولاية السودان . وقد عرض هذا الاقتراح بالحاح اكثر من مرة ثم رأى أولو الشأن بعدُ رفضه بتة . على أن غردون كان فى ذلك الحين يستهين بقوة المهدى ويطلب من الحكومة مراراً أن تمده بجيش « ليقضى على المهدى » ، وان تعدل عن اخلاء السودان

ولا يخفى ان ذلك كان مخالفاً للاتفاق الذى أُرسل بمقتضاه الى السودان ، فلم ترسل اليه الحكومتان الانجليزية والمصرية شيئاً من الجند . وصار نطاق نفوذ المهدى يتسع يوماً بعد يوم حتى عم القبائل التى بين « بربر » و « الخرطوم » فانضموا الى المهدى فى أواخر رجب سنة ١٣٠١ ﻫ (مايو ١٨٨٤) . فانقطع بذلك خط الرجعة على غردون ، وأصبحت حالته تؤذن بالخطر

الدراويش يحصرونه فى الخرطوم

حملة انقاذ غردون

والظاهر أن الحكومة الانجليزية لم تعرف بادىء الأمر الخطر الذى كان يتهدد « غردون » مع وجوده بلا جيش فى السودان . فلما حدث ما تقدم ، ورأت الخطر يحدق به أسرعت الى ارسال نجدة من القاهرة لانقاذه بقيادة « اللورد ولسلي » * .

انجلترة تهتم بامره

وبينا هذه الحملة فى طريقها أرسل غردون « الكولونيل استيوارت » فى نفر من الرجال على باخرة من الخرطوم قاصدين مقابلة الحملة القادمة لنجدته وابلاغها ما يهمها معرفته عن الحالة فى السودان . فمرت الباخرة على « بربر » دون أن تلاقى شيئاً ، الا أنها اصطدمت بصخر قرب « ابى حمد » ، وفتكت بمن فيها احدى قبائل البدو غدراً بعد أن أنزلتهم فى ضيافتها

حملة ولسلى

وفى يوم ٣٠ ديسمبر وصل « ولسلي » بجيشه الى « كورتى » فرأى أن يُسيّر قوتين للقاء الدراويش جهة « المتمة » : قوة تذهب بطريق النيل ، والأخرى بالصحراء ، فوصلت هذه القوة الأخيرة الى « المتمة » ، وهزمت جيوش المهدى عند « أبى قليع »

ولسلى فى كورتى

واقعة ابى قليع

* هو الذى قاد الجيوش البرطانية فى واقعة التل الكبير

ثم بلغت « جوبات » فى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هـ (٢٠ يناير سنة ١٨٨٥ م)، وهنا اتصلت بالبواخر التى ذهبت بطريق النيل . وعلم « ولسلى » أن غردون فى خطر، وأنهُ يخشى العاقبة كثيراً اذا تأخر وصول النجدة عن ٢٤ يناير، فأسرع «ولسلى» الى تسيير باخرتين بالجند لانقاذه . ولكن هذه الرحلة لم تكن بالأمر السهل وفى ٨ ربيع الثانى (٢٥يناير) اصطدمت احدى السفينتين بصخور الشلال السادس، فعطل المسير أربعة وعشرين ساعة

تأخر الحملة فى طريق الخرطوم

وبينا هذه النجدة تعانى الوصول الى « الخرطوم » إذ استولى الدراويش على المدينة ، وقتلوا «غردون» ، وذلك فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ (٢٦ يناير ١٨٨٥) ومما ساعد على سقوط المدينة خيانة « فرج باشا » قائد الحصون ، فانهُ انضم الى جيوش المهدى فى الليلة السابقة لسقوط المدينة

سقوط الخرطوم ومقتل غردون

وعند ذلك صدرت الأوامر للورد « ولسلى » أن يهاجم الخرطوم ليستردها ، فشرع يهاجمها من ثلاث جهات . ولكن بعد قليل عدلت الحكومة الانجليزية عن استمرار القتال لاشتغالها ببعض مناوشات على حدود الهند . وفى ٢٢ رمضان(٥يوليه) أخليت مدينة « دنقلة » ، وصارت « وادى حلفا » أقصى الحدود المصرية

اخلاء السودان

وكان هذا النصر قد ضاعف ثقة اتباع المهدى بهِ، وظنوا أنهُ سيقودهم الى فتح جميع ممالك الأرض، وأنهُ لن يموت الاّ بعد فتح الحرمين . ولكن ما لبث أن خاب فألهم، اذ لم تمض عليهِ بضعة أشهر فى عاصمته «أم درمان» حتى لحقته المنية كغيره من البشر فى ٩ رمضان سنة ١٣٠٢هـ (٢١ يونيه سنة ١٨٨٥م) . وكان قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده « لعبد الله التعايشى» ، فبايعه اتباع المهدى وسموه « خليفة المهدى» أما جثة المهدى فانها دفنت فى الحجرة التى فارقته الحياة فيها ، ثم أقيمت عليها قُبَّة صار الناس يزورونها للتبرك

وفاة المهدى

التعايشى يخلفه

ولم يكد « التعايشى» يتسلم مقاليد الأمور حتى عزم على فتح مصر . ولكن الجيش المصرى كان قد تمَّ تدريبه ، فخرجت من مصر فرقة بعض جيوشها مصرية و بعضها

عزمه على فتح مصر

الدفاع عن مصر

انجليزية ، وهزمت جيوش « الخليفة » بلا عناء عند « جنس » فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٣ هـ (٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م) فسلمت مصر من غارته

نفوذ التعايشى فى السودان الشرقى

ولكن نفوذه عمّ السودان ولم يخرج عن دائرة سلطته الا عدة من المقاطعات النائية ، فانها كانت من نصيب الممالك المجاورة لها : فأعطيت « مصوّع » وما يجاورها لايطاليا ، وأعطيت « بوغوس » لملك الحبشة ، مكافأة له على مساعدته فى تسهيل جلاء الجيوش المصرية من « اماديت » و « سنيت » و « غلباط » ، خصوصاً أن هذه كلها بلغت مصر سالمة . وأعلنت انجلترة امتلاك مقاطعة « بربرة » وزَيلع واوغندا ، وضمت بلجيكا الى مستعمراتها (الكنغو الحرة) و بعض الأقاليم المجاورة لها وشرعت فرنسا فى الاستيلاء على بحر الغزال والنيل الابيض

مضت كل هذه الحوادث ولم يفعل الباب العالى فيها شيئاً يذكر ، وانما أرسل

الباب العالى والسودان

فى آخر الأمر سفيراً الى مصر ليساعد الخديوى فى توطيد الأمن فى السودان بالطرق السلمية . فابتدأت المفاوضات مع الدراويش ، ولكن لم يكن لذلك أية نتيجة . على ان مصر كانت طول هذه المدة آخذة فى النهوض من افلاسها شيئاً فشيئاً ، وقوى جيشها وصار يصد جموع الدراويش كلما حاولوا الاعتداء على الأراضى المصرية ، وفى

نهوض مصر

ربيع الثانى سنة ١٣٠٦ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٨ م) أجلتهم حامية سواكن عن الجهات المجاورة لها ، فلم يعيدوا الكرة عليها بعد

ولد النجومى

وفى سنة ١٨٨٩ م حدث حادث من اكبر حوادث هذه الحروب . اذ ان « ولد النجومى » أحد الأمراء المستمسكين بدعوة المهدى خرج فى ١٣,٠٠٠ مقاتل يريد غزو مصر فى رمضان سنة ١٣٠٦ هـ (مايو سنة ١٨٨٩ م) ، فالتقى بجيش يقوده «السير فرنسيس غرِنفِل» عند «طوشكى» ، فكانت هذه اول تجربة عظيمة لاختبار

هزيمته عند طوشكى

قوة الجيش المصرى الجديد ، فانتصر على جيش « ولد النجومى » انتصاراً مبيناً فلم ينج منه الا ٣,٠٠٠ رجل وصُرع ولد النجومى نفسه وهو يقاتل فى هذه الموقعة قتالاً شديداً . و بعد هذه الموقعة اخذت قوة التعايشى فى أسباب الضعف

تهدئة السودان الشرقى

وفى سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) رأت الحكومة أن الدراويش لا يزالون فى سواكن ، وأن تجارة الرقيق سائرة بلا انقطاع بين بلاد العرب وفُرض البحر الأحمر ، فأرسلت عليهم حملة بحرية من سواكن الى « ترنكتات » . فانهزم الدراويش بجهة « طوكر » وفر « عثمان دقنه » وقُتل معظم من معهُ من الأمراء ومن ذلك الحين هدأت الأحوال فى السودان الشرقى

استرجاع السودان

لم يأتِ عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) حتى تقدمت مالية مصر وتحسنت حال جيشها فصار يُظَنُّ من السهل تجريد حملة على السودان لاسترجاعه . وكانت الحكومة إذ ذاك تنظر فى مشروع آخر عظيم وهو إقامة خزان على النيل (خزان اسوان) ، ورأت أن ادخار المال لهذا المشروع النافع أولى من صرفه على الحروب السودانية ، فكان يُظن أن فتح السودان سيُرجأ الى ما بعد ذلك ، لولا أن حدثت أمور خارجية اضطرت الحكومة الى العمل بغير رغبتها . وذلك ان الأحباش اتحدوا مع الدراويش وشنّوا الغارة على الطليان وهزموهم بجهة «عَدوة» فى رمضان سنة ١٣١٣هـ (مارس١٨٩٦م) وذاع الخبر أنهم عما قريب يهجمون على كَسَلَة* . ولذلك طلبت ايطاليا من انجلترة لما بينهما من الصداقة ان تساعدها بارسال حملة الى السودان تتهدد الدراويش فتقل وطأتهم على المستعمرة الايطالية الجديدة (مصوع والإريتريا)

اتحاد الاحباش والدراويش على الطليان

وقد كان لدى انجلترة حينئذٍ من الأسباب والاعتبارات ما يحملها على تلبية هذا الطلب ، الذى أقل ما فيهِ سبق فرنسا الى أعالى النيل وصدها عن التوغل فى جنوبى السودان ، والأخذ بثأر غردون الذى لم يزل قلب كل انجليزى يدمَى لمصرعه . فقررت انجلترة اجابة دعوة ايطاليا ، وفى الحال أُعدّ لذلك جيش مكون من الجنود المصرية والانجليزية بقيادة « السير هِربَرْت كِتْشِنَر » سردار الجيش المصرى فى

ايطاليا تستنجد بانجلترة

انجلترة تجيب الطلب

* كان الطليان قد استولوا على كسلة من المهدى فى سنة ١٨٩٤ م ، ولكنهم تخلوا عنها عام ١٨٩٧ لكثرة النفقات التى يتطلبها حكمها ، فعادت الجيوش المصرية الى احتلالها (٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٧)



اللورد كتشنر

حملة كتشنر

ذلك الوقت (وهو اللورد كتشنر المتوفى غرقاً سنة ١٩١٦ م وكان يشغل منصب وزير الحربية البرطانية)

انشاء خط حديدى

خرج كتشنر من مصر ووجهته دنقلة ، فأمر بانشاء خط حديدى من وادى حلفاء وكلما أنشىء منه جزء تقدم الجيش ، حتى وصل فى ذى الحجة سنة ١٣١٣ ﻫ (يونيه ١٨٩٦ م) الى جهة قريبة من « عُكاشة » . فبلغه هناك ان ٣,٥٠٠ من الدراويش مجتمعون عند « فِرْكة » جنوبى عكاشة على بعد ١٦ ميلاً منهـا ، فسار اليهم ليلاً

واقعة فركة

وفتك بهم فتكاً ذريعاً . ثم تفشى الهواء الأصفر فى الجيش ، ولكن تيسر التغلب على المرض وعلى غيره من المصاعب حتى سقطت « دنقلة » فى يد الجيش المصرى الانجليزى

فتح دنقلة

فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٤ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م) وجلت جيوش التعايشى عن هذه المديرية بأكلها . ثم استمر الجيش فى الزحف نحو الخرطوم ، متغلباً على ما لاقاه من المصاعب فى طريقه ، حتى استولى على « أبى حمد » فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ م وعلى « بربر » فى ٣١ منه ووقف تقدم الجيش بعد ذلك عدة أشهر ريثما يتم انشاء الخط الحديدى المخترق صحراء العطمور

مدد لكتشنر

وفى ٧ شعبان سنة ١٣١٥ هـ (أول يناير سنة ١٨٩٨ م) سمع السير هربرت كتشنر ان الدراويش سيهجمون على جيشه فى جموع كبيرة ، فبعث اشارة برقية الى القاهرة يطلب المدد ، فأُرسل اليهِ قسم من الجيوش البرطانية . ثم وقفت الجيوش المصرية الانجليزية وقفة المدافع الى أن ترى فرصة ملائمة للزحف على الخرطوم

واقعة النخيلة

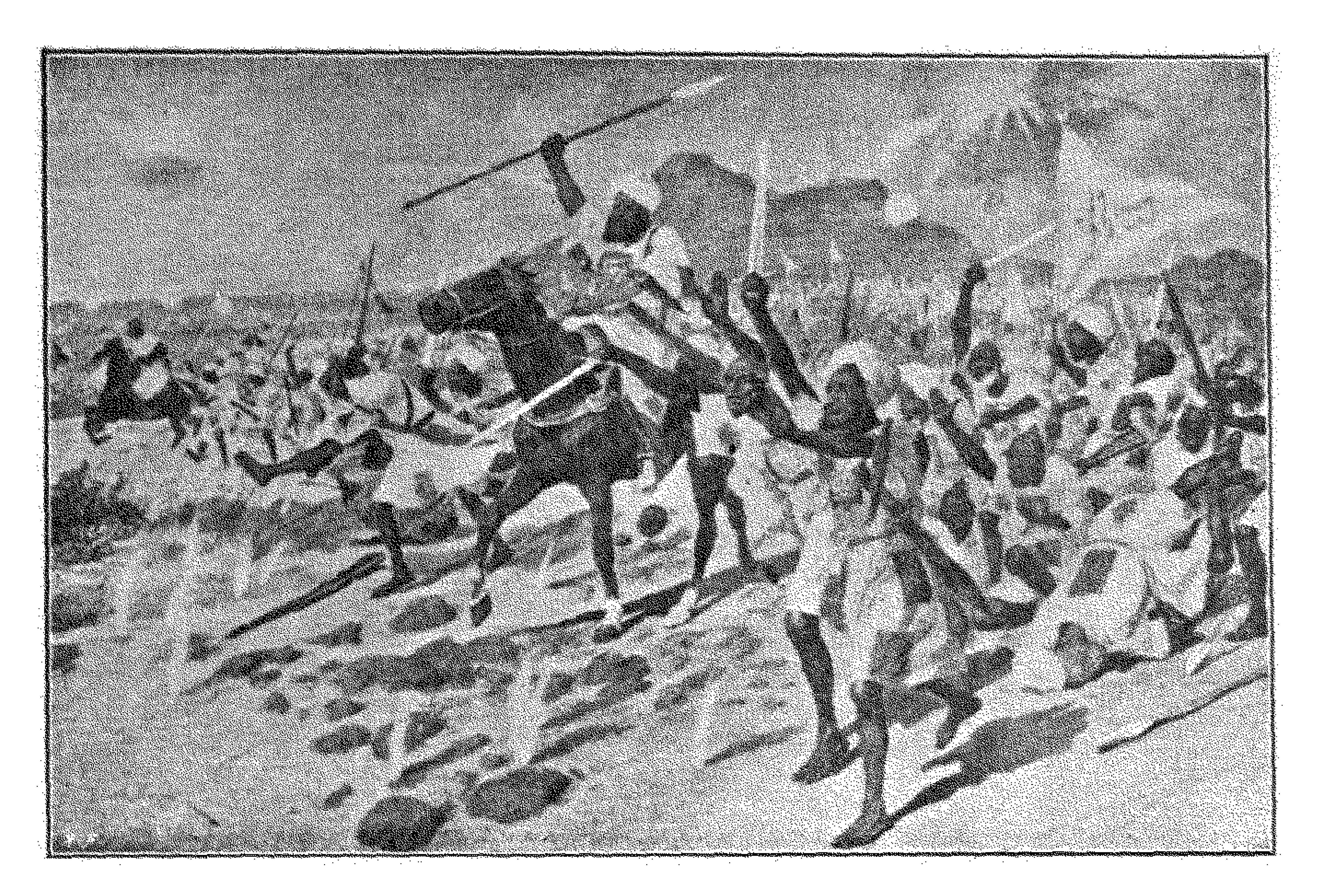
وكان « الأمير محمود » (ابن عم التعايشى) قد عسكر بنحو ١٢,٠٠٠ مقاتل عند « النخيلة » على نهر عطبرة ، فخرج كتشنر لملاقاتهِ فى ٢٦ ذى القعدة (٢٠ مارس) متوخياً التأنى فى مسيره ، وفى ١٦ ذى الحجة (٨ ابريل) التحم الجيشان فلم تدم الموقعة اكثر من ٤٠ دقيقة ، وانتهت بأسر الأمير محمود وقتل نحو ٢,٠٠٠ من رجاله

ولم ينتهِ شهر أغسطس عام ١٨٩٨ م حتى تمكن السردار من حشد نحو ٢٢,٠٠٠ مقاتل على بعد ٤٠ ميلاً شمالى الخرطوم ، وعزم على لقاء الاعداء وفى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٦ هـ (٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م) التقى بالدراويش فى موقعة « أم درمان » الفاصلة التى لم تقم لهم بعدها قائمة : كان عددهم يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل ، قُتل منهم اكثر من ١١,٠٠٠ وجُرح نحو ١٦,٠٠٠ ، ولم يخسر جيش السردار سوى ٥٠٠ ما بين قتيل وجريح . وفى اليوم الرابع من شهر سبتمبر استولى الجيش الانجليزى المصرى على الخرطوم ورُفع على مكان مركز حكومتها العلمان المصرى والانجليزى أحدهما بجانب الآخر

واقعة ام درمان

مقتل التعايشى

أما الخليفة التعايشى فانهُ فرّ من وجه الجيوش الفاتحة . وأراد فى العام المقبل أن يغير على أم درمان ، فسار اليه جيش السودان وقتله وبدد شمل جيشه ، فى رجب



واقعة أم درمان

سنة ١٣١٧ هـ (نوفمبر سنة ١٨٩٩ م) . و بقتله انقضت دولة الدراويش *

اتفاقية السودان

وقد هدأت أحوال السودان منذ فتح أم درمان بفضل حسن ادارة الحكومتين الانجليزية والمصرية اللتين تحكمانه بالاشتراك . وفى ٦ رمضان سنة ١٣١٦ هـ (١٩ يناير سنة ١٨٩٩) عُقد وفاق بين الحكومتين يُعرف «باتفاقية السودان» وُضّحت فيهِ شروط حكم السودان وألغى بهِ ما كان للباب العالى من السيادة على تلك البلاد

تقدم السودان

وما زال السودان فى تقدم تدريجى مستمر منذ دخوله تحت حكم انجلترة ومصر ، وهو وان كان للآن لم يُكسب احدى الحكومتين شيئاً وصُرفت من خزانة مصر الخاصة مبالغ سنوية لإصلاحه ، فانهُ بلا شك سيعوّض ذلك ، لوفرة موارده الطبيعية خصوصاً عند ما يزداد عدد سكانه بعد أن نقص نقصاً فاحشاً أيام فتنة المهدى

* ولما فتح كتشنر باشا أم درمان رأى الا يبقى لذكرى المهدى تعلقاً بقلوب قبائل السودان ، فأمر بهدم قبته ونبش قبره وبعثرت عظامه فى النيل وبعث بجمجمته الى دار التحف البرطانية . وقد أعجبت انجلترة بفوزه فنحته لقب « لورد الخرطوم » وصار من ذلك الحين يسمى « لورد كتشنر »

٣ — ﴿ تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢ م ﴾

خصوصاً الأشغال العامة التى تمت بها منذ ذلك العهد

يرجع التقدم العام الذى حدث بمصر منذ عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) الى أمرين أساسيين : الأول الاصلاحات الادارية التى أجريت فى مصالح الحكومة على اختلافها . والثانى الأشغال العامة التى أجريت لتحسين الرى وزيادة ثروة البلاد

وقد كانت الحالة المالية فى مقدمة ما نُظر فيه بعد اخماد الثورة العرابية، وذلك من وجهتين : الأولى حالة السكان وما يمكن عمله لتحسينها ، والثانية حال ميزانية الحكومة وكيف يتسنى وضعها على أساس متين بحيث يكفى الدخلُ المنصرفَ مع عدم الإضرار بتقدم البلاد المسائل المالية

فبالنظر فى أحوال الأهلين اتضح انهم فى بؤس شديد ، وأن المفروض على أرضهم من الضرائب يزيد كثيراً عن الحد المعتدل بالنسبة لقيمة ما تنبته الأرض من المحصول إذ أن أثمان المحصولات كانت قد نزلت كثيراً فى السنوات الأخيرة : فصار ثمن أردب القمح مثلاً ٧٥ قرشاً بعد أن كان ١٠٩ قروش فى ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ، وكذلك ثمن الطن من السكر نزل من ٢٣ جنيهاً الى ١٥ جنيهاً . ذلك الى ضعف الأرض بسبب اجهادها بزراعة القطن ، اذ دلت الاحصاءات أن محصول الفدان من القطن فى الأربع السنوات ١٢٩٦ — ١٢٩٩ هـ : (١٨٧٩ — ١٨٨٢) نقص من ثلاثة قناطير ونصف الى قنطارين وعشر قنطار سوء حالة الفلاح

فرأت الحكومة أن أول واجب عليها تحسينُ حال الفلاح ، حتى اذا ما انتعش وزادت ثروته أدى ذلك حتماً الى زيادة دخل الحكومة . فخففت ضريبة الأرض فى المديريات الفقيرة ، وأبطلت ضريبة الملح وغيرها ، وألغت السخرة التى هى فى الحقيقة نوع من الضريبة(*) اصلاحها

غير أن هذه الإصلاحات وحدها لم تكن تكفى لتحسين دخل الحكومة والقيام

(*) وبقى مسموحاً بها لحماية شواطئ النيل وقت الفيضان فقط

الميزانية والدين بعبء الدين والشروط الثقيلة التى تكفلت بها مصر بمقتضى قانون التصفية . فبذلت انجلترة وسعها لدى الدول فى تخفيف هذه الشروط مخافة الوقوع فى افلاس نهائى ، فزادت نسبة ما يخص الحكومة المصرية من الدخل بتخفيض نسبة ما يعطى لصندوق الدين ، وصار للحكومة الحق أيضاً فى الاستيلاء على نصف ما يزيد من الدخل بعد دفع الأرباح ، بدل ان كان جميعه يُعطى لصندوق الدين لتسديد الأقساط

الدين المضمون ورأت الحكومة أيضاً أن كل ذلك ربما لا يكفى لإصلاح حال المالية المصرية وهى على وشك الإفلاس ، فتوسطت انجلترة لدى الدول فى عقد قرض جديد ، لتستعين بِهِ مصر على وضع ميزانيتها على أساس متين ، وللقيام بمشروعات عامة فى الرى تزداد بها ثروة البلاد حتى تتحسن ماليتها على مدى الأيام . و بعد الجهد الطويل امكن عقد قرض جديد بضمانة انجلترة قدره ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه يسمى « الدين المضمون » فى سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م) ، واشتُرط فى عقده أن تنتظم حالة المالية المصرية قريباً ، وإلاَّ شُكّلت لجنة دولية أخرى للنظر فى شؤون مصر

اوجه صرفه وقد خُصص هذا المبلغ للأوجه الآتية :

(١) تعويض ما خسره أصحاب الأملاك بالاسكندرية وقت نشوب الفتنة فى تلك المدينة أيام الثورة العرابية

(٢) سد العجز فى ميزانية الحكومة لعامى ١٨٨٢ و١٨٨٣ م

(٣) تحسين الرى (وسيأتى الكلام على ذلك مفصلاً)

حرص الحكومة على الاقتصاد وقد جعلت الحكومة نصب عينها أن لا يحدث أى فشل فى تنظيم المالية ، كى لا يفضى الأمر الى تدخل الدول الأوربية حسبما اشترطتهُ فى عقد الدين الأخير . فتوخت الاقتصاد التام فى جميع أوجه الصرف ، اللهمَّ إلاَّ فى تحسين الرى الذى كان من شأنه زيادة الثروة فيما بعد والمساعدة الكبيرة فى تثبيت الحالة المالية التى هى موضوع الخوف والقلق

وقبل الانتقال الى وصف الأشغال العمومية التى تمت بمصر فى ذلك العهد تقول

كلمة عن المصاعب التى لاقتها انجلترة من الدول فى سبيل السير فى عملها في مصر :

المسائل الدولية

كانت فرنسا أول من وضع العراقيل فى سبيل انجلترة فى مصر، لحنقها من الغاء المراقبة الثنائية واستئثار انجلترة بأمر مصر. ثم عضدتها الروسيا فى ذلك، وشاركهما الباب العالى طبعاً فى الاستياء، احتجاجاً على استمرار الاحتلال البرطانى لمصر

ثم كرر الباب العالى احتجاجه، وبعد المفاوضة مع انجلترة تمَّ الاتفاق فى المحرم سنة ١٣٠٣ ه (اكتوبر ١٨٨٥ م) على أن ترسل كل من الدولتين العثمانية والانجليزية سفيراً الى مصر لفحص شؤونهـا والاتفاق على أجل ينتهى فيه الاحتلال البرطانى

درمند ولف ومختار باشا فى مصر

فأرسلت انجلترة «السير دِرمَنْد وُلْف»، وأرسل الباب العالى «مختار باشا الغازى» غير أنهُ لم يتم الاتفاق على تحديد أجل الجلاء لمعارضة فرنسا والروسيا فى شروط الاتفاق، وكل ما نتج عن بحوث السفيرين أن جرت بعض مفاوضات مع الدراويش لم يكن لها أثر يُذكر، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام على السودان. وقد بقى مختار باشا بمصر الى وقت قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال البرطانى

مركز قناة السويس

على أنهُ قد حُلت فى عام ١٨٨٥ م مسألة من المسائل الدولية الكبرى وهى بيان مركز قناة السويس من الوجهة الدولية. فحصل الاتفاق على أن تكون هذه الترعة مفتوحة لجميع السفن وقت السلم، وفى أوقات الحرب يُسمح لسفن المتحاربين بالمرور من القناة بشرط ألاّ تقع بينها أعمال حربية الى مسافة ثلاثة أميال من طرفى القناة، وأن لايُسمح للسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة بالبقاء فى الموانى المصرية اكثر من ٢٤ ساعة. وحُفظ للحكومة المصرية الحق فى عمل أى شيء تراه ضرورياً للمحافظة على القناة

الاتفاق الودى

وبقيت فرنسا تنظر شَزْراً الى بقاء انجلترة فى مصر، وتضع العراقيل فى سبيلها مهما كان عملها فى صالح مصر، حتى عام ١٣٢٢ ه (١٩٠٤ م) فعقدت الدولتان بينهما «الاتفاق الودى» المشهور، وبهِ قبلت فرنسا أن تُطلَق يد انجلترة فى مصر، فى نظير أن تسمح انجلترة بإِطلاق يد فرنسا فى مراكش. وبذلك حُلت مشكلة من

اكبر المشاكل الدولية الخاصة بمصر . وبمقتضى هذا الاتفاق أيضاً صار جميع دخل الحكومة يرد الى الخزانة المصرية ، بعد أن كان جزء منهُ يورد الى صندوق الدين توًا . وكان لدى صندوق الدين مبلغ ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه متوافر من السنين الماضية ، فسلّمهُ الى الحكومة لتستعين بهِ على إنجاز بعض المشروعات العامة

الأشغال العامة

قد كانت الأشغال العامة التى تمت بمصر منذ عام ١٨٨٢م لتحسين الرى وتوسيع نطاقه من أعظم الأمور التى سهلت تنظيم المالية المصرية ، وسارت بالبلاد فى طريق التقدم العظيم الذى نشاهده الآن :

ا . مصر السفلى — شرعت الحكومة منذ عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) فى الاهتمام بشؤون الرى ، فبدأت فى ذلك العام باصلاح « القناطر الخيرية » .

١ . القناطر الخيرية — أنشئت هذه القناطر فى عهد محمد على باشا كما ذكرنا فى غير هذا المكان ، ولكنها أُهملت مدة طويلة وقرر الخبيرون أن قد لحقها من الخلل ما يجعلها غير صالحة للاستعمال : إذ حدثت صدوع فى عقود المنافذ ، وجرى الماء تحت الأساس نفسه . وكان الغرض من انشاء هذه القناطر فى أول الأمر أن تحجز المياه وراءها حتى يرتفع سطحها عن المستوى الأصلى (بعد القناطر) بقدر $4\frac{1}{2}$ من الأمتار ، وبذلك تستقى منها ثلاث ترع كبيرة سطحها أعلى من سطح النيل وهى : الرّياح البحيرى ، والرّياح المنوفى ، والرياح التوفيقى . على أن الرياح الأول

الرياحات — يجرى فى الصحراء بعد تفرعه من القناطر بمسافة صغيرة ، فلما أُهمل تراكمت عليهِ رمال الصحراء وطَمَرته . أما الرّياح الثانى فكان مستعملاً عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) ، ولكن الثالث كان لا يزال مشروعاً لم ينفذ بعد

فرأت مصلحة الرى أن من أول واجباتها إصلاح هذه القناطر العظيمة والترع التى تستقى منها ، فوجهت الى ذلك معظم عنايتهـا بين عامى ١٣٠١ و ١٣٠٦ هـ (١٨٨٤ و ١٨٨٩ م) . وقد قامت بعبء هذا العمل الشاق عاماً بعد عام فى أيام

انخفاض النيل ، بالرغم من عِظَم الصدوع التى بالبناء ، وما اعترض العملَ من المصاعب ، الى أن أُصلح الأساس وضُمت الصدوع (بالأسمنت) ، وانتهى الأمر ببناء منطقة من الحجر حول الأساس لوقايتها . ومما زاد العمل صعوبة ان القناطر كانت تُستخدم فى أيام الفيضان فيما أعدت له ، وقد قال أحد المهندسين فى ذلك : « إن هذا العمل كان أشبه شىء باصلاح ساعة دون ايقاف أترامها » وقاية الاساس

وتم فى أثناء ذلك كَرْىُ رياح البحيرة ، ومُنعت عنهُ الرمال بزرع ضفافه بالأعشاب. وزيد أيضاً فى عمق رياح المنوفية ، ووُضع باب (هاويس) عند تفرعه . أما الرياح التوفيقى وهو الذى يروى المديريات التى شرقى فرع دمياط فحُفر بين عامى ١٨٨٧ و ١٨٨٩م الرياحات

ولم تكد تتم هذه الأعمال العظيمة حتى ظهرت فائدتها ، فقد زاد محصول القطن بالوجه البحرى فى ١٣٠٩ — ١٣١٠ هـ (١٨٩١ — ١٨٩٢ م) على متوسط محصول الاحدى عشرة سنة السابقة بنحو ١,٦٠٠,٠٠٠ قنطار . هـذا الى ما حدث من الزيادة فى المحصولات الأخرى . وقد بلغت قيمة ما زاده محصول القطن وحده فى مجموع المدة التى أُصلحت فيها القناطر (١٣٠١ — ١٣٠٦هـ : ١٨٨٤ — ١٨٨٩م) ما يربو على ٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ثمرة هذه الاعمال

أما نفقات هذا العمل فقد دُفع معظمها من قرض عام ١٨٨٥ م ، ولكنَّ جزءًا منها سُدد مما حدث فى الميزانية من زيادة الدخل على المصروفات

ولا يخفى ان الغرض من القناطر ليس خزن المياه وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل، انما كان الغرض منها حجز المياه حتى يرتفع سطحها فتصب فى الرياحات الثلاثة العظيمة ، فتروى هذه الوجه البحرى بمياهها ، ولو كان النيل منخفضاً

وقد أُجرى اصلاح آخر فى القناطر عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م) ، وذلك بانشاء سد أصم أمام القناطر (نحو المصب) ، كي لا تندفق المياه دفعة واحدة بعد حجزها ، فأصبحت تتسرَّب على دفعتين ، وبذلك نقص الفرق بين مستوى المياه خلف القناطر سد امام القناطر

وأمامها (فرق التوازن) ، وذلك يخفف من الضغط الشديد على القناطر أثناء الفيضان

٢ . قناطر زفتى

ومما زاد فى انتظام توزيع المياه فى الوجه البحرى انشاء « قناطر زفتى » ، فإنها أيضاً تحجز المياه وراءها حتى يعلو سطحها فتملأ الترع التى تتفرّع من النيل عند هذه النقطة . وقد بلغت نفقات هذه القناطر ٣٢٠,٠٠٠ جنيه ، وتم انشاؤها فى سنة ١٣٢٠ ﻫ (١٩٠٢ م) .

٣ . المصارف

وأُجرى منذ ذلك العام تعديل كثير فى ترع الوجه البحرى . وابتدأت الحكومة فى انشاء مصارف عظيمة فى مديريتى البحيرة والغربية . وبذلك سيتسع نطاق أراضى مصر الزراعية ، وعلى مدى الأيام سيتم تجفيف بحيرة مريوط وتصبح أرضاً صالحة للزراعة

على ان ما تم من الأعمال فى الوجه البحرى لم يصرف الحكومة عن الاهتمام بالوجه القبلى . الاّ ان قلة المال والرجال حتمت عليها فى أوائل هذا العهد الاقتصار فى مصر العليا على المشروعات الصغيرة . وكان معظم الوجه القبلى فى ذلك الحين يُروَى بالحياض ، أى انهُ وقت الفيضان تغمر مياه النيل المساحات الفسيحة من الأرض ،

ب . مصر العليا

فلا يتسنى مباشرة شىء من الأعمال الزراعية فيها الى انخفاض النيل . فى عام ١٣٠٨ﻫ (١٨٩١ م) أنشأت الحكومة بجهة « قشيشة » ببنى سويف سداً لتصريف المياه ، فكان ذلك اكبر عون على تنظيم المياه التى تركد على تلك الأراضى الواسعة

١ . تحويل رى الحياض الى رى دورى

ولا يخفى ان هذه الطريقة وهى الرى بالحياض معيبـــة بالاضافة الى مزايا الرى الدورى ، اذ بهِ تجرى المياه الى الأراضى فى الترع فيتسنى تنظيم توزيعها من حيث الزمن والمقدار معاً . لذلك أقدمت الحكومة على مشروع عظيم وهو تحويل الرى بالحياض الى رى دورى فى مديريات أسيوط والمنية وبنى سويف والجيزة ، فحفرت لذلك الترع ، واهتمت اهتماماً خاصاً بترعة الابراهيمية العظيمة فوسّعتها وأصلحتها

وفى سنة ١٣١٥ ﻫ (١٨٩٨ م) شرعت فى انشاء «قناطر بأسيوط» لحجز المياه حتى ترتفع وتملأ ترعة الابراهيمية فتروى المديريات التى تمر فيهـــا . وقد تم انشاء

٢ . قناطر اسيوط

هذه القناطر عام ١٣٢٠ ﻫ (١٩٠٢ م) قبيل الفيضان ، وكان النيل منحطاً جداً فى

هذه السنة ، فبادرت وزارة الأشغال باغلاق أبواب القناطر ، فارتفع سطح المياه فى ترعة الابراهيمية متراً ونصف متر . وقد قُدّر ما اكتسبه المزارعون من هذا العمل تلك السنة بما يربو على ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

ولما رأت الحكومة ثمرة عملها في المديريات التى تقدم ذكرها عوّلت على اجراء مثله فى المديريات التى فى أقاصى الصعيد ، فأنشأت « قناطر إسنا » التى تم انشاؤها عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) ، فأفادت مديريتى قنـا وجرجا فائدة قناطر اسيوط فى المديريات الشمالية — ٣ . قناطر اسنا

ويلاحظ ان جميع هذه القناطر لا تخزن المياه لادخارها الى وقت الحاجة ، وانما هى ترفع سطح الماء فى النيل حتى يتسنى ملء الترع فتوزع المياه بها فى أنحاء البلاد

وكانت الحكومة قد فكرت منذ عام ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠م) فى مشروع لخزن مياه النيل وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل فى رى جميع أنحاء مصر ، فلا يُحرم جزء منها من الزراعة. فتأخر انفاذ المشروع الى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م) ، اذ ابتدئ فى انشاء خزان عظيم عند « اسوان » فى نفس الوقت الذى ابتدأ فيهِ انشاء قناطر اسيوط. وهذا البناء من أعظم ما شيّده الانسان ، انتهى تشييده سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) فكان طوله يبلغ ٢١٥٦ متراً ، وارتفاعه عن قاع النهر نحو ٢٨ متراً ، والفرق بين مسطح الماء قبله وبعده (فرق التوازن) ٢٠ متراً ، وبهِ ١٨٠ باباً ، ويخزن المياه الى ارتفاع يزيد على سطح البحر بنحو ١٠٦ امتار . وقد بلغت نفقات انشائه هو وقناطر اسيوط ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيهاً ، ولكنهُ أفاد من اول سنة من انشائه فائدة تكاد توازى كل هذه النفقات ، اذ لولاه فى تلك السنة هو وقناطر اسيوط لكانت الطامة كبرى على البلاد ، فقد كان النيل فيها منخفضاً جداً ، ولم يكد يشعر بنقصهِ أحد . وجاء منخفضاً مرة أخرى عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) ، فكان الخزان أيضاً اكبر عون للبلاد — ٤ . خزان اسوان

ويتضح من الجدول الآتى الفائدة التى عادت على مصر من هذه المشروعات العامة فى سنى انخفاض النيل

سنة م	عدد الأفدنة التى لم تزرع (الشراق)	سنة	عدد الأفدنة التى لم تزرع (الشراق)
١٨٧٧	١,٠٠٠,٠٠٠	١٩٠٢	١٢٨,٦٦٣
١٨٨٨	٢٦٩,١١٠	١٩٠٤	٤٦,٨٧١
١٨٨٩	١٨٨,١٣٧	١٩٠٥	٤٥,٠٠٠

تعلية الخزان

وعند ما أنشئ الخزان كان الغرض منه ايجاد المياه اللازمة لجميع أراضى مصر المزروعة فى أى وقت من السنة . ثم فكرت الحكومة فى زيادة سعته بتعليته بحيث يمكن به رى ١,٠٠٠,٠٠٠ فدان فى شمالى (الدال) لم تكن تصل اليها المياه من قبل . فتم هذا العمل عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) وزاد مقدار ما يُخزن وراء الخزان من المياه من ٩٤٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب الى ٢,٤٢٠,٠٠٠,٠٠٠٠ متر مكعب ، وهى زيادة هائلة جداً ، وسببها ان الزيادة فى ارتفاع الخزان زادت فى امتداد المياه المحجوزة خلفه جنوباً الى بُعد ٣٢٥ كيلومتراً

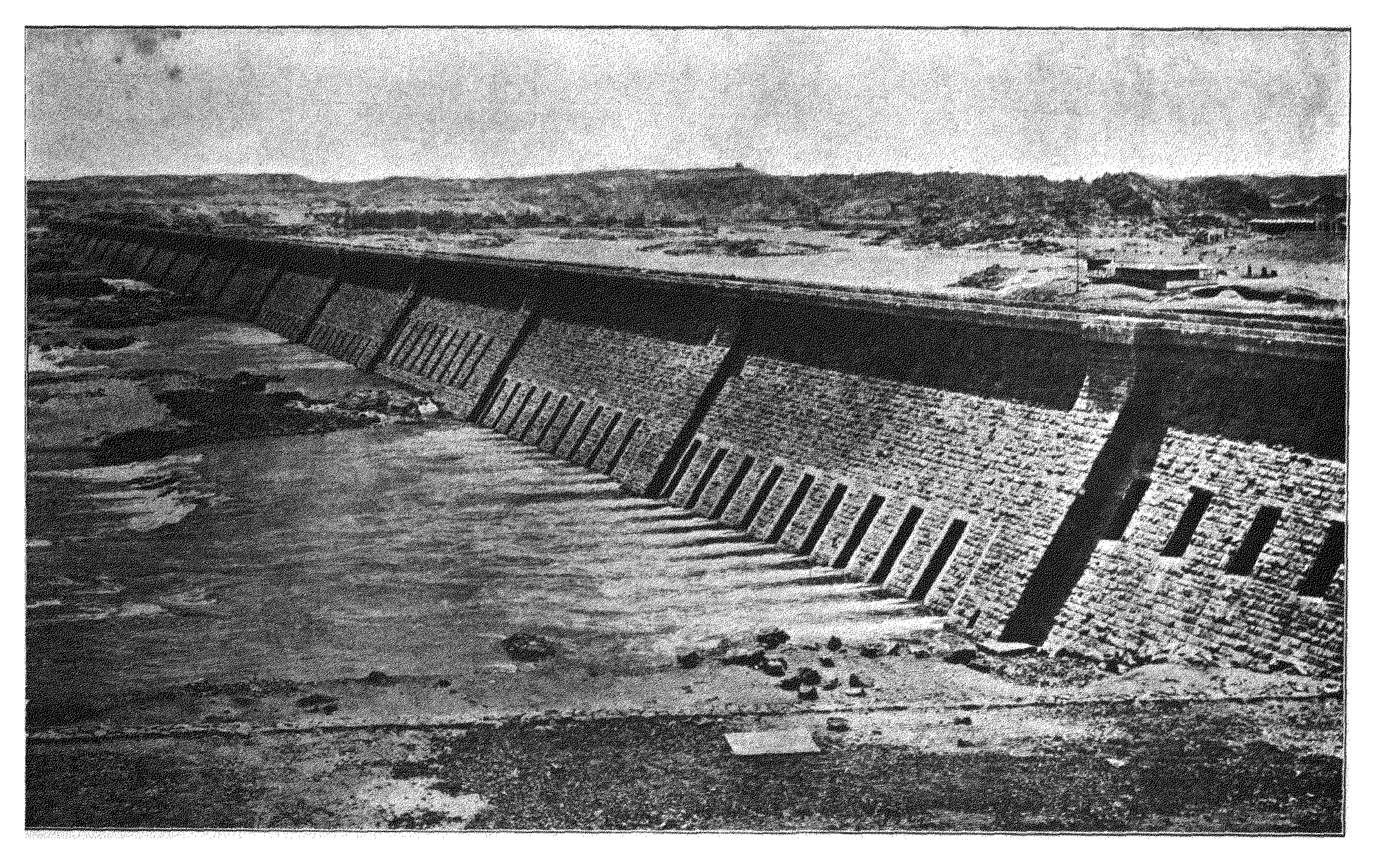
وقد تم بفضل انشاء الخزان تحويل رى الحياض بمصر الوسطى الى رى دورى وعند ما تجفف بحيرة مريوط وغيرها سيرويها الخزان بمياهه طول أوقات السنة

مشروعات جديدة

على ان الحكومة لا تزال لديها مشروعات أخرى لتحسين الرى ، ففى نيتها ان تصلح رى المديريات الجنوبية ، بانشاء قناطر عند تفرع ترعة السوهاجية لتسهيل امتلاء تلك الترعة . وشرعت كذلك فى انشاء خزان آخر عظيم على النيل الأبيض ، ليحفظ البلاد اذا اشتد الفيضان ويكون بمثابة حوض عظيم لخزن مقادير وافرة من المياه .

ثمرة خزان اسوان وقناطر اسيوط والرى الدورى

وقد ذكرنا ان نفقة انشاء خزان اسوان وقناطر اسيوط بلغت ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، ولكنا لا نكون مغالين اذا قلنا ان مجموع ما اكتسبته مصر الى الآن من وراء انشائهما لا يقل عن خمسة امثال هذا المبلغ . وكذلك بلغت نفقات تحويل رى الحياض الى رى دورى بمصر الوسطى نحو ٦,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، ولكنه عاد على البلاد بفائدة تقدر بنحو ٢٦,٧٥٠,٠٠٠ جنيه



خزان اسوان

ازدياد الميزانية

وبالجدول الآتى بيان دخل الحكومة ومصروفهـا فى عدة سنوات ، ولكن يجب عند الرجوع اليهِ ان نلاحظ ان ضريبة الأرض فى تلك المدة نقصت عما كانت عليهِ

السنة	الوارد	المصروف	السنة	الوارد	المصروف
١٨٨٦	٩,٢٤١,٥٨٦	٩,٢٣٢,٧٤٦	١٩٠٥	١٤,٨١٣,٠٠٠	١٢,١٢٥,٠٠٠
١٨٩٠	١٠,٢٣٧,٠٠٠	٩,٥٩٠,٠٠٠	١٩٠٧	١٦,٣٦٨,٠٠٠	١٤,٢٨٠,٠٠٠
١٨٩٤	١٠,١٦١,٠٠٠	٩,٤٧٠,٠٠٠	١٩٠٨	١٥,٥٢٢,٠٠٠	١٤,٤٠٨,٠٠٠
١٨٩٥	١٠,٤٣١,٠٠٠	٩,٤٢١,٠٠٠	١٩٠٩	١٥,٨٨٧,٣١٣	١٤,٩٠٠,٠١٥
١٨٩٧	١١,٠٩٣,٠٠٠	٩,٧٠٩,٠٠٠	١٩١٠	١٥,٩٦٥,٦٩٣	١٤,٤١٤,٤٩٩
١٩٠١	١١,٩٤٤,٠٠٠	٩,٩٢٤,٠٠٠	١٩١٢	١٧,٥١٥,٧٤٣	١٥,٤٧٠,٥٨٤
١٩٠٣	١٢,٤٦٤,٠٠٠	١١,٧٢٠,٠٠٠	١٩١٣	١٧,٣٦٨,٦١٦	١٥,٧٢٨,٧٨٥

الاصلاحات الاخرى

وقد تم فى هذا العصر أيضاً اصلاحات أخرى كثيرة تناولت كل مصالح الحكومة. من أهم ذلك اصلاح المحاكم الأهلية ، فانها كانت قبل الثورة العرابية غير منتظمة ، لا تحكم بمقتضى قانون خاص . وكانت الحكومة المصرية قد أحسَّت بهذا النقص ، وأعدّت قانوناً أهلياً شبيهاً بالقانون الفرنسى ، لتجعله سارياً فى جميع المحاكم الأهلية . فلما احتل الانجليز مصر وابتدأت نهضة الاصلاح عقب قدوم اللورد دفرين عرضت الوزارة المصرية هذا القانون فتمت الموافقة عليهِ ، وعمل بهِ

اصلاح المحاكم

وكانت المحاكم الأهلية قبلُ لا تنظر فى قضايا الجرائم الكبيرة ، بل كانت تُنظر أمام لجان خاصة يرأسها المدير تسمى «لجان الأشقياء» لم تكن أحكامها دائماً مطابقة للعدالة . فتقرر الغاؤها . على ان حالة المحاكم الأهلية كانت سيئة جداً ، ولم يكن من السهل اصلاحها فى وقت قريب . فبقى الاصلاح سائراً فيهـا ببطء الى ان اقترح اللورد كرومر عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) تعيين مستشار قضائى بوزارة الحقانية ، ليشرف على هذه المحاكم ويُصلح ما اعتل فيها . فعارض فى ذلك رياض باشا رئيس الوزارة واعتزل منصبه ، فخلفه مصطفى فهمى باشا ، ووافق على تعيينه *

المستشار القضائى

* هو السير جون سكوت

طور جديد للمحاكم

بذلك دخلت المحاكم فى طور اصلاح جدى ، فنُظّمت أعمالها وسُهلت حركتها وفُصل منها القضاة الذين لم تتوافر فيهم شروط الكفاءة ، وأُصلحت مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أكفاء . ثم زيد فى عدد المحاكم تسهيلاً للتقاضى بين أهل القطر . وفى الجملة يُعتبر جوهر نظام المحاكم الحالى مستحدثاً فى هذا العصر

كذلك عمّ الاصلاح باقى مصالح الحكومة . فنُظمت أعمال المالية ، وضُبط حسابها ، ومُسحت الأراضى ، وحُدّت الضرائب ، وعُيّنت لجبايتها مواعيد تناسب حال الفلاح . وأُلغيت السخرة ، وبطل استعمال السوط (الكرباج) ، الاّ فى بعض أنواع العقاب . وزيد من الطرق الزراعية فى أنحاء البلاد حتى صار مجموعها لا يقل عن ٢٥٠٠ كيلومتر . وسُمح للشركات الأوربية بمباشرة أعمال مالية شتى ، فانتشرت بذلك سكك الحديد الضيقة فى الوجهين القبلى والبحرى ، وفيها تسهيل كبير لنقل حاصلات البلاد . وأنشأت الشركات أيضاً خطوط (الترام) فى القاهرة والاسكندرية ، فسهل الانتقال فيهما ، كما أُنشئ فيهما كثير من المبانى العظيمة التى اكسبت هاتين المدينتين فخامة وجمالاً تضارعان فيهما كثيراً من المدن الأوربية العظيمة . ومن أعظم ما أنشأته الحكومة من هذه المبانى قصر المحكمة المختلطة الكبرى بالاسكندرية ، ودار العاديات المصرية بالقاهرة ، ولاسيما البناء الأخير الذى أصبح بجماله وفخامته لائقاً لأن يضم بين جدرانه تلك الكنوز النفيسة من المخلّفات المصرية القديمة

الاصلاحات العامة

وكثرت العناية بالأمور الصحية ، وانتشرت المستشفيات فى أنحاء البلاد . ذلك الى ما أُنشئ من المكاتب والمدارس فى جميع أطراف القطر ، وإعادة عهد البعوث العلمية الى اوربا حيث يغترِف الشبان المصريون من أبحر المعارف والعلوم الأوربية

وجملة القول ان فى البلاد المصرية نهضة مباركة عظيمة ، يجب على كل مصرى معاضدتها والسير بها الى ما فيهِ خير مصر وفلاحها

ملخص لأهم الحوادث فى الباب الثالث

	هـ	م
﴿ عباس باشا الأول وسعيد باشا ﴾	١٢٦٥ — ١٢٧٩	١٨٤٩ — ١٨٦٣
عباس باشا الاول	١٢٦٥ — ١٢٧٠	١٨٤٩ — ١٨٥٤
انشاء الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية	١٢٦٨ — ١٢٧٢	١٨٥٢ — ١٨٥٦
مقتل عباس باشا الاول فى قصره ببنها	ذى الحجة ١٢٧٠	يوليه ١٨٥٤
سعيد باشا	١٢٧٠ — ١٢٧٩	١٨٥٤ — ١٨٦٣
اذنه لديلسبس ابتداء بحفر قناة السويس	١٢٧١	١٨٥٤
عقد الاتفاق النهائى لحفر القناة	ربيع الثانى ١٢٧٢	يناير ١٨٥٦
سن قانون الاراضى	١٢٧٤	١٨٥٨
موافقة الباب العالى على حفر القناة	١٢٧٥	»
ابتداء العمل فى حفر القناة	رمضان »	يناير ١٨٥٩
امضاء عقد أول قرض مصرى فى لندن	١٢٧٨	١٨٦٢
وفاة سعيد باشا	١٢٧٩	١٨٦٣
اسماعيل باشا	١٢٧٩ — ١٢٩٦	١٨٦٣ — ١٨٧٩
افتتاح دار الآثار المصرية رسمياً ببولاق	١٢٨٠	١٨٦٣
غلاء القطن بسبب الحرب الاهلية فى أمريكا	١٢٨١	١٨٦٤
شراء اسماعيل باشا مصلحة البريد للحكومة	١٢٨٢	١٨٦٥
جعل الوراثة فى اكبر أنجال الخديوى	٢ المحرم ١٢٨٣	٢٧ مايو ١٨٦٦
شراء اسماعيل باشا مصوع وسواكن من الباب العالى	»	»
تشكيل مجلس شورى النواب	رجب »	»
منح اسماعيل باشا لقب خديوى	ربيع الاول ١٢٨٤	يوليه »
سن قانون ١٠ رجب بشأن التعليم وترقيته	١٢٨٤	١٨٦٧
اتمام حفر القناة وحفلة افتتاحها	شعبان ١٢٨٦	نوفبر ١٨٦٩
تولية منزنجر السويسرى على مصوع	١٢٨٧	١٨٧٠
اعلان ضم المقاطعات الاستوائية الى مصر رسمياً	١٢٨٨	١٨٧١

انحطاط قيمة سهام قناة السويس لقلة الربح		١٢٨٨		١٨٧١ — ١٨٧٢
انعقاد مؤتمر دولى بلندن للنظر فى أمر القناة		١٢٩٠		١٨٧٣
تقليد من الباب العالي مؤيد للتقاليد السابقة ومنح اسماعيل باشا استقلالاً داخلياً		»		»
فتح دارفور		»		»
تشكيل المحاكم المختلطة	ذى الحجة	١٢٩١	يناير	١٨٧٥
الحملة على حوض نهر جوبا وجهات قسمايو	المحرم	١٢٩٢	فبراير	»
فتح هرر على يد محمد رؤوف باشا	شعبان	١٢٩٢	سبتمبر	»
فشل حملة منزنجر على بلاد الحبشة		»		»
تنازل الدولة عن زيلع للخديوى مقابل جزية		١٢٩٢		١٨٧٥
بيع نصيب الحكومة من سهام القناة لانجلترة		»		»
وفد « كيف » لاصلاح المالية المصرية	رمضان	١٢٩٢	اكتوبر	»
هزيمة الجيوش المصرية عند قرع	المحرم	١٢٩٣	يناير	١٨٧٦
افتتاح المحاكم المختلطة		»		»
ابرام الصلح بين مصر والحبشة بعد موقعة قرع	ربيع الاول	»	ابريل	»
توقف اسماعيل عن دفع قيمة سندات الخزانة	» »	»	»	»
انقاص الدين الموحد باتفاق انجلترة وفرنسا	ذى القعدة	»	نوفبر	»
عودة غردون وتنصيبه حاكماً عاماً على السودان		١٢٩٤		١٨٧٧
تشكيل لجنة التحقيق	ربيع الثانى	١٢٩٥	ابريل	١٨٧٨
وزارة مؤاخذة برياسة نوبار باشا	شعبان	»	اغسطس	»
التنازل عن معظم أملاك الاسرة الخديوية	شوال	»	اكتوبر	»
ثوران الجند وقبضهم على نوبار ورفرز ولسن		»		»
اقالة نوبار باشا وتنصيب الامير توفيق		»		»
عدم رضاء الخديوى بقرارات لجنة التحقيق والوزارة وحله الوزارة		١٢٩٦		١٨٧٩
تنازل اسماعيل باشا عن اريكة مصر	رجب	»	يونيه	»
توفيق باشا (توليته)	شعبان	»	اغسطس	»

Y. M. Helmy.